

في بيت أحمد أمين..

٩

مقالات أخرى

١. النطُرُفُ الدِّينِي فِي الْجَزَائِر
٢. النطُرُفُ الدِّينِي عِنْدَ الْيَهُودِ
٣. بَرُوتوكُولَاتُ حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تأليف: حسين أحمد أمين

توزيع: هنا سور الأزليكية
أكبر مكتبة وتعمية

مكتبة مديولي

الطبعة



في بيت أحمد أمين..



حقوق الطبع محفوظة المكتبة المنبوية
الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

تأليف جبرام مكتبة غوامر، في بحر الكتب

الناشر

مكتبة محبوب

ميدان طلعت حرب والقاهرة - ٢٢٤

تليفون ٧٥٦٤٦١



في بيت أحمد أمين..

و

مقالات أخرى

١. النظر في الدين في الجزائر

٢. النظر في الدين عند اليهود

٣. برؤوس كولات حكماء المسلمين

تأليف

حسين أحمد أمين

مكتبة ممدوني
الطبعة الأولى

تليجرام مكتبة غوامر في بحر الكتب

Backward, turn backward, O time, in your flight,
Make me a child again just for tonight!

D. AKERO.

* * *

The man lives twice who can the gift retain
Of memory, to enjoy past life again

ANON.



مقدمة

سلطان العقل عند أحمد أمين

بقلم : الدكتور جلال أمين

لا اظن ان شيئاً كان يمكن أن يجلب من السعادة لأحمد أمين أكثر من أن يعرف أن واحداً من أبنائه سوف يستطيع أن يكتب عنه مثلما كتب عنه ابنه حسين ، فبرد له جميله علينا بنفس الطريقة التي اختارها أحمد أمين للتعبير عن نفسه ، وهي الأدب ، وأن يكشف لتلاميذ أحمد أمين ومحبيه من جوانب شخصيته وأسلوب حياته ما لا يمكن أن يمرره إلا واحد من أبنائه ، وأن يعيد للحياة ، بهذه القوة ، أياماً غالية كان يمكن أن تزول إلى الأبد بزوال أصحابها من الوجود.

وقد طلب مني أخي حسين أن أدلي أنا الآخر بدلوِي ، وإن أضيف ما أريد إضافته . فرأيت أن أقتصر على معالجة جانب واحد من جوانب حياة وشخصية أحمد أمين الخاصة ، إذ قد يكون هذا الجانب قادراً على تفسير أكبر قدر ممكن من جوانب شخصيته وإنتاجه .

هذا الجانب هو ما يمكن أن يطلق عليه وغلبة سلطان العقل ، أو ضعف الهوى عند أحمد أمين . وحينما أقول إن أحمد أمين كان يتميز تميزاً واضحاً بقوة سلطان العقل فإن هذا القول ليس من قبيل تحصيل الحاصل ، الذي يصدق بالضرورة عليه باعتباره عالماً ومفكراً ، كما أنه ليس من باب إطراء الابن لوالده .

فهو ليس من قبيل تحصيل الحاصل لأن الذي أعنيه لا ينطبق بالضرورة على كثرة من أبناء جيله وزملائه من الكتاب والمفكرين ، إذ أريد أن أزعج أن



هذه الصفة لا تتوفر بنفس الدرجة عند أدباء وكتاب عظام من جيله كطه حسين أو العقاد أو الحكيم أو المازني ، وهو ما سألح أن أبينه فيما بعد . كذلك فإن هذا القول ليس قولاً يصدر لمجرد الإطراء ، إذ أن ما يمكن أن يسمى «بضعف الهوى» عند أحمد أمين قد يعتبره البعض سبباً لتفوق طه حسين أو المازني أو الحكم عليه كأديب وإن كان أيضاً سبباً لتفوقه عليهم كعالم ومؤرخ .

أحمد أمين رجل معتدل أشد الاعتدال في أحكامه الشخصية والعامة ، قادر على إخضاع عواطفه للمنطق ، ويأبى أن يترك لها العنان . وهو من أكثر الناس استعداداً للاعتراف بالخطأ وترحيباً بالنقد العاقل ، يحب أن يقلب الأمر على كافة جوانبه فيرى في كل شيء محاسنه ومساوئه . وهو من أكثر الناس نفوراً من النفاق وساماً منه ، إذ أن عقله اليقظ دائماً لا يكف عن تنبيهه إلى عدم المبالغة في تقدير نفسه .

ذهب بعض أصدقائه إلى تفسير هذا الاعتدال عند أحمد أمين بأنه كان في مطلع حياته دارساً للشريعة وقاضياً ، فقالوا إنه كان يكتب أيضاً كقاضٍ ، ولكني أرفض هذا التفسير . فصفة متصلة إلى هذه الدرجة في نفسه وتصرفاته ، يستبعد في رأيي أن تنسج عن مجرد توليه وظيفة من الوظائف أو عن نوع معين من الدراسة ، وليس كل من درس القانون أو تولى القضاء معتدلاً بالضرورة في أحكامه وسلوكه ، بل قد يكون الأقرب إلى الحقيقة أنه درس الشريعة وتولى القضاء لأن هذا أو ذاك صادف ميلاً قوياً لديه ، والأرجح أنها صفة ولدت معه أو أنها من نتائج تربيته الأولى .

ما مظاهر هذا الاعتدال وضعف الهوى عند أحمد أمين ، في سلوكه الفردي والعام وفي إنتاجه الفكري ؟

أحمد أمين عندما يتزوج لا يتزوج عن حب ، وإنما عن تقدير هادئ . لمحاسن المروس وأوجه القصور المحتملة فيها ، ومحاسن الأسرة التي يتزوج منها وأوجه ضعفها ، وإذ تتغلب الأولى على الثانية يقرر الزواج على بركة الله .

وهو بعد الزواج يقرر بعد تفكير طويل أن أفضل الأشياء للأسرة والأمة ألا يريد عدد الأولاد عن اثنين أو ثلاثة على الأكثر. وهو يقرر أيضاً بعد قراءة مستعينة لكتب التربية أنه إذا أحسن تربية الأول قلده مقيّة الأبناء، فالمهم إند أن يوجه رب الأسرة عيائه لحسن تربية أكبر أولاده. ولكنه لم يجمع في تنفيذ قراره الأول، ولا يبدو أنه كان على صواب تام في الثاني، فقد تعلبت عليه مخاوف الزوجة وطموحها إلى أن يكون لها عدد غفير من الأولاد عملاً بنصيحة دأبت على سماعها بأن عليها أن تقص جناحي زوجها لكيلا يطير، وليس أفضل من كثرة الأولاد أثراً في منح الزوج من الطيران بل ومن الحركة. كما أظن أنه كان مبالغاً في تقدير أهمية سلوك الولد الأكبر في التأثير على بقية الأولاد، فلا أظن أبي، وأنا أصغر الأولاد، قد تأثرت كثيراً بسلوك أخي الأكبر. وأظن أن أبي قد بالغ هنا، كما بالغ كثيرون من أبناء جيله، ربما بتأثير الفكر الغربي السائد في ذلك الوقت، في الأهمية التي كان يوليها لأثر البيت على حساب عوامل الوراثة.

وحياة أحمد أمين الماثلية حياة هادئة ومستقرة، لم يهكرها زواج آخر أو طلاق أو نزوات طلوة. وهو عادل أيضاً في معاملته لأولاده، فلا أذكر قط أنه أبدى لثأراً لواحد منا على الآخرين. وهو يريدنا أن نحكم العقل أيضاً ونحن في أشد الأعمار طيشاً، فكل المطالب تحتل التأجيل أو الإلغاء عدا المطالب المتعلقة بالدراسة أو الصحة. وأكثر الأشياء في نظره كمالي، من التلاجة الكهربائية والغسالة الأوتوماتيكية إلى أي مظهر من مظاهر التأنق في الملبس أو الأثاث.

وغلة سلطان العقل عند أحمد أمين تظهر أيضاً في حياته العامة. فهو بعد أن يصبح أستاذاً للأدب العربي في كلية الآداب، وهو لا يزال يرتدي العمامة والقفطان، يتساءل عما إذا كان هذا الزي الذي يناسبه وهو قاض شرعي قد أصبح يناسب الآن مصصاً مديباً بحثاً، ومطيل التفكير في الأمر ويستشير أصحابه. نفسه لم تتعلق بشدة بهذا الزي أو ذلك، وهو لا يرتدي هذا الزي

أو غيره تقليداً أو خيلاء أو رغبة في الظهور، وإنما يريد فقط أن يرتدي الزي الممتنع مع عمله.

وهو لا ينضم إلى أي حزب من الأحزاب، إذ لا يستهويه واحد منها دون غيره، وقد رأى السياسيين تحكمهم الأهواء وتعصرهم المناصب ويفرحون بما لا يفرح به ويأسون على ما لا يأسى له. وإذا كان قد عدله البعض من رجال الحزب السعدي فإن الأمر لا يزيد في الواقع عن تقديره الفائق لشخصية النقراشي باشا ونزاهته وليس إعجاباً بسياسة الحزب وتفضيلاً له على غيره. فهو لم ير فارقاً يستحق الذكر بين «ملأى» هذا الحزب وبين «مبادئ» غيره. وعندما يظن النقراشي أن المودة المتبادلة بينهما قد تغري أحمد أمين بأن يقبل رئاسة تحرير جريدة الحزب اليومية (الأساس)، يعرضها عليه، وكان قد ترك لتوّه عمله بالجامعة بوصوله إلى سن المعاش، فيعود أحمد أمين إلى داره يفكر في الأمر ويذكر لنا مزاياه ومساوئه، وهو يشعر في قرارة نفسه منذ البداية أنه لا بد رفض العرض، ثم يرفضه بالفعل رغم ما فيه من وعد بالجاه والسلطان والمرتب المجزي. لا عجب إذن أنه إذ يرشح اسمه للباشوية يرفض الملك الإنعام بها عليه (إد ماذا قال أحمد أمين في الثناء عليه؟) وإذ يرشحه كبار السعديين وزيراً للمعارف يحتج شباب الحزب (إد أين ولاء أحمد أمين للحزب؟)

وأذكر أنه قرب نهاية الأربعينات اتصلت به مؤسسة هرانكلين الأمريكية تطلب منه أن يشرف على إصدار كتاب يشترك فيه عشرة أدباء من المصريين وعشرة من الأمريكيين بحيث يكتب كل منهم فصلاً بصوان «علمتي الحياة» يذكر فيه دروس حياته وما حظي به من تجاربه، فإذا بأحمد أمين يرى جاذبية الفكرة من الناحية الثقافية البحتة، ولكنه لا يرتاح لأنها ممولة من أجنبي، فيطيل أيضاً التفكير في الأمر ويستشير أصدقائه ويتحول الأمر لديه إلى معضلة فكرية أو مشكلة أخلاقية، إلى أن يعطمتن إلى رأي لطفي السيد. «إني أتعاون مع الشيطان لنشر العلم».

وأحمد أمين يظل الصديق الوفي الصديق لعبد الرزاق السنهوري إلى آخر أيامه، ولكن يجمع أيضاً بينه وبين طه حسين احترام متبادل تعلوه جفوة سطحية ويشتد العداء بين السنهوري وطه حسين، وهما رجلان لا يقتل من شأن أيهما حدة المشاعر وجموح العاطفة، فيظل أحمد أمين على علاقة طيبة بكليهما، وكان كل منهما يرى في أحمد أمين ضميره هو، والحق الذي ترفض العاطفة الاعتراف به، فإذا مات أحمد أمين رثاه هذا وذاك بأجمل عبارة وأصدق إحساس.

وترى مثل ذلك في مناسبة أخرى استرعت الانتباه ولفتت الأنظار. فإذا يقع على أحمد أمين ظلم وهو أستاذ في كلية الآداب إذ يرفض مجلس الكلية منحه الدكتوراة على كتبه الشهيرة في التاريخ الإسلامي، لسبب لا صلة بينه وبين استحقاق أحمد أمين للدرجة، تنظم له مجموعة من أصدقائه حفلاً غير معهود يدهي إليه رجال مصر من رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارة والوزراء الحاليين والسابقين، فيجلس هؤلاء جميعاً ليحتفلوا بأحمد أمين - وهم الذين لا يطبق واحد منهم الآخر - ويشاركوا جميعاً في إلقاء خطاب التثناء عليه، قبل أن يتفوضوا من خلافاتهم ومشاجرتهم

ويصل أحمد أمين إلى حملة كلية الآداب، ثم يستقبل منها احتجاجاً على نقل أستاذه منها دون استئذانه. فيسأله صحفي عن شعوره لدى تركه العمادة فيقول كلمته الهادئة الماقلة: «أنا أكبر من عييد وأصغر من استاذ» فالسلطة لم تستهوه ولم تسه لحظة واحدة معنى الاستاذية ومعنى العمادة.

لم يكن من الممكن إذن ألا تظهر خلية سلطان العقل عند أحمد أمين في أفكاره وكتابات. فهو يتفق مع طه حسين وعبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ بجامعة الاسكتلندية، على الاشتراك في عمل ضخيم يؤرخ للإسلام، على أن يتناول طه حسين التاريخ الأدبي، والعبادي التاريخ السياسي، وأحمد أمين تاريخ الحركات الدينية والملمسية والحياة العقلية بوجه عام. ويتوجه أحمد أمين بكل

نشاطه لفترة تزيد على ثلاثين عاماً لإتمام مهمته، فينتج سلسلة فجر الإسلام وضحاها وظهوره، ويحتمها بكتاب «يوم الإسلام» وكلها تتميز برصانة التحليل والبعد عن الهوى والدقة في البحث عن الأسباب والعسيات، بينما يتجه طه حسين إلى التأريخ للإسلام تاريخاً أقرب إلى الأدب منه إلى التأريخ والتحليل، فينتج «على هامش السيرة» ويظل هذا هو الفارق الأساسي بين إنتاج الرجلين.

فلذا يكتب طه حسين «الأيام» ويكتب أحمد أمين «حياتي» يقدم لنا طه حسين تحفة فنية ويقدم لنا أحمد أمين صورة صادقة كل الصدق، ليس فقط لحياته بل لحياة مجتمعه في عصره، فيصف الحياة الاجتماعية في الحارة والكتاب والجامعة ويحلل المجتمعات الأوروبية والشرقية التي أتتحت له زيارتها، وكأنه لا يريد الامتناع بقدر ما يريد «التنوير» فتأتي عباراته مباشرة مقتضبة لا تزيد كلمة واحدة عما ينبغي بالفرض. وقد يحار قارئ طه حسين فيما يرد إلى الواقع وما يرد إلى خيال الكاتب، ولا تصيبه مثل هذه الحيرة وهو يقرأ لأحمد أمين.

وأحمد أمين يخضع نفسه لنفس هذه النزعة المادلة في الحكم على الأشياء والأشخاص. فهو وإن كان يعرف قدر نفسه ولا يطمعها حقها، فإنه لا يكاد أبداً يشعر بالغرور إنه لو كان لا يعرف لنفسه قدرها ما كان قد أقدم أبداً على كتابة تاريخ حياته، ولكنه مع ذلك يقدم على هذا العمل بسوجل شديد ويتواضع جم، وإذا به يجد نفسه مضطراً لأن يبدأ كتاب حياته بالإجابة على السؤال ذي الإجابة البديهية «من أنا حتى أكتب تاريخ حياتي؟» فيكتب في المقدمة «ما للمأس بحياتي؟ لست بالسياسي العظيم ولا بلدي المنصب الخطير. إلخ» ولكنه يستمر في الكتابة لأنه يعرف أن لديه بالفعل ما يستحق أن يقال.

في نفس الكتاب يروي قصة شبيقة عن نفسه تحببك فيه بما ينطوي عليه من تواضع جذاب قد يصل إلى درجة غمط النفس حقها. فهو يدهي إلى إلقاء

محاضرة في مدرسة القضاء الشرعي وهو لا يزال طالباً فيها. والذي يطلب منه ذلك هو ناظر المدونة بمسء، الرجل المهيّب العاضل «عاطف يركات». وكانت العادة أن تعرض المحاضرة على الناظر ليقرأها ويقرها أولاً يقرها ويرسل أحمد أمين بالمحاضرة إلى الناظر فيردّها الناظر إليه مع رسول دون أن يكتب عليها شيئاً. ويبحث أحمد أمين عن ملاحظات الناظر فلا يجدها فيقول لنفسه «طبعاً، وكيف تعجبه مثل هذه المحاضرة؟ فهذه الفكرة قديمة، وتلك الفقرة أسأت فيها التعبير. والمحاضرة كلها ليس فيها ما يستحق أن يقال» وإذا بالناظر يقابله صباح يوم المحاضرة فيسأله متعجباً «لماذا لم تعلن عن المحاضرة؟» فيجيبه أحمد أمين «لأنها لم تعجبك، إذ لم أجد عليها ما يدل على موافقتك» فيقول الناظر مستنكراً: «أبدأ، إنما وجدتها كاملة ليس فيها ما يعلق عليه» فيعيد أحمد أمين قراءة المحاضرة ويقول لنفسه: «إن مع الناظر الحق. فهذا المعنى جديد لم يسبق إليه، وهذه الفقرة بديعة سليمة» ويلقي المحاضرة فيستحسنها الناس ليعتبرها حسنة.

إن هذا الذي نسميه بضعف الهوى أو غلبة العقل عند أحمد أمين قد يكون هو المسؤول عن كونه عالماً ومؤرخاً أكثر من كونه فناناً أو أديباً بالمعنى الضيق للأدب. فليس لدى أحمد أمين عتف طه حسين وقوة عاطفته، وليس لديه بوهيمية المازني ولا قوة خيال توفيق الحكيم ولكن هذه الصفة نفسها هي التي حمت أحمد أمين من الإرتواء في أحضان السياسة والانفعال بتياراتها. وهي نفسها التي حمت من عبودية المنصب وتعلق الكبراء، وأسعت عليه نوعاً نادراً من الشجاعة ما كان ليحظى به لو ارتبط بحرب ارتباط خيره به.

كان يمثل كلية الآداب في مجلس جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) وأراد الملك فؤاد لسبب ما أن يمنح مجلس الجامعة الدكتوراة الفخرية لواحد من المستشرقين. ويؤيد معظم أعضاء المجلس مطلب الملك، فيقف أحمد أمين ويبدء ترتل يعلو صوته هذا القرار، انفعالاً للحق، وكان شخص المستشرق ومؤيده قد غاباً نعلماً عن وعيه، ولا يرى في الأمر كله إلا مسألة الاستحقاق

أو عدم الإستحقاق. ويحل عيد جلوس الملك فيسبق الكتاب في منحه والثناء عليه ويطلب من أحمد أمين أن يكتب مقالاً في هذه المناسبة فيرفض ثم يلحون في الطلب فيجرب، فإذا أهدأ قراءة المقال مره لأنه لا يحتوي على غير الكذب. ولا أعرف لأحمد أمين مقالاً كتب للوصول إلى منصب أو كتاباً ألّفه ليتملق الجمهور. وهو في نهاية عمره يلقي بنظرة شاملة على حياته كلها فلا يندم إلا على ما تولاها من مناصب منعت في بعض الأحيان من الكتابة.

هل يمكن أن نعرض لهذه النزعة أيضاً، غلبة سلطان العقل في موقف أحمد أمين من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ذلك أني أعتقد أن هذه القضية لم تكن محسوسة لديه بنفس الدرجة التي بلغت عند طه حسين مثلاً، الذي كان أكثر تعاطفاً بكثير من حركة التغريب، أو عند رشيد رضا الذي حسم القضية لصالح التراث، فالقضية عند أحمد أمين معقدة وبالغة الصعوبة. لقد كان في عتقون شبابه أكثر إعجاباً بالحضارة الغربية منه في نهاية حياته، وإن كان لم يفقد في يوم من الأيام إعجابه الشديد بالتقدم التكنولوجي لدى الغرب، وما توفره رفاهية الغرب من احترام لأدمية الإنسان. وأذكر أن هذا الإعجاب قد أثار دهشة بل وفدراً من السخط لدى الكاتب الهندي الكبير أمي الحسن الندوي عندما جاء إلى القاهرة وقابل أحمد أمين مدفوعاً بإعجابه الشديد بإسلامياته، إذ رأى عند أحمد أمين اختلافاً ببعض مسالك الغرب لم يكن هو ليرضى عنها. على أن أحمد أمين مع تقدم العمر به قويت شكوكه في الحضارة الغربية، وكتب ينتقد المستشرقين بعنف. وعبر عن هذا الشك بقوة في كتاب «يوم الإسلام». وبالجملة فإني أعتقد أن أحمد أمين لم يثر في هذه القضية على الحل الكامل الذي ترتاح إليه نفسه. ولهذا السبب كتب العقد في رثائه مقالاً بعنوان «المدرسة الوسطى» (نشر بجريدة أخبار اليوم بعد أيام قليلة من وفاة أحمد أمين في ٣٠ مايو ١٩٥٤) وكان العقد يقصد بذلك أن أحمد أمين لا ينتمي إلى المدرسة التي ترفض التغريب برمتها ولا إلى المدرسة التي تتشكك للتراث.

كلمة واحدة يمكن إذن أن تلخص حياة أحمد أمين وأعماله المعكبة على

السواء وهي «الصدق» فإذا سمحت لنفسي بأن أتكلم كواحد من أولاده فإني أقول إنني لا أذكر له مرة واحدة كذب فيها علينا ولو تعلق الأمر بأثمة الأمور، كشراء هدية أو الخروج في نزهة، والتعاقب والرياء في السياسة مكروهان لديه لما ينطويان عليه من كذب. والأمانة العلمية في الكتابة مطلوبة لما تنطوي عليه من صدق. والمبالغة في تزويق الكلام وفي العناية باللفظ دون المعنى مكروهة أيضاً لما فيها من كذب. ولاسمح لنفسني هنا أيضاً بأن أقول أنه لهذا السبب كان من أكثر الناس تعرضاً للحداد في البيع والشراء إذ لم يكن يتصور أن يكون المشتري منه أو البائع له قادرين على الإفراط في الكذب. ولهذا السبب أيضاً لم يكن يستطيع أن يفهم قط لماذا يمكن أن يحتجب الناس عنه فجأة ويكفون عن زيارته لمجرد أنه قد ترك منصباً خطيراً، بينما كانوا لا يكفون عن التودد إليه والتردد على مكتبه ومزله حينما كان في يده أن يحين شخصاً أو يفصله.

ومع ذلك فقد كان موقفاً توفيقاً غريباً في حياته الخاصة والعامة على السواء، فلم يحرمه صدقه من التمتع بحياة هنية في إجمالها، ولا حرّضه لشغل العيش. وهو إذ ينظر إلى حياته بأكملها يسترعي انتباهه هذا التوفيق، ويندهش له، ويحاول أيضاً أن يفسره بالعقل، فيقول في نهاية كتاب «حياتي» إن هذه الظاهرة . . «يصعب تحليلها العقلي أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعي أو النفسي، فكيف رأيت من أناس كانوا أذكى مني وأمن خلقاً وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون في أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالمحبة وسوا بالإخفاق، ولا تحليل لها إلا أن (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).



حقيقة لا يمكن النيل من أهميتها، تشرح ما يعنيه التقاد في حديثهم عن هذا الكاتب أو ذاك حين يقولون إنه «نشأ في بيت علم وأدب»:

«آلاف هي الفوائد التي علّمت علينا من أن أبي واسع الثقافة، وكاتب

مشهور، وعاشق متلوق للأدب.. فوائده لم ندركها وأعير في حينها، وإن ظلت عقولنا وقلوبنا تتغذى يومياً عليها.

فالأدب في أسرتنا لم يكن «درساً» نتلقاه في ساعات معينة من أيام معينة، نمرغ منه فعود إلى ما كنا فيه.. وإنما كنا نتسم عبيره في جو المنزل نفسه، وفي كل ساعة من ساعات اليوم، لا يكاد يفصل عن سائر مظاهر حياتنا اليومية... يندق جرس التليفون فنهرع نحن الأطفال للرد بأصواتنا الرفيعة المتحمسة، والسماعة الكبيرة لا نكاد نستطيع أن نثبتها عند أذننا.. وآلوا من حضرتك؟ فيجيب المتكلم بأنه عباس العقاد، أو توفيق الحكيم، أو محمود نيمور وأحمد بك موجود؟ «دقيقة واحدة» ثم نجري إلى المكتبة صالحين: «بابا.. بابا.. محمود تيمور». فيتوجه أبي إلى التليفون، ونسمعه يسأل محمود نيمور عن سبب تخلفه عن حضور جلسة المجمع اللغوي، ثم يسرد عليه ما دار خلالها، وكيف اقترح فيها إقرار المجمع للكلمة العلمية «مُتَحَنِّق» لخلو معاجم اللغة من كلمة تعبر عن نفس المعنى بدقة.. ويقص عليه ما كان من موقف طه حسين، واعتراض لطفي السيد.. ثم يقرأ عليه رسالة وصلته لثوّه من المستشرق الألماني برجشتراسر يعلق فيها على ما ذكره في كتابه «فجر الإسلام» عن طبيعة العقلية العربية.. وتتناهى إلى أسماعتنا أسماء ابن خلدون والجاحظ والقرطبي وابن رشد تنطق في ألفة غريبة، وتكرر على لسان أبي تكرر أسمائنا نحن عليه، فكانما هم أقارب لنا أو جيران أو مستأجرو أرض.. وكثيراً ما نهتف به والدني إذ يفرغ من المحادثة التليفونية، قائلة إنه «إما أن يشرح لها من هو ابن عبد ربه أو ألا يأتي بسيرته، لأن تكرر بطقه بهذا الاسم قد بدأ يميلها حقاً! وهو أحياناً يعود من الخارج فيسأل عن اتصال به تليفونياً.. فتجيب والدني:

— اتصل بك ابن خلدون مرتين.

ويسأل والدني مبتسماً:

— هل ترك رسالة؟

— بل فهمته . فاسألني فيه إن أحببت .

— ليس لدي وقت لسؤالك فيه . ناد لي أبلك !



كان من أول ما تفتح ذهني لإدراكه أن والدي أديب مؤرخ، وأن احترام الناس له، وإجلالهم إياه، واجتماع أساساً إلى إنتاجه في الأدب والتاريخ، بل وأن طيب معاملة المدرسين والطلاب لي، واعتناءهم بأمري عناية خاصة لا يلقاها عيري، مرجعهما أنني ابن لهذا الأديب . كان إذا اصطحنني يوماً إلى المناظرة في شأن ما، هبت واقفة في احترام، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليها طوال حديثها معي . . فإن دخل الحجرة عليّ وأنا أراجع دروسي مع مدرس خصوصي، تقدم المدرس منحنيّاً لتقبيل يده . . مثل هذه الإدراكات الأولى، وقد ترسبت في ذهني، جعلت الفكر عندي مذ كنت في السادسة هو المثل الأعلى، أحل نشاطه المكانة الأولى بين أوجه النشاط الشري . . وكنت وأنا طفل إن سألني سائل عما أحب أن أكوه في المستقبل، أجيبه دون تردد، وفي ثقة من قدرتي على أن أكون ما أريد .

— عميداً للأدب العربي !

أذكر مرة إذ كنت في الخامسة أنني دخلت عليه غرفة المكتبة دون أن أطرق الباب، ففاجأته واقفاً إلى إحدى حزانل الكتب المتناهية إلى السقف يطبع على علاف أحد الكتب قبلة ! وإذ وقفت أرقبه مشدوهاً إذا به وقد تنبه إلى وجودي يتظاهر بأنه إنما كان ينفخ عن الكتاب ما علاه من عبار، ثم يلقي به جانباً في غير اكتراث .

تفتحت أعيننا أول ما تفتحت على نسخ التصحيح من كتبه تصل إلى منزلنا لتراجع، وسعلة يتظرون بالباب ليمودوا بها، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر نمر عليها كل يوم خميس حين كان والدي يصطحبنا إلى

اجتماعاته بزملائه من الكتاب أعضاء اللجنة، فراقب العمال يحرصون الحروف، ويديرون الآلات، ويبحثون الطرب فيما يطبعهم أسمائنا على بطاقات . . وكان لمنظر الورقة الكبيرة ماصعة البياض تمر بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج في مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره العريب في نفوسنا، نرقبه مأخوذين مهوتين . . فرعنا وقتها الملمرة وعند صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطبها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمه، وأوجه استخدام القصاصات المتحلطة منه، فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا بأن نجرب أبدينا في رص الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة

وفي البيت، كان إذا أعلق والذي على مصه الباب وجلس للكتابة، أعلنت الأحكام العرفية، وسكنت الأصوات . . فإذا اللعب يكب، وإذا الكلام أقرب إلى الهمس، إن صاح أحدا عن عقلة كتم الآخر له فمه الممتوح بكفه، وإن دخل الحادم يتكلم بصوت عال موجيء بالأصابع إلى الشفاه تحلزه: ششش!



وكان لإجلال الناس والذي أثر غير الذي تحدثت عنه . . فقد كان من أمتع اللحظات على السرور والرضا عني، لحظة أن يطلب من المدرسون في المحصل الأولى من العام الدراسي، أن يقف كل تلميذ ليفصح عن اسمه: «إبراهيم الشامي خالدة البنياني . عمر ذهني». لا تعليق حتى إذا ما جاء دوري وقلت في لهجة عادية «حسين أحمد أمين» استلهمي المدرس ليسأل عما إذا كنت ابناً لأحمد أمين المؤرخ المعروف، وعميد كلية الآداب . . وكانت إجابتي بالإيجاب إذناً بأن أتلقى طيلة العام معاملة خاصة.

وكان ذلك يثير عيظ التلاميذ . . وقد أتاني بعضهم مرة يسأل: «لم تصر على الإجابة بحسين . . أحمد . . أمين . . ولا تكفي، كما يكفي الآخرون،

يذكر الاسم الأول والأخير؟» وكان يزيد من صيغهم بعض تصرفات المدرسين والنظار حيالي، كتبهم مع مفتشي وزارة المعارف إن أجبت على سؤال أحدهم إجابة طيبة، أو تعليقهم على موضوع كتبه بأن «ابن الوز عوام». وقد كان أبي يسألني عقب كل أول يوم من الأعول الدراسية عن موقع مكتبي من الفصل. فإن أخبرته أن المكتب في أحد الصفوف الخلفية، رفع سماعة التلفون يحدث ناظر المدرسة. . فلذا بالناظر خلال إحدى حصص اليوم التالي يدخل فصلنا وبصحبته فراش، فيهمس في أذن المدرس بكلمة، ثم يخرج. . ويصبح المدرس. حين أحمد أمين فاقف. . فيطلب من الفراش أن يحمل مكتبي إلى الصف الأول، وبالرغم من أن معظم التلاميذ كانوا يعضلون الصفوف الخلفية لثمتهم فيها بحرية أكبر، فقد كان مثل هذا التصرف كفيلاً بأن يلهب صدورهم بالمعصب والاحتجاج.

غير أنه من الواجب أن أعترف بأن توقير المدرسين والنظار لوالدي لم يكن وحده المؤثر في تصرفهم تجاهي. . فقد كان أبي يتمتع بسلطة كبيرة في وزارة المعارف، سواء لتولي أحد المناصب الرفيعة فيها، أو لملاقاته بوزرائها وكبار موظفيها. فكان المدرسون إذا أرادوا الشكوى من وضع معين، أو طمعوا في ترقية أو نفضل، فاتحوني لكي أكون واسطتهم لدى أبي. . وكان والذي يسألني أحياناً:

— أعتدكم مدرس يدهي كذا؟

فأجيبه بالإيجاب. .

— إنه مرشح لإحدى بعثات وزارة المعارف إلى لندن. . ولكن حذار من أن تخبره الآن.

وإذ أحبر المدرس في اليوم التالي، إذا بالدنيا لا تكاد تسمع من الفرح والتهلل، ويظل يسألني بين حين وحين خلال الأشهر الباقية من العام الدراسي

عن أحجار البعثة ومائتم بشأنها، وإذا بمعاملته لي تزداد رقة، وتقاريره عي
تورفعني إلى السماء.

فأياً كان السبب في مثل هذه المعاملة إذن، فلا شك أنها أفادتني كثيراً .
فلم يحدث مثلاً أن ضربت في المدرسة أو عوقبت . . وكانت معرفة المدرسين
لوالدي كفيلة وحدها بأن أحسن بسببها سلوكي وأتقن مذاكرتي للدروس خشية
الإشارة إليّ بالمثل المقابل لابن السوز عوام، وهو «باب التجار مخلع». كما
أنها أحصعتني لرقابة وعناية كبيرتين في زمن كان عند تلاميذ الفصول يزيد زيادة
تجعل من الصعب إشراف المدرس على كل تلميذ على حدة فكانوا ينقلون
إلى أبي أبناء مسلكي وطبيعة اهتماماتي، بل وأحياناً بعض النواذر المتعلقة بي،
وروداً ذكية صبرت مني . وكنت ألهش من إحاطة أبي بها وهي التي حدثت
بمبدأ عن نظريه.

حدث مرة أن كلمنا والذي خلال جلسة عائلية عن فصل قرأه في كتاب
لمارك توين عنوانه «ما الإنسان؟»، يذهب فيه المؤلف إلى أن تصرفات الإنسان
أنانية بطبيعتها حتى في حالات الإحسان والشفقة، ويضرب لذلك مثلاً من
يتحلى في ليلة عاصفة باردة عن معطفه لامرأة فقيرة هجوز، قائلاً إن المحسن
يعلم أنه لو لم يعط المرأة معطفه لفضى ليلة مؤرقة يملبه ضميره خلالها،
ففاصل بين ميرة الاحتفاظ بالمعطف وميزة استمتاعه بليلة هادئة وضمير مطمئن،
فاختار الثانية.

ثم حدث لحسن المحظ أن طلب منا مدرس اللغة العربية بملها بأسبوعين
أو ثلاثة كتابة موضوع إنشاء في «الأنانية»، وكتب لنا على السبورة عناصر
الموضوع حتى نستعين بها . غير أبي نحييت هذه العناصر جانباً، وبدأت أسرد
نظريه مارك توين على أنها من عندي وثمرة تفكيري . وبعد بضعة أيام،
فاجأني أبي أثناء العشاء، وعلى شفثيه ابتسامة، بقوله إنه علم بأمر موضوع
الإنشاء الذي بسطت فيه نظرية مارك توين . . . قلت في قلبي:

— أخبرت المدرس أنها فكرة مارك توين؟

أجاب بالنفي ثم ابتسم . على أي حال فقد طلب المدرس مني عند إعادته للكراسات أن أقرأ الموضوع على تلاميذ الفصل، مدياً إعجابه بأولئك الذين يفكرون لأنفسهم، ويطلعون بفكر مبتكر، دون التزام بعناصر الموضوع التي تملأ عليهم!

كان مولدي بضاحية مصر الجديدة صيف عام ١٩٣٢ . فإن كان قد ذكر في شهادة الميلاد أن المولد كان في حي الجمالية بالقاهرة، فلهذا التزوير قصة . . وهي أن والدتي كانت تصر على أن تقوم بمساعدتها في حالات الولادة قابلة يهودية معينة تدهى فريسة كوهين، أخرجتني ومعظم إخواني إلى هذا العالم . . ولم يكن من المرحص لفريسة هذه أن تمارس مهنتها إلا في دائرة معينة لا تدخل مصر الجديدة في نطاقها . . فكانت تشترط على والدتي أن يكتب قبالة محل الميلاد في شهادتنا اسم أحد الأحياء الواقعة في دائرة اختصاصها.

كنا نقطن منزلاً ضحماً، هو ملك لأبي، سكته العائلة قبل مولدي بسبع سنوات . وكانت للمنزل حديقة واسعة تحيط به، زرع بها أشجار الجوافة والمانجو والليمون والمشمش، ثم نحلة واحدة قصيرة لا تنتج ثمرأ، وتكعبية طويلة للعب تمر تحتها السيارة من الباب الرئيسي إلى المجرأ . . وقد كان والدي شغوفاً بتعهد الشجيرات التي يفرسها بنفسه، وكثيراً ما كان يأتي إليها وينحني عليها ينظره القصير كي يرى ما طرأ على أغصانها وثمارها من نمو . . وكان يفضل الكتابة في الحديقة شتاءً، فيأتي له الخادم بكرسي ومنضلة من القش، ثم يعمود طويل من الكتب يختفي وراءه رأس الخادم، فلا يفارق أبي مكانه المشمش إلا بعد أن ترسل إليه والدتي أحدنا عدة مرات ليخبره أن الطعام قد كاد يبرد في إنتظاره.

أما نحن فكانا بالحديقة أكثر شغوفاً . ففيها كنا نقضي معظم أوقات فراغنا

مع من تسمح لنا والدتي باصطحابه من الخدم ومعظمهم لا تزيد سنهم عن سننا إلا بأعوام قلائل.. فكا إن تعبنا من الجري والقفز، وتسلق الأشجار والصعود عن طريق هرونها إلى سطح الجراح، ومحاكاة طرزان وتقليد صيخته، جلسنا نتضحك على سور قصير من الأسلاك يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران، وقد استحي من تكرار جلوسنا عليه، ونأرجحنا به، حتى كاد يلامس الأرض.. وكثيراً ما كانت تأتي إلينا ابنة الجيران، وهي طفلة يونانية في الثامنة، ذات شعر أشقر وعيين زرقاوين، نحلثها نلعتنا فلا معهم إلا حلساً، وتحدثنا نلغتها فتعرف في الضحك. والظاهر أي كنت أشعر نحوها بما يشبه الحب، فقد كان لدي قميص أزرق ذو ياقة منشأة، كنت أحرص على ارتدائه كلما علمت أنها بالحديقة.

غير أن ما أذكره بوضوح غريب (وهي من أعز الذكريات عندي رغم بساطتها)، يوم لعبا فيه حتى ما كادت سيقاننا لتحملنا، فجلست على ذلك السور وإلى جانبي خادمة سراء تدعى «صديقة» في مثل سني.. كنا نضحك دون سبب كما لا يضحك إلا الأطفال وقد غطى وجهنا العرق، وشعرنا بالدم يجري متدفقاً ساخناً في عروقنا. ثم إذا بنا وقد أحاط كل منا كتف زميله بلراعه، وإذا بمناطفة جياشة من الحب الغريب تملأ صدري نحوها، ونحو إخوتي، ونحو الحديقة، ونحو الجيران، ونحو الحياة، وأحس في ثقة أنها تشعر بمثل ما أشعر به.. كنت وقتها في حوالي السابعة، وقد استمر هذا الشعور نحو ثلاث دقائق أو خمس.. غير أنني أستطيع أن أقول الآن وقد تجاوزت الخمسين إن هذه الدقائق كانت أسعد مدة خبرتها في حياتي، وأي لم أحبر بعدها إحساساً في مثل نقاء ذلك الإحساس وبراءته..

كان المنزل - لكثرة الأعمال فيه - يمج بالخدم والخدمات الذين كانت والدتي تحصرهم من القرية أو ترسلهم خالتي إلينا منها. وقد لعب هؤلاء في حياتي وحياة إخوتي دوراً هاماً خلال فترتي الطفولة والصبا لا أستطيع معه أن أفصلهم عن ذكريات هذين المهنيين.. كانوا رفاق حداثتنا وأحد المصادر

الكبرى لسعادتها الأمر المزيج الوحيد الذي كان يسجم من اختلاطنا بهم هو انتقال القمل إلينا منهم . . مما كان والسدي يصير بسببه على أن يخلق شعر رؤوسنا حتى جلوره (وكان هذا في عرفنا نكسة) . . بينما كانت والدتي تحلق للخدم شعر رؤوسهم، ذكوراً كانوا أم إناثاً

وقد شغف الاخوة الثلاثة الصغار: أحمد وأنا وجلال، في إحدى الفترات، بانتحال مهنة التدريس . . فكان أحمد يضع ورقة أسئلة لي ويصحح إجاباتي، وأضع بدوري ورقة أسئلة لجلال وأصحح إجاباته، مستخدماً في تصحيحها القلم الأحمر . . فلما احتج جلال المسكين بأنه وحده الذي لا يضع امتحاناً ولا يصصح، فكرنا في أن نقوم ثلاثتنا بتعليم الخدم، وكلهم أميون . . وبالفعل، أعدنا جدولاً ووزعنا الحصص، واستخدمنا حجرة زجاجية مشمسة تطل على الحديقة مكاناً للدرس . . ثم تولى جلال تعليم الحساب، وتوليت تعليم اللغة العربية، وتولى أحمد، إلى جانب النظارة والفتيش، تعليم الانجليزية، وقد وجد لنفسه نظارة دون زجاج كان يلبسها كلما دخل الفصل . . غير أننا صادفنا في مشروعتنا الصعاب . . فالخدم لم يأخذوا الأمر على النحو الجدي الذي كنا نرجوه، معتبرين والحصص فسحة لهم يرتاحون فيها من العمل المنزلي، يضحكون أثناءها ويتقاذفون بالأقلام والكراسات التي دفعنا ثمنها من مصروفنا الخاص . . فلم يكن حرياً ألا يحرز أي منهم تقدماً يذكر، وأن يفرج الجميع بعد انتهاء المشروع كما دخلوه . ثم إن الحصص كانت في بعض الأحيان تطول، بينما ينتظر مدرس الحصص التالية بالباب وقد نفذ صبره، يطل برأسه بين الفينة والفينة يستمع للمدرس بالداخل، وأحياناً يشتمه، فيهرع إليه مدرس الحصص ليحكمه، والتلاميذ يرقبون المعركة في حالة من السرور والمرح الشديد . .

أما الصعوبة الكبرى التي أودت بالمشروع، فهي تعارض مواعيد الدروس مع مواعيد عمل الخدم . . ولشد ما كنا بغضب كلما سمعنا صوت والدني من شرفة الطابق العلوي تنادي على أحد الخدم كي يتناح لها شيئاً من

السوق. فكان «الناظر» يصبح من الحديقة وهو يضرب الأرض بقدمه :

— ألا يحلو شراء الأشياء إلا ونحن في الفصل ؟

فتجيبه والدتي :

— وماذا أصنع وأبوكم يريد لي موماً مع الحساء ؟

والخادم أثناء المحاورة ينتظر النتيجة مبتسماً وعينه تتقلان من والدتي إلى أحمد، ومن أحمد إلى والدتي، حتى إذا ما نهيّا للذهاب، الحنا عليه ورجوانه مستعظمين أن يعود سريعاً، وأن يقطع المسافة عدواً إن أمكن !

كان الاخوة الكبار يحدّثونا عما لقوه من والدي في صباهم من شدة وصرامة في المعاملة، حتى لقد كانوا يختبئون تحت الأسرة إذا سمعوا صوت السيارة وقد وصلت به إلى البيت وإن لم يكرهوا قد ارتكبوا ذنباً، وهن كيف كان لا يسمح بدخول البيت لمن يتأخر منهم بعد ساعة معينة من الليل، فيضطرون إلى المبيت في حجرة البواب في رفقة البراعيث والبق إلى الصباح.

غير أن مثل هذه المعاملة لم يلقها غير الاخوة الأربعة أو الخمسة الكبار. . وقد فسر والدي لنا فيما بعد تغير أسلوب تربيته تفسيرات شتى . . منها اقتران فكرة التربية في ذهنه في بادئ الأمر بطريقة تربية أبيه له . . وهو مفهوم لم يتخلّص منه إلا بعد قراءته في كتب التربية، وأسفاره العديدة، وما دلته عليه تجاربه وملاحظاته. . ومنها اعتقاد كان لديه بأنه إن أحسن تربية الابن الأكبر وقوم أخلاقه، صار بقية إخوته على نهجه دون حاجة إلى تدخل كبير من جانب الوالدين. . ومنها ازدياد إقباله على التأليف منذ حوالي عام ١٩٢٧ حين شرع في كتابة «فجر الإسلام». فإن أحسبنا أن سجله تاريخياً معيماً لهذا التمرير الجوهرى في أسلوب التربية، فهو تاريخ رحلته إلى تركيا عام ١٩٢٨ . وما زالت لدينا صفحة سطرها في طريق عودته منها بالباخرة، يمتزج فيها بخطفه إذ يقسو في معاملته أولاده، ويعاهد نفسه أن يغير من هذه المعاملة، «فأكون معهم ألطف وأعطف وألطف وأكثر مرحاً». .

على أي حال فإن والدتي تؤكد لنا أنه حتى في عهد «جاهليته» لم يكن بالقسوة التي توحى بها هذه الصفحة من اعترافه . وهي تضرب مثلاً لذلك، الليالي التي كان المتأخر في الإياب يقصدها في حجرة البواب، فتقول إنهما - أي هي وأبي - كانا يقطعان الليل بأكمله ساهرين، يلزع أبي العرقه جبّة وزهابة وهو يحس بدم وإشفاق يحاول قمعهما، ويرفض أن يسمح لوالدني بإسارة الغرفة حتى لا يعرف «الولد الشقي» أنهما مستيقظان بسببه .

غير أنه بالرغم مما طرأ على أسلوب والدني في التربية من تطور جوهري، وبالرغم مما كنا ملمسه منه من عطف وعناية كبيرتين، فقد ظل حاجز قوي من الرهبة يقف دائماً بيننا وبينه، يحول دون رفع الكلفة، أو التجاوب إن حاول أحياً التبسط مما أو تشجيعنا على مفاتحته بأسرارنا . فإن كانت والدني تقسم أنه كثيراً ما انحنى على الأرض في هيئة الحصان، يحملنا على ظهره ويركض بنا حول الغرفة ونحن نقهقه ونستحّه، فإن هذا التأكيد منها لم يكن ليفلج إلا في إثارة عجبنا لجبرأتنا.

كنا نسعي حجرته داوذة السريره، ربما لاحتوائها على ألحظ سرير بالبيت! وكان يختار لنفسه في الشتاء أكثر حجرات الطابق العلوي مواجهة للشمس، وفي الصيف أقلها تعرضاً لها . ولا أزال أذكر الأيام التي كانت تتم فيها هذه المبادلة (في ابريل واکتوبر من كل عام)، وأفراد العائلة والخدم يروحون ويجهثون بالأثاث والكتب من حجرة إلى أخرى . وكان يستخدم غرفة نومه للقراءة أيضاً . وإذا أن جلّ وقت فراغه كان يخصص للقراءة والكتابة، فقد كانت الساعات التي نجلس إليه فيها - عدا أوقات الطعام - تختلس اختلاساً، لا يكاد أحداً يجرؤ على أن يدخل وحده الغرفة وهو منهك في البحث . فإن دخلنا فلا بد من والدني معنا نحتمي بها، نمشي وراءها طابوراً على أطراف الأصابع، فإن جلست جلستنا، وإن انتهت حديثها إلى أبي ونهضت نهضنا معها في نفس اللحظة ونخرج وراءها صفاً كما دخلنا . وبالرغم من أن أبي كان دائماً ينحي الكتاب جانباً إن دخلنا عليه، محاولاً أن يتبسط في لقائنا ويستم، فقد كنا نشعر

في قرارة أنفسنا أن رفقة الكتاب أحب إلى منسه.

كنت في صباي أحب أناته إليه ، ربما لما لمسه في منذ البداية من اهتمام بالآداب والتاريخ وإقبال بهم على القراءة وقد كنت في حديثي كثيراً ما أرى الله في منامي ، يكلمني وأكلمه ، فأخبرني بما أرى ، وأردد ما أسمع ، فكان يتأثر لما أرويّه ، ويقل رأسي مقتبلاً . حتى كانت ليلة رأيت فيها في المنام نفسي واقفاً عند نهر في صحراء ، فإذا بملك من السماء له وجه أحمر عبد الحميد يهبط صد الضفة المقابلة من النهر ، فيذكر لي أن الله سيحارني نياً حين أكر . وأقص نبأ الحلم على العائلة وقت الإفطار ، فإذا والدتي تقول في حماس : ولم لا ؟ ربما غير أن والدتي ذكرها معترصاً بأن محمداً خاتم النبيين ، دومع ذلك فلا مانع من أن يكون الحلم مبشراً بأن سيكون لحسين مستقبل عظيم ، وكنت أشعر بوضوح بأن مثل هذه الأحلام المتكررة يزيد من عزتي عنده .

ومن الطريف أن إخوتي قد استاءوا عند سردي لهذا الحلم ، (هذا عبد الحميد الذي سرّه أن أراه في هيئة ملاك) فاتهموني بعد الإفطار بالكلب والاختلاق ، أو على أقل تقدير ، بخطلي بين أحلام اليقظة ورؤى المنام . وأذكر أن أحدهم ضربني ساعتها على فخذي ليعرّز من رأيه . وقد شبهتهم والدتي حين رأتهم يهاجمونني بإخوة يوسف النبي الذين ألقيوه في البئر هيرة وحسداً .

كان عبد الحميد شديد التدين في ذلك الحين ، يطيل الصلاة ويكثر من تلاوة القرآن وكثيراً ما جلس إلينا يعقنا في الدين ويوجب على تساؤلنا في حكمة وسعة صدر . وإذا أنه كان يشجعنا على توجيه الأسئلة دون تحرج ، ومهما بلغ فقواها من الجراءة ، فقد سألته مرة

— إذا كان الله خالق هذا العالم ، فمن خلق الله ؟

وأنا صوت والدتي ، وقد سمعنا ، تستغفر الله العظيم من هذا السؤال . .
غير أن عبد الحميد أجابنا في ثقة وهذوء :

— سؤال ذكي ومعقول. ولكن لتفرضوا معي أن كائناً ما خلق الله، فإنكم ستساءلون حيثي؟ ومن خلق هذا الكائن؟ لتفرض أن كائناً خلق هذا الكائن فستساءلون ومن خلق هذا الكائن الثالث؟ فإن تمسكنا بهذا التساؤل إلى ما لا نهاية فسنصل حتماً إلى الاعتراف بأنه لا بد من كائن لم يخلقه أحد. هذا الكائن الذي لم يخلقه أحد، هو الله.

وقد نال هذا الردّ منه إعجاب الجميع واستحسانهم، خاصة بسبب اللهجة الواثقة التي أدلاء بها، ولسعة صدره وترحيه بهذا السؤال الشائك.

ولم يكن عبد الحميد مصدرأ لترويضنا بالمعارف الدينية محسب، بل كان كذلك معيماً من القصص لا ينضب ومثات هي المرات التي كان يجمعنا فيها حوله على سرير واسع ليقص علينا فصولاً من الروايات الانجليزية البسطة التي كان يقرأها، فنصني إليه في نهم وكان على رؤوسنا الطير، ويتوافد الخدم إلى باب الغرفة للاستماع فلا ندعه يقوم من مكانه إلا إن أقسم لنا أنه لم يقرأ بعد الفصول التالية للنقطة التي توقف عندها.

أما أحي حافظ، وهو يصغر عبد الحميد بعامين فقد اختار لنفسه منحى انعزالياً كان عربياً علينا، وموقفاً عقلياً لم نكن وقتئذ بالقادرين على استساغته. كان، ولا يزال إلى اليوم حاد العاطفة والمزاج لا يمكنه الحديث في أمر مهما تفه شأنه إلا بتّ الحديث جماع روحه وقلبه. كان في ذلك الحين يقدس غاندي إلى حد الصلاة، قد سَطَ طعامه وملبسه، ويكرر محاولته بين الحين والحين أن يصبح نباتياً. وقد قادته قراءاته عن غاندي وله إلى معرفة تولستوي، فقرأ جملة من كتب الأخير في الدين والفوضوية. والظاهر أن حادث وفاة أعز أصدقائه كان له تأثير عميق في نفسه وفكره. غير أن الطريقة العنيفة التي انتهجها حافظ في التعبير عن أفكاره ونظره إلى أفراد العائلة على أنهم غير أهل لتلقي الحقيقة، وكثرة شجاراته معناه وطول خصامه لنا، صدّ قلوبنا عن هذا النمط الفكري، إلى أن جاء اليوم الذي قبلناه فيه من مصدر آخر

غير أن حب حافظ الغريب للمصرح الذي بدا قوياً واضحاً عنه منذ صباه، اضطره في النهاية إلى العودة إلى حظيرة العائلة يلتصق فيها ميداناً لممارسة مواهبه . فقد كان والذي يفلجنا أحياناً عند عودتنا من المدرسة بإعلانه عزمه على اصطحابنا إلى دار الأوبرا . مثل هذا الإعلان منه كان دائماً يسكرنا من الهجة والفرح . ولا أزال إلى اليوم أرى نفسي بوصوح جالساً على كرسي مرتفع ، في بتلوني القصير ، في مقصورة حمراء الجدران . ذات مرايا كبيرة ملهية الإطار ، أتطلع بعينين واسعتين إلى سقف الصالة الملحّب المزين بصور الفنانين والثريا الضخمة في وسطه ، وفي يدي قطعة كبيرة من الشوكولاتة التي كان يأتي بها إلينا في المقصورة سكرتير الأوبرا في ذلك الحين ، صلاح ذهني . فإما عني فكنت أكثر شغفاً بفخامة الدار ذاتها ومراقبة الجمهور مني بما أشاهده على مسرحها ، وأما حافظ فكان يزدرد المسرحيات ازدياداً ، يحفظ الكثير من حوارها بعد سماعه مرة واحدة ، وينخر في ذاكرته الملاحظات عن حركات الممثلين وطريقتهم في الأداء حتى إذا جاء المساء التالي رأيناه يترج من الأسرة ملاءتين ، متخذاً منهما ستارة ينصبها في صالة الطعام ، عاهدنا إلى أحد الخدم بمهمة شدّ حبل الغسيل الذي ربط بطرفيها حين يعطيه إشارة البدء بينما نجلس نحن على الكراسي التي رصّها في الجانب الأوسع من الصالة . فإن أطل أحدنا برأسه ليرى ما يدور خلف الستارة من الاستعدادات ، ترك حافظ ما بيده مزججاً ليضرب المتطفل على رأسه ويلوي له أنفه . والحق أنه كان دائماً يترك في نفوسنا من الإهيجات بتمثيله وذاكرته وقدرته على المحاكاة ما لا يقل عن إعجابنا بما شاهدناه في الأمسية السابقة .



حينئذ من علاقة حافظ بالمسرح ، يؤدي بي إلى الحديث عن حب والدتي له ، وموقفها من الأدب بوجه عام .

بالرغم من انتماء والدتي إلى عائلة أكثر عراقة وثقافة من عائلة أبي ، فإنه

لا هي ، ولا أي من إخوتها ذكوراً كانوا أو إناثاً، تلقى قدرأ كافياً من التعليم . كان جدي لأبي إناً لفلاح ، وكان رغم صالة دخله وكثرة أولاده يصر على مسحهم أكبر قسط ممكن من الثقافة ، بل إنه كان من أوائل المصريين الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسة . وقد ذكر والذي في كتابه «حياتي» أن أباه كان مؤمناً بضرورة تعليم الفتاة لتشارك الرجل حياته مشاركة حقيقية ، غير أن عمتي ذكرت لي منذ بضعة أعوام أن الفكرة الرئيسية وراء إرسالها إلى المدرسة كانت أن تتمكن من كتابة خطابات إلى عائلتها بالشكوى من زوجها إن حدث وتزوجت من شخص غريب عن العائلة ، أو اصطحبها زوجها إلى مدينة بعيدة وأساء معاملتها!

أما والدتي فجدها الأكبر هو محمد علي باشا البقلي (الحكيم) أول ناظر مصري لمدرسة الطب ، الذي غضب عليه الخديو إسماعيل فأرسله مرافقاً للحملة العسكرية إلى الحبشة حيث قتل . . وكان أبوها قاضياً وفقياً في القانون وصديقاً حميماً لعبد العزيز العزير باشا فهمي . ومع ذلك فالواضح أنه قد أهمل تعليم أولاده إهمالاً فاضحاً . . وكان موته المبكر، دون أن يخلف وراءه ثروة تذكر، نذيراً بخروج الأولاد من مدارسهم، وسعي الذكور منهم إلى كسب عيشهم بالعمل في بعض الوظائف الصغيرة . وقد فشت عليا والدتي من الإحبار عه ما رسم له في ذهني صورة غير جميلة . فالظاهر أنه كان فظ الطماع، شرس الحلق، سيء المعاملة لزوجته . جاءتته امرأة مرة تحاول أن تقدم له هدية (أو رشوة) حتى يحكم لصالحها في قضية ينظرها . . فإذا به يجر المرأة من شعرها إلى خارج الدار ويجردها من ثيابها، ويضربها بالسوط وهي تولول وتستعيت، حتى يفرق الناس بينهما .

توفي جدي هذا قبل أن يناهز الخامسة والثلاثين، وتبعته جدتي بعد عدة أشهر وهي في حوالي الثالثة والثلاثين، تاركين صبيين وطفلتين . وقد تولى تربية هؤلاء التلمي والإبناق عليهم قريب لهم من أكبر أثرياء مصر، هو أحمد عميفي ناشا والد هنية زوجة بهي الدين باشا بركات . . فأما الولدان فسرعان ما وجدا

لنفسيهما عملاً، وأما والدتي وخالتي فقد قضتا السنوات السابقة على زواجهما في هذه العائلة الكريمة، تعاملان معاملة بقية أطفال الأسرة.. وقد شملت بين والدتي وهدية منذ ذلك العهد صداقة استمرت حتى وفاة والدتي عام ١٩٥٩ وكانت تلك السنوات أسعد فترة في حياتها على الإطلاق. كانت خلالها دائمة الضحك والمرح، لا تحمل همّاً ولا تعرف القلق، محبوبة من الجميع، يصر عفيفي باشا على ألا يصطحب بوجه غير وجهها وكانت تتدلل أحياناً فلا تدخل إليه في الصباح كعادتها حاملة صينية القهوة، وتضحك في الحفاء حين تسمعه يصبح مغضباً: «أين زينب؟ أين زينب؟ لا أريد أن يحمل إليّ القهوة غيرها» وقد عبرت والدتي وهي على فراش الموت عن رعبها في أن تدفن في مداخل هذه العائلة، فخصصت لها هدية بركات قبراً في موضع تظله أشجار المانجو والمشمش، على بعد عدة أمتار من قبر عفيفي باشا.

وقد احتفظت والدتي على الدوام بتلك الروح المرحّة التي بدأت بها حياتها.. فكانت بالرغم مما صالته فيما بعد من متاعب وأمراض، بشوشة الوجه، منطلقة الضحكات، شغوفة بالمزاح، لا بدخل عليها أحداً إلا أشرق له وجهها وابتمس.. وقد كان أكثر ما يفيظها من والذي في السنوات الأولى من الزواج على الأقل، قلة الضحك في بيته وبين أفراد عائلته، والتزام وجهه التعبير الجاد، لا يكاد يعرف التعبير عن فرح إلا بشبح ابتسامة، وهي التي اعتادت في منزل أقرانها جواً يضحكون فيه للنافه والملا، وقد كان هذا الجد الذي لا يعرف مزلاً كميلاً بأن يقضي على روح المرح عند الكثيرين.. غير أن والدتي ثبتت له.. وما رالت لدينا صورة شمسية صادقة الدلالة، لأبي وقد جلست إلى يساره والدتي معرقة في الضحك، تشير إليه أن يتسم على الأقل للمصور، وأن يزيح عن وجهه العيوس..

قضت والدتي ستين أو ثلاثاً في مدرسة أوروبية بالقاهرة لم تقلح بها، ولم تخرج إلا ببعض الحساب، وبالجمال الانجليزية:

No good, Please, give me the Pencil, come here,

وبعض المقدرات مثل mat, cat, rat, hat (دون أن تعرف أيها الدالة على القطه وأيها على الفأر) ثم دعاء «أبانا الذي في السموات» كانت تردده على السحر التالي :

Our fazzur which art in hefenn, halod be zy nem zy will be done,
zy kinkumkum

وقد حاول والذي جاهداً عقب رواجهما أن يعطيها دروساً في الجغرافيا والتاريخ واللغة حتى يصبى من الهوة الرهيبة بين ثقافته وثقافتها، وحتى يضمن اهتماماً منها بما كرس له حياته غير أنه اضطر بعد مدة إلى أن يطرح محاولاته بانسأ، وهو يحجب كيف يرفض ذهن امرأة كهذه مثقلة الذكاء أهمية الإحاطة بموقع بريطانيا أو فتوحات بوناپرت.

وكانت النتيجة أن ظلت والذي لا تستطيع أن تعين موقع مصر من خريطة العالم، لم تسمع بألمانيا إلا حين شبت الحرب وارتفع ثمن الصابون، ولم تسمع بلندن حتى سافر إليها أخي محمد وبدأت تكتب إليه. وهي مع ذلك تعرف الكثير عن إيران لأن لها صديقة «عجمية» تعرف بها في الترام فصارني صديقين حميمين، وتعرف عدة جمل يونانية تستعملها في محادثة الجيران.

كانت تقرأ الصحف - عدا الأبواب السياسية منها - وتهتم بالاحص بأسعار الذهب، وصفحة الوفيات، والإعلانات المبوبة. فأما الكتب فثلاثة أو أربعة تعشفيها عشفاً، وتعيد قراءتها كلما فرغت منها: «مجانى الأدب» في نسخة مهلهلة احتفظت بها منذ أيام الدراسة، وكتاب في مقومات الصحة وأسباب المرض، وحداثق الأمثال العامة لأحمد باشا تيمور، ومجموعة أزجال عثمان جلّال. أما كتب والذي فلم تقرأ منها غير مقال واحد في «فيس المخاطرة» بمؤلف «ولود وعقيم»، عن حوار بين سيدتين في الترام. وإنما قرائته والذي لأنها هي السيلة الولود، قد نقلت إلى والذي حواراً دار بينها وبين سيلة عقيم جلست بجوارها في الترام، قرأه أي جديراً بأن يسجل في مقال.

كانت تقول لوالدي: «أصحيح أن هناك من الناس من يدفع بقوداً لشراء كسك؟!» وبالرغم من ذلك الاختلاف الصخم بين ثقافتهما، فإنه لم يعكر حياتهما الروحية، ولم يؤثر فيها. فإن كان هو قد شغل بالتأليف والقراءة، فقد شغلت هي بتربية أولادهما الثمانية، فإن التقيا بعد ذلك كان دكاؤهما الطبيعي معروصاً عن نقص تعليمهما، ولم يكن جهلها يقتوحات ببوابرت سأساً يغص عليها حياتهما.

الأمر الذي كان يدهشي بها هو حها للمسرح الذي لم يكن يقل قوة عن حب أخي حافظ له، اصطحبها والذي عقب الرواج لمشاهدة إحدى كوميديات علي الكسار وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تدخل فيها مسرحاً فإذا بها تخرج منه مذهولة تتمتم:

— أفني الدنيا مثل هذه الأمور وأنا غافلة عنها؟! يا لشبابي الضائع يا لخيتي السوء!

وبانت من يومها من مرتادي المسرح العاشقين له، تعرف جيداً مسرحيات الريحاني ويوسف وهبي والكسار والمصري، وتحفظ سطوراً من «عادة الكاميليا» و«عائلة باريت» ترددها في كل مناسبة وبغير مناسبة أما مسرحياتها المفضلة فمسرحيات مولير، لا ترى شيئاً يفوق «الغيبيل» أو «المريض بالوهم» فإن شملت مسرحية محزنة أربكت من معها معلو صوت مكانها أثناء التمثيل، خاصة إن ذكر فيها آل للأم ولداً متغياً. وكانت تردد عقب كل تمثيلية تعجبها أن تلك التمثيلية تعالج مشكلتها هي الخاصة، وإكنا كتبها المؤلف عها.

فرغت مرة من قراءة حداثي الأمثال العامة ولم تحد لديها جديداً تقرأه فعرضت عليها أن أروي لها قصة كنت قد قرأتها ذلك اليوم، وهي «حاجة الإنسان من الأرض» لتولستوي. وإذا انتهت من سردھا، إذا بي أراها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم إذا بها تطرق مفكرة في القصة، حتى إذا ما استوعبت مغزاها رفعت رأسها قائلة:

— «ربنا يسعدك يا حسين! إيت حاتطلع راجل عظيم».

وكاني أنا مؤلف القصة! ثم طلبت مني أن أقص عليها قصة أخرى، فقصصت «الشیطان وكسرة الحیز»، وذكرت لها أن مؤلفها هو نفس مؤلف القصة الأولى وأريتها صورته. وفي اليوم التالي ابتعت مجلداً يضم ثلاثاً وعشرين من قصص تولستوي القصيرة بالانجليزية، فكنت أترجم لها القصة جملة جملة، حتى إذا ما فرغت من تلاوة واحدة أربكتني مدعاؤها وشكرها. وكثيراً ما كانت بعد ذلك تطلب مني أن أحكي لها حكاية من تأليف «الرجل ذي اللحية الطويلة» (وهي تسميتها لتولستوي). فإن لم يكن لديّ الجديد، جعلتني أعيد عليها حاجة الإنسان من الأرض أو «رجلان عجوزان» أو «شرارة مهملّة تحرق الدار»، وهي القصص الأثيرة عندها.

لا أذكر متى سمعت عن الله لأول مرة، أو عن محمد، أو متى أو كيف بات لي دين.

غير أن أقدم ما أذكره في هذا الصدد، أن سحور الأهل في رمضان كان يفتني.

كنا نلح على والدي متوسلين أن توقظنا للسحور كما توقظ الكبار. فكانت ترفض مشفقةً حيناً وتقبل مشفقةً حيناً. فإن رفضت هددناها بالصوم دون سحور، وإن قبلت تناولنا السحور ولا مصوم. ففروضة الأطفال تصرّ على إذن كتابي من ولي الأمر بالصيام، وإلا أجبرت الطفل على تناول اللبن والبسكويت صباحاً، والعداء ظهراً. والوالدي يأبى منع هذا الإذن، غير أنه في أيام الجمعة والإجازات يسمح لنا بالصيام نصف نهار، ويقول إن من صام من الصغار نصف نهار فكأنما صام النهار كله، له ثواب كامل. ثم تأتي والدتي فتفتني بأن من صام أول رمضان ومتصمه وآخره فكأنما صام الشهر كله، له ثواب كامل. فكان صومنا في طمولتنا لا يزيد في الغالب على ثلاثة أنصاف أيام!

فالسحور إذن هو ما كان يجتذبتنا، وتغير نظام اليوم، والمأكولات الشهية

غير المألوفة عند الغروب، والعوايس الموقلة مهيحة الألوان بطوف بها في الطرقات، وعنازنا مع الخدم «يا فاطر رمضان يا خامر دينك. كلنا السوداء تقطع مصاريك»، وإحراج ألسنا للغير حتى يعرف من قدر إحمرارها ما إذا كنا صائمين أم غير صائمين. والكلفة السوداء التي تنهش أجسام المعطرين كانت أول فكرة كونها عن الجحيم.

ومن الغريب الحليق بالصحك، أن والذي الذي كان يحصر أشد الحرص في أحاديثه معنا على أن ينمي فينا نظرة إلى الدين مستتيرة ومعة الألق، لا تشوبها أوهام أو خرافات أو تعصب، لم يمس بأن يحول بين الخدم وبين حديثهم إلينا في الدين، فإذا ما وقد انتقلت إلينا منهم أشنع الصور فمن والذي سمع أن الجنة هي في حفة الأمر طمانية الروح وسكنتها، والجحيم هو العذاب الناجم عن تأنيب الضمير وحرزه. ومن الخدم سمع أن الجنة هي المكان الذي ناكل فيه أفرح أنواع العاكهة وصنوف الحلوى، والجحيم هو حيث يجبرنا الربانية على تجرع مقادير هائلة من الماء المعلي، بقفاون أعيسا بهراهم، ثم يمدون حلقها ليملوها من جديد. والمسيحيون عند أبي هم عباد الله وأهل الكتاب. وهم عند الخدم لا يحتفلون عن الكمار في شيء، عظامهم زرقاء، ومصيرهم الكلبة السوداء. وكانوا إذا لمحو قساً في الطريق في ثيابه السوداء ولحيته الكتنة، علوا خلمه يفضون ساحرين من ملبسه ولحيته، حتى يلتفت إليهم مهلداً فيعودوا إلينا ضاحكين.

ولا أنكر أن تأثير أحاديث الخدم في نفوسنا كان في طعولنا أقوى من تأثير أحاديث والذي في الدين. فالمانجو والأماناس كانا أقرب إلى مفهومنا من سكية الروح. والماء المعلي الذي كان يؤلما ويعذبنا كلما استدعينا للاستحمام، أدنى إلى فكرتنا عن العذاب من ونز الضمير الذي لم تكن قد خبرناه بعد، والعدوي الشوارع ضاحكين وراء قيس عريب الزبي، أظرف لدينا من فكرة أهل الكتاب.

كما إذا نقلنا إلى والدتي بأ خطأ ارتكبه أحد الخدم، صاح الخادم بها:
ويا فتان! القرآن يقول: والعنتنة أشد من القتل! ».

وتؤلمنا الفكرة، فنقصد والذي مستغربين «أصبح يا أبي أن الفتان له
عذاب يفوق عذاب القاتل؟»، فيجيب والذي

— الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

فهرع فرحين إلى الخدم، ونخرج لهم الستنا:

— الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

— ومن قال لك هذا الهراء؟

— والذي.

فيحس الخادم على لسانه لا يجرؤ على أن ينقض قول سيده الكبير،
عضو المجمع اللغوي.

صوّر الخدم لنا الجحيم على أنه حفرة هائلة تلتهب فيها النيران، يعلوها
جبل دقيق رقيق فكانما هو شعرة أو خيط. وعلى الساس جميعاً يوم القيامة أن
يسيروا فوق هذا المحيط. فأما من كان مؤمناً وصلحت أعماله فسيرى الخيط
وكانه قنطرة عريضة يعبرها إلى الجنة في ثقة وثبات قدم. وأما من بنى ومسد
فستزل قدمه بعد خطوة أو خطوتين، فيهوي إلى الحفرة يتردى فيها أبد الأبدن.
فما أطلعوني على هذه الصورة حتى وجدته لعدة أيام أتدرب على السير فوق
القصب الحديد الرفيع بظهر السرير، استعداداً لليوم الآخر. ولم أنته إلا بعد
أن سقطت سقطة عنيفة من فوقه كاد أن ينكسر لها ظهري وقد هض بي أخي
جلال حين شاهدني أقم:

— وستكون سقطتك في الآخرة أبشع وأشنع إن شاء الله!

لم يكن يفسد علينا يوم «وقعة» العيد سوى إرسائنا إلى الحلاق هو الذي

يصبر على أن نستقل العيد برؤوس «نظيفة» وصياغ شعرا إما كان يعني عندنا صياغ فرص الوسامة والأناقة. وقد كنا نكذب أحيانا قديعي أن صالون الحلاق معلق، فإن أرسل والدي حادماً يستوضح الخير وأتاه بكذبا، عاقبت بأن يحلق لنا رؤوسنا بنفسه، فتزداد وجوهنا بشاعة. فكنا عادة نفصل الإسلام والطاعة. وإذا نجلس بين يدي الحلاق، نتوسل إليه أن يترفق بشعرنا، وأن يترك لنا مه قدرأ معقولاً، بينما تغمر الخادمة له ألا يترفق. والحلاق بطبيعة الحال أميل إلى طاعة الخادمة، فهي تحمل أوامر السيد. وقد يأمر السيد بإعدادنا إليه إن لم يحلق لنا الكفاية، فيكون في ذلك له عناء إضافي، دون أجر إضافي. وإذا نهبط في النهاية من الخشبة المرتفعة التي تصاف للأطفال إلى المقعد، ونأمل وجوهنا في المرأة، تدمع أعيننا من الغيظ، ونخرج إلى الطريق أذلاء مطاطي الرؤوس، بينما تضحك الخادمة في تشف ومرح.

حتى إذا وصلنا إلى البيت، فحص أبي رؤوسنا فرداً فرداً، ليبيدي استنائه غالباً، ورؤسنا في الغليل النادر. ثم يأمر بالحمام أن يعد. وما كان الاستحمام بأخف عناء علينا من الحلاقة. فللماء ساحن مصرخ لسخونته، والليفة خشنة تلهب جلودنا. وقد كانت والفني في السنوات الأولى تتولى أمرنا، فكانت إذا صرخنا تترفق بنا، فخصيف ماءً بارداً أو تخفف من تليفها أجسامنا فلما كبرنا بعض الشيء تولى أبي عنها هذه المهمة، فلم تكن نصرخ إلا إذا كان الألم لا يحتمل وهو يدخل الحمام ومعه ثلاثة ما أو أربعة فنحلق ملائسنا ونغسلن هو في الحوض الصخيم الممتلىء بالماء، فتسلق الحوض وراءه كالقسط الصغيرة حتى نقع فيه. وكنا نراقب جسمه الضخم العاري في رهبة وتعجب، ونسأله في أنفسنا عما إذا كانت أجسامنا حين نكبر ستصبح رهبةً مهيةً مشعرة كهذا الجسم الذي ملأ الحوض فلم يترك لنا سوى أركان صيقة منه حشرنا فيها حشراً، والماء المختلط بالصابون يدخل عيوننا قبلها عند كل حركة.

وبانتهاء الاستحمام ينتهي جانب المذاب من يوم «الوقوف». فما هي الحلل الجديدة قد وصلت من عند الخياط ملفوفة بالورق المشرق بالدبابيس،

وها هو أبي وقد ابرء في غرفته، نسمعه يتزع الأغصنة عن علب كثيرة، نعلم ما بها ولا نتحدث عنها، حتى يكون التوزيع منها في العبد معاجاة سارة لنا حتى إذا ما هبط المساء، أتى كل منا بكرسي من صالة الطعام، يصعب بجوار سريره، فنعلق سترة الحلة الجديدة على ظهر الكرسي وعليها رباط العنق. وعلى المقعد نضع السروال وفوقه القميص المكوي والحزام في شكل دائرة. وتحت الكرسي الحذاء الجديد وهي كل فردة منه فردة من الجورب الجديد. وقد كانت عملية ترتيب الملابس فوق الكرسي ونحته من أحب الأشياء إلينا، لا نتخيل عيداً بدونها. ولا أعود الصديق إذا قلت أن العيد فقد بهجته مذ تحلبنا عن هذه العادة. وكان إذا وكبره أحداً وأبطل هذه العادة، نظرنا إليه نظرة اشمئزاز وضيق. فهو يصحك ما ويقول إننا لا نزال أطفالاً صغاراً. ونحن نشتمه ونقول أنه قد بات يظن نفسه كبيراً، وأن الخسارة خسارته.

فلا نكاد ننتهي من «تحضير الكرسي» حتى نفر إلى الأسرة للنوم ولو كان في السماء بقية من نور. فعدا نقوم قبيل الفجر. فأما من ظن نفسه كبيراً فقد أبطل عادة الاستيقاظ المبكر هي الأخرى، فلا يهض من فراشه إلا مرغماً، متفخ العين، وقد تم إعداد لحم الحروف ووضع على المائدة. وأما المتمسكون بطقولتهم فينهضون في الثالثة فيفتسلون، ويشرعون في ارتداء الملابس قطعة قطعة في نهم وتلذذ، يساءل تناهي من الطريق أصوات تصيح فتشق هذأة الليل: «جزارا جزارا».

ونهرع مع والدتي إلى السطح والدنيا ما زالت ظلاماً حالكاً، فنودع الخروف ونربت على رأسه وفروته مشعقي وفي أعينا الدمع، ثم نراقب في سرور وشغف عملية ذبحه وبخه وتقطيع أوصاله. ونتوجه إلى المسجد، فنظل نردد مع المرددين: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وإذا نزع من الصلاة، ونصافح من يكون عن يميننا وعن يسارنا متمتعين: حرماً، جمعاً. حرماً، جمعاً، نسرع بالتقاط أحدثتنا الجديدة التي كنا أثناء الصلاة نراقبها من طرف أعيننا للاطمئنان عليها، ثم نعود إلى المنزل عدواً. فابي الآن

في الإنتظار بغرفته وقد استيقظ وفتح نوافلها يستقبل النور. نهته فيقبلنا، ويمنح درجاً يخرج منه نقوداً ورقية وقصبة جديدة تلمع من فرط جديتها فيسلم كلاً منا «عديته». ثم يفتح خزانته ذات السلسلة الحديدية فيخرج صنوف الحلوى واللعب. ويز بأخذ كل منا نصيبه، يجري إلى المطبخ حيث والدتي مشغولة بالخروف، قد احتفظت بغرفته جانباً لرجال الإسعاف فتعطي كلاً منا جزءاً من مخ الخروف وقد سلفته. ثم ساعد الخدم في إعداد المائدة، وحمل الصحون والمأكولات إليها، وتوجه لإيقاظ من لم يكن قد استيقظ بعد من الأحوة والكبار.

نشأت الحرب العالمية الثانية وأنا في السابعة من العمر. وقد علمت بنأ نشوبها من مصادر: من والدتي حين رأيتها تحزن كميات هائلة من الصابون والزيت وغيرهما من السلع، ومن بائع الكراسيات والأدوات المكتبية حين تقاضى مني قرشاً كاملاً ثمناً لكراسة اعتدت أن أدفع ثمناً لها نصف قرش فسأله عن السبب.

لم تلعب الحرب في حياة أسرنا دوراً كبيراً أو صغيراً. وذكراتي عنها يمكن أن أوردها هنا في فقرة أو فقرتين، وهي ذكريات ليست في مجموعها بالبنيفة.

فمهما: أن والدي حين بدأت إغارات الطائرات الألمانية على مطار الماطة بمصر الجديدة، فكر في بناء مخبأ بالبيت، خاص بالعائلة، يكفيها مضايقات الانتقال ليلاً إلى المخبأ العام. وبالفعل، بنى حائطاً سميكاً من الطوب قالة نافذة المطبخ بالطابق السفلي، وحشد إلى جانبي النافذة أكياساً من الرمل. وقد كان لاجتماع العائلة في هذا المطبخ في الظلام، حين تدوي في مصر الجديدة صفارات الإنذار، أثر بهيج، حتى لقد كان فرح الأطفال من بالصقارة أكبر من انزعاجهم منها. أذكر أنه كانت قد أجريت لي وقتذاك عملية «الطهارة»، وكان صديق أخي عبد الحميد قد أهداني بهذه المناسبة سلة جميلة

بها أرباباً جلياناً رائعان فكنت إذا بدأت الغارة وحملني والذي للنزول بي إلى المحاً، أصر على اصطحاب الأرنين. وفي المحاً، كنا نقهقه عالياً إذ يرى خالتي نيمة على صوء الشمعة تظاھر بالعرب الشديد وهي تولول.

... كذا يا هتلر! حزقتي يا هتلر! ١٩

وكأما هي المقصودة من وراء هذه القارات!

أما ذكريات الحرب البغيضة فجلبها يتصل بالجنود البريطانيين في القاهرة. كان يحيل إلينا أنهم سكارى على الدوام، فسلوكهم شائن، وكان مجرد رؤيتنا لهم في الطريق كميلاً بإزعاجنا، واختيارنا الانتقال إلى الرصيف المقابل لتجنب الاقتراب منهم. وقد كانت عربات المترو دائماً تعص بهم. فإن اضطررنا إلى ركوبها ظللنا طوال المسافة ندهو الله ألا يحدث بيننا وبينهم احتكاك. وقد حدث مرة أن جلس جندي إنجليزي سكران قبلي ووالدي في المترو، فوجه الجندي إلى أبي إهانة دون مبرر، غلى الدم في عروقي بسببها. فما عدت إلى البيت، حتى أخرجت كراسة جديدة من الدرج، وشرعت في تأليف كتاب بعنوان «أهوال الحروب»، كان أول ما حطه قلبي في الأدب، وقد اتحدت فيه من حادث إهانة والذي محسوراً لإثبات عدالة حق مصر في أن تستقل!



ثم شرعت في س الثامنة في تأليف كتاب عن عمر بن الخطاب، مثلي الأعلى في ذلك الحين، وقصدت أن أجعله في ثلاثة مجلدات ضخام، فما وصلت إلى الصفحة الثلاثين حتى كانت المائدة في جعبتي قد نفدت غير أبي لا أزال أذكر بوضوح اليوم الذي بدأت فيه العمل في ذلك الكتاب. كنت يومها مريضاً، أرقد في فراش والمشي، وأبي على أريكته يكتب في «صحى الإسلام». وإذا أخبرته بالفكرة، نزل إلى مكتبته يجمع لي بعض الكتب التي مستفيدني في البحث. فنشرتها أمامي على السرير كما كت أراه يفعل،

وفتحت الكراسية مستنداً إليها إلى ركبتي، واصبأ طرف القلم في فمي أدق به أسناني، معكراً في العمرة الأولى من الكتاب، وهي نفس حركات أبي حنين يشرع في الكتابة. ثم سأله عما إذا كان بالإمكان أن أُنحد لنفسي مطاراً كمسطاره، فأجاب بالفي، فعدت إلى الكراسية وبعد لحظات من التمكن العميق، أرسلت القلم من بين أسناني وكتبت.

«كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً عظيماً حقاً.»

ثم اضطر أبي بعد ساعة إلى الخروج، تاركاً إياي مستغرقاً في الكتابة، عما أن تركت المرسل حتى هب الإحوة والحلم، كعادتهم عند خروجه، يحدنون الصحيح فمقت من العرائش إلى الباب وفتحت أوبحهم وأطلب منهم الشرام الهدوء «لأنني أكتب»، متوقفاً أن يلتزموا حيال هذا الشاطئ مني ما يلتزمونه مع أبي. غير أنهم ضحكوا مساحرين فشتتهم وعندما عاد أبي من الخارج شكوتهم إليه.

ثم كتبت تحت تأثير قراءاتي لجرجي زيدان روايتين تاريخيتين، هما أطول وأكثر تعقيداً في الحوادث من أن تصفها في العادة من صبي في العاشرة الأولى والوليد بن يزيد رواية غرامية تقع حوادثها في العصر الأموي، والثانية «ابنة فردريك» عن الحروب الصليبية ووقوع ابنة أحد قواد الصليبيين في الأسر بعد غرق أبيها ثم وقوعها في عرام أحد المسلمين في جيش صلاح الدين، واضطرابها في النهاية إلى معارقتها والعودة مأكبة إلى وطنها

غير أن أهم مؤلفاتي طرأ في فترة الصبا هي رواية «العقاب»، رواية عصرية قامت إحدى قريباتي برسم الصور لها، ثم دعت بها إلى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، فطبعوا منها مائتي نسخة على حساب والدي، أرسلت إحداها إلى والد صديقي ممدوح، وفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف، مع أطيب تحيات المؤلف! وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق، رحمه الله، يحبني حبه لابنه، وكثيراً ما كان يحضر مذاكرتي مع

ابنه للدروس في حديقة منزله الرائعة بكويري القبة، أو في مكتبته الضخمة،
يفقرأ معنا في كتب الأدب القديمة ككتاب الأعاني والعقد العريد، ويحدثنا عن
ذكريات صداقته لأبي في شاييهما. فما مضى أمسوع على إرسال الرواية إليه
حتى فوجئت إذ أعود عصراً من المدرسة بأبي يقول لي:

— خطب لك من الشيخ مصطفى.

— وفتحت المظروف بأصابع ترتعش:

وزارة الأوقاف

مكتب الوزير

ولدا الأديب الفاضل السيد حسين أحمد أمين،

سررت أن تلقيت في مطلع العام الهجري الجديد، هدية ملك طيبة، تشر
بما لك من مستقبل مرجو في عالم الأدب. فإن كانت روائع الجنة في الشباب
كما يقول أبو نواس، فلا غرو أن أتسم روائع الجنة في مشرق عام جديد من
هديتك الكريمة.

أسأل الله أن يجعلك قرة عين لأبوك، وأن ينفع بك البلاد.

وكذت أطير يومها من العرح، لا تسعني الدنيا، أدفع الخطاب إلى كل
من أقبله ليقراه، أخذاً إياه معي إلى المدرسة، مشيراً للمدرسين والتلاميذ إلى
عبارة «الأديب الفاضل» لأتأكد من أنهم لاحظوها. فما هبط مساء اليوم التالي
حتى كنت قد عقدت العزم على امر...

إن كانت الرواية قد أعجبت الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا الحد،
(والشيخ مصطفى ليس ممن يستهان بهم في عالم الأدب، فهو الذي اكتشف
عبقريه نجيب محفوظ وشجعه)، فلماذا لا أرسلها إلى يوسف وهي، لعله يقل
أن يخرجها للسينما، وأن يمثل الدور الأول فيها؟ لقد كان من عادتي أن أرسل
إلى يوسف وهي كل عيد بطاقة تهنته من البطاقات التي أتولى طبعتها بنفسي في

لجنة التأليف. فكانت تصلني منه بعد أيام بطاقة تحية وشكر. فلهذا يذكرني الآن بالحير والامتنان. ولا مانع من إهداء سبي عنه، (كنت وقتها في الثالثة عشرة)، حتى لا يظن الرواية عملاً صبيانياً فينحرفها جانباً دون قراءة

وبالعقل. وضمت نسخة من «العقاب» في مطروف كبير، وأرسلتها إليه بالبريد المسجل، مع تحيات المؤلف، راجياً إياه أن يدرس إمكان إحراجها ومعبراً له عن إعجابي العظيم به.

وقضيت الأسابيع التالية في أحلام جنونية. فما أنا ذا راقد في فراشي أعط في النوم، حين أسمع دقات وقرعاً عبقاً متواصلاً على الباب (كان هناك جرس، غير أنني فضلت القرع على الباب!) وأقوم لأفتح وما زال النوم في عيني، فإذا بيوسف وهي حارجه مرتدياً عباءة سوداء.

— هل أنت حسين أمين؟

— نعم

— مؤلف رواية العقاب؟

— نعم، نعم!

وبرمقي مشدوهاً وهو الذي كان يتوقع أن يجدني رجلاً في الثلاثين أو الأربعين، ثم يفتح دراعه ويحتضني، تماماً كما فعل الشاعر الناقد نكراسوف مع دوستوفسكي الشاب.

وأصحه إلى والذي، فيهتف به يوسف وهي عند رؤيته باللغة العربية الفصحى:

— سيدي! لقد ظهر نجم جديد في سماء الأدب

ويهرع إخواني إلى الصالون وقد سمعوا أن يوسف وهي في البيت. وإذا يعرفون سبب حضوره إذا بموقفهم مني يتغير، وإذا هم يعاملونني باحترام جرم وبلغت الممثل الكبير إلى قائل:

— سأقوم بالدور الرئيسي في الفيلم إن أدت لي . . وإنه لمن حسن الحظ أن بيت ديفيز مستحضر إلى مصر خلال الأسبوع القادم، وسأعرض عليها دور عذلة الفيلم ولا شك عندي في أنها مستقبلة . فإن حدث وقتله، فقد فتحت أمامك أبواب هوليوود .

ثم أتحدث في لثة شديدة افتتاحية الفيلم .

ستوديو مصر يقدم . . (موسيقى) .

«العقاب» . . . (موسيقى عنيفة) .

«العقاب» . رواية من تأليف الأديب العاقل حسين أمين جعله الله قرة عين لأبنائه (موسيقى أشد عنفاً) حسين أحمد أمين . . الصبي الذي شهد له مفكرو مصر من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق بالامتياز والتموق، يقدم لنا وهو في الثالثة عشرة باكورة إنتاجه . .

ثم أسماء الممثلين والمخرج ومهندس الصوت . .

كان بيتنا يفتن بالمدرسين الخصوصيين، لا يلصق والذي في أحد منا صعباً، أو ما يظنه ضعفاً، في مادة من المواد إلا جلب لنا فيها مدرسا خصوصياً يعود مرة في الأسبوع أو مرتين . بل إنه ليكفي أن يشهد اقتناع أبي لسبب من الأسباب بالفوائد الجمة للدراسة علم أو فن معين، حتى يرى أن دروس المدرسة وحدها غير كافية، كما حدث مثلاً بصدد الرسم، إذ فكر مرة في أن يحضر لنا مدرسا فيه، ولم يتحل عن فكرته إلا بعد أن توصلنا إليه صارعين أن يعفينا منه، نظراً إلى أن أمسياتنا كادت أن تكون بأسرها نهياً للدروس الخاصة، وقد كانت ألبستنا نزل في بادئ الأمر، إذ كنا أحياناً نعود من المدرسة، خاصة في بداية العام الدراسي، فثرت كما يجب الصبية أن يثرثروا عن مدرسيهم، تارة في صديق غير صادق و تارة في كذب غير متمم، فنشكو من ضعف هذا المدرس أو ذاك في مادته! وإذ كنا لا نقصد من مثل هذا الحديث سوى الدردشة الفارغة، فقد كان يزعمنا أن نرى الوالد يصدقنا في سذاجة، ويهتم للأمر في قلق، فيعبر

أحياناً في نقلنا من الفصل الذي تكون فيه إلى فصل لا يدرس فيه ذلك المدرس «الحائب»، وأحياناً في طلب نقل المدرس الحائب نفسه إلى فصل لا نكون فيه، وأحياناً يطمئن محاولتنا ويهتدي من روعتنا بوعده أن يحضر مدرساً خصوصياً في البيت يعرض فقر مدرس المدرسة فنكاد حينئذ نعص على الاستئذان خاصة إن كنا لا نعني مما قلناه حرفاً، ومراراً هي التي جاءنا فيها خبر نقل مدرس شكوبا من «حبيته» و«ضعفه» رغم تأكيد الناظر لوالذي أنه أبعد ما يكون عن الخيبة والضعف، ورغم أننا قد نكون في تلك الأثناء قد تعلمنا احترامه وحبّه، وبدأ لنا ما كان خافياً علينا من علمه الغرير.

وقد سهل على والذي الإمعان في هذا السب، كثرة معارفه من المدرسين. فكان إذا أحب مدرس التعبير عن امتثانه لفضل أسداه والذي إليه، أو أراد التقرب منه بغية بيل فضل مستقبل، عرض أن يعطي الأتجال الأعراء دروساً خصوصية. فيذهب الأتجال الأعراء ضحايا الفضل الذي تم والفضل الذي سيجيء. وكانوا نادراً ما يقبلون على جهدهم أجراً. وكثيراً ما وضع لهم أبي مبلغاً من المال في مظروف، ودفعه إليّ كي أسلمهم إياه، فكانوا إذا رأوا المظروف وختموا ما فيه ودوه.



بل إنني لأذكر أن أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب تطوع مرة أن يعطي أحد الأتجال دروساً في الفلسفة، فاختارني والذي لهذه الدروس في وقت كانت كل فكرتي فيه عن الفلسفة هي شروء اللحم، وهي فكرة مصدرها والذي التي كانت إذا رأت منا شعراً هائشاً، أو ملبساً ررياً شبهت هيتا بهيئة «الفيلسوف». وقد كان هذا الأستاذ أثقل الناس روحاً، وأكثرهم ادعاء. بدأ دروسه لي بشرح نظرية المشل عند أفلاطون. فلما لم يجد مني تجاوباً، ولم يتبين لي وجهي لدة العلم، تفهقر إلى رأي سقراط في المعرفة، فإلى الجدل عند السفسطائيين، ذاكراً لي بعض نواجرهم وأحاجيهم الطريقة حتى يحجب الفلسفة إليّ! فلما لم

بفلق ذلك معي رأى أن يعرف لي الفلسفة، وكيف أنها حب الحكمة، وكيف قلب الإنسان القديم ناظره في السماء... إلى آخره. ثم اقتصر الدروس بعد ذلك على روايته لبعض الطرائف المتعلقة بحياة الفلاسفة، كشجارات سقراط مع زوجته وأسبابها، واعتداء شويتهاور بالضرب على سيادة ثرثرة في المسكن الذي يشعل حجرة منه، ووفاة ديكارت نتيجة لبرد أصيب به وهو في طريقه في الخامسة صباحاً إلى كريستينا ملكة السويد التي كانت تصر على تلقي دروس الفلسفة في تلك الساعة المبكرة. غير أنه حتى هذه القصص الشيقة كانت تخرج باردة ممجوجة من فم هذا الأستاذ الذي كان يعاملني بازدراء جم، والذي كان إذا رأيته مقبلاً للدروس دون مترة أو رباط عنق، ينظر إليّ في دهشة وتساؤل من فوق منظاره العليظ، ثم يأمرني في حدة أن اصعد لإتمام ملبسي بحيث يتفق وهية الدرس. ولعلني حين ضقت به ذرعاً تمنيت لو أنه لقي مصير ديكارت فيموت من برد يصيبه وهو في طريقه إليّ. وأخيراً تمكنت من أن أخلق في ذهنه فكرة استحالة تقبلي للفلسفة، فاعتذر لوالدي عن اضطرابه لقطع الدروس، بحجة أن الوقت ولم يحن بعد، فودعه والذي في أسف، وودعته في غير ذلك.



غير أن حناية والذي كانت منصبة أساساً على تعليمنا اللغات تعليماً متقناً. فانتقي لنا ملبساً ممتازاً للغة العربية، وآخر لا يقل امتيازاً للإنجليزية، وثالثاً وسطاً للفرنسية، وجارة ألمانية متزوجة من مصري لتعليمي الألمانية. وقد ظل الأولان منهم يدرسان لي ولأختي مدة عشر سنوات.

فأما مدرس العربية فكهول طويل نحيل، معني الظهر من فرط الطول، ذو شعر أشهب، ووجه طويل، وطربوش أطول. كان حين بدأ معنا مدرساً أول في إحدى المدارس الثانوية العريقة ثم أصبح خلال السنوات العشر ناظراً لها. وهو قريب لوالدي من بعيد، أخلاقي متزمت، ماہمت الإبتسامة، لا يطربه غير

طرائف أشعب، ولا يهزه غير مراثي الخساء. وهو مع هذا بالبع الفصاحة، شديد، يتمكن من اللغة والنحو، قوي مخارج الألفاظ، واسع الإطلاع في كتب الأدب القديمة. كان يجلس للدرس فلا يتكلم إلا فيه، ربما لصيق وقته وكثرة ما يعطيه من الدروس الخاصة، وربما لأنه لم يكن يرى أن تكون بين الأستاذ وتلميذه غير علاقة الدرس. ومع ذلك فلا بأس حين تبعث والدتي إلينا في المكتبة مع الخادمة بطبق من الكمك أو الحلوى، أن يقطع الدرس ريثما يفرغ من الأكل، وتُتات الكمكة تنائر على مسترته أو تتجمع عند طرفي فمه، ساردا أثناء مضغه النهم المسموع الصوت إحدى ملح الطعيليين الخاصة بالفالودج.

حاولت مرة أن أصرّح أمامه برأيي. كان يشرح لي يومها باب المدح بما يشبه اللم، فساق مثلاً قوله «أنا أفصح العرب، بيد أي من قرش»، ودعاني إلى الإعجاب بالبلاغة فيها. وإذ قلت صادقاً أي عاجز عن مشاركته رأيه، نهجم وجهه واحمر، وسكت دقيقتين كاملتين كأنما يعالب أثناءهما العصب. ثم قال في برود وثأف:

— هذا قول أشرف الخلق. وسواء تبينت البلاغة فيه أم عجزت عن تبينها فهو قول بليغ. . . هلم إلى الفرس.

فلم أجد معه إلى مثلها قط.

بدأ معي لسوء الحظ بداية سيئة. ذلك أنني قصّرت بعد درسه الأول في حفظ أبيات كلفني بحفظها من قصيدة لشوقي لعلها «مصادر الأيام». فلما سألتني عنها في الدرس التالي ولم أحر جواباً، شكّاني إلى والدي، فوبّخني أمامه توبيحاً عصبياً، مانحاً إياه حق الإلتجاء إلى الضرب إن لم يكن يجلسي غير الضرب معه. وبالرغم من أنه لم يلجأ قط إلى استخدام هذه الرخصة، فقد أثارت شكايته مني، أو كما كنت أسميها، وشايتي بي، وإهانة والدتي لي أمامه، حفيظتي عليه، وفتوري بحوه لزمان طويل، رغم محاولته إسترضائي فيما بعد.

كان كثير العيال، ثقل الحمل، لا يكاد يمر عام دون أن تأتي له روجه

مولود. وقد كان أبي يربخه على إفراطه في النسل، ويحذره من أحطار إنحائه في مثل تلك السن المتقدمة على صحة الطفل. فكان يعتذر بعدد أو باحر، ثم لا يلبث أن يعود. وكان لهذا كثير الطلقات والرجاوات إذا دخل والذي علسا العرفة هب من كرسية لتقيل يده، (مما كان يحدث لدينا نحن الصبية أثرًا غير طيب)، ويظل محوريح ساعة يتعلق أبي، ويبلغ في الثناء على كتبه الجديدة، ووصفاً كل كتاب بأنه حير ما كتبت في الأدب العربي الحديث، وأروع كتب أبي على الإطلاق. فإن حاول والذي أن يقاطعه ويصرفه عن مثل هذا الحديث، استمر عمر عابث. حتى إذا ما فرغ بدأ يشرح شكائته ويسطر رجاءه، من علاوة أو درجة أو غير ذلك. فكان والذي عند هذه النقطة من الحديث يصرفنا من الحجرة حتى لا نسمع أستاذنا راجياً أو شاكياً فتقل هيته في نفوسنا. حتى إذا ما انصرف والذي حُذنا، فينمخ الأستاذ بأنفسه في تعديل، ثم يسمح مسحاً عنيفاً. ثم هو يبعث بسجته بعض الوقت متمتعاً بمبارات لا نميزها، ثم يهز رأسه هزة، ثم يعود إلى الدرس.

فأما مدرس الإنجليزية فصديقنا الذي نترقب زيارته في شغف، وخليصا الذي يبيع لنا الحديث فيما يريد الحديث فيه، والتعبير الحر من كل ما يراودنا من أفكار، دون ما حرج أو استحياء. كان وقت أن بدأ معنا لا يكاد يتجاوز الخامسة والعشرين وهو ابن صديق لأبي، دفعه والذي دفعة في مستهل حياته العملية فأحب أن يعبر عن امتنانه بإعطائنا الدروس. ومع ذلك فموقفه من أبي غير موقف المتملق المستصغر شأن نفسه فهو إن حدث صديق، وإن سئل عن رأيه عبر عن رأيه، لا يقبل يداً ولا يكثر من طلب، وهو ما رفع من قدره في أعيننا.

وقد كان لدى والذي على رف واحد بالمطبخ، ثلاثة أصناف من البن، متفاوتة الجودة، تصنع القهوة من كل صنف منها لطائفة معينة من الناس بن يعني ممتاز تصنع القهوة منه لطفه حسين وعبد الرزاق الستهوري وأحمد لطفي السيد وأمثالهم من عليا القوم، ثم بن برازيلي يصنع منه لمن قل في المقام عن

هؤلاء، وبسبب وسط محصص لسكرتير والبلدي وأقاربه الفقراء. وقد كان كلما طُلب إلى الحادم إعداد فتجان قهوة نصيف، أتى إلى والدتي يتلقى تعليماتها الخاصة بسوق البس الذي يستخلمه، فلا تشير عليه به حتى تستعهم عن هوية لرائر والعريب أنها كانت تأمر للمدرس الانجليزية هذا بقبوة الطبقة الأولى، طبقة طه حسين والنفراسي ناشا، وهو خروج عن مفهومها الطبقي فيه غموض غير أن لهذا الخروج في واقع الأمر سرًا:

ذلك أنه حدث في يوم من الأيام في السنة الأولى أو الثانية من سني تدريسه لنا، أن تقدم إلى والدتي يطلب يد إحدى أختي. كان قد سمع أن لوالدي بنتين، ففكر في الزواج من إحداهما رغم أنه لم يكن قد رأى أيًا منهما، تاركًا لوالدي اختيار المصاصة له. وما رلت إلى اليوم أذكر ساعة أن دخل والدي علينا المكتبة وأحله ما لبضع دقائق إلى غرفة الصالون ليمتثلر له بأن البنتين محطوتان بالعمل ولولم يكونا لشرفه وأغبطه أن يروجه إحداهما، وليعرض عليه تزويجه من ابنة أخ له، (إذ كان لوالدي في ذلك الحين حربة مطقة في ترويع من شاء من بنات العائلة - فريائهن في درجة القرابة ويعيدتهن - بمن شاء من الرجال، دون أحد رأيهن، وهي سلطة انكمشت فيما بعد حين اشتدت ثورة البنات على ممارسته لهذا الحق). غير أن المدرس اعتذر بدوره وعاد إلى المكتبة يضحك مرتبكا وقد احمر وجهه. وقد راقبناه نحن الصبية وهو داخل (وكننا على علم بالموضوع كله) وفي قلوبنا ألم وإشفاق وقد ازدادت معزته لدينا ونمقلنا به. ومن وقتها ووالدتي ترسل إليه في المكتبة القهوة الممتازة. ومرت الأيام والسنوات، وتزوجت أختاي وأنجبتا، غير أنه ما من خلاف كان يحدث بين إحداهما وزوجها إلا عبرت والدتي عن «حسرتها» وأصفها إذ لم تتزوج العتاة مدرس الانجليزية، «ذلك الشاب الممتاز الودود» (بالرغم من أنها لم تره قط) بدلًا من هذا الزوج الذي «لا يقدرها حق قدرها» وكانت والدتي إذا سألتنا عن معنا في المكتبة وأجابها بأنه مدرس الانجليزية، تسألنا دون تخلف وبصوت مرتفع:

— أهو الذي كان قد تقدم لحظطة أحتكم؟

فشير إليها متوسلين أن تخصص من صوتها حتى لا يسمع! كما لا شعر منه ربما لشبابه وحيوته بذلك التنازل في الحديث الذي ينهر الصغار من الكبار. فهو مهتم بما مهتم به نسأله عن الشيء فيطيل التفكير فيه وكأنما سألناه سؤالاً عميقاً فإن نجرأنا وسألناه عن السب في أنه لم يتروج، (وهو باقي إلى يومنا هذا دون رواج) أجاب على استهامتنا إجابة نظرت لإخلاصها ونظرت أيضاً لإقباله على الرد وكأنما كان ينتظر فرصة كهذه كي يعتح صدره. فهو صبي يترس الصبية؛ ينظر في المعجم معنا أو في دائرة المعارف البريطانية للبحث عن معنى غمض عليه، أو نقطة يجهلها، ويأخذ بالكلمات المعيدة أو المعلومات الجديدة مذكرة لنفسه. وهو كثير الضحك لدرجة قد تذهل المير وتثير المحجب بل والإرتباك. يضحك لما يستأهل الضحك وما لا يستأهله حتى ليكاد البعض يظن به نوعاً من الخبل، وإن كان الجميع لا يملكون إلا الاستجابة له، وتلقي العدوى منه. وهو وسيم سرنا أن نكتشف في ملامحه شيئاً قوياً بملامح الممثل الإيرلندي نايرون باور. وهو شبه لم يكن هو ليعترف به، وكان يكره في تواضع وهو يضحك. ولشد ما ساء ما أن اضطرت الأيام إلى لس نظارة، فسد الشبه. ثم أفسده أكثر وأكثر بمضي السنين امتلاء وجهه وجسمه، وغلة سيماء الموظف على هيئته وزيه.

فأما دروسه فنصفها في اللغة، ونصفها حديث في الأدب. فهو محب للأدب يجيد الكتابة. ألف وهو في السادسة والعشرين رواية لقيت نجاحاً لا بأس به، ثم اتجه بكلية إلى الترجمة فترجم روايت لتوماس هاردي وغيره بأسلوب عربي رصين. وهو لا يفرض علينا موضوعات الإنشاء، وإنما يترك لنا حرية الكتابة فيما نشاء، فكنا نختار غالباً موضوعات شخصية لا تنقيد فيها بطول، كالمركز الذي يحب أن نتبناه حين نكبر، ورأينا في الدين، وعبوسا وكيف يمكن التخلص منها، إلى آخره. حتى إذا ماتته إلى أن مثل هذه الموضوعات ليست من النوع الذي يطلب منا الكتابة فيه في امتحانات

المدرسة، أسرع هبط ما إلى الأرض، وأعطانا موضوعاً محدداً الطول عن الكلاب، أو الطائرة التي تفاحر سيارة، أو الصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء . فكان يصحك من هذه الموضوعات الأحياء، ولكن نستجيب، مقدرين النوافع إليها، والحاجة إلى التمرن على الكتابة في مثلها.

بيد أن أكثر ما حبه إليّ ما كان يُبدى من ثقة بمستقبلي، وتقديره للعناصر الطيبة في شخصيتي. وقد طلب مني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر وعداً بأن أعينه ورياً للمعارف متى ما صرت رئيساً للوزراء. فأعطيت الوعد في جد وحماس ثم لكأنما أراد أن يصنع لنفسه هذا المنصب، فأشرف على تزويدي بثقافة تشرف أي رئيس للوزراء، يصحح ما أكتبه من قصص وينقلها، ويمدني بقائمة تلو قائمة بأسماء الكتب الواجب قراءتها، ويشجع انتهاجي أسلوباً خاصاً بي في الكتابة.

ولقد كان أحرف ما أحافه حين التقيت بكلية الحقوق فاقطعت الدروس، أن تنقطع الصلة بي. غير أن هذا لم يحدث وكثيراً ما أروره ساعة أو ساعتين في حال الأدب في العالم العربي، ثم يسألني عن نشاطي الفكري وأسأله عن نشاطه. والراجح أن يكون أمه في وزارة المعارف قد رآه زوال شبهه بالمثل الإيرلندي.

فإن كنت قد تطلعت في يوم من أيام صباي إلى منصب رئيس وزراء له الأمر والهيبة والتميز في كبريات الوظائف، واضعاً بين الحين والحين قائمة بأعضاء الوزارة تضم أسماء من أكون راصياً عنهم من الأخوة والأصدقاء، إن تشاجرت مع أحدهم بسبب قلم أو لعبة شطرت اسمه من القائمة، وإن بلغ شجارنا حد التلاكم والضرب رجعت به في السجن، وإن كانت قد داعبت محيئتي بعد ذلك أو قبل ذلك فكرة أن أصبح مدرساً أصرب بعض التلاميذ وأكافئ البعض، أو فكرة أن أكون إماماً عادلاً عملاقاً كعمر بن الخطيب، أو رجلاً مشهوداً قوياً مثل كاليوسترو وراسبوتين، أو قائداً عسكرياً على غرار

بالمليون، أو قديساً من طراز غانلي، أو مفتشاً للغة العربية أو التاريخ أدخل
الفصول في ثقة فيترعد المدرسون ارتعاداً، أقول: إن كانت قد خطرت ببالي هي
وقت من أوقات صباي هذه الفكرة أو تلك، فإنما ليوم أو بعض يوم، أو أسبوع
على أكثر تقدير، تخطر، فتراد، ثم نمضي لا نعود. فكرة واحدة فحسب بدأت
تراودني في السلسلة، ولم تترك رأسي بعد ذلك، وهي أن أكون كاتباً. فأنما
رئيس وزراء أديب، وعمر بن الخطاب أديب، وجمال أديب، وقديس أديب،
وقائد يضع الخطط الحربية أنساء النهار، ويكتب القصص والروايات أنساء
الليل..

وهنكم قد صللتم الطريق إلى واحة الصحراء - هكذا كان أبي يردد
أمامنا - ثم صادفكم في الطريق عشرات من الأدلاء كل يدعي أن باستطاعته
إرشادكم إلى الواحة. فأي المرشدين تتقنون وأنتم ترون بعضهم يشير إلى
اتجاه، والبعض الآخر يشير إلى الاتجاه المصاد؟ تتنازعون يشته أم تولستوي؟
توما الأكوبي أم برتراند راسل؟ هيجل أم شوبنهاور؟ هذه بالضبط هي المشكلة
الأولى في القراءة: انتقاء المرشد إلى الحياة الفصلى، والمجيب لكم عن
أسئلة تشغل القلب والعقل. وكما أنكم لن تختاروا غير الدليل الذي طابت
سمعته، وأرضى مطمح الكثيرين قبلكم، كذلك فلا تقبلوا على القراءة إلا
للمعطاء حقاً، الجادين حقاً، الذين شغلوا أنفسهم بالإرشاد للإرشاد لا للكسب
أو طلباً للمجد. فإن تساوى في السمعة إثنان فكلهما على طرفي نقيض،
فلا يأمن في تجربة كل منهما فترة معينة، حتى يدلكم القلب أيهما أقرب إلى
نفوسكم... .

وكذا بشا نحن ننظر إلى القراءة. فلم يحدث أن قرأت في صباي رواية
من روايات الجيب وغيرها من القصص البوليسية التي كان يقبل عليها أقرامى
من الصبية. وكان روايات جرجي زيدان ومحمود تيمور ومسرحيات توفيق
الحكيم أحف قراءاتي طراً، سرعان ما انتقلت بعدها إلى كتب العقاد وهيكمل
وطه حسين، فتراجم بلوتارك، فأعمال جوته وتشيفوف، فابن حزم والغزالي،

وابن تيمية في سن الخامسة عشرة، فيتشبه وأفلاطون في السادسة عشرة. ولا تزال هي أيدنا أعداد من مجلة «الثقافة» التي سمح لنا والذي، صاحب امتيازها، بالكتابة فيها في صبا، تحمل مقالاً لأخي جلال في مناقشة إثباتات ديكارت الأربعة لوجود الله، كتبه وهو في الخامسة عشرة، ونقلاً بقلبي لفلسفة ويليام جيمس كتبه في السادسة عشرة، وتحليلاً لأخي حافظ لمؤلفات الفيلسوف الإسلامي الهندي عايت خان كتبه وهو دون العشرين.

كنا أحياناً نجد صعوبة في إقناع والذي بهاجتنا إلى حلة أوحذاء جديد، صعوبة تعضسا منه. أما فيما يتعلق بالكتب، فالباب مفتوح على مصراعيه نشري منها ما أحببنا. فهو يأذن لنا بأن نأخذ من مكتبة النهضة المصرية التي تتولى نشر مؤلفاته أي عدد من الكتب دون قيد، ثم نحاسب المكتبة في آخر العام. وقد كنت أكثر أبنائه استعمالاً لهذه الرخصة. ولم يحدث أن اعترض أبي على إسرائي في هذا الإستغلال إلا مرة واحدة، حين قرأ في كشف الحساب السنوي اسم كتاب في تاريخ العالم من خمسة عشر مجلداً بلغ ثمنه أربعين جنيهاً



وقد علمنا والذي ألا سمح للآراء الشائعة للنقاد أو الناس بأن تحد من حريتنا في الحكم على ما نقرأ:

ولا تحشوا أن تخالفوا مفكراً في آرائه، أو أن تعبروا عن عدم رضاكم عن كتاب مشهور. فكما أن الفيلسوف الألماني شينجلر يحذر الدول الغربية من التنازع فيما بينها حتى لا تفقد احترام شعوب مستعمراتها من الملونين فتسمى إلى المطالبة بالاستقلال، كذلك فإن اختلاف المفلاسفة والنقاد في أحكامهم يعطيكم الحرية الكاملة في أن يكون لكم رأيكم الخاص... لا تحشوا أن تحكموا على هيجل بالاندعاء والسفسطة والغموض، ولا تدعوا شهرته تخفيكم، فكذلك هورلي شوينهاور فيه. وتولستوي يرى أن شكسبير مؤلف

رديء، وأن يتشبه نصف مجنون. . فمهما كونتم من رأي سيء في أحد المفكرين، فستجدون له صدق في مفكر مشهور مثله وبمرور الوقت، سيكون بوسعكم الاستغناء حتى عن هذا التعصيد، والوقوف ولو صد الناس أجمعين. وهذه هي ميزة القراءة الكثيرة، فهي تزيد من حريتك في إطلاق الأحكام.

وهو نفسه ينزع هذه القاعدة إلى متهاها: لا ينجل من التعبير عن كراهيته للموسيقى الغربية بأسرها، خفيها وجادها، وتفضيله الاستماع إلى أغنية أسمهان وليت للبراق عيناء على الاستماع إلى سيمفونية ليرامز. أذكر أنه مرغ يوماً من قراءة عدد من التمثيليات الإغريقية التي ترجمها طه حسين إلى العربية، فما أعلق الكتاب حتى شرع يحبط كفاً بكف يعجب لأمر ذلك الإجلال والتفديس اللذين يكنهما الناس، أو يظاهرون بأنهم يكنونهما، لكتاب المسرح الإغريق. . لم يجد في كل تلك الصفحات الكثيرة سطراً واحداً أعجبه، أو حكمة طرب لها. فقام من دوره يتصل بالدكتور طه تليفونياً، يسأله أن يشرح له في صبر وإخلاص ما يمكن أن يعجب القاريء في الأدب التمثيلي اليوناني.

وربما كان من أهم ما سمعته من والدي بصدد القراءة، ملاحظته التالية:

«لن يكون بوسع أرىء أن يفوس في أعماق إسان آخر ويفهمه، حتى يحبه كل الحب، وحتى يتلاشى لديه التمييز بين نقائصه وفصائله، ويعرم بمجموع صفاته. كذلك فيما يتصل بالقراءة فهي لا تكاد تكون مجدية إلا إن أحيت كاتباً حباً تضع مع التفرفة بين الضعيف من أدبه والقوي، حباً يضيء لك الغامض ويكمل الناقص. . . إن حك القوي لزوجتك تعينك على فهم النساء كلهن، ويكون أكثر قيمة من معرفتك السطحية لعشرات العشقات وكذا سيكون غرامك بأديب أو مفكر معين أعظم قيمة من اطلائك السريع على أعمال مائة من المفكرين. وتأكد أن تحمك الحقيقي الشديد لأحدهم يعني أنك قد وفقت إلى من سيمكنه مساعدتك مساعدة إيجابية على إنصاج شخصيتك، وتنمية مواهبك وقدراتك الخاصة».

ومع ذلك، فقد حدث أثناء زيارته للندن، حين احتير عصباً بمؤتمر
العائلة المستديرة الخاص بمشكلة فلسطين عام ١٩٤٦، أن أرسلت إليه خطاباً
أذكر له فيه أنني قد بدأت في قراءة أوسكار وايلد، وأني شديد الإعجاب به
ولا أدري كيف وجد من الوقت ما سمح له بتحرير رده التالي الذي بدأه هكذا
دون تمهيد أو تحية:

«في إحدى الوثائق التي عُثر عليها في مدينة كولونيا بألمانيا، والتي يرجع
تاريخها إلى عام ١٤٩٩، بعد اكتشاف الطباعة: إن الله تعالى، بحكمته
اللاهائية، قد مكن الإنسان من اكتشاف ذلك الفن المجيد، فن طباعة الكتب،
الذي نستطيع بفضلَه أن نتج نسخاً منها لا حصر لها، مما بهيء العرصة لكل
فرد أن يقرأ بنفسه، أو أن يسمع غيره وهو يقرأ له، عن أفضل السبل لنجاة
روحه.

«تلك هي النظرة السليمة الوحيدة إلى فن الأدب. فهل هي مما تجده
عند صديقك وايلد؟»

«هذا الوغد، كما أفضل أن أسميه، ما كان ينبغي أن يخدع صبيّاً ذكياً
مثلك، لم يفقد حساسته الخلقية، ولم يصب ذوقه الصبي ما أصاب ذوق البنات في
زمننا هذا من انحراف.

١. . . أريد أولاً أن أنبهك إلى ضرورة أن تكون لأنفسنا أساساً نحكم
على هديه على ما نطلع عليه من فنون، حتى يكون بمقدورنا لفظ الزائفات منها،
فلا نسمح له بأن يشوّع عقولنا، ويؤثر في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن
سلّمت معي بأن مهمة الفنون، كما سبق أن ذكرت لك، إن هي إلا توجيه
حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من
هذا التوجيه وحذار من التأثير بالنقاد في هذا الصدد، أو إتاحة العرصة لهم أن
يكتموا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة صمير، ضمير كل شخص على
حدة. وليس بوسع ناقد مهما كان شأنه، متى رأيت أن عملاً فنياً معيناً يعرقل

حياتي الروحية، أن يثبت لي العكس. وكثيراً ما تكون الحياة الروحية لدى النقاد من الموت، بحيث تجعلهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب، إن لم يكونوا قد اتخذوا موقفاً عدائياً من الفن الطيب الذي يظهر لا أخلاقية موقفهم من الحياة.

«سئل نفسك عقب الفراغ من قراءة عمل أدبي عما إذا كنت قد صرت بفضل قراءتك إياه إنساناً أفضل، عما إذا كان عزمك قد قوي على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية ونبلًا. فإن كان جوابك بالإيجاب، فإن الكتاب الذي قرأته هو عمل فني من الدرجة الأولى».

وتم طُبق ذلك على أوسكار وايلد، إني واثق من أنك لم تخرج من قراءته أكثر طيبة ونبلًا، وأنت لم تنظر إلى من حولك بعدها نظرة أشدّ نفهًا وعطفًا وإنسانية. العكس تمامًا هو الصحيح: وهو أنك صرت أكثر احتقارًا للناس، واستخفافاً بهم وبأمانهم وبما يكدهون من أجله، وأشدّ انفصالاً عن مظاهر الحياة حولك».

«كان المفكرون والعنانون القدامى إن أرادوا أن يقولوا شيئاً قالوه، لا يمسكون بأقلامهم إلا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً، فإن أمسكوا بالقلم كتبوه. أمر بديهي؟ إنه ليس مديهيًا عند صديقك وايلد، وعند الأكثرية من الكتاب المحدثين . .».

لم أكن في أي وقت من الأوقات، حتى في سني طفولتي، قليل الثقة بالنفس، أو حتى متمتدًا. وقليلون هم الذين يبرهنوني من صفة العزور.

وقد تألفت العوامل منذ البداية على تقوية هذه الثقة وتدعيمها. ففي البيت، تفهيم والدي إني، ومحاباته لي، واعتناؤه الخاص بي باعتباري خليفته في الأدب، وفي المدرسة، تفوقتي الدائم في اللروس، وكرامية التلاميذ لي، وحرص المدرسين على إرضائي من أجل والدي الذي كان قد وصل في ذلك الحين إلى منصب العمادة في كلية الآداب وعضوية المجمع اللغوي،

وأنت له كنه عن فجر الإسلام وضحاها وظهره نصيب ضحم من الإعجاب والتقدير.

وقد كانت السنوات الثلاث التي قضيتها في روضة الأطفال، والسنة الأولى من المرحلة الابتدائية، أهم السنوات في تكوين شخصيتي وتكوين استعداداتي. قد خلقت مي صبياً جم المطامح، شديد الإحساس بداته، لا يهرب الناس ولا يتوق إلى صحبتهم، ولا يرضى بغير مركز الرعاية في أي أمر من الأمور، لهواً كان أم جدلاً. وإنه لمن النادر حقاً أن تعثر على صبي أشد غراماً بالسيطرة على من شاء الخضوع لها ومن لم يشأ، قليل الاحتمال بمشاعر الآخرين، قليل الحرص على إرضائهم.

لم أكن بأية حال من الأحوال أذكي تلاميذ الفصل، بل ولا أحد أذكياؤه ولو كنت ذكياً لما بلغت درجات الامتياز في جميع المواد، من اللغات والتاريخ إلى الجبر والطبيعة، ووكانما هي عندي سواء. صحيح أنني كنت أفضل اللغات ومجموعة المواد الأدبية والنظرية، واستقل الحساب والكيمياء وعلم الأحياء. مير أن إجادتي للمجموعة الثانية كانت كإجادتي للأولى، وكنت أبذل في مذاكرة ما استقله أضعاف الجهد الذي أبذله في دراسة ما أحب، حتى أتفوق في كل شيء. كان هناك بالفصل من يفضلني في الحساب، ومن يفضلني في الإنشاء أو الكيمياء، غير أنه لم يكن لرميل طوال سني الدراسة الابتدائية والثانوية مالي من روح حلوانية، ومن هو من الطموح، أو من الغباء، بحيث يقبل على مذاكرة ما لا يحب أكثر من إقباله على مذاكرة ما يحب. لهذا كان ترتيبي دائماً، باستثناء مرتين أو ثلاث، الأول في الفصل.

أذكر المرة الأولى التي كان ترتيبي فيها الثاني لا الأول. كنت حينئذ في التاسعة من عمري، في السنة الثانية الابتدائية. وكنا نجلس في الفصل في انتظار مدرس الحساب، فجاءني أُندي، كي يتلو عليا نتيجة الفترة الثانية. وكان التلاميذ فيما بينهم يتبادلون بمن عساه يكون الثاني والثالث والرابع، تاركين لي

مكان الأولوية كأمر مسلم به . وإذ دخل بجاتي حاملاً النتيجة - حبل إلي أنه صوب نحوِّي نظرة فيها شماتة وتشفّت انخلع لها قلبي . فقد كان هذا للمدرس بالذات يدرك ما بي من غرور . وهو يدرك خطورته ، ويدرك ضرورة اقتلاعه أو التخفيف من حدّته على الأقل . وكثيراً ما كان يتقدم إلى روج أحتي ، وهو زميل له ، يجأر بالشكوى من تصرفاتي ويقترح عليه الحلول . فما أن فتح الكشف يتلو النتيجة منه ، وما أن وقع على سمعي أنني لثاني الفصل لا أوله ، حتى استودت الدنيا في عيني ، ومالت بي الأرض والجدران من حولي . . .

هنيء إلي حينذاك أن أعين التلاميذ قد اتجهت كلها صوبي تعبر عن فرح لا يعاؤون بكبته . وخيل إلي أنهم قد اكتسوا من النتيجة بهذا القدر ، فلم يحطوا بقيتها اهتماماً ولم يعاؤا بما قد يكون عليه ترتيبهم هم ! غير أنني جررت على أساتي حتى لا أنكي أمامهم وأظهر تأثري . فما وصلت إلى البيت حتى ألقيت بكراساتي وكتبي على الأرض ، ورمت بعصي بين دواعي والذي أحشش بكاء لم أحشش بمثله بعدها قط ، مما دُعر له الجميع فلما علموا السبب تنفسوا الصعداء وضحكوا ، مما زادني بكاء وعويلًا . فاما والذي فقد ظل يربّت على رأسي مهدئاً حتى هدأت ، وحتى انتهى بحبي من عويل صاحب ، إلى بكاء خافت ، إلى شهقة متقطعة . ثم دهاني إلى أن أمسح دموعي وأغير ثيابي ، واصطحبني إلى دار الإذاعة حيث كان مدعواً لإلقاء حديث فيها ، فاستأذن المذيع أن أجلس معهم في الاستوديو أثناء الإذاعة . وقد أذن المذيع على ألا تصدر مني حركة أو صوت . وجلست مبهوراً أقرب المصباح الأخضر فالأصفر فالأحمر بضياء على التوالي ، وأتمسست بأصابعي جدار الغرفة الفلّيني ، وتخلمرتني فكرة الصياح فجأة حتى سمعني إحوتي في البيت فيقولون : وهذا حسين ! ، فاضحك في نفسي ضحكاً مكظوماً لهذه العكرة . فما انتهى الحديث حتى كان الألم قد ولى ، وما انتهت الفترة الثالثة حتى كنت قد عدت إلى الأولوية من جديد .



وقد كان حليفاً بي، وقد أثبتت مصوقي في الدروس، وأرصبت عريرة السبطرة في ميدانها، أن أترك لميري من الصبية فرصة أن يبرروا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توارن يخفف من حنقهم عليّ. ولكن عشاً! هي قاعة الموسيقى أنا المغني وهم بمدني يرتدون. وفي جماعة التمثيل الممثل الأول وهم التالون. وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين وفرعون الذي به يأنمرون. كل هذا دون أن تكون لديّ موهبة خاصة لا في العناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والصرب، مما يجعلني أعجب أشدّ العجب كيف سمع التلاميذ لي، وأنا الذي لا سلطان لي عليهم في فناء اللعب، بأن أكون قائدهم، بل أن بشركوني في لهوهم على الإطلاق، وكيف رضيت صمائر المدرسين أن يسننوا إليّ الأدوار الرئيسية في التمثيل، ويكلفوني بالعباء

وإني لأذكر والخجل يملأني يوماً جلس إلينا في المدرس المشرف على جماعة التمثيل، يمارح أحد التلاميذ البارعين في التمثيل كل البراعة، الحائزين في الدروس أنقل الخيبة، قائلاً له إنه لا يفلح في التمثيل إلا الحائز البلد. فما طيك إذ تراني أقوم هاتفاً بالمدرس

— فمادا عبي، وأنا المجيد للتمثيل والدروس جميعاً!

فإذا المدرس يحدجني طويلاً بنظرة يمكن تخمين طبيعتها، ثم إذا هو بعد هذه النظرة وهذا الصمت يشيح بوجهه عني ليواصل ما كان فيه من حديث

ثم أذكر وأنا في خجل أشدّ أن مدرّس العربية، ويدعى يوسف المحجوب، كان قد اتفق مع الإذاعة على أن يقوم بتلايد فصله بتمثيل مسرحية شعرية من تأليفه في برنامج دكن الأطفال. وكانت المسرحية عن بلال مؤذن الرسول، بلال بطلها، وهو يعني فيها عدة أضيائات من بينها أغنية رائعة للحن، مطلعها.

رب أحد

أحد! أحد!

لا والد
ومائة

ولا ولد
كفوا أحد

وحدث أن اكتشف المدرس الشاعر موهبة حقيقية في الماء لدى تلميذ هادى، وسيم صئيل الجسم ما أن اكتشفه حتى محاني . عن دور بلال مسنداً إليّ دور رأس الكفر أمية بن خلف! فما ظنك إذ تراني أقبل السور دون اعتراض، وأستعد معهم إذ يستعدون، متظاهراً بالرضا وعدم المبالاة، حتى إذا جاء يوم التمثيل، وتمقّد المحجوب مثليه كي يصطحبهم إلى دار الإذاعة، بحث عني فلم يجدني، وسأله فأنبروه أنني معتذر لمرضي، وما كان بي يومها مرض، أو كان بي مرض ولكنه غير المرض الذي اعتلوت به .



فإن سألني سائل أن أقرن صباي بحدث معين يميّزه ويشير إليه، ويُلخص في بضع فقرات قصار الصبي الذي كتته، لُفخاً إلى ذهني على الفور الحادث التالي :

كنت وقتها في الثامنة من العمر في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية : طفلاً ليس بالوسيم، طويل الوجه، غليظ الأنف، كثّ الحاجبين . فإن حكمتُ من الصور الشمسية لي الممتية إلى ذلك العهد، قلت إنني كنت دائماً مقطب الحاجبين في عظمة، يشعّ من عينيّ الواسعتين مريق طالما كان مثار التعليق والتتبر . فكثيراً ما أهلب بي والذي ألا أقطب، وألا أبرق عيناى . فإن أجبتهُ بأن هذا مما لا إرادة لي فيه، ردّ ضاحكاً :

— بل تتكلّفه لعلك أنه من مظاهر العظمة .

واحتج عليه مترضاً في إخلاص، فيقاطعني مهدئاً :

— حسناً، فلتحاول إذ أن نغصب نفسك على ألا تقطب أو تبرق، فهما يشيران بالنظر .

استأثرتني إدارة المدرسة كي أكون عَرِيف الفصل، أحل محل المدرسين في فترة الدقائق العشر التي تفصل بين حصّة وأخرى، فحافظ قدر الإمكان على النظام بين التلاميذ، أسمح لهم بالحديث دون صياح، وبالتنقل الهادئ بين المقاعد دون الجلبة والصوضاء. فإن خرج أحدهم عن هذه الحدود المقررة، أبلغت اسمه مدرس الحصّة التالية فيعاقبه أو يعمو عنه. كان هذا هو كل المطلوب من العريف. غير أنني، لسبب ما، تجاوزت حدود سلطاتي تجاوزاً عربياً لا أدري كيف صبر التلاميذ عليه، في حين كان من الممكن لأيّ عصيان أو تمرد على منهجي أن يجلب عليّ تفرّيع الإدارة. ذلك أنني لم أكتب بأن أحرّم عليهم الكلام الهادئ فيما بينهم، والتنقل بين المقاعد خلال دقائق الراحة تلك، بل اعتصمت لنفسى حقوق المدرس، فأصبحت أطلب من هذا التلميذ أو ذاك أن يقف ويقرأ جهراً في كتاب المطالعة، مستوفهاً إياه بين الحين والحين لأسأله أو أسأل جاره عن معنى هذه الكلمة أو تلك! صحيح أنني لم أحرّض في بادئ الأمر على الضرب بالمسطرة إن بدر من أحدهم ما يعضب، غير أنني كنت أمر المشاهدين منهم أن يتركوا مقاعدهم إلى أركان الفصل، فيديروا وجوههم إلى الحائط ريثما يأتي المدرس. فكان المدرس إذا وصل يعجب أشدّ المعجب لهذا العريف وسلطانه، وإلحاعة التلاميذ إياه أكثر من إطاعتهم بعض المدرسين.

ثم حدث في يوم من الأيام أن تأخر مدرس الحصّة عن الحضور مدة تزيد على ربع ساعة. فظلمت واقفاً عند السبورة، وفي يدي المؤشر، أستمع إلى مطالعة تلميذ. وفي هذه الأثناء كان ناظر المدرسة يرمّ بالردمات لتفقد النظام، فسمع ضجيجاً وصحكاً صادرين من الفصل المقابل لفصلنا عبر الردهة. وإذا فتح الباب فجأة دون طرق، رأى مدرساً مسكيناً يحاول عبثاً ضبط النظام، بينما وقف بعض تلاميذه عند النافذة غير عابئين به، وجلس بقيتهم يتحدثون ويتضاحكون. فما رأوا الناظر أمامهم حتى خيم عليهم جميعاً سكون الموت. وتقهقر الوقوف منهم إلى مقاعدهم، بينما بدأ العرق يتصبب من جبين المدرس

الذي أشار إليه الناظر أن يتبعه إلى الردهة. وهناك أنه الساظر أعنف تأليب،
وسأله إن كان غير قادر على أن يحفظ كرامته ووقاره أن يترك مهنة التدريس
لغيره.

ثم تركه الناظر إلى فصلنا الذي تنهى إليه منه عبر الباب صوت هادىء
يطالع. وإذ فتح الباب، وقف نصف دقيقة مشدوهاً يرقب هذا التلميذ الصغير
في الثامنة، وفي يده المؤشر، يصغي مقلّطاً إلى زميل له واقف عند درجه يقرأ،
وبقية التلاميذ جلوس ينظرون في كتبهم.

صحبت بالتلاميذ:

— وقوف!

فهبوا واقفين تحية للناظر الذي أوما إليهم برأسه أن يجلسوا. ثم تقدم
مني وما زالت في هيئة دهشة:

— أين المدرس؟

— لم يأت بعد.

— أنت عريف الفصل؟

— نعم.

— ما اسمك؟

— حسين أحمد أمين.

— ابن حميد كلية الآداب؟

— نعم.

— برافو يا حسين. إستمروا.

ثم خرج. واستأنف التلميذ المطالعة. فما مضت دقيقة حتى عاد الناظر
وقد أحضر معه المدرس المسكين من الفصل المواجه.

— وقوف! (هكذا صحت).

غير أن الناظر أشار إليهم بسرعة ألا يقفوا، وطلب مني أن أمضي فيما كنا فيه. وظل الإثنان يرقباننا مدة، والناظر يحدج المدرس بين الحين والحين نظرة ذات مغزى. ثم أتخله وانصرف.

وصلت تفاصيل هذا الحادث إلى أبي من مصدرين: من زوج أختي الذي كان يدرس اللغة العربية لفصلنا ذلك العام، ثم من الناظر نفسه بعد يومين. وقد كان سرور أبي وقتها عظيماً وسرعان ما شاعت القصة بين أفراد العائلة الذين اشتهرت بينهم منذ ذلك الحين بأبي «صبي ذو شخصية» أما في المدرسة، فقد سارع تلاميذ الفصل المواجه إلى مقارنة قصتهم بقصة تلاميذ فصلنا، مؤلفين من القصتين قصة واحدة سرت أنباؤها إلى سائر الفصول. وظللت مدة أسبوع لا أنزل إلى فناء المدرسة في فترات الصبح إلا وأشارت الوجوه والأصابع إليّ. ثم جرت بعدها أن أوسع حدود سلطاتي خلال الدقائق العشر، فإذا التلاميذ لا يقاومون ولا يشكون.



لم يكن من المتوقع إحد أن تجلب لي شخصيتي هذه حب التلاميذ، وإن كسبت احترامهم. وما زلت أذكر عدداً منهم كانوا على استعداد لافتراسي افتراساً لو أن الفرصة فقط حانت. غير أن أمراً معيناً كان يحول بينهم وبين تنفيذ هذا القصد.

ذلك أنه كان لي طوال سنوات الدراسة الابتدائية ما يمكن تشبيهه بالحرس الخاص:

كان بفصلنا في السنة الأولى تلميذ مسكين، زرع الهيئة، رث الثياب، بالغ القدرة. كنا كثيراً ما نرى القمل يزحف جهاراً من تحت ياقة قميصه المهلهل، أو يسقط من شعره الطويل المرسل على الدوج. وقد بلغت به القدرة وقوة الراحة مبلغاً جعل التلاميذ يرفضون بإصرار مشاركته في المعاهد

المزدوجة بالفصل، ذاكرين السبب للمدرسين في صراحة، وفي حصرته فكان يحصر له مقعد وحده في آخر الفصل، سرعان ما كان يلوثه بالحر والطباشير ودهن الطعام الذي يحمله. وقد انتقلت عدوى احتفاره من التلاميذ إلى المدرسين الذين كانوا كثيراً ما يجلسون في كراسيه بقعاً زيتية كبيرة، فيرفضون تصحيحها، ويقذفون بها في وجهه. فكان يتلقى إهانات الجميع له في استسلام ذليل، وكأنما لم يكن من الممكن له أن يتوقع غير ذلك

كان التلاميذ إذا لاحظوا في مؤخرة سرواله أو ظهر كفه مؤقناً، فاجأوه من الخلف فزادوا المرق اتساعاً حتى تظهر منه ملابسه الداخلية ظهوراً شائناً. فأما حدوّه فكان يغطي حدوشه بالحر الأسود محاولاً إخفاءها. وكان الحصص كثيراً ما يتسرب من خروق نعله فيؤدي قذميه. فإن جلع حداه في الفصل لفض الحصص منه، انبعثت من جوربه وقدمه رائحة فظيعة تملأ الصفوف الخلفية من الفصل، فيسئد التلاميذ أنوفهم بحركات مبالغ فيها. وكان المدرسون إذا طلبوا منا إحضار كراسيات جديدة في اليوم التالي، طلل الصبي أسبوعاً أو أسبوعين عاجزاً عن شراء الكراسية، معرضاً نفسه لتأنيب المدرسين وسخرية التلاميذ، حتى يندس في يده مدرّس طيب ثمن الكراسية، فيقبله دون تردد، بس ودون شكر.

كان اسمه عطية. غير أنني في يوم ما لاحظت أن التلاميذ قد بدأوا هجأة يادونه بأبي ظريفة، وهم يقهقهون قهقهات عالية طويلة، يمتنع لها وجه الصبي احتقاعاً أليماً. وكان يصحب هذا النداء في العادة تلميحات وإشارات غامضة إلى القبول والطعمية، والسلطة والزيت، وتعريض قاحش بأبيه. ثم تنأى إليّ سرّ ذلك. فقد حدث أن اكتشف أحد التلاميذ أن لوالد عطية هذا محلاً صغيراً في سوق الخضار بمصر الجديدة سمّاه محل «أبو ظريفة» يفخ فيه الوالد لبيع السندوتشات، ويصاونه الصبي مساء بتقديم أطباق القبول والطعمية إلى الجالسين: وقد شاهد هذا التلميذ عطية نفسه في جلباب أبيض يقرم بالخدمة

في المحل. فأسرع في اليوم التالي بطلع زملاءه على الأمر، وعلى موقع المحل واسمه. فأتار فيهم الحبر سروراً ومرحاً لا يعرفان حداً ومن يومها بدأوا ينادوه بأبي ظريفة، ويصيحون به أن «الشكك ممنوع، والرعل مرفوع، والأجر على الله» ويسألونه متعازرين عن مصدر بقع الزيت في كراساته ثم تأمر عند مهم على الذهاب إلى المحل في المساء لتناول وجبة هناك. فكانوا يجلسون إلى إحدى المناضد، وينادون عطية كي يحضر لهم السندوتشات فكان المسكين يلبي طلباتهم وهو يرتعد بؤساً وأحياناً يصيحون به أو بوالله أن الطعمية باردة، أو أن العول به ذبابة، ويشتمونه أو يشتمون أباه

وأحياناً أخرى يتكون لرميلهم بقشيشاً عبارة عن ملهين أو ثلاثة، إمعاناً في إذلاله والسخرية به.

لم أتحذ في بداية الأمر موقفاً حتى جاء يوم وجلتهم فيه قد اتعوا حوله في الفساء، وأنقلوا عليه إقبالاً لم يتمالك هذا الصبي له، وهو الذي اعتاد التظاهر باللامبالاة، واعتاد التلاميذ أن يسبوا إليه تبذ الإحساس، فأمجر بالبكاء والعويل والصراخ والشتائم وهو يصرب الأرض بقدميه. هنا تقدمت في غضب فصرفت التلاميذ عنه، وصحبت الصبي إلى مقعد بالعناء أهدته فبدأ الغلام يشرح لي، وهو يشهق بالبكاء، كل ما يمانيه منهم، ويخبرني بأمر الصبية الذين يترددون على محل أبيه، والإهانات التي يكيلونها له. فوعده بأن شيئاً من هذا لن يتكرر بعد ذلك اليوم.

وصعدنا إلى الفصل. عما جاءت فترة الدقائق العشر حتى أخذت مكاني عند مقعد المدرس:

... هذا إنذار مني إليكم. هو الأول والأخير. من أطاعه فهو خير له، ومسيرى من لا يطيعه عاقبة عصبائه. قد أبترت عطية منذ اليوم فهو في حمايتي. فالويل الويل لمن يمرض له. والويل الويل لمن تحطى عتبة محل أبيه أو سمّه أباً ظريفة.

صاح أحدهم :

— فإلى من نتوجه إذا رغبنا في طبق من الفول؟

قلت للمصالح في هدوء :

— تعال هنا .

قال لا .

— لا ؟

— لا ثم لا .

قلت وقد غلى الدم في وجهي :

— وحياة أبي وأمي ، وشرف النبي ، لن أدخل هذه المدرسة قط يا أسامة إن

لم تجد نفسك موصولاً منها في بحر يومين على الأكثر

ثم تركت الفصل مسرعاً إلى زوج أختي في حجرة المدرسين ، فأخبرته
بأكياً بالموضوع كله ، مكرراً قسمي ألا أعود إلى المدرسة إن لم يُفصل أسامة ،
وهو الذي صورته على أنه المسؤول عن كل ما لحق عطية من إهانات فتركني
زوج أختي إلى الناظر بعد أن طلب مني مقتطياً ، وفي حيلة ، أن أعود إلى
الفصل . فما مضى ربع ساعة حتى جاء إلى الفصل ، فاستأذن من مدرس
التاريخ أن يعلى أمراً إلى أحد التلاميذ

— أسامة الشاذلي !

وقوف التلميذ ، بينما كان قلبي يخفق بشدة من العرج .

— أسامة الشاذلي . لا تأت من الغد إلى المدرسة . فقد أمر الناظر
بفصلك أسوعاً . وسيعلم أبوك بالسب . فإن تكررت منك ما حدثك حسين منه ،
فسيكون لفصلك نهائياً .

لن أحاول أن أصف وقع هذا الإعلان على التلميذ ، أو أثره في تعاضيد

مركزي. غير أنني ذاكر أنني كنت بعد ذلك اليوم عادةً جديدة، هي مسط
 حمايتي على التلاميذ الفقراء والمضطهدين. كان يكفي أن يشكو التلميذ إليّ
 سوء معاملة زملائه له، حتى أعلن أنه قد بات في جوارحي لو أن يشكو تلميذ
 من أن اثنين من التلاميذ ؟ «الأقوياء» قد احتكرا منصبة تس الطاولة،
 لا يسمحان لغيرهما باللعب، حتى أتوجه إليهما طالباً منهما التخلي عن
 المنصب. قد يكون الدافع إلى ذلك شعوري بالحاجة إلى جماعة تحميني،
 وربما شعوري بالحاجة إلى حبّ البعض يعزّيني عن كراهية العالوية، وربما
 هو مجرد الرغبة في التحدي والسيطرة. على أنني لم أحاول قط أن أستغل رابطة
 الولاء القوي التي أصبحت تربط هذه الجماعة بي، والصحيح أن أفرادها هم
 الذين كانوا يعرضون خدماتهم عليّ. فكانوا يجنبوني مشقة التوجه إلى
 المقصف لشراء مشروب أو حلوى، بأن يعدوا أحدهم لإحضار «مطلبي» وقد
 حدث في أحد الأيام أن علمت أن ثلاثة من التلاميذ الكثر عقنوا الية على
 انتظاري خارج المدرسة بعد انتهاء الدروس، كي يكيلوا لي ضرباً مبرحاً لسبب
 من الأسباب فأوغرت إلى «الجماعة» أن يمتنوا للأمر عُدته، وأن يشعروني عن
 بعد. فما أن خرجت من الباب، ورأيت الثلاثة يقتربون مني في خطوات سريعة
 وفي أعينهم الشر، حتى أعطيت الجماعة إشارة البدء. فانهال على الثلاثة سيل
 منهم من الطوب والحجارة الضخمة شجّ حين أحدهم، ففر وهو يولول من
 الألم والدم يملأ وجهه ووراءه زميلاء يعدون. ثم أعطيت الجماعة الإشارة
 بالكف، فكفوا.

كانت أول نظرية، أو فكرة مجردة، تخامر ذهني نظرية جدّ عريية:

كلنا مدرّس العربية بكتابة موضوع إنشاء عنوانه: «الشخصية التي أود أن
 أكون مثلها حين أكون». فجلس كل منا يعكر دقيقتين أو ثلاثاً في الشخصية التي
 تستهويه، أو مثله الأعلى، ثم شرع يكتب. وكان أن اختبرت شخصية محمد
 فريد، وحشدت للموضوع أغبيى التعابير وأكثرها ابتذالاً «محمد فريد». رمز

الإخلاص والتضحية . محمد فريد روح الوطنية الصادقة وقلب الثورة
الباضه:، أو شيئاً من هذا القبيل ثم سلمنا الكراسيات فلما عاد المدرس بها
بعد تصحيحها، تبين أن الحاصل على أعلى الدرجات شخص عيري يدعى
طارق، أعرقه المدرس بالثناء عليه، ثم طلب منه أن يقرأ على التلاميذ موضوعه
جهرًا.

استمعت إليه وهو يقرأ فاستمع وجهي من الحسد فموضوعه ممتاز حقًا،
(اعترفت لنفسي بذلك بعد الفقرة الأولى)، لقد اختار له شخصية محمد النبي،
ويدها بالعبارة التالية:

«أملكك أكون؟ هيهات هيهات وأنت ما أنت! أفغيرك إذن أحتدي؟
هيهات هيهات وأنت ما أنت! فأنت غاييتي عالمًا أمي غير بالفها، وأنت مناري
مدركاً أنني لست مدركي. فحسبي فخراً أمك غاييتي، وكفاني رهواً أنني
اخترتك لنفسني مناراً، يا منار الصبوة والمبصرين...»

وبالرغم من أنني حصلت على الدرجة الثالثة مباشرة لدرجة طارق، فقد
رايت نفسي أتوجه إلى حجرة المدرس بعد المحصة، أستوضح منه السبب في
أنه لم يعطني الدرجة الأولى كالعادة!

قال لي:

— سائر لك الحكم ولتلك عادلاً. فقد استمعت بنفسك إلى ما كتبه
طارق. فأي الموضوعين بالله عليك أفضل.

قلت: مقطلاً:

— موضوع طارق

صاح بي دهشة:

— فما مالك إذن تطالب بالدرجة الأولى؟

ها تكونت في ذهني إجابة عجبية، لو قل، نظرية عجبية، لم أنطق بها
لإدراكي عرابتها، ثم لأنها وقتها لم تكن واضحة كل الوضوح عندي.

فكرت:

صحيح أن طارِقاً قد كتب موضوعاً يُفضِّل موضوعي بمراحل . وصحيح أن موضوعي مخيف مملاً غير أهل إلا للسحرية والارداء . ولكن . . . ولكن ماذا؟ ولكنني كنت قد بدأت اعتقد أنه لا ينبغي للمدرسين من الآن فصاعداً أن يقدروا الدرجات لي على ضوء إجابتي لما أكتب، أو صحة حلِّي للمسائل وإجابتي على الأسئلة . . . فعلى أي أساس إذن تريدونهم أن يقدروا درجاتك؟ . . . على لا أساس . يكفي أن يعطوني أعلى درجة على النوم . . . ولماذا؟ لأنك عريف الفصل؟ . . لا، ليس هذا بالضبط . وإنما لأنني . . . حسناً، فلاحظها صراحة لأنني حيناً لأن شخصيتي هي ما هي لأنهم في تقدير الدرجات ينبغي أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة الشخصية التي يتعاملون معها فحسب، وأن يعطوا كل امرئ الدرجة التي تناسبه وتليق به، ولأن شخصيتي أنا على الأقل قد باتت فوق أن تقدر بالدرجات لما يصدر عنها

أعاد المدرس سؤاله:

— لماذا تطلب الدرجة الأولى إذن وهذا اعترافك؟

فتألمته لحظة شارل الذهي . ثم هزرت رأسي . ثم انصرفت .



لم تكن المسافة بين البيت والمدرسة بأبعد من أن أقطعها سيراً على قدمي في على مسيرة نحو ثلاث ساعات . غير أن الشوارع التي كان حلِّي أن أجتازها إليها كانت شوارع رئيسية عريضة، تحترقها قطارات المترو والسيارات العامة، لذلك رتب والدي أن يوصلني السائق صباحاً بالسيارة، ثم يعود فينتظرني بها آخر النهار عند باب المدرسة .

كنت أبغض التوجه إلى المدرسة بالسيارة أشد البغض، أجلس منكشاً إلى اليمين في المقعد الخلفي منها كالحيوان الأسير، وأنا أشد ما أكون خجلاً وبؤساً . لم يكن ثمة غيري من التلاميذ وابن وزير العدل الوهدي صبري أبو علم

من يحصر هي سيارة. وأية سيارة! سيارة سوداء صحمة من طراز «كرايزلر» يقودها سائق أسود، مشرط الوجنتين، حسس الهذام. وأجلس فيها أنا التلميذ الذي لا تكاد رأسه تظهر من النافذة، في بتلون قصير، وعلى ركبتي كرامتان وبضعة كتب، أمر في الشوارع التي تخترقها بزملائي متوجهين إلى المدرسة مسيراً وهم يصيحون ويحجرون ويركلون بأقدامهم الزلط ويتسلفون أسوار الحدائق الخاصة لقطف رهور الياسمين أو ثمار المانجو والجوافة، يحرجون ألسنتهم لصاحب المنزل إن أطلّ من الشرفة يشتمهم. كنت أعطيهم حريتهم، وأشعر بقوة بأنه ليس من العدل ولا من الحكمة ولا من التناسب ولا من رفاة الحس أن أتوجه للدراسة في مثل هذه العربة الضخمة وزملائي يمشون. أفأنا أقل قدرة منهم على عبور الطرق الرئيسية وقضبان المترو؟ لأي غرض إذن يخدمه توجهي بالسيارة، وهو الذي لا يفلح إلا في زيادة شعور العداء لدى التلاميذ نحو؟

غير أن ثمة عاملاً أهم وأخطر: فقد تمكنت حتى الآن من أن أثبت تفوقي على التلاميذ في الفصل وغيره بالوسائل المشروعة. وما أنا ذا أجديني أضطر رغم أنني إلى إحراز تفوق آخر بغيض، هو تفوق المال. وهو تفوق في نظري غير مشروع، يذهب بروثق المركز الذي كوّنته بقوة شخصيتي، بل ويتال من هذه القوة ذاتها فلم أكن لأطبق أن ينسب أحدهم سلطاني على التلاميذ إلى ثرائي. وكنت أنفر لذلك من كافة مظاهر الشائق في الملابس، أو الإصراف في الإنفاق. ولم يكن هناك ما يطربني قدر طربي إذ أنامل صورة نابليون، في معطفه البالي وحوله المارياشات في بزاتهم الفخمة الموشاة، وهو مع ذلك كالبدريين النجوم، لا تلتفت الأنظار إلا إليه.

أردت أن أشرح لوالدي ما يعتمل في صدري، فلم يسمعتني بيان. فكثيرة هي الأفكار والمشاعر التي كانت تراود ذهني وقلبي في ذلك الحين دون أن أملك القدرة على التعبير عنها. حتى وقع حادث كان أصلق إنهاء من الكلام ذلك أنه في يوم ما، إذ خرجت من المدرسة وركبت السيارة، وبدأت السيارة تتحرك، إذا

بحجر كبير يأتي متدفقاً من الخلف، فيرتطم بزجاج السيارة ويهشمه، فتشتاور قطعه الصغيرة الحادة حولي . وقد دعر السائق أشد الذعر، فلما اطمأن إلى أنني لم أصب بسوء، ففز من السيارة غاصباً هائجاً، وقصد التلاميذ الواقفين عند باب المدرسة يحاول أن يعرف أيهم فعل هذا. غير أن عددهم كان كبيراً، ولم يشأ أحد منهم أن يقصص عن اسم قلذب الحجر، بينما وقف معظمهم يشتمون في تحدٍ وسرور . ولم يجد السائق في النهاية بدا من العودة إلى مقعده بعد أن سبهم سباً غليظاً. وإذ حانت منه التفاتة إليّ، رأى اللعوج تنهمر من عيني مدرراً.

— معلش يا حسين بك . واحمد الله على سلامتكَ . إنهم صبية من أولاد الجوّاري لا أصل لهم ولا عائلات . فلماذا عسّاك تتوقع غير هذا ممن لا أصل له ؟ صبية لم يروا في حياتهم سيارة إلا من الخارج . من لهم باب كأبيك يحسن تربيتهم ؟

وفي المساء دخلت على والذي حجرة المكتب فوجدته يكتب :

— أبي . لن أذهب إلى المدرسة بالسيارة بعد اليوم

— ولم لا ؟ (قالها مقطباً وقد ضابقتة لهجتي) .

— ألا ترى يا أبي أنهم يعيرون ؟ أنهم قلذبوا الحجر لحقدهم أن لدينا

سيارة ؟

— سأطلب من ناظر المدرسة التحقيق . وتأكد أن القصة لن تتكرر .

صحت في نفاذ صبر :

— ولكنهم يكرهونني من أجل السيارة ! أيسرّك أن يكرهني التلاميذ لهذا

السبب ؟

— فكيف تنوي اللهاب والمجيء إذن ؟ أتحب أن يوصلك الضامم

ويتنظرك ساعة الانصراف ؟

— لا .

— فإن تشترك في سيطرة المدرسة ؟

— أي، إن لي قلمين كسائر التلاميذ، وجميعهم يذهب سيراً إلى المدرسة .

قلتها بلهجة عنيفة لم أجرؤ على استخدامها من قبل معه .

قال بحلة وهو يعود إلى النظر في أوراقه :

— ستذهب بالسيارة كما كنت تفعل .

— لا .

نحى الورق جاناً وقد احمر وجهه احمراراً أربهني ، بينما كان قلبي يبطئ بعنف .

— أظن أنك ستمارس «قوة شخصيتك» تجاهي يا كلب ؟

— أنا لست كلباً

صاح بقوة :

— أغرب عن وجهي !

وبدت منه حركة وكأنه يهم بضربي ، ففادرت الغرفة في بطنه .

وظل أياماً عديدة بعدها لا يوجّه إليّ كلمة ، ألقي عليه نحية الصباح فلا يردّ . وقد حيرت مكاني إلى مائدة الطعام ، فبعد أن كنت أجلس إلى يساره ، احتوت لنفسي مكاناً قصياً من المائدة . أما المدرسة فبِت أقصدها سيراً وأعود منها سيراً بمهردي . غير أن حصاننا ألمني وأثار في نفسي اضطراباً عنيفاً . كنت أعلم جيداً أنني لن أوضّح . ولكن ، ما عساه يحدث لو أنه هو أيضاً كان عارماً على ألا يرضخ ، وهو الذي لا يقل صلابة في الإرادة عني ؟ ألا يعني هذا أنه لن يكلم أحلنا الآخر قط ؟

وحل أثناء فترة الخصام موعد كان قد ضربه لاصطحابنا لشراء أحذية لنا.
فلما جمع إخوتي استعداداً للذهاب، قال لأحدهم مقلماً:

— إذهب واسأل الولد (حسين) عما إذا كان يريد الحذاء أم لا يريد.

فرددت على اخي ثاني لا أريده. فلم يكن أحب له أولي أن يتم صلحتنا
من أجل الحذاء، ولو كان مجرد حجة لإنهاء الخصام.

وجاء الصبح بعد أسبوعين كنا على مائدة الغداء وإد تناولت المفرة
أغرف لنفسني من وعاء الحساء، شعرت بعيني والذي تحدجاني طويلاً من تحت
حاجبيه الكثين ثم قال بلهجة تمتد أن يجعلها جافة

— أيمكنك أن تخبرني بالصبط عن السبب في عزومك عن استخدام
السيارة؟

اجبت في أدب جم محاولاً إطفاء مرحي:

— التلاميذ يا أبي يكرهونني إذ أحضر وأنصرف في سيارة. أفكان يسرك
لو أن قطعة من الزجاج المكسور أصابت وجهي؟

— فأنت على ثقة إذن من استطاعتك قطع المسافة وحكك؟

— نعم.

— وتلزم الحذر عند عبورك الشارع الرئيسي؟

— نعم.

— لا تعبر قضبان المترو حتى يمر؟

— نعم.

— فعلى مسؤوليتك إذن؟

— نعم.

— فافعل.

في روضة الأطفال لم أكن أطيع الفتيات الصغيرات معنا. فهن في نظري

كائنات ضعيفات تافهات الشأن، كثيرات البكاء إلى حد يثير الاشمئزاز والصيق، لا يحسنّ لعباً ولا عدواً ولا ضرباً، ولا حول لهن ولا قوة. فلماذا يصعب بهنّ؟ وكانت بعصا طلع تدعى نادية. (لا أدري كيف علق اسمها إلى اليوم بذاكرتي) شدينة التعلق بي، إن جلست على مقعد جاءت تجلس إلى جوارِي، وإن قمت قامت تقفني حظاي وهي تمرص عليّ دائماً كل ما يكون في حورتها، من حلوى أو طوايع بريد أو ورق ملوّن أو حرز أو بلى. فإن رفضت عرضها دمعت عينها وشرعت في الكلاء، فأضطر أن اخذ منها ما بيدها بسرعة، ثمادياً لدموعها، ثم أتخلص منه فيما بعد، فما كان هناك ما هو أثقل عليّ من إعجابها، أو ما هو أجلب لسخرية الصبية وصحكهم من ملاحقتها لي.

ثم يمضي الزمن، فإذا بي لا أجد صحبة الفتيات الصغيرات سيئة إلى هذا الحد! فإن شئت الحق، فلمرافقتهم مسرّ خاص ليس في مرافقة الصبية المذكور. لهنّ إن تحسّسن العضلات في دراغي صدرت عنهن صيحات إعجاب هي أعلى سمعاً من الموسيقى العذبة. وهنّ فائنات في ضعفهنّ وجملهنّ، فائنات في حاجتهنّ إلى حمايتك وشرحك لما يغمض عليهنّ إن قتلت لهنّ حشرة أفزعتهنّ، دهشن لجراتك وشجاعتك، وإن تسلفت شجرة لطف لمرّة لهنّ، أعجبين بخفتك وسعة حيلتك، وإن أبعدت عنهنّ صيباً يضايقهنّ، فقد تعطف عليك إحداهنّ بقبلة امتنان وشكر.

ثم تقل هذه العلاقة جمالاً بتقدم السن بهنّ وبك، ويدخلها عنصر بعض غير واضح، تزيد قوته ووضوحه يوماً بعد يوم، ويزيد فساد العلاقة بازدياد إحسانك وإحسانهنّ به. لهنّ الآن أكثر تحفظاً في معاملتهنّ إياك، أقلّ إقبالاً على صحبتك وإبداء الإعجاب بك. فإذا العداة يعود من جديد ولكنه عداة مختلف في طبيعته. فانت الآن سرّ بالنسبة لهنّ، وهنّ سرّ بالنسبة لك. وعداؤك لهنّ ليس راجعاً الآن إلى اشمئزاز من ضعف، أو احتقار لكثرة بكاء، أو سخرية لعدم إجادة الجري واللعب، وإنما هو راجع إلى اضطراب لا تدري مصدره

أو مبرره، بعشاك في حصرتهن، وعجب من تصرفات لهن تلبو متكلفة متصنعة أو صفة المهم فلمادا لا يتحسن الآن عضلاتك حتى لو طلبت إليهن أن يفعلن؟ ولمادا يسبحن أيديهن بسرعة إن تلامست الأيدي عرصاً؟ ثم ما هذا التكلف الآن في المجلس، وهذا الحرص الشديد في اللعب بحيث لا يصعدن شجرة أو ينقلن على رؤوسهن؟ وما علة هذا التهامس المستمر بينهن، وكثرة ضحكهن الغبي أثناء الهمس؟ وما هذه النظرات الحادة من أمهاتهن إن احصر عن المركبة طرف ثوب؟



يروي بلزك أن طفلاً وطعلاً لأحد الملوك وقما أمام لوحة زيتية للرسم تيسيان تصور آدم وحواء عاريين. سأل الطفل أخته:

— أيهما آدم وأيها حواء؟

فاجابته الطفلة:

— أنا إنك لغيري! ألا تراهما دون ثياب؟ كيف يمكننا إذن، أن نعلم أيهما المرأة وأيها الرجل؟

لم تكن فكرتي قبل العاشرة وأكثر وضوحاً وإد لم يكن أبي أو أمي يلفظ بكلمة لي عن العلاقات الجنسية قط، فقد كان عليّ أن ألتقط بنمسي المعلومات الخاصة بها، صحيحها وخاطئها، من هذا المصدر أو ذاك، أجمعها وأوفق بينها، وأحاول أن أخرج بمكرة علمة عن طبيعتها وإذ كنت دائماً شديد العزوف عن الاختلاط بالطلبة، عظيم النور من رفع الكلفة مع الناس في الحديث، فقد ظللت أمدأ طويلاً جاهلاً بأبسط المعارف الجنسية وأيسرها، مما هو معروف لدى كل طفل بالريف.

أذكر ظهر يوم شديد القيظ من أيام يونيو. كنت وقتها في العاشرة. قد أوى امراد العائلة للنوم بعد الغداء، وبقيت وحدي في غرفتي أفرغ مكتبي من

كراسات العام الدراسي المنصرم. ثم شعرت مظلماً، فصعدت إلى السطح حيث غرف المعلم بنية أن أطلب من الخادمة (وهي فتاة قروية في الثالثة عشرة) إحضار مشروب مثلج لي من السوق ناديت عليها فلم أسمع رداً. وإذا دفعت باب غرفتها، إذا بها راغبة على سريرها الحشوي تقط في النوم وقد تعرت من ملابسها تماماً. ومكثت أرقبها مذهولاً بضع لحظات، وقد شعرت بقلبي يقفز ويضطرب في صدري وكأنما هو كرة من مطاط. ثم فررت أصدوا لاهثاً إلى حجرتي:

«كيف؟ ما هذا؟ كيف؟ أهذا ممكن؟ أهذا معقول؟ أنا في وعي؟ أم أنها خدعة؟ أكان هذا هو الحال دائماً؟ أهو... أهو الحال معهن جميعاً؟ فلماذا أبقيه سراً طول هذا الوقت؟ أفي الأمر ما يحتاج إلى إخفاء؟ أهذا هو السبب إذن في أن أخواتي لا يستحممن معاً؟ وما الداعي إلى هذا؟ ومن عساني أسأله عنه؟ أتراهم يوتحنوني لو أنني سألت؟ أهذا هو السبب في أن أبي ويخ أخني حين شاهده يكلم ابنة الجيران؟ فما وجه الاستهجان في هذا؟...»

أثار هذا الحادث في نفسي اضطراباً شديداً وحيرة أشد. رأيت الخادمة بعده بساعة وقد استيقظت وارتمت ملابسها، فلم أستطع أن أرفع إليها عيني إلا خلسة:

«إنها تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث! تتصرف تماماً كما كانت تعمل قبل نومها! كيف؟ أكانت هكذا طول الوقت؟»

ثم ما عدت أخرج إلى الشارع بعدها فأرى فتاة صغيرة أو كبيرة إلا تسألت:

«أهي أيضاً كذلك؟ فلماذا تمشي في هدوء هكذا وكأن شيئاً لم يحدث؟»

وازدحمت في رأسي مثلث الأسئلة تريد الجواب. غير أنني أحسست لسبب ما بأن الأمر ألق من أن أسأل عنه.

ثم حدث بعد أيام أن نزلنا إلى الحقيقة كعادتنا نلعب مع الخدم . وإذا وقفتُ عند شجرة وانحيت عليها أجمع ما علق بجذعها من قطرات الصمغ ، جاءت الحادمة المذكورة من خلعي ترقب ما أصنع ، ووضعت ذراعها على كتفي . فإذا بي ألكمها في صدرها بقوة وقد احمر وجهي ، ونحيت ذراعها عن كتفي في عصف .

كس في ذلك الحين أكتب قصة . وقد ورد فيها أن راعي عسم (هو بطل قصتي) كان يعرش مع خطيبته الحبيبة في كوخ واحد : وتجدهما في السماء وقد جلسا عند باب الكوخ ، يتساجيان كعضوين ، حتى إذا ما ثقلت جفونهما دخلاه ، فناما على سريرهما متصافين وقرأت القصة على أبي عغب الفراع منها فلما وصلت إلى هذه الجملة لمحتة يتسم . ثم قال :

ـ حسبك قلت إنها خطيبته .

ـ هي كذلك .

ـ فاشطب إذن هذه الجملة الأخيرة .

ـ ولم ؟

ـ ليس لها في الواقع داع .

اللجنة عليهم جميعاً ما كل هذا الغموض ؟



غير أن الوقت يمضي فيعود ميلبي إليهن من جديد . وهو ميل فيه مع ذلك شيء من غربة ، وشيء من ألم ، وشيء من هداء . أصبحت أقع في حب كل فتاة أراها . أتوجه إلى السوق فأسمع فتاة تقول لباتعة : «شكراً يا خالة» ، فأعود إلى البيت مضطرباً أحتضن وسادتي وأقبلها متمتماً : «إنها ملاك طاهر إنها ملاك» ثم أخرج فتاتني فتاة عن الطريق ، أو عن الوقت ، فأقع في غرامها وأنتمم : «إنها ملاك!» . وتجلس فتاة إلى جواربي في الترام فيلمس كتفها كتفي : «إنها ملاك!» . وتناديني ابنة الجيران باسمي ، فلا أرى له وقفاً أجمل وأعذب من وقعه إذ تتلق به .

وأنتوجه يوماً إلى السينما لمشاهدة فيلم «المأخوذ» الأمريكي . فإذا بي أخرج من الدار وقد وقعت على حبي العظيم وغرامي الأسدي . . إسجريد برجمان، إلهة الجمال وربة الطهر . وأصبحت من يومها حريصاً على مشاهدة كافة أعلامها، أجمع صورها من الصحف والمجلات، وأبتاع من مصروفي مجلة «الشاشة الفضية» لمتابعة أخبارها، وأحاول رسم صورة زيتية لها . وبدأت من يومها عادة كتابة اليوميات، أبث صفحاتها غرامي وشوقي وقصائدي فيها، فبقيت هذه العادة معي إلى اليوم، وقد تضخمت اليوميات بمرور السنين حتى بلغت عشرين مجلداً .

حدث مرة أن نسيت درج مكتبي مفتوحاً وخرجت . فما كان من أخي حافظ إلا أن فتحه وفتش فيه حتى عثر على يومياتي فقرأها . وأهود من الخارج فلا أقابل أحداً من أحموتي . أو أتنا إلا ضحك أو ضحك في وجهي صيحاً مكظوماً . ثم بدأ كل منهم يث كلامه التلميحات ويقفه، حتى أنشد أحدهم في لهجة تمثيلية :

«فهنوس ويحك! قد خجلت أعلامها . . .» .

وهو شطر بيت من قصيدة نظمته فيها . وأدركت لحظتها أنهم قد قرأوا اليوميات . وهرعت إلى الدرج . فلما وجدته مفتوحاً شرعت في بكاء وعويل ونوحه سيل من الشتائم إليهم جميعاً، حتى سمعني أبي فجاء يسألني ما الخطب . وإذا أخبرته بالأمر، قطب جبينه في غضب حقيقي، ووبخ حافظاً وعنفه، وسمعت منه يوماً لأول مرة شيئاً عن حرمة اليوميات والرسائل والأسرار الخاصة .

وغرقت في بحر من أحلام اليقظة : فيها هي إنجريد برجمان تفكر في القيام برحلة سياحية إلى مصر، أرض القراعة، فتأتي إلى القاهرة ومعها حبيبها جريجوري بيك (طل فيلم «المأخوذ») . غير أنها ما تصل حتى تصاب بمرض خطير يُخشى منه على حياتها . وأقرأ في الجرائد نبأ مرضها، فأمر يوماً

بالمستشفى الذي ترقد فيه أستمس من الممرضات والأطباء عن حالها، تاركاً باقة من الزهر، (كنت وقتها أقرأ رواية «عقدة الكاميليا» للمرة الرابعة)، دون أن أدلي باسمي وتعجب هي لأمر هذا العاشق المجهول الوفي، وتوق إلى رؤيته، خاصة أن جريجوري بيك كان قد هجرها إذ مرضت ويات يقضي وقته في الحانات والملاهي الليلية. وأصعد إلى غرفتها، فتنشأ على الفور بيننا علاقة حب عميقة حائلة، وتعاهد على الوفاء الأبدي. ويكون لحبنا - بطبيعة الحال - أثره في التمجيل بشفاؤها. فنقضي فترة نقاهتها بالأقصر، أشرح لها الآثار وأسرد تاريخ العراقة. ثم أبسط أمامها تعاليم الإسلام فتمجب بها كل الإعجاب، وتسال كيف أنها لم تسمع بهذه التعاليم من قبل، فأذكر لها شيئاً عن المحاولات الخيثة للمستشرقين في الغرب أن يخفوا نور هذا الدين القويم ويشوهوا صورته. ونعود وقد تم شفاؤها من الأقصر إلى القاهرة في يخت يضمه الملك فاروق تحت تصرفنا حين يسمع بقصة حبنا العريفة، وترجم لها أثناء رحلتنا اليلية أشعار امرئ القيس ودهير بن أبي سلمى فتحبها، وتروي لي قصائد بايرون وشيلي وكيتس فأطرب لها!

كنا في نهاية شهر الصيف، في طريق العودة من رأس البر، قد أوصلنا الزورق البخاري في الساعة صباحاً إلى ساحل دمياط، فعبرنا طريقين أو ثلاثة ملؤها القضبان الحديدية والحجارة، حاملين أمتعتنا الكثيرة الثقيلة إلى حيث يقف قطار القاهرة، ينتظر القطار في التاسعة. وقد كانت لوالدي عادة في السفر كثيراً ما كنا نستكرها في نفوسنا ولا نستطيع أن نبوح إليه باستيائنا منها. فهو يريد أن يكون سفره خالياً من المتاعب والمضايقات. يقصد بنا جميعاً إلى إحدى عربات القطار ومعنا الأمتعة كلها، عاهداً إلى أخي الأكبر، محمد، أن يهتم بنا وبالتذكّر والمقائبات، وخاصة هاتين الحقيقتين. ،. أسمع؟ خاصة هاتين الحقيقتين، مشيراً إلى الحقيقتين اللتين أودعهما كته وما قد يكون قد ملأه أثناء الإجازة من كراسات. ثم يحيننا على أن يرانا في محطة العاصمة، وقد يأخذ من إحدى الحقائق رواية لتوفيق الحكيم أولتيمور، فيضعها تحت إبطه،

ويمضي بها إلى مقعده في عربة أخرى بعيدة .

استقر مجلسنا في العربة . ونظرت أنامل الجالسين قبالتها . كانت أسرة طيبة المظهر، من أم في الأربعين بدينة مليحة الوجه، وعمّة أو خالة في الخمسين، ثم فتاة في الخامسة عشرة، لم أكن قد رأيت قبلها في حياتي من يفوقها حساً وجمالاً ورقة . فهي شقراء الشعر طويلته، زرقاء العينين ناعستهما، ذات وجه يصاوي دقيق التقاطيع، وجسم نحيل قد دثّرتة أمها شال ثقيل كانت طوال المسافة تمهد لإحكام التفافه حول صدر ابتها . كانت في بادئ الأمر نائمة أو كالبالمة، مسلة رأسها الملائكي إلى كتف غريبتها عن يسارها . ثم أفاق فتجأ، ونظرت حولها وفي عينيها جزع، وانخرطت في سعال طويل مؤلم جمعت له عيها، واحمرت وجنتاها احمراراً شديداً . وإدحانت مني نظرة إلى المنديل الأبيض الذي عطلت به فاهاً أثناء السعال، إذا بي، لفرحي الشديد، أرى المنديل وقد ظهرت فيه بقع حمراء متناثرة، تأملتها الفتاة في قسوط، ثم دسّت المنديل في حقيبتها في بطء وضعف .

هدأت الفتاة وانقطع سعالها، واتسمت لأمها ابتسامة ضيقة هزيلة، فأجابتها الأم القلقة باتسامة . ثم دخلت والدتي ووالدتها في حديث أذكر أنه بدأ عن الحقيبتين اللتين أوصى والدي أخي بأن يوليها اهتماماً خاصاً . فقد سمعت السيدة الوصية، ورأت ما عانيه من مشقة إذ محاول رفعهما إلى الرف لشنة لقلهما، فالتفتت إلى والدتي مداعبة تراهن أن الحقيبتين إنما تحويان قضباناً من الذهب .

أجابت والدتي:

— ذهب؟ هي كذلك أو أغلى من الذهب عند صاحبها وهي عندي لا تعادل هذه الربطة من العطير (المشلت) التي أراك قد أنيت بها

— فلماذا بهما إذن؟

— كتب وحياتك عندي .

— لا أصلق!

— فناديني إذن هذا العطر بهاتين الحقيبتين بما عسى أن يكون بهما من كنور أو بحقك وحديهما دون عطر، وسيكون لك مي الثواب والدعاء، فهما عندي أثقل من صرة، وتأخذ من وقت صاحبها أكثر من الصرة بكثير!

هنا صاحبت الفتاة المصغية إلى الحوار ضحكة مرحة، فصاحكت أنا أيضاً وقد سرني سرورها

— لزوجك كاتب إذن؟

— كذلك يدعي .

سألت الفتاة والدتي :

— أكاكتب قصصي هو؟

— والله يا بنتي ما قرأت له حرفاً، فلا تسأليني .

— فما اسمه؟

— أحمد أمين .

— لم أسمع به .

صاحت والدتي في انتصار:

— أسمعته به بدمتك؟ بيد أمه يظن الناس إنما تلهج الستهم بذكره! شكراً لك يا بنتي والله ما أن أصل إلى القاهرة حتى أخبره بأنني قابلت في القطار من لم يسمع عنه في حياته قط، ولم يقرأ من كتبه الأربعين حرفاً. هل ذلك ينزله من عليائه، ويعيد إليه صوابه .

— ألا يسرك أن تكوني زوجة لأديب مشهور؟

— أليس هو السرور، خبّرني؟ في انشغاله عنك وعن أولاده بكتبه، أم في شرود ذهنه، أم في تلك النسوة اللاتي يأتينه مدعيات حب الأدب؟ والله لا سرور سوى ربما بأن الكتب قد بدأت تدرّ دخلاً لا بأس به . أتظنيه يوماً لاحظ مستاناً جديداً اشتريته، أو قرطاً تحليت به؟ أبدأ يا وحي . أجيئه بالمستان الجديد

فأجده إما قارئاً أو كاتباً أقول له : «أنظر وقل رأيك» فيرفع رأسه بمشقة ويقول «هه» . فأعيد عليه الجملة «رأيي في ماذا؟» . «في العستان» . في هذا العستان الجديد» فيقول كالمدهول : «ماله؟» . أصبح وقد تبد كل سروري به . «مارأيك فيه؟» فينظره وأنا واثقة من أنه يقلب في ذهنه جملة مما كان يقرأ أو يكتب ، ثم يقول : «جميل» . عو الله لو سألته وقتها ما هو الجميل ، وعن أي شيء أتحدث ، ما درى!

واستعرت الفتاة في الضحك . غير أن ضحكها لم يطل ، إذ سرعان ما اتصلت به نوبة أخرى من السعال العيف تناثرت له حصلات شعرها على جبينها ، وأسمرت نحرج مديلاً نظيماً كورنه على شفتيها . ورافتها والدني هذه المرة فهمت ما بها ، وتناذلت مع أم العتاة نظرة ذات مغزى .

همست الفتاة :

— إني عطشى .

فهبّت من مقعدي إلى زمزية كانت معنا بها عصير الليمون ، وملأت لها الغطاء إلى حافته ، فشربت حتى رويت .

— تريدان المزيد؟

— لا . شكراً لك .

وانسمت لي ابتسامة كدت أطير لها . . وإذ رأيت والدتي قد دخلت في حديث آخر مع السيدتين ، فقد انتقلت إلى الجلوس إلى يمين العتاة .

— ماذا بك؟

— دعك من الحديث عني . قل لي . ما اسمك؟

— حسين .

— أستمكون أحياناً مثل والدك يا حسين؟

- نعم . وقد كنت بالفعل روائتين ، وكتاباً عن عمر بن الخطاب .

- أريد أن أراها يوماً ما .

- لن يكون في الدنيا ما هو أحب إلي من ذلك . أين تسكنين ؟

- في مصر الجديدة .

صحت في فرح :

- هناك سكرى نحن بالحس الحظ ، فسأراك إذن ؟

وابتسمت لفرحي ، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليها وهمت أن أمسك بهذه اليد فأنهال عليها تقيلاً ، غير أنني أحسست بعين والذني نرفسي فأكتفيت بأن صبت لها قدحاً آخر من عصير الليمون

وقطعنا المسافة إلى القاهرة في حديث عذب لم أنس حلاوته قط ، بلعب حيناً ، ووقوم إلى الممر حيناً ، وتحدث فيما أقرأ ، وفيما تقرأ (كانت تقرأ ديوان «أنت وأنا» لبول جبرالدي) ، وعن الحشرات التي كنا نحضرها أمام العشة في رأس البر حتى يقع فيها الباعة المتجولون ، وكيف وقع في إحداها الدكتور عبد الرزاق السنهوري إذ قدم لزيارة أبي ، وعن آمالها هي ، وهي إن تسكن كوخاً في قمة أحد الجبال بسويسرا ، تتزحلق على الجليد شتاء ، ثم نهبط لصيد السمك صيفاً ، وتكتب شعراً كشعر لامرئتين .

ووصلنا إلى محطة العاصمة فاقتربا . وما أن احتلطنا مقاعدنا في السيارة حتى قالت والذني في لهجة حلزونة :

- لا يشرين أحدكم من هذه الزمرمة التي شربت منها الفتاة . فلديها داء السل .

ليس بومسي أن أصعب شعور الامتيا والانقباض الشديد الذي غمرني إذ أسمع هذه الجملة تقال بمثل تلك اللهجة الواقعية الصريحة . وأقسمت في

نفسى لأنضمم للفتاة من والذتي بأن أشرب كل ما تبقى في الإناء من عصير فور وصولنا إلى البيت بل ومن نفس الموضع الذي منته شفتاها . وهو ما صنعتها فعلاً غير أن شعور الغضب من والذتي دام أياماً بعدها .

كان هذا هو أول حب حقيقي لي . وبالرغم من أني لم أر الفتاة بعدها قط ، فقد ظللت عاماً كاملاً أفكر فيها في شغف عميق ، تدور حولها أحلام يقظتي وسامي ، أقول فيها الشعر ، وأنصوّر نفسي مخترعاً للدواء الذي سيشفئها من مرضها ، ثم أمبراطور على الشرق كي أجعل من هذه الفتاة رالعة الجمال امبراطورة عليه . وقد أطلعت أني على ما نظمت فيها من قصائد فأعجبته ، فلما سألت عن رأيي في نشرها ، قال إنها رغم جودتها ليست بالجودة التي تؤهلها للنشر . فالتفت بها في الدرج .

كانت الفتاة قد ذكرت لي أنها تسكن في الفيلا رقم ٧ من شارع دمياط . وقد مررت بهذا البيت عشرات وعشرات من المرات ، أطوف به عسى أن أراها تخرج أو تدخل فيه ، أو تطل من إحدى نوافله ، فلم أرها مرة واحدة . وكنت في طوافي أشبه بالمتعبد الحاشع ، أقف على الرصيف قبلته فأنظم الأبيات في هذا البيت المنزه كالعتيق الذي يضم حبيتي بين جدرانها :

يا دار سلوى فانظري ذلك الذي
يرنو إليك بقلبه المتأمل
مهما صنعت من الفصائد سلماً
سأرى الحبيب إليّ ينظر من عل!

ثم حدث بعد ذلك بعام ، بعد أن انتقلت من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية إلى المدرسة النموذجية الثانوية ، أن لاحظت أن سيارة المدرسة كانت توصل أحد التلاميذ وتأخذنه عند ناصية من ناصيات شارع دمياط ، قرية من بيت فتاتي . فرايت أن أسأله عن رقم بيته علّه يكون جاراً لها .

قال : سبعة .

- صحت به وقد أمسكت بي يدي صوته .
- سعة؟! سعة شارع دمياط؟! ألك أخت إذن؟
- قال في برود:
- لا:
- قلت مقطباً .
- كيف لا؟
- قال وهو في مثل تقطيعي:
- كيف كيف لا؟
- ليست لك أخت؟
- قلت لك لا .
- وتسكن في المنزل رقم سبعة؟
- هذا هو الوضع .
- منذ متى؟
- منذ عشر سنين .
- فمع من تسكن؟
- وما شأنك أنت؟
- صحت مزمجرأ كالأسد:
- ما شأنني؟ أحب يا رأس الخنزير وإلا فتحت نافوتك .
- فافتحه إذن .
- مع من تسكن؟
- مع أبي وأمي .
- ومن؟
- لا أحد .
- لا أحد على الإطلاق؟
- لا أحد .

ثم أطلق ساقيه للريح .

وأصابني دهول . كيف ! لا أحد سوى هذا الحنزير ووالديه؟ فبماذا كنت أطوف إذن؟ وأي دار إذن كنت فيها الشعر، وراقبت نوافذها في خشوع، أحفظ مدخلها ومخارجها وأحجارها حجراً حجراً، وأصيح وقتي على الرصيف قبلتها؟

وأصحت من يومها لا أمر بالدار إلا بصقت تجاهها في غضب، ثم مرت الأيام، فأصبح بوسعي أن أصحك كلما مررت بها .

عندما قامت جماعة من نجة رجال معهد التربية بتنفيذ فكرة إنشاء مدرسة نموذجية بمصر تكون بمثابة مدرسة أرسوقراطية على غرار المدرستين البريطانيتين إيثون وهارو، أثار الموضوع معارضة قوية صاخبة في الصحف، وفي وزارة المعارف، بل وفي مجلس الوزراء نفسه، غير أن الجماعة مضت قُدماً في مشروعها لا تحفل بمعارضة أو نقد، وأعلن زعيمها عن أهداف المدرسة ونظامها في صراحة وروح من التحلي خليقين بالإعجاب . فالمدرسة لن يؤمها غير أبناء الطبقة الأرسوقراطية في مصر، (الأرسوقراطية المالية والفكرية)، ثم عدد من الطلبة من الطبقات الأخرى ممن تشهد لهم المدارس التي كانوا فيها بالنوع الجم . والمتقدمون بطلبات الالتحاق بالمدرسة يُجرى لهم امتحان دخول بالغ الصعوبة، فلا يُقبل طلب إلا لمن اجتازه، ولن يزيد عدد الطلبة بالمدرسة بأي حال من الأحوال عن مائتين، يلحق بكل فصل ما بين خمسة عشر طالباً وعشرين، حتى يتسنى للمدرس معرفة تلاميذه معرفة وثيقة، ويتمكن من أن يمسح كل فرد منهم قسماً واحداً من العناية والإشراف .

فأما دروسها فتختلف اختلافاً يَبْياً عن الدروس في غيرها، إلا في السنوات الدراسية التي تنتهي بامتحان شهادة عامة يشترك فيه تلاميذ المدرسة مع تلاميذ المدارس الأخرى، فهي تهتم اهتماماً فائقاً بالتربية البدنية والأخلاقية والإجتماعية . وفي الأسبوع يومان يتوجه فيهما كافة الطلبة إلى ملعب الحرس

الملكى المجاوز للمدرسة بحدائق القبة، ليمارسوا الألعاب الرياضية من الثالثة عصراً إلى الساعة مساءً. ثم يوم ثالث في الأسبوع للنشاط الاجتماعي، من جمعيات التمثيل أو التصوير أو الموسيقى أو الرسم أو الكشافة، إلى النادي الإنجليزي الذي حشدت بقاعه كتب الأدب الإنجليزي (أصلية ومبسطة)، وأسطوانات للموسيقى الكلاسيكية، يُحرّم على الطلبة فيه الحديث إلا بالإنجليزية، ويقوم أعضاؤه بتحرير مجلة أسبوعية بتلك اللغة. ويتسب كل تلميذ إلى أسرة من أربع هي خاصة بالنشاط الرياضي والاجتماعي: أسرة محمد علي (وشعارها اللون الأحمر في ملابس الألعاب) وأسرة صلاح الدين (وشعارها اللون الأخضر)، ثم أسرة أحمدس (وشعارها الأزرق)، وأسرة المعز (وشعارها الأصفر). وتبازى هذه الأسر في مختلف أوجه النشاط، على أن تمنح كؤوس دورية لأبرزها في كل مجال على حدة.

وأما الغاية المعلنة فخلق طبقة من الشباب أرستوقراطية الثقافة والحلق، تكون أهلاً للقيام بأعباء الدولة المختلفة فيما بعد، من سياسية وفكرية وفنية. وقد ذكر رئيس الجماعة أن «من شأن نظم هذه المدرسة أن تربي في التلاميذ الصغار حسن السلوك والاستقامة الخلقية في جميع الأوقات، في المدرسة وفي البيت وخارجهما، حتى يصبحوا عادة راسخة، كما تنمي في نفوس الطلبة الكبار نزعة الاهتمام بشؤون غيرهم، وتعويدهم على تحمل المسؤوليات منذ زمن الدراسة».

لم تفلح انتقادات المتقدين في زحزحة إدارة المدرسة عن حططها ونظمها قيد أنملة. اتهمها الشيوعيون بأنها من وحي السياسة الاستعمارية البريطانية تربي جيلاً من الشباب مماثلاً في نزعة لانجلترا. وعاب عليها بعض الوزراء والكتاب أن خريجها سيحصلون أنفسهم أجمل الناس بالشعب المصري، وأقلهم إحساساً بمشاكلهم، وسينمو فيهم ميل قوي إلى الانعزال، وإلى إقامة سد بينهم وبين واقع الأحوال. بينما كتب بعض الصحفيين وعدد من رجال التربية يرقون بين النمو الطبيعي والتضخم السرطاني، ويشبهون

المدرسة النموذجية بالتصميم السرطاني داخل المجتمع، إذ تسعى إلى خلق جماعة صغيرة من الصفوة، وسط بحر زاهر من جمهور الشعب منحصر المستوى في التعليم والثقافة والطعام

فاما الإنتقاد الأول (مان فكرة المدرسة كانت يلماز من بريطانيا) فإني أميل إلى رفضه. وأما الإنتقادان الثاني والثالث فقد ثبتت صحتها وبعد نظر القائلين بهما إلى أبعد الحدود. لقد تركت المدرسة في نفسي وفي نفوس عالية زملائي أثراً لا يمحي وطويلة شاقة هي السنوات التي قضيناها بعد التخرج منها في محاولة الاندماج في المجتمع حولنا ومسايرته وفهمه، وفي محاولة تنمية الاهتمام بالأوضاع السياسية والتجسس لاتجاه دون اتجاه. كنا - ولا نزال - جزيرة في محيط، وهو وضع لا يزال مصدراً هائلاً لصنوف التماسه الحادة، والسعادة العظيمة لنا. ثم جاء سفري إلى إنجلترا للعمل والدراسة، هالتحائي بالسلك الدبلوماسي واضطراري إلى الإقامة في الخارج من جديد لسنوات عديدة، جاء يقصيان على النقيض الباقي من القدرة على الاندماج والتأقلم.

فالمدرسة النموذجية إذن هي ثاني أهم العوامل في تكويني بعد والدي.

إلتحقت بها أما وأخي حلال وصديقي ممدوح مصطفى عبد الرازق (مفبر مصر الآن في يوغوسلافيا)، فما لبثنا أن شعرنا بعد شهرين أو ثلاثة بأن طلبة هذه المدرسة في جانب، وطلبة باقي مدارس القطر في جانب آخر. ثم تكن لتجد بيننا من يدخن، أو من يعاقل الفتيات في الطريق، أو من يتفوه بالفاظ فاحشة بلذية، أو من يفكر في التشويش على مدرس. فهنا أباء الوزراء، ورئيس الوزراء، وشيخ الأزهر، ورئيس الديوان الملكي، وسفرائنا بالخارج، وكبار رجال التربية، ومشاهير الأطباء والمهندسين والأدباء. وهنا مدرسون من طراز مختلف، جميعهم من معهد التربية، والكثيرون منهم حاصلون على شهادة الدكتوراه في التربية من إنجلترا أو الولايات المتحدة. فإن بدر عن أحد الطلبة أدنى إخلال بالنظام وقواعد السلوك، كان استنكار الزملاء حوله رادعاً له عن أن

يكور إخلاله . ثم هذا سيف الرمت مصلت على رقاب الجميع ، على أتم أهبة لأن يهوى في أية لحظة ولأهول الأسباب ، دون اعتبار لمركز الأب . ثم أنى لنا أن تنتقل إلينا عدوى سوء السلوك من الغير ، أو أن نأخذ عن طلبة المدارس الأخرى فاحش الألفاظ وسقيم المعادات ، وساعات الدراسة والرياضة البدنية والشاط الاجتماعي تكاد تمتد يومياً إلى غروب الشمس ، فلا تترك لنا هائضاً من قوة أو وقت ؟

لا عجب إذ أن يُكَبَّرَ لنا طلبة المدارس الأخرى عداء ما بعده عداء ، وكراهية مرة ، مع تظاهر منهم باحتقارنا تظاهراً أملاًه المحقد والحسد . وإذ كان لتلاميذ مدرستنا زي موحد ، قاع اللون ، يميزنا من على بعد مائة ياردة ، فقد كان لتلاميذ المدارس كلما لمحونا في ستراتنا الأرجوانية في الطريق عدواً خلعتنا كي يمحطوا بوابل من السباب حياً ، ومن اللكمات حيناً وهو موقف سرعان ما أشعرنا بقوة بأن لنا وضعاً خاصاً ، وأنتا من صعيبة خاصة ، ما دامت مدارس العاصمة قد وجدت داعياً للتحالف ضدنا .

غير أن هذه الكراهية كانت تبدو على أشدها في أوقات الأزمات السياسية وإضرابات المدارس . ذلك أن مدرستنا لم تكن لتشارك في إضراب قط . فقوانين المدرسة صارمة في هذا الصدد . وتلاميذها ليسوا من الصنف الذي يجيد خطابة أو حثافاً أو سبواً في مظاهرات في الطريق . رد على ذلك أن آباء التلاميذ كانوا عادةً من الذين يوجه الإضراب صدهم . فها نحن نصغي في فصولنا إلى الطلبة في الشارع يهتفون صد حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي ، أو محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء ، وبينما في الفصل إنسان لأول ، وابن للثاني . وكثيراً ما كان طلبة مدرسة القبة الثانوية - بحكم قرب موقعها من مدرستنا - يمرّون أثناء تظاهريهم على مدرستنا يحاولون «إخراجنا» وإشراكنا فيما هم فيه ، يصيحون بما أن «الوطنية فوق العلم» ، وأن «يحيا تصامم الطلبة» . فراقبهم من فناء المدرسة في وجوم وصمت ، لا نبس ببنت شفة ، ويراقبوا هم من الشارع في غضب واشمئزاز . وكان الجرس ينق قبل موعده في مثل تلك

الطروف يدعوننا إلى فصولنا، فمحصي إليها بقلوب ثقيلة متقبضة، لا لآسا كنا راغبين في «التصام» مع الطلبة، وإنما لكرهاتنا أن نتهم في وطنيتنا ورجولتنا. فكان المدرسون يهدنون حزننا وقد فطنوا إلى ما بنا، فيحدثونا عن كيف أن الوطنية الحققة هي في الدراسة والتسلح بالعلم، لا في السير هائفين في الشوارع أو في قذف الطوب، وكيف أن المستعمر نفسه يسره أن يخرج الطلبة المصريين في مظاهرات حتى تضعف حصيلتهم من العلم، وحتى يظل على حالنا أمة متخلفة، وعن كيف أنهم، أي المدرسين، على أتم استعداد لأن يكونوا أول من يعرض نفسه لخصائص الانجليز لو كان للنظاير مبرر حقيقي، ونتيجة فعالة. وأما هؤلاء الأوباش ففرصهم الأكبر هو الخروج من المدرسة، وإثارة الشعب حيناً، ثم التوجه إلى دور السينما بعد ذلك». فكانت هذه الأقوال منهم نهدتنا، فعود بعدها إلى الالتفات للدرس. أما طلبة القبة، فكانوا إذا رأونا نعود إلى الفصول دون أن نتجاوب معهم، يستمروا في الصباح دقيقة أو دقيقتين، يشتموننا ويلعنون آباءنا ويظنون في وطنيتنا، ثم ينصرفون بعد أن يكونوا قد غيروا بالطباشير من المكتوب على اللوحة النحاسية عند باب المدرسة، فلذا بها:

«المدرسة النموذجية الثانوية . للبنات»

كان أهم أثر للمدرسة النموذجية في شخصيتي هو الأثر التالي . إذ بينما كانت الزعامة التي استطعت انتزاعها في مدرسة مصر الجديدة زعامة سهلة، كانت كفيلة بأن تجعلني أرضى بالسيطرة الزائفة التي لا قيمة لها، وتبشر بأن أصبح في المستقبل زعيماً سياسياً دجالاً أو شيئاً من هذا القبيل، كان للنموذجية أثرها في تنمية احتقاري للانتصار السهل، وتوجيه اهتمامي كله إلى تهذيب النفس وتقويمها وتقويتها ثقافة حقيقية دسمة . كنت في مدرسة مصر الجديدة عريفاً وزعيماً لتلاميذ لم يربط بيني وبينهم، عدا ممدوح عبد الرازق، صداقة قط، ولم أشعر في يوم من الأيام بأي زميل لهم. أما هنا في النموذجية، فالجميع زملائي، قد شئت بيني وبين عداوتهم صداقات لا تزال قائمة إلى اليوم

ومجال التفوق مفتوح دون فرصة للتفريط وقرض السيطرة ، تفوق في الدروس أو الألعاب الرياضية أو التمثيل أو الأدب أو ما شئت ونظام الامتحانات والدرجات هنا غير معروف والشهادات تقتصر على ذكر الملاحظات والترتيب فيها راجع إلى تقدير المعلمين وقد ظل ترتيبها هنا الأول كما كنت غير أن هذا لم يعد الآن مهماً كما كان يكفي أن تذكر الشهادة أن شخصيتي «تسير نحو التكامل بخطاً سريعة ثابتة» ، أو أن في أخلاقي وتصرفاتي «رجولة يحمدها عليها» ، حتى أوصى وأطمش فهنا في هذه المدرسة وأذنت طموحي إلى الشهرة والمجد ، وأصبحت على استعداد لقبول فكرة أن أكون قدسياً غافل الذكر ، أو أديباً ممتازاً لا يقرأ كتاباته أحد . فإن جاءت الشهرة بعد ذلك ، فأهلاً بها وسهلاً .



غير أن هذا التطور في شخصيتي لم يأت إلا تدريجاً ، وبعد عام أو عامين من الدراسة في المدرسة النموذجية .

التحقت بها مجهولاً من المدرسين والطلبة ، فكان عليّ أن أبدأ من جديد . وقد كانت معاملتهم ليأي في الأيام الأولى ، (معاملة الفرد العادي) تسب لي الألم واللذة في آن واحد . الألم لجهلهم ماضي ، واللذة لثقتي من أن تصرفاً إثر تصرف يصدر عني . هنا سوف يني من جديد صرح سمعتي السالعة ، فأثبت أن الشخصية الممتازة لا بد فارضة نفسها على ما حولها أينما حلت :

«He sings each song twice over,
lest you should think he never could recapture,
the first fine careless rapture!».

وقد كان من بين الحوادث الأولى التي لفتت إليّ الأنظار بالمدرسة ، الحادث التالي :

كان زوج أختي ، وهو المرحوم الدكتور عبد العزيز عتيق ، شاعراً . وكانت

له إلى جانب دواوينه، عدة كتب مطبوعة تتضمن تمثيلات شعرية طويلة، كتبها لطلبة المدارس الابتدائية والثانوية، بالاشتراك مع صديق عمره المرحوم سيد قطب، وهو الذي كان قد أشار عليه بالتقدم لخطبة ابنه أحمد أمين. وكان عتيق يعدني أحياناً بمبلغ خمسين قرشاً عن كل تمثيلية طويلة أحفظها من تمثيلياته لما أسرع ما كنت أحفظها وأسمعها له!

وقد حدث خلال السنة الأولى من دراستي بالمدرسة النموذجية، أن أعلن مدرّس العربية أنه قد اختار لفصلنا تمثيلية وصقر قريش عبد الرحمن الداخل؛ لتمثيلها في حفل نهاية السنة الدراسية، وهي إحدى تمثيلات عتيق وقطب التي كنت قد حفظتها. ثم قال إنه سيقرأها علينا أولاً، ثم يوزع الأدوار. وإذ بحث في أوراقه عن الكتاب ليقرأ منه، تبين أنه نسيه في حجرة المدرسين، فأمر أحد الطلبة بأن يحضره من مكتبه. غير أنني أسرعت بالوقوف لأعلن بلهجة غير المكترث أنه لا حاجة لإحضارها، نظراً إلى أنني أحفظها برمتها.

— تحفظ ماذا برمتها؟

— التمثيلية

— تمثيلية وصقر قريش؟

— نعم.

— تحفظها كاملة؟

— نعم.

وحاجتي المدرس والطلبة بنظراتهم، بينما ثبتّ عيناوي على القمطر أمامي.

— فلتسمعها منك إذن.

— الفصل الأول: يرفع الستار عن عبد الرحمن الداخل جالساً مطروحاً محروناً في حجرته. يدخل عليه خلامه بدر.

عبد الرحمن. إيه يا بدر، ما وراك؟ قل لي!

هات، قصّ الأخبار في صديق قول!

هاتها، هاتها على أيّ شكل.

بنو: ماذا أقول وقد علونا في الحيلة مهذبنا.

من معشر نقصوا اليهود وأصبحوا في العادينا!

عبد الرحمن: نقضوا العهد؟

بنو: أجل، وصاروا يقتلون ويظلمونا. . .

وعهد المدرس إليّ دون تردد بنو عبد الرحمن، إلى حساب مهمة

المنقذ لسائر الممثلين.

وقد كانت اللذة القصوى التي خبرتها ذلك اليوم إزاء اندهاش الطلبة

والمدرس، منشطة لرعتي في إدهاش من حولي بسعة علمي وكان لروج

أختي الفضل الأكبر في مساعدتي على تحقيق هذه الرغبة وتوجيهها الوجهة

السليمة. فكان إذا عرف من الموضوع الذي يتناوله الدرس التالي، سواء في

التاريخ أو الأدب أو غيرهما، جلسا معاً في الأمسية السابقة، لا لاستدكار

الدرس فحسب، بل وللتنظر أيضاً في المراجع المطولة في مكتبة أبي. فإن كان

الدرس التالي في التاريخ من سقوط الدولة الأموية. وتأسيس الدولة العباسية،

قرأنا في هذا الموضوع في «فجر الإسلام وصحاه»

وإن كان الدرس التالي في اللغة العربية في المعلقات السبع، حدثني

عتيق عن خلف الأحمر وحماد الراوية، وعن احتمال أن يكون الكثير من الشعر

الجاهلي - كما ذكره حسين في كتابه الشهير في الموضوع - قد وضعه

الرجلان في بداية العصر العباسي ونسبه إلى الشعراء الجاهليين، ثم عن فائدة

هذا الشعر الموضوع مع ذلك في التعرف على أحوال العرب قبل الإسلام.

فكنت إذا حل وقت الدرس، أتمجّن العرص للإدلاء أثناءه بما أكون قد حصلت

من معلومات، وإنشاد ما أكون قد حفظته في الليلة السابقة من قصائد. ولا أزال

أذكر التعبير على وجوه الطلبة ومدرس الدين حين فرغ من قراءة خطة جعفر بن

أبي طالب أمام نجاши الحبشة، فقامت أسرد البراهين التي وردت في كتاب

أي «فجر الإسلام» على أن هذه الخطبة لا مد وأن تكون منسوبة كدباً إلى جعفر، ومنها أنه قد ورد بها ذكر الصيام الذي لم يفرض على المسلمين إلا بعد مرور سنوات طويلة على المناسبة التي يزعمون أن هذه الخطبة قد أقيمت فيها

— هذا جائز، (هكذا قال المدرس مرتبكاً وقد ساءه أن يتشكك الطلبة في قيمة الخطبة بعد الذي سمعوه)، ولكنها مع ذلك قيمة في حد ذاتها إذ توضح لنا حال المسلمين في ذلك الوقت، وما لاقوه من أدى الكفار، وطريقة استمالتهم لنجاشي الحبشة.

— هذا حق، (هكذا قلت)، ثم جلست. وطفق المدرس يرمقني بعدها صامتاً بعض الوقت، لا يدري أيهتني على ما فعلت، أم يفترسي افتراساً. وجاء إذ كنت في الثانية عشرة يوم عيد، وقع فيه حادث كان له أثر مفلج في حياتي استمر قرابة عامين.

كانت لي ابنة عمّة في الخامسة عشرة تدعى نعيمة. كانت جميلة براقّة العينين، تفيض ذكاء وحيوية وصحة ونشاطاً. لم يكن بوسعها، إن جاءت لزيارتنا مع أمها، أن تجلس في مكانها دقيقتين متواليتين. فكانت تنتحل علزاً أو آخر حتى نخرج من الصالون، وتدخل علينا حجرة المكتب، لا نكاد ننتهي للنهوض لمصافحتها حتى نجدّها قد أقفلت كتبنا وكراريسنا في مثل لمح البصر، وهرعت بازلة إلى الحديقة دون أن تلتفت خلفها، واثقة من أننا سنتبعها على الفور. وفي الحديقة، كانت تتولى دون منازعة مكان الزعامة في اللعب، رغم حضور من يكبرها في السن بين إخوتي فهي التي تأمر وتنهاي، وتقترح الألعاب، وتختار أعضاء الفريقين، وهي التي يحتكم إليها في أمر كل من يهم بالمش أو الخطأ. فإن عبرت عن رعبها في عقود صب، تسابق الصبية ما يصعدون التكمية لتلبية طلبها والقريب أنه بالرغم من أنها كانت مادراً ما تصحك (بالمعكس)، كان وجهها يكاد يكون دائم التقطيع، فقد كان مجرد وجودها كفيلاً بأن ينشر بيننا جواً من المرح والسعادة والحيوية الزائلة

ثم حدث أن زارتنا العتلة مع أختها الكبرى يوم وقعة عيد الأضحى .
واتفقنا، أخي أحمد وأنا، مع الفتاتين على أن نلتقي قرب موقف المترو بشارع
عماد الدين في الساعة التاسعة من صباح العيد للذهاب إلى السينما معاً . وفي
صباح ذلك اليوم المشؤوم، كنت وأحمد في الانتظار على الرصيف المواجه
للموقف، حين شاهدنا نعيمة وأختها في المترو القادم تستعدان للتزول . لم
يكن القطار قد وقف بعد، وكان سلم النزول في غير الجانب المواجه للرصيف
الذي كنا عليه . وإذا التفت إلى أحمد أعيد عليه رجائي أن يذهب إلى فيلم
«أحلب نوتردام» بدلاً من فيلم «شبح الأوبرا» الذي اقترحه، إذا بنا نسمع صرخة
نسائية مدوية، وصيحات رعب من الركاب والمارة عند الجانب الآخر من
القطار، وزمارة المحصل تصرخ مبهة السائق أن يتوقف . وإذا حشد من الرجال
قد تجمع قرب السلم، قد انحنوا على شيء عند المجلات .

صاح أخي بي في حظة:

— قف هه مكانك وإياك أن تتحرك . أسمع؟

ثم هذا يعبر الطريق، بينما تسمرت في مكاني ارتعد . كان يقصد بطبيعة
الحال ألا أتبعه إلى قطار المترو حتى لا أشاهد الحادث ومن سقط فيه . غير أن
رغبة مخالفة تماماً كانت تعمل في نفسي في تلك اللحظة: الرغبة في أن أفر
في الاتجاه المضاد . كنت أشعر دائماً بأنني لو تجنبت الأزمة، أية أزمة من
الأزمات، وتبعيت عن مكانها مدة كافية، لوجدتها عند عودتي قد حلت حلاً
مرضياً، أو خفّت وطأتها على الأقل . . . والتفت إلى اليسار، فشاهدت المشرو
المتجه إلى مصر الجديدة يغادر المحطة . فلذا بي أعود حتى أبلغه، فأقفز فيه .

قلت لنفسي وما زلت ألتقط أنفاسي:

— سيعود أحمد إلى البيت في الثانية، ليسألني موبخاً أين اختفيت وقد
طلب مني الانتظار، ويخبرني أنه بعد البحث عني توجه إلى السينما مع نعيمة
وعائشة، ثم ينتهي على فيلم «شبح الأوبرا» ويقص علي قصته، ونجلس إلى

الغداء كالعادة. سأشعر حينئذ ببعض الندم إذ قد ضاعت عليّ نزهة الصباح.
غير أن الفرح بأن كل شيء على ما يرام، سيكون أضعاف الندم.

غير أن كل شيء لم يكن على ما يرام. عاد أحمد في الواحدة. سمعته
وهو يصعد السلم يسأل الحادم عني فأجابه بآني قد عدت. فلما دخل الصالة
ودأبي قابلاً بي ركن منها في خجل، ألقى عليّ نظرة غاصبة، ثم دلف إلى
حجرة أبي دون أن يوجه إليّ كلمة.

وشاع الخبر بعد لحظات. لقد سقطت نعيمة تحت عجلات القطار
وقطعت ساقها.



لم أر نعيمة بعد ذلك اليوم قط، رغم أنها عاشت بعده نحو عشر سنوات.
عير أن القصص والشائعات التي تواترت إلينا عنها طوال تلك المدة لم تكن
تعرف حداً:

ذكر لنا أنها ما سمح لها بالعودة من المستشفى إلى بيتها حتى اختارت
لنفسها غرفة منعزلة مه، لازمتها ملازمة أبي العلاء داره، لا تخرج منها قط،
ولا تسمح بدخولها إلا لأمها وإخوتها. كانت التوافل دائماً مغلقة، لا تريد لضوء
النهار أن يتير ما بالداخل. بل قيل لنا إنها ظلت مدة عامين تأبى النوم على
السري، وتنام على الأرض في قميص رفيع صيفاً وشتاء. وقيل إنها لم تكن
تسمح لأحد أن يكتس العرق، وإنها كانت تجمع التراب وتحافظ عليه محافظتها
على شيء نعيم، وقد رفضت قبول الكرسي ذي العجلات الذي جاءها والذي
به ثم وصل إلينا أنها أصيبت بالسل، وأنها قبلت بعد إلحاح أمها وبكائها أن
تستخدم السري في النوم، وأن تلس الصوف. وشاع الاعتقاد في العائلة بأن
الفتاة قد جنت.

وتمر سنوات تسع، فإذا بأبي وقد وصلته في يوم من الأيام رسالة طويلة

من نعيمة، يدفعها إليها لقراءتها وهو يهز رأسه في عجب. كانت الرسالة من أربع عشرة صفحة، كتبت بخط أنيق جميل، ولم يرد بالخطاب كله (وهو بالغرنية المصحى) خطأ نحوي واحد. كان عبارة عن نقد شامل لمؤلفات والذي في مجموعها، لأسلوبه ومنهاجه في التفكير وطبيعة الموضوعات التي اختار أن يكتب فيها. نقد جميل لا يخلو من عمق، ولا توحى أية جملة منه برعة في إطراره أو لإيلاام. أذكر منه:

« عرضت تطور الحياة العقلية للمسلمين في كتبك الأولى - وهي كتبك التي سيقدر لها البقاء في رأيي - فاستطعت أن تفرض نفسك على الحياة العلمية فرضاً، وأن تصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية. . . . غير أنك أسططت في تقدير قواك وطبيعة مواهبك، فظننت أن باستطاعتك أن تتجشع في كل شيء، وأن تسيع كل شيء، كما أسعت تاريخ الفكر الإسلامي وحضارة العرب. وما أنت اليوم تكتب فيما ينبغي ألا يكون لك به شأن، فأصبحت كتاباتك لا تطفئ ظمأ ولا تشبع نهماً، تاركاً شمس كتبك المخالفة، فجر الإسلام وضحاها وظهوره، معلقة في السماء، تريد لها أن تكمل دورتها. . . . »

ورد عليها أبي معتزلاً:

« . . . لقد كان في نيتي أن أسير في السلسلة عصباً فمصبراً إلى يومنا هذا. ولكن شاء القدر أن أصاب في نظري بما جعل الأطباء يحرمون عليّ كثرة القراءة، وخصوصاً في الليل. والاستماعة بالغير لا تكفي. فقد كنت أستطيع أن أتصفح الكتاب الكبير في ساعات، فأقف منه على ما يلزمني وما لا يلزمني. أما قراءة الغير فلا تجزئي هذا الإجزاء. . . لذلك وقفت عن العمل في تلك السلسلة، وبدأت أؤلف كتباً أسسها تجارب ومطالبات سابقة مما اندخر في الذهن على توالي الأيام. . . . »

ومن يومها بدأت بين أبي وبين نعيمة مراسلات تكاد تكون أسبوعية. أخبرنا أهلها (حين ذكرنا لهم رسائلها) ، أنها لم تنقطع طوال السنوات السابقة

عن القراءة، تنفق على الكتب ما يخصصه لها أبي من مصروف شهري، وأنها قد باتت تتقن العربية والفرنسية إتقاناً تاماً. ولم تكن تقتصر في رسائلها على الحديث في الكتب، فكانت تتحدث كثيراً في الجسد، مودة آراءها في الزواج والحب، دون أدنى إشارة إلى نفسها. وقد كانت آراؤها في غير الكتب ساذجة في تحمسها، سطحية في مثالياتها. وأحبرتنا أمها بعد أشهر أن ترسلها مع أبي كان له أثر طيب في رفع روحها المعوية، وأن فكرة الخروج من غرفتها إلى العالم، وأن تشر بعض ما تكتب في مجلة والدي والثقافة، بدأت تخامر ذهنها.

ثم جاءنا أنها خرجت، وأنها أصيبت في الطريق بنوبة قلبية، ماتت على أثرها.



لا أستطيع القول بأن الألم الناتج عن حادث سقوط نعيمة تحت هجلات القطار كان كافياً لثبرير ما طرأ على تفكيري وأسلوب معيشتي من تغير جوهري. لقد هزني مأساة الفتلة، وكنت أحب صحتها غير أن الحادث وحده لا يعسر ذلك التدبير العنيف المتطوف الذي بدأ معي بعده يوم واحد، واستمر عامين، والذي ترك وراءه حين حفت حدّته آثاراً لا رجوع فيها.

كانت الحالة أقرب إلى الهوس الديني منها إلى الدين.

بدأت فجأة في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى نحو منتظم. ثم قرأت أن هارون الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم الواحد. وإذا كنت أسمع دائماً من والذي عبارات الإزراء بهارون الرشيد، قلت لنفسي إنني لست دونه، فأحللت في الصلاة مائة وعشر ركعات في اليوم. فإن تبقى لي من الوقت بعد المدرسة والمذاكرة والصلاة ما يسمح بالقراءة، أقبلت على تلاوة القرآن وصحيفي البحاري ومسلم وقصص الأنبياء وسير الصحابة والتابعين، مستبعداً ما كنت شديد الشغف به من روايات جرجي زيدان وتجييب محفوظ. واطلمت

أثناء قراءتي في التاريخ الإسلامي على قصة حرق مكتبة الاسكندرية، واتهام بعض المؤرخين الأوروبيين لعمر بن الخطيب بأنه هو الذي أمر بإحراقها، وإذا كان يعتقد أن القرآن قد تضمن كل شيء». وبالرغم من أن ما قرأته كان دحضاً لهذا الاتهام، فإن فكرة إحراق الكتب راقتني. فإذا بي في بعض الأحيان - وإن لم تكن أحياناً كثيرة - أمتل من مكتبة والذي بعض ما أعرف من الكتب أنه يتضمن أفكاراً إلحادية، ومن مكاتب إخواني بعض المجلات التي تحوي صوراً لساء في ملابس البحر، وأتسلل بها إلى سطح المنزل، أصب عليها نطقاً من الجار، ثم أشعل النار فيها متمتاً ببعض الآيات القرآنية

تميزت شخصيتي خلال تلك الفترة بالفتامة الكثيرة والجدية المعروفة، لا أعرف مرحاً أو ضحكاً أو لهواً. وعرفت أثناءها بظلم الدم الشديد. فما من موضوع يفتح أمامي إلا حولته إلى الدين، وذكرت حكم الشرع فيه، وما قد يكون للنبي من حديث بصدده. وما من سلوك يبذر من أحد إخواني أحال فيه تعارضاً مع الدين إلا حاولت أن أقومه بلساني أو قلبي. وقد صبح إخواني في النهاية مني، ومن سعيي إلى هدايتهم إلى الطريق القويم فتحول صبرهم عليّ إلى سخرية مني، ملقنين لي أي هارئين بالشيخ حسين، كلما شعروا بأنني في سبيل الوعظ صاحوا: «اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ!». فكأنوا بذلك يفلحون في إسكاتي، وأراني استعيد وقتها في ذهني ذكرى صبر النبي على ما لاقاه من أذى المشركين من قريش

... في الليل، حين آوي إلى فراشي الذي أشارك فيه أخي أحمد، كنت أتمتع مدة طويلة بملء من الآيات القرآنية بصوت خفيض، فلا يسمع منها غير «سسسس» فيصبح بي أحمد حين يبلغه به الضجيج مبلغه.

— كفاية بسيسة، الله يقلب دماغك!

ويصحب طلبه بركة قوية من قلعه أو صبره ببركته. فإن لم أسكت قام

مزمجراً إلى أبي يرجوه أن يأمرني بالسكوت. وأسمع صوت أبي من الصلاة
يهتف بي :

— نَمْ يا حسين !

فأتردد عندئذ بين الطاعة وبين عدم إطاعة الوالدين فيما يأمراني به مما
يخالف الدين . ثم أطيع .



ففيما صيف أحد هذين العامين بالاسكندرية في شقة من عمارة كان
أصحابها يسكنون الطابق الأول . كانت العائلتان تتزاوران يومياً ، وقد نشأت بين
فتيات عائلة المؤجر وشبان عائلة المستأجر علاقات وثيقة كان والد الفتيات
يغض عنها - أولعله كان يشجعها - على أمل أن تنتهي شهور الصيف بزواج .
فأما الأرجح فهو أن إخوتي لم يستمتعوا بصيف استمتعاهم بذلك الصيف . وأما
المؤكد فهو أنني لم أخبر من العذاب ما خبرته فيه . هُييء إليّ أن المكان أشبه
ببابل مصفرة : الفتيات ما بين صاعدة تجري ، وهابطة تمدهن ، هذه تلبس
(الشورت) ، وتلك يهتر ثدياها اهتزازاً عنيفاً مع كل سلمة تهبطها ، وثالثة تلبس
(بلوزة) لا تدري البستها للستر أم للكشف . وكان شعوري إزاء ما أرى شعوراً
مختلطاً : فأنا أطيل النظر إلى (البلوزة) ما في ذلك شك ، وإلى الصدر يعلو
ويهبط عند نزول صاحبه النرج . بدليل ما أردده بعدها في السرم دعاء . غير
أن نومي كذلك قد بات مضطرباً ، أظن أن قلب من جنب إلى جنب حتى أسمع
أذان الفجر فأقوم للصلاة .

دخلت عليّ يوماً إحدى تلك الفتيات الصلاة فوجدتني أجلس إلى النافذة
مقطباً ، وفي الصلاة ابن حالة لي . قالت له الفتاة :

— تراهنتي أنني سأجعل ابن حالتك هذا يتسم ؟

أجاب ضاحكاً :

— أراهك !

فأخرجت من حقبة يدها إصبع (روح)، وفتحت، وسارت به إليّ تريد أن ترسم به على وجهي. وبالرغم من أنني استمتت من قبل أن يلمس الإصبع وجهي، رافعاً يدي لمعها، فقد صممت على تنفيذ ما أرادته واحسنت بجسمها كله عليّ لتطاهر ومحاولة التقلب على مقاومتي. احمر وجهي وانتمص جسمي انتعاشات سريعة من الاضطراب. غير أنني صميت هي نفس الوقت أن يطول الصراع المصطنع. وأحسنت هي باضطرابي فزادها ذلك إلحاحاً، ثم إذا بي وقد صدرت مني حركة عنيفة لم تكن الفتاة تتوقعها، فإذا بها تتعثر إلى الحنف، وتسقط على الأرض سقطة ارتصم لها رأسها برجل كرسي رطمة قوية، فقامت ممسكة رأسها بيدها، وأدبرت خارجة تلمن غاضبة محنته.

حتى تخيلي للجنة التي كنت سأدخلها يوم القيامة، لم يكن يحلو من العنصر الجنسي فالبحور العين هن أول ما يقفز إلى مخيلتي، لا يعرفهن في الأهمية غير رما الله عز وجل. فإن قرأت في تاريخ الأمويين والعباسيين وقررت في نفسي أن أدهو الناس حين أكبر إلى العودة إلى ذلك النمط من الحياة الذي عرفه السلف الصالح، وجلست أتخيل هله للعودة لوتمت، كان أول ما يتبادر إلى ذهني صورة الجوارى في ثياب فضفاضة شفافة وأوضاع ساحرة حلابة، بينما أجلس بينهن على الحشايا أستمع إلى غنائهن وعرفهن.

وتطورت الحال معي إلى الوسوسة والحزبيلات. أضغ في فمي قطعة من الحلوى فلا أكاد أدوقها حتى يهتف بي هاتف أن الله يريدني أن ألقبها من فمي وأسير في الطريق فأقول في نفسي إن الله يريدني أن أدور حول هذا العمود أمامي ثلاث مرات، فأفعل دون أن أعيا بما قد يظنه في المارة من غل. وأدخل السينما فلا يكاد الفيلم يبدأ حتى أتوهم أن الله لا يريدني أن أشاهد هذا الفيلم، فأغضض عيني وأحني رقتي حتى يطر الجالس إلى يساري أنني مريض ممرض مساعدته عليّ. وقد أعارني أحدهم خلال ذلك الصيف كتاباً يحوي عدداً من الأحاديث الموصوعة المسبوبة إلى النبي! كان ضللاً جديداً من الخرافات.

واضطرب أبي في النهاية إلى التدخل حين رأى حالي يتطور من التدين إلى
اليهوس. فتحى كتبه وكراساته ليخصص الساعات الطوال لإقناعي بأن ما أنا فيه
ليس من الدين في شيء، ويسرد القصص عن سماحة الرسول ومرونته وسعة
أفقه.

في السينما، كنت أغمض عيني دائماً عند مناظر القبلات وما شابهها،
عدا مرة واحدة (كانت في أواخر العام الثاني من ذلك الطور) أثناء فيلم «فتى من
بروكلين» لداي كاي، لم أستطع أن أحول بين نفسي وبين الحملقة أكثر مما
يسخي في سطة الفيلم، حملقة أشعرتني لأول مرة بقرب تصدع البناء الذي
استغرق عملي فيه نحو عامين.

عندما اكتشفت جماعة منا بالمدرسة الابتدائية شيئاً اسمه الشفرة، فكرنا
في تكوين جمعية سرية نستخدم الشفرة فيها. وإذ أنه ما من حاجة إلى استخدام
الشفرة في جمعية موالية للحكومة، فقد قررت جمعيتنا أن تكون مناهضة لها.
ولقد اجتمع خمسة من التلاميذ، كنت أحدهم، في غرفة بمنزلة حافطة الإضاءة
(نعمدنا أن تكون خالفة الإضاءة لتكرار استخدام الصحف في ذلك الوقت لمباراة
الذين يعملون في الظلام، وهي عبارة ألهمت مخيلتنا دون أن ندرك معناها
بدقة). فوضعنا في الجلسة الأولى رموزاً للحروف، ودوننا كل منا في مفكرة
جيب صغيرة، وفي الجلسة الثانية قواعد اختيار الرئيس والوكيل وأمين الصندوق
وانتخابهم في اقتراع سري، وحلفنا في الجلسة الثالثة يمين الولاء للجمعية أمام
الرئيس، وحلدنا قيمة الاشتراك الشهري ثلاثة قروش.

فأما الغرض الأساسي للجمعية فقلب نظام الحكم بالقوة، وإجبار الملك
فاروق على التنازل عن العرش والاستيلاء على أمواله، وطرده هو وأمه وأخوانه
من البلاد مع منحهم مرتبات شهرية كافية. وقد اقترح أحد أعضاء الجمعية
إعدامهم، أو (إعدام الملك على الأقل). غير أننا أقمناه بضرورة ضبط النفس،
لتجنب الظهور بمظهر سفاكي النماء. وناقش المجتمعون شكل نظام الحكم

الجديد: جمهورية أم ملكية مستتيرة وقد كنت أميل إلى إعلان ملكية مستتيرة (لغرض خفي في نفسي لم أفصح عنه). غير أن الباقين أبدوا شكل الجمهورية فلما عن الوسائل التي مستناها الجمعية في سبيل تحقيق أهدافها، فكتابة المنشورات (بخط اليد إلى حين التمكن من شراء آلة كتابة)، ووضعها سرّاً في صناديق البريد بالعمارات التي نُسكنها أو نزورها، وكتابة شعارات «يسقط الملك» و«تحيا الجمهورية» على حيطان دورات المياه بدور السينما وما يشابهها (أي يشابه دور السينما)، ومحاولة إقناع من نتوسم فيه الخير والروح الثورية، وحُب الوطن، بوجوب العمل على إسقاط الملكية، مع التزام الحيلة والحذر حتى لا نصع ثقتنا فيمن ليس أهلاً لها كما تعهد ثلاثة منا كتابة بالاتفاق بعد إتمام الدراسة الثانوية بالكلية الحربية، لضمان تأييد الجيش للثورة ووقوفه خلفها، أو إقناعه، على الأقل، بالامتناع عن التدخل

كان الاجتماع الرابع مخصصاً لدراسة النظم التي نريد تطبيقها عقب التخلص من الملك. وقد واجهنا لها صعوبة لم نواجه مثلها وقت وضع الشفرة وانتخاب مجلس الإدارة. فمعلوماتنا ضئيلة في هذا الصدد، والقول بوجوب تحقيق عدالة اجتماعية في ظل النظام الجديد، والقضاء قضاء مبرماً على الفقر والجهل والمرض لم نجده، مع صغر سنا، كافياً. فقد كانت تتناهى إلى أسماعنا، وتقع تحت أبصارنا، عبارات شتى عن الشيوعية والرأسمالية وإشتراكية إنجلترا وإشتراكية الإسلام، فهما من مجموعها فهماً غامضاً أن العدالة الاجتماعية هنا ظلم اجتماعي هناك، وأنه قد أصبح من المضحك أن يطالب المرء بالعدالة الاجتماعية على إطلاقها، دون أن يحدد أي نمط منها يريد. ولم يكن يعقل أن تتخذ جمعية سرية من الرأسمالية مبدأ لها لذلك ترددت الجماعة في اجتماعها الرابع هذا بين الشيوعية وإشتراكية إنجلترا. أراد اثنان منا إشتراكية إنجلترا. غير أن ما كنا نقرأه في الجرائد في ذلك الحين عن ضبط خلايا شيوعية، وإتهام أفرادها بحيازة المطابع السرية وتوزيع المنشورات،

مال بالثلاثة الآخرين إلى اختيار الشيوعية، فأقرهاها مبدأ للجمعية. وكان نصيراً
اشتراكية انجلترا من الأدب وسلامة الفوق بحيث رضىها لقرار الأغلبية، ولم
يتعمقاً في التثبت برأيها.

ويدأنا نجمع المعلومات عن الشيوعية. فالفكرة الوحيدة في رؤوسنا عنها
هي أنه ليس في النظام الشيوعي غنى أو فقر، وأن الكافة متساوون في الدخل.
وهي فكرة لا تكاد تكفي وحدها لوضع أنظمة ومجموعات قوانين أو حتى
لدستور. وإذا كنت أعلم أن أحد أصدقاء والدي، وهو المرحوم مفيد
الشوابشي، شيوعي، فقد انتهزت فرصة مقابلي له في أحد الاجتماعات
الأسبوعية للجنة التأليف والترجمة والشر، وسأله عن خير كتاب في الشيوعية
يؤخذ بقراءته. أجاب بلا تردد:

— رأس المال لكارل ماركس!

واشتريت في اليوم التالي ترجمة الدكتور راشد البراوي للكتاب،
وجلست متلهفاً لقراءته، مسلحاً بالورق والقلم كي أنقل مقتطفات منه يمكن
استخدامها في المنشورات. فلم يحدث أن صادفت في حياتي ما هو أصعب
على الفهم، ولا أثقل ظلاً ولا أبعث على السأم وإدعى إلى التأؤب والملل من
ذلك الكتاب. (والظاهر أن هذا الانطباع الأول عن الكتاب كان من القوة بحيث
حال دون بذلي لأية محاولة لاحقة لقراءته حتى يومي هذا).

غير أن اعترافي أمام أعضاء الجمعية في اجتماعهم الخامس باستحالة
فهمي لمضمون «رأس المال» لم يوهن من عزيمتها أو يثبط من حماسها.
واستمرت الجمعية في نشاطها العملي ثلاثة أسابيع كاملة لا تعرف الكلل
أو الملل. وكان أهم ما أنجزته خلال تلك الأسابيع، قصيدة قمت بنظمها على
وزن قصيدة لأحمد شوقي كانت أم كلثوم تعنيها في ذلك الحين في مدح

الملك.

المُلكَ حينَ يديك في إقباله
عوذتُ مُلكك بالنبي وآله
عارضتها بقصيدة مطلعها:

عرش ينوء الشعب تحت ظلاله
وترى بإذن الله شر مآله
وفد وأنت الوغد في أخلاقه
نيس وأنت النيس في أعماله
برديك نصرانيه بصلبه
والمسني لمحمد بهلاله

وفي نهايتها:

ثوروا على هذا المليك وآله
واقضوا على الحشرات من أمثاله

وقد أكبر الرفاق هذه الموهبة في النظم عندي وأدركوا أهميتها في جمعية
كجمعيتنا وفي تعبئة الرأي العام. فقاموا بنسخ عشر نسخ منها لتوزيعها على
نطاق واسع، غير أن حادناً مؤسفاً وقع لأحد رملاتنا أثناء تأديته لواجبه الوطني.
ذلك أنه وهو في طريق عودته من المدرسة، دلف خلسة إلى إحدى العمارات
الكبيرة كي يودع نسخة من القصيدة في أحد صناديق البريد. وإذ مد يده بالورقة
إلى فتحة الصندوق، شعر بيد غليظة على كتفه تستوقفه، هي يد بواب العمارة،
وأخذ البواب القصيدة منه يقرأها دون أن يدعه يفلت من قبضته. فما وصل إلى
وُثِرُوا على هذا المليك وآله» حتى رنت على ففا الرفيق صفعة مدوية قوية،
تلتها قرصة في الأذن ولكمة في البطن، مع سيل من السباب البذيء، والتظاهر
بنية استدعاء الشرطة. وبالرغم من أننا عزيزنا صديقنا في اليوم التالي بأن متالين
سجن ست مرات، وأمثلة أخرى مما يلاقيه المناضلون في كل مكان من تعذيب

وتتكيل واضطهاد، وبان بواب العمارة الذي هو في حقيقة أمره من الكادحين لم يدرك بعد أن مثل نشاطنا هذا في مصلحة طيقته، فإن حماس الزميل للجمعية طرأ عليه من يومها فتور ملحوظ، لم يلبث أن انتقلت عدواه إلى بقية أفرادها، فلم يمض شهر على إعلان تأسيسها حتى أعيدت إلى كل عضو بها القروش الثلاثة التي كان قد دفعها، بعد خصم حصته من النفقات الإدارية.



ثم تلت ذلك فترة العامين من التدبیر الشديد. وقد التقيت خلالها في الاسكندرية برميل لي في المدرسة في مثل تدبیري يدعى خليفة. كنا نلتقي كل صباح فتمسیر جبهة وذهاباً على شاطئ ميامي، كل يشير للآخر إلى ما بصادفنا من مناظر لا يرضى عنها الدين، ثم نعبّر معاً عن استكارتنا لها، مستعدين بالله منها، ونحاول أن نلتم أنظار النساء في ملابس البحر إلى تعبير الأشمزاز على وجوهنا. وخطر لخليفة يوماً أن نتقم للدين من كل هذا المعجور الذي يملأ الشاطئ، وأن نعلم على حمل يرى فيه هؤلاء البابليون يد الله وغضبه. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، التقينا في مكان محدد بالشاطئ وقد أتينا بمجموعة من الحرق الصغيرة وقدر من الجاز وأعواد الثقاب فكانا نشعل النار في الخرق، ونلقي بها في الكينة من إحدى فتحات نوافدها، ثم نتغل إلى الكينة التالية فعلنا هذا في ست من الكبائن أو سبع، ثم عدنا لاهثين إلى البيت نرتقب وصول الأخبار إلينا عن «حريق هائل يجتاح الشاطئ» فلما قصدها عند الظهر، إذا الأمور تجري فيه كالمعتاد.

ثم بدأ العام الدراسي الجديد فجلدت صلي بخليفة. وقد لاحظت منذ الأيام الأولى أنه يقتصر في صلاته بالمدرسة على خمسة أو ستة من الطلبة ذوي طابع خاص يميزهم عن غيرهم. فهم أعف الطلبة لساناً وأهزفهم عن اللهو والهزل، وأقلهم اعتناء بالمليس. فإن كانوا لا يتمتعون بذكاء كبير، ففي جدهم واجتهادهم عوص عن الذكاء. وهم يلتزمون في علاقاتهم بقدر من السرية

عظيم، وكثيراً ما نراهم في أوقات الفسح متحين ركناً من أركان حديقة المدرسة يتحدثون بصوت خفيض، لا يشاركون رفاقهم في لعب السبي والجري والصحك. فإن انضم إليهم عريب شعر من فوره أنه قطع عليهم حديثهم الخاص. وهم في معاملتهم لمن ليس في حلقته يتخلون سمّت التنازل شأن الأخ الكبير العاقل. وبالرغم من أنهم كانوا يبادرون بمد يد المساعدة إلى كل من احتاج إليها، فقد شاع بين الطلبة وصفهم بثقل الدم. وقد ميرهم عن غيرهم أنهم كانوا إذا ذكروا السبي، أو ذكر السبي في حصرتهم تمتوا على الفور ﷺ، معرفوا لذلك في المدرسة بجماعة ﷺ.

عرفني خليفة بهم فكرهتهم منذ اللحظة الأولى. ربما لتضليل خليفة لهم عليّ، وربما بسبب لهجة النعالي والإرشاد التي كانوا يتحدثون بها إليّ، بن ربما لأن شعوري نحو خليفة نفسه كان قد أخذ يتمير لإحساسي بأنه يمايلي معاملة الهالف إلى أمر، وأنه يتبع أساليب مرسومة للوصول إلى هذا الهدف، وكأنني أداة يمكن استخدامها بعد علاجها.

بدأ بأن سرد عليّ قصة حياته: كيف أنه كان فاسداً شريراً (كان وقتها في الرابعة عشرة من العمر)؛ ثم كيف أنه مرض مرضاً خطيراً كاد الأطباء يأسون من شفائه منه. غير أن الله تعالى شاء له النجاة فإذا به يقوم من فراش المرض إنساناً غير الذي كانه. وما هو أبوه (وهو قاض شرعي) يقرأ معه أثناء فترة النقاهة كتاب الغزالي «المنقذ من الضلال» ويشرحه له فإذا الكتاب مور أضاء له عقله وقلبه. وعرف الحق وأقسم ليكرس حياته لتعريف الآخرين به. ثم قال عني إنني أشبه في العلاج شقيقاً عزيزاً له اختطفه الموت في ريعان شبابه وأنه لذلك يكنّ لي مودة خاصة، ويريد أن يعيدني من تجاربه وتعلم تفكيره (كتا في سن واحدة) مؤمراً عليّ الألام الشديدة التي عاناها قبل أن يدرك الحق. وقد كان لخليفة هذا فضل تعريفي في ذلك الوقت بكتابات ابن تيمية وابن حزم، وهي الكتابات التي ظلت الأثيرة عندي من بين كافة كتب التراث الإسلامي إلى يومي هذا.

ثم إذا به في أحد الأيام يتحيي بي في جانب الفناء أثناء فسحة الظهر ويقول:

— أسمع عن الأستاذ الشيخ حسن البنا؟

— زعيم جماعة الإخوان المسلمين؟ قد سمعت به

— وما رأيك فيه؟

— كل ما أرفقه عنه أنه مشر منذ أسبوعين في جريدة الإخوان خطاباً مفتوحاً إلى أبي يعرض عليه فيه الانضمام إلى الجماعة، ويقول إن مكاناً ينتظره في الصف الأول من صفوفها.

قال فجأة:

— أتحب أن تقابله وتسمع منه؟

— وكيف لي بذلك؟

— سيحضر هذا المساء إلى بيتنا لزيارة أبي، وهو يرحب دائماً بمقابلة الشباب.

— ليس لديّ مانع.

واستأذنت أبي عصراً في الذهاب، فتردد لحظة يفكر، ثم أذن لي، على أن أسرد عليه عند عودتي ما دار من حديث، ثم قال وأنا أذهب للانصراف:

— إن سألك الشيخ البنا لماذا لم أجب على خطابه المفتوح، فقل إنه لا علم لك بالموضوع.



في شقة خليعة بحي كوبري القبة، كان الشيخ حسن البنا جالساً مع أربعة أو خمسة من الضيوف الآخرين في حجرة الاستقبال عتيقة الطراز، وقد كسيت مقاعدها بالقماش الأبيض. كانوا فيما عدا الشيخ البنا، يحسبون القرفة. وإذ

عرفهم حليلة بي، ذكر للشيخ البنا أنني ابن الأستاذ أحمد أمين، فأبلى الشيخ على الفور دلائل الاهتمام، وخط بكه الغليظ ثلاث مرات على حشية الكرسي المجاور له إشارة إلى أن أجلس بجانبه.

ثم واصل حديثه مع أحد الحاضرين:

— المسألة يا مولانا خلافية إلا فيما يتعلق بالطعام والشراب. فالحديث متفق عليه والنهي شديد. والنبي ﷺ يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما»، ويقول «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم» ولا فباس مع النص، ولا مناص من الامتثال.

أجاب محدثه:

— يا أستاذ، أنا أحكم بقوانين نابليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة، وكل منا ملزم بشريعته!

— الأمر إنما جاء للمسلمين عامة وأنت واحد منهم.

ثم التفت الشيخ البنا فجأة إلي:

— إذن فأنت ابن أستاذنا الجليل أحمد أمين. لقد قرأت كل حرف كتبه أبوك مرات ومرات، وأقولها مشهداً الله على ما في قلبي إنني أراه قد استكشف تاريخ الحياة العقلية للمسلمين استكشافاً لم يسبق إليه.

كان يتكلم بصوت جهوري عميق، وبسرعة عجيبة وكأنما يسمع لنفسه في أقصر وقت ممكن درساً حفظه.

وبدأت أزد بأن أبي يبدله شعور الاحترام والإجلال، فقاطعتني بحركة من يده ورأسه وكأنما هو يرفض ما يقال من قبيل المجاملة:

— لعلك سمعت منه أنني وجهت إليه خطاباً مفتوحاً بجرديتنا أدهوه فيه

إلى الانضمام إلى الجماعة. أحدثكم في هذا الأمر؟

حاولت أن أكذب فلم أستطع ، فلهجته الحامسة وسرعته في الكلام التي توحي بالرغبة في الحصول بسرعة على الرد الصحيح لكي يتمكن من الانتقال إلى النقطة الهامة التالية ، لم تتركنا لي مجالاً سوى لأن أجيب :
— نعم .

فلماذا لم يرد إذن؟

— أي يرى أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت بداية طيبة محمودة في دعوتها الدينية ، غير أنها انحرفت بعد ذلك عن غرضها الأصلي بتدخلها في السياسة . وهو لا يرى الربط بين السياسة والدين .

— لا يرى الربط بين السياسة والدين؟ 11

قالها في تهيج شديد وهو يشد لحيته السوداء بأصابعه الخمسة ، وكأنما هي المرة الأولى التي سمع فيها هذا الانتقاد يوجه لجماعته!

— لا يرى الربط بين السياسة والدين!! أنا بصراحة لا أفهم هذه العقلية . لا أفهمها إطلاقاً . (قال ذلك موجهاً حديثه إلى الآخرين) . قد أفهمها من ملحد علماني ، نعم ، أما من لا شك في صلق إيمانه كأحمد أمين فلا . . هي نفس العقلية التي الحظها في الشيخ مصطفى عبد الرازق وهيكمل باشا . كيف يمكنكم أن تفسروا هذا؟ كيف يمكنكم أن تقولوا أن أكبر علماء المسلمين شأناً عندنا يتحدثون عن عدم ارتباط السياسة بالدين ، وكأنما لم يسمعوا قط عن الرسول ﷺ؟ ألم يكن الرسول يربط بين السياسة والدين؟ أيمكن أن تصور شأن الإسلام الذي كتب أحمد أمين تاريخه لو لم يكن النبي ﷺ قد أحدث هذا الربط؟ ما رأيك؟

هزئت كتفي لا أندري بم أجيب .

— تحب أن تفهم؟

— نعم .

— فاسمع إذن . الواضح من ملامحك أنك فتى حبيب ، فاستمع إليّ واشرب قرفتك قبل أن تبرد . ما معيه يربط السياسة بالدين هو الإرادة أن تحكم هذه الأمة لا وفق دستور من وضع بشر قد يخطئون ، وإنما وفق أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وهي أحكام لا يمكن أن يتورها خطأ . ما العيب في ذلك؟

— يقول والذي إن مقتضيات العصر . .

— ماذا؟ (صاح مستكراً دون أن يدعني أكمل جملتي ، وهو يحبط الأرض بعضاً في يده) كيف إذن يسمي نفسه مسلماً ويحل لنفسه الكتابة في الإسلام؟ مقتضيات العصر؟!

— أنا أرى أن أحكام القرآن وسنة النبي .

— صلى الله عليه وسلم .

— صلى الله عليه وسلم ، تصلح لكل زمان ومكان .

— أنت ترى ذلك ، ولكنه يرى أن القرآن لم يحو كل ما يمكنه أن ينظم علاقاتنا وأوضاعنا التي تختلف عما كان قائماً وقت النبي عليه الصلاة والسلام ، وكإنما لم يكن من السهل على الله عز وجل أن يرى ما سيكون في المستقبل! ومع ذلك فلننظر إلى الأوضاع التي لم تختلف أخذ السرقة مثلاً . القرآن يقول: اقطعوا يد السارق . فلماذا لا يقطعونها اليوم؟

— أبي يقول . . .

— هذه مسطرة لا تفسير للدين . (أيضاً دون أن ينتظر إكمالي للجملته) . في عهد النبي كانوا يقطعون يد السارق ، وكفى بذلك تفسيراً . عبد العزيز باشا لهمي أيضاً ظهر مؤحراً ببديعة جديدة في الدين ، محاولاً أن يثبت أن القرآن لا يسمح بتعدد الزوجات . ولكن النبي والصحابه كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة . ما أريد قوله هو أن الحكومة الحالية تحكم بما يخالف الشرع ، بما

يخالف حكم الله ، ومن يحكم بما يحالف حكم الله والشرع حقت محاربه وإسقاطه . ومن ثم فلا مفر من ربط السياسة بالدين إلا لردنا أن نهىء مجتمعاً يرضى الله عنه ، ويمكن للمسلم فيه أن يعيش حياة إسلامية حقة .

ثم ابتسم الشيخ النابلي وجهي فجاءة وكأنما هو يعتذر عن لهجه المتحمسة :

— لا يمكن للمسلم في يومنا هذا أن يكون مسلماً حقاً إلا إن وُجد مع غيره من الأتقياء المخلصين جهودهم في سبيل تهية المجتمع الصالح . العمل الفردي لا يجدي . الصلاة والصوم والزكاة لا تكفي . والجهد في سبيل مرض حكم الله واجب . هذا ما تبيته حين كنت في مثل سنك يا سيد حسين . الجماعة قوة والمسلم بمفرده غير ذي شأن . وإذ أن جماعتنا هي الجماعة الوحيدة في أمتنا التي نصبت أمامها هذا الغرض ، فإن الانضمام إليها واجب ديني ، هو الحل الوحيد . وإني أقولها محلياً مؤمناً : إن رفض الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين إعراض عن الإسلام بأسره . . . قل هذا لأبيك !

ثم حوّل عني وجهه بغتة ، فلم يوجه إلي كلمة واحدة بقية الجلسة . ونقلت عند هودتي نص الحديث إلى والذي ، فهز رأسه مرتين أو ثلاث ، ولم يعلق .

لم أجد في حديث الشيخ حسن البنا ما يغري بالانضمام إلى الجماعة . وقد كان خليفة يتوقع أن يكون لقائي بالشيخ نقطة تحول في حياتي . فلما سألني بعدها عن انطباعي وإثره سلبياً ، فترت مشاعره بحوي فتوراً ملحوظاً ، وكذا مشاعري نحوه وبحو أصحابه . ثم إذا بحدث يقع حوّل هذا الفتور عندي إلى عداء صريح ومجاهبة مريرة ، ألا وهو حادث اغتيال رئيس الوزراء في ذلك الحين ، محمود فهمي النقراشي ، على يد أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين ، وقيل إنه كان يبايع من الشيخ حسن البنا .

كان النقراشي ، زعيم السعديين ، صديقاً حميماً لأبي ، يسكن داراً قرب

دارنا، وكثيراً ما يتزاوران. وقد رأيته لأول مرة إذ كنت صبيّاً في روضة الأطفال دخلت علينا مدرسة الفصل ذات صباح تحبراً أن النفراسي باشا وزير المعارف ميزور روضتنا خلال النهار، وأنها ستطلب منا كتابة جملة، فمن كتبها ولم يحطىء في كلمة منها ناب عن الفصل في الترحيب بالضيف. وكانت الجملة:

«رأس المجلس رئيس من الرؤساء».

فلم يكتبها سليمة غيري. وإذ تقلعت في فناء المدرسة للترحيب بالوزير صافحني وقبل رأسي وسألني عن اسمي. وعندما سأل عما إذا كنت ابن أحمد أمين، تقلعت ناظرة المدرسة تجيب نيابة عني بالإيجاب، وتضيف قولها إن ابن الور عوام فعاد يقبل رأسي ويصافحني من جديد، ثم قال:

— حجم رأسه ويريق عينيه وحدهما يحكمان بذكاه.

ومن وقتها بات النفراسي عدي زعيم الأمة دون منازع، لا أقبل من أحد قوله سوء فيه. فما اغتالته جماعة الإخوان حتى تبلور عدائي لها ولمرشدها العام.

وكان بالمدرسة السعيدية الثانوية التي انتقلت إليها بعد تحولنا للمسكى بالذقي، عدد من الطلبة الشيوعيين، يتزعمهم فتى يدعى الدفراوي، شديدو العداء للإخوان. وكثيراً ما كان يحدث بين الفريقين احتكاكات واشتباكات، خاصة أثناء فترات الاضطراب السياسي. وقد صور لي خيالي أنه قد يكون بإمكانني إذا ما انضمت إلى هذه الطائفة الأولى، أن أستعملها في ضرب الطائفة الثانية كخطوة أولى في سبيل تحقيق أهدافي. حدث مثل هذا من قبل في مختلف عصور التاريخ. فكنت أتسلل أحياناً مع الدفراوي في فترة فسحة الظهور إلى الفصول الخالية، نفتح لأدراج الطلبة من الإخوان، ونترك فيها ورقة تحوي عبارات السب والتهديد وتنتهي مكان التوقيع بعلامة رد Z (إذ كان فيلم «علامة زوروه» في ذلك الوقت من أشهر الأفلام لدى الطلبة).

وقد تبينت إدارة المدرسة بعد وصول عدد من الشكواوي إليها خطورة

الأمر، فكلفت من يقوم من الفراشين بحراسة الفصول أثناء الفصح، مما وضع حداً لنشاطنا في هذا الميدان.

وفي يوم من الأيام سألتني المدغراوي عما إذا كنت أقبل التبرع لإحدى المجلات التي يصدرها الطلبة الشيوعيون بالجامعة. وإذا أجبت بالإيجاب أخبرني أن محرراً فيها ميزوردي ذلك اليوم في المساء لاستلام المبلغ، والاتفاق معي على الموضوعات التي أرى الكتابة فيها وإرسالها للمجلة. وأخبرني عن هذا الرفيق أنه طالب بالهندسة جد فقير، يسكن في شبرا، ويقطع المسافة يوماً إلى الجامعة سيراً، على الأقدام

وفي المساء (لن أنسى ذلك المساء قط) كنت في حجرتي أستعد للذهاب مع العائلة إلى الأوبرا حين هف بي والدي، وكان بالشرقة: - حسين ا صديق لك يناديك في الحديقة.

صديق لي؟ لا بد أنه ذلك الشيوعي. وأحسست لحظتها بخجل شديد من نفسي أن يناديني أبي في براعة وسلامة نية، طائناً أن الرائر صديقي حقاً، وأن الزيارة زيارة عادية، في حين كنت في واقع الأمر على وشك الإقدام على خطوة ستسهم في سقوط الطبقة التي تسمى إليها عائلتي. فأنا الخائن إذن لسطفتي ولعائلتي وأبي. ومع ذلك فقد نزلت لاستقبال الزائر. وقد بدا منظره بمثابة الرثة، وحذائه القديم، جالساً في حجرة الاستقبال الفحمة، شاداً غريباً. أعطيته مبلغاً من المال، وطلبت له الشاي وبعض الحلوى والسندوتشات. ثم شعرت برغبة قوية خبيثة في أن أزيد من إحراكه لثرائي. ففرجته دون مناسبة أو داع على غرف الطابق الأسفل، على صالة النجج بنج، والمكتبة، والبلياردو المصغر الذي أمدها إليّ والدي في عيد ميلادي، ومجموعة الأسطوانات الضخمة من الموسيقى الكلاسيكية. كل هذا لأشعره أنني شيوعي لا لمصلحة، لا لأنني فقير مثله، وإنما عن مبدأ وتعمير عادل، وضد مصلحتي الخاصة. والغالب أنني أفلحت في بهره، كما أنه من المحتمل أن يكون قد ظن بي البلاءة والسذاجة إذ تكون لي آراء مثل آرائه.

أكملت ارتداء ملابسني، وتوجهت إلى دار الأوبرا مع العائلة وفي المقصورة، ظل شبح هذا الزائر يطاردني ويقلقني لقد وجه ماوكس وإنجاز في نهاية بيانهما الشيوعي حديثهما إلى العمال قائلين: «ليس ثمة ما قد نغفلونه غير أغلالكم، يسما سيجلب النصر لكم عالمياً بأسره». فالمبدأ الشيوعي إذن هو لأولئك الذين لا يملكون شيئاً يحشون فقه. أما عني فلدي ما أخشى فقده، ولن أحصل في ظله على أكثر مما لدي. ولو كان هذا الطالب يملك ما أملك لما اعتنق المبدأ. فما هذا الغباء إذ أعرض نفسي للخطر؟. ينفي عليّ إذن أن أكف عن الاتصال بهم. أن أكون نفسي من الآن فصاعداً، بميوبي ومحاسني.. دون خجل. ودون تدخل. إن أبي تسوؤه ملاحظة مستأجري الأرض في دفع إيجارها. وكذلك تسوؤني.. فلنسوئي إذن ولاكن الرأسمالي الذي أنا هو، دون خجل، ودون تدخل، ودون أدنى محاولة مني للتميز.....!

مرت فترة المرافقة بي دون التسبب في إزعاج أو متاعب لأحد. ومن الجائز أن أكون قد شعرت في بعض الأحيان برغبة في التدمير، في أن أحب من فراشي ليلاً فأسك بالعصا وأهشم جميع نوافذ البيت، أو أن أكون قد خبرت فترات من الانقباض والاكتئاب الشديدين، أو أن يكون شعوري العامض بالرغبة الجنسية قد أثار عندي قدراً من الحيرة والألم. غير أن هذه الاضطرابات الداخلية لزمت مكانها فلم يحس بها الغير إحساساً كبيراً، ولم يلمس المحيطون بي وقتها سوى إقبال نهم مني على قراءة سير الأبطال، وتفضيل للعبة مع قدر غير مستحب من الغرور.

بدأت أتبين الرغبة الجنسية عندي نتيجة لعدة عوامل: مجلات كمجلتي «دنيا الفن» و«الدنيا الجديدة» التي كانت تغص بصور النسوة الماريات والمقالات عن التفرقة الجنسية، ثم الأفلام الأجنبية التي بدأت في الإقبال على مشاهدتها منذ من الرابعة عشرة، ثم أحاديث الهمس بين زملائي في المدرسة.

ومع ذلك فقد ظللت مدة لا أستطيع أن أدرك بوضوح طبيعة هذا الأمر .
التحقت بخدمتنا في ذلك الحين خادمة تدعى سميرة، فتاة شهوانية صئيلة
الجسم، رقيقة الوجه والملامح، ذات عيني ناعستين شديديتي السواد. كانت
هاتان العيان تتجهان دوماً إلى الذكور في أي جمع، مع اتحاد موقف الحذر
والمخاتلة من والدتي وأختي، فإن نزلت معنا إلى الحديقة للعب، شعرنا بأنها
لا تشارك في اللعب مشاركة حقيقية. يدير أحدها وجهه للحائط ليدع بقية
اللاعبين يختبئون. فإن مضيت إلى ركن من الجراج أختى به، جاءت هي
للاختباء معي، بينما المفروض أن يحتوى كل من اللاعبيين في مكان بمفرده.
فإن دخلت المكتبة أبحت عن كتاب، أو جلست لإصلاح لعبة أو ساعة، إذا هي
تدخل وتقترب حتى يلامس جسمها جسدي، وتنظر في عيني نظرة دليقة خبيثة.
وهي تشرنبي دائماً بشديديها إذ تلتصق بي. فكانا يمتدني وقتها اضطراب
لا أدري كنهه، مع إحساسي بأن في الأمر ما يثين. فهو دائماً يتطلب الخداع
والكذب، لا تلتصق بي في حصة أحد إلا من يصعربي ساء، فإن دخلت
والدتي أسرع بالابتعاد وشعر اثنا بالارتباك، بينما ألمح في عيني والدتي
نظرة الشك. وهذا الاقتراب الشديد وقت إصلاح الساعة عبر لازم تماماً
لاشتراكها معي بل هي لا تفهم شيئاً في إصلاح، وإنما هي مجرد حجة
متحذرة للاقتراب وإصلاح الساعة أو اللعبة وقت قدومها يضطرب ولا يتقدم،
وأحسن بقلبي يذق بشدة ويدمي بقلبي، فالأمر كله أساسه الغش والتظاهر.
وكنيت أدرك هذا وأستعين أحياناً على شعوري إزاءها بالصلاة، دون أن أفهم
بوضوح على أي شيء أستعين، وأظل أردد في حرق: يا رب، يا رب، دون أن
أكمل الدعاء، فيظل الدعاء معلقاً، وأحسن نحوها أحياناً بالغضب الشديد إذ
أفقدتني هدوئي، فالتمس الحجاج الواهية لأصعد إليها في السطح فالكفها في
وجهها بقوة، وأرقب الدم يسيل من بين أسنانها، بينما تظل هي ترمقني بنظرتها
الحائرة الدليقة، متظاهرة بأنها لا تعلم ما جئت، ثم تشرع في اليكاه، فتحل
الشعقة عدي مكان الغضب، وأحيط كفها بنراعي مهدفاً معتزلاً، وأربت على

شعرها، فإذا نحيتها يخطئ، وتشرع في مسح دموعها مسدة رأسها إلى صدري . ثم غصيت والدتي عليها لسب ما، فأردت أن تحلق لها شعرها كله، (وهي عقوبتها التقليدية للحلم) وقد رفضت الفتاة ذلك في إصرار. صاحت والدتي بها:

— أنتحذيني؟

— لا أنتحذك وإنما لا أريد لشعري أن يقص .

فطردتها أمي من الخلفة.

وقد سرني طردها سروراً زائفاً، متنفساً له الصعداء، ظاناً أنني قد تحررت به إلى الأبد من شعور متغص غريب. هيراني كنت محطناً في هذا الظن .

كان لي صديق حميم بالمدرسة السعيدية يدعى نبيل . وقد لاحظت منه خلال السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية تعبيراً واضحاً نجاحي، وهزواً عن صحبتي إلى صحبة ثلة كان أفرادها يتبادلون المجلات والكتب، ويجتمعون في فترات الفصح لقراءة فقرات معينة من كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره يفرقون أثناءها في الضحك. وقد ألمني عزوف هذا الصديق المأ شديداً. فلما قررت سؤاله صراحة عن سر تغيره، أجاب في إخلاص:

— إن التكلف ليس من سمات الصداقة.

ولم أفهم ما يعني. فسألته في حيرة:

— أي تكلف؟

أجاب بأنه يعني رفضي مشاركة الغير في الحديث عن النساء والجنس . وقد كانت هذه المحادثة القصيرة، لا معرفتي بسميرة، أول مانهني تنبهاً واعياً إلى مشكلة الجنس.

انضمت إلى الثلة مجاملة لصديقي، وسعياً إلى اكتساب مودته من جديد. وقد سر أفرادها أن يشاركهم اهتماماتهم أول الفصل وأحد المعروفين

لدى إدارة المدرسة بحسب السلوك، مما يضفي نوعاً من الشرعية على هذه الاهتمامات. فقرأت معهم في «الف ليلة»، وتكلفت الضحك لكلماتهم الجنسية. وكان البعض يسرد، أو يلفق، القصص عن صلاته بفتيات. وسرعان ما أصبح لدى كل فرد ما يحكيه، إن كذباً وإن صدقاً، فإن سألوني ابتسمت ابتسامة من يخفي شيئاً، وإن ألحوا ملقّبين إياي بدون جوار الكتوم، احتلفت لهم قصة عن علاقة بيني وبين ابنة الجيران.

كانوا يعلمون كذبي، خاصة وهم يرون وجهي يحمر احمراراً شديداً إذ أسمع الذيء من ألفاظهم. وعزوفي عن استخدام ما يستخدمون من تعابير. غير أنهم كانوا يريدون إطرائي وأن يكسبوا لأنفسهم نفس الإطراء والتصديق. وبالرغم من أن كل فرد ما كان يشك في صدق الآخرين، فقد كانت تلك القصص والخبرات المزعومة تغلقنا، أو تفتقني على الأقل، وتدفعني إلى أن أسأل نفسي أحياناً عما إذا كنت الوحيد بينهم من لا صديقة له. وبدأت مرحلة كنت كلما شاهدت خلالها في الطريق فتى يرافق فتاة، انتابني الحزن والغم، خاصة إن كان سن الفتى يقارب سني.



ثم كان يوم مشهود يوم أعلن إلينا أكبر أفراد الشلة سناً أن عائلته قد سافرت إلى الريف مدة يومين، تاركة له الشقة وحده، وأن ابن عم له، وهو طالب بكلية الطب، قد وعد بإحضار امرأة إلى الشقة في المساء، وسأله أن يحضر معه عدداً من أصدقائه إن شاموا.

وعرض علينا الحضور، فقبل البعض ورفض البعض، وكنت بين الراضين، غير أن من قبل منهم لم يكونوا لتركوا أول الفصل وشأنه. فتمادوا في الإلحاح حتى قبلت. ولكي يطمئنا على أنني لن أخلف الوعد، مر عليّ عدد منهم في المنزل مساءً لاصطحابني.

وذهبت. وجلسنا في صالون بالي الأثاث، عاري المصباح، ننتظر طالب

الطب والمرأة، وسألت الزميل صاحب الشقة عما إذا كان قد شاهد المرأة، فاجاب بأنه شاهدها عصرًا حين ذهب مع ابن عمه للمعانة والاتفاق. وقال إن شعرها أصفر، فسرحت خيالي لهذه الجملة الأخيرة. شفاء الشعر، وربما زرقاء العينين. فلعلها فتاة لا بأس بها على الإطلاق. لعلها فتاة كريمة قد اضطرتها الظروف القاسية إلى احتراف هذه المهنة. فهل من الممكن إنقاذها؟ أن أقوم تجاهها بدور أرمان ديفال مع مرجريت جوتييه؟ سأدخل الغرفة عليها فأدهشها بألا أقربها، وأقضي الوقت المخصص لي في سؤالها عن حياتها وظروفها، وأناشدتها العودة إلى صوابها، ثم أعطيها المبلغ وأخرج. فلأن شأت بيسا علاقة حب فسأ تزوجها رغم كل معارضة. فليس هناك ما هو أسوأ من إنقاذ نفس خاطئة وإرجاع الشاة الضالة إلى القطيع..

وأخيراً وصلت الشاة الضالة إلى الشقة، فلذا هي إلى القرة أقرب. امرأة في الأربعين، تنبس ملاحة لف، شديدة السمرة، ذات شعر مصبوغ، وأسنان مذهبة، والفاظ نائية، ما أن رأيت جماعتنا حتى دقت صدرها بكفها متظاهرة بالانزعاج.

— ثمانية ١٩ أن يكون قتل ١٩

ولم تطلب إنقاص المدد، وإنما طلبت زيادة الأجر. ثم اختلى بها طالب الطب للتأكد من خلوها من الأمراض.

وتسمرت في كرسيي أوتمد وقد أحسست بنوع من الحمى مقبلة، لاعتأ نفسي أن قبلت الحضور، وأن انضممت إلى هذه الثلة، ثم قفزت إلى ذهني فكرة الفرار، ففقت أسأل صاحب الدار عما إذا كان يشقته تليفون. قلما أجاب بالنفي، قلت إنني سأنزل إلى الطريق من أجل مكالمة تليفونية هامة ثم أعود. فما وصلت إلى باب العمارة حتى أطلقت ساقبي للريح.

وعدت إلى بيتنا محمومًا فتزعت ملابسي ودخلت الفراش، مسبًا الفرع لوالدي ووالدتي إذ شاهداني أتصعب عرقاً وارتمشت بشقة ثم انخرطت في

البكاء، وكلما تيسر عطفاً متزايداً من أمي زاد بكائي وحجلي إذ تلمسني بيدها فلما خرجت تعد لي عشاء وافردت بوالدي، لم أملك أن قصصت عليه ما حدث. فقطب جبينه وأطرق إلى الأرض مفكراً.

— لا أحري ما أقوله لك. لقد أسأت سمعاً ثم أحسنت إذ تداركت الأمر. فلتترك هذه الجماعة، ولا تضع نفسك مرة أخرى في تجربة مماثلة. لقد أنجلك الله هذه المرة. فالأمر أبشع مما يمكنك أن تتصوره. وقد كانت التجربة كميّلة بأن تفسد إلى الأبد علاقتك بالنساء.

ومع ذلك فقد أسأت بعد أيام أن أخبرت والدي. فقد أثار اعترافي حيرة لديه وطول تفكير، بينما كنت قد قررت في حزم أن أقطع علاقتي بتلك الشلة بل وحتى بصديقي نبيل. غير أن الواضح أن الحادث أثار مخلوف أبي، وأن تفكيره قاده إلى ضرورة شرح العلاقات الجنسية لي، وأن يشرف على تطور موقعي منها. فافرد بي يوماً وبدأ حديثه وأسئلته وهو في ارتباك يزيد على ارتبائي. غير أنني شعرت إذ أستمع إليه باستياء شديد، وبأنه إنما يفعل ما بفعل نتيجة إحساس بواجبه لا كأم طبعي، فكأنما قد قرأ في كتاب أن عليه التحدث مع أبنائه في هذه الأمور. فرجوته ألا يستمر. وشعر هو باستيائي فاحمر وجهه وسكت.

واتخذت من يومها موقفاً بالغ التعفف والشدة من موضوع الجنس، لا أشارك في حديث فيه، وأتخطى بنظري الفقرات الفاضحة في الكتب، فإن تفوه أحد الطلبة بعبارة جنسية بذينة أمامي عفتة وأبدت احتقاري له وهذنته بإبلاغ إدارة المدرسة فكان الطلبة في البداية لا يعاؤون بهذا التقريرع أو التهديد، إلى أن وقع حادث جعلهم يلغون التهديد مني هلى نحو جنّي.

كان بفضلنا طالب هو ابن أحد أمناء القصر الملكي، وسيم الوجه، مثلىء الجسم، مخّث السلوك. وكان قد استحوذ على لب عدد من الطلبة، يتبهونه أينما ذهب، ويحيطون به في فناء المدرسة إحاطة السوار بالمعصم، إن لمحفته إهانة أو عدوان تولوا الانتقام له نيابة عنه. وهو كذلك مقرب لدى بعض

المدرسين ، خاصة مدرس الألعاب الرياضية الذي كان يادي الشعف .

ثم حدث أن خرجنا في رحلة مدرسية إلى حلوان ، وقصينا ثلاث ليال في مخيمات بالعراء . وصادف أن كان مبيتني في نفس الخيمة مع هذا الطالب ومدرس الألعاب وعدد آخر من الطلبة . وإد هبط الليل وأوينا إلى الفراش ، استيقظت في الثانية صباحاً على صوت بالخيمة ، ورأيت المدرس يتسلل من مكانه إلى فراش الصبي ، ويوقظه برفق . فما أدركت ما يجري حتى أيقظت جاراً لي من الطلبة في هدوء ، وأشرت له إلى مكان المدرس حتى يكون شاهداً معي على ما رأيت .

وفي اليوم التالي لانتهاه الرحلة ، كان أول ما صنعت بعد وصولي إلى المدرسة أن توجهت إلى حجرة الناظر أحبره بما حدث

صباح مزعجراً :

— عندك إثبات لما تزعم ؟

قلت في هدوء :

— نعم

وخرجت أشد الطالب جاري . فأتى المسكين إلى حجرة الناظر بائساً لا يدري ما يقول . وأدركت من جملة الأولى أنه سيحاول القول بأنه لم ير شيئاً ، فمدجته نظرة نارئة أربكته . ثم فصص على الناظر ما حدث . فلما فرغ طلب الناظر من الانتظار خارج غرفته ، ودق الجرس يطلب من الفراش استدعاء المدرس إليه .

وجاء المدرس ، باسم الوجه كعادته ، لا يدري سبب استدعائه ، فلما رأيته وزميلي واقفين خارج حجرة الناظر ، ظن أننا استدعينا ليليل الجزاء على أمر ارتكبهنا . فحيانا غامزاً بعينه :

— حتى أنت يا حسين ؟ ماذا يمكن أن تكون قد ارتكبت ؟

عبر أننا لم برد تحيته . ونحبنا عنه وجهينا في وجوم .

وانقضى ثلث ساعة ، خرج المدرس بعده في جالة مخالفة تماماً للحالة التي دخل بها ، شاحب الوجه ، دليل النظرة ، يمسح عرقه بمديله وإذ وقعت عيناه علينا ، توقف متردداً ، ثم تقدم منا وتمتم :
— غفر الله لكما ما صنعتما .

ثم انصرف .

وعلمت المدرسة بعد يوم بأمر فصل الطالب والمدرس نهائياً
قال والذي حين سمع بحادث المدرس :

— إن قلبي عليك ليموق قلبي على أي من إختوتك . وأكاد أرى مستقبلك أمامي رؤى المين ، مستقبلاً مشحوناً بالمتاعب والاصطدامات . فإن كان حسن الحظ قد مكن لك حتى الآن من أن تتنصر ، وأن تحقق كل ما تصبو إليه ، فتأكد أن الحال لن يكون هكذا دائماً . وإنك لمن النوع الذي إن صادف حائطاً ظل يخط برأسه حتى يقع الحائط لو تَشَجَّ الرأس . والغالب الذي أخشاه أن يكون شَجَّ الرأس نصيبك .

— فهل أخطأت إذن إن أبليت الناظر ؟

— ليس هذا ما أعنيه . وإنما أعني طبيعتك وشخصيتك بوجه عام . إنك صلب . عنيف . وقد يجلب عليك عنفك كراهية رمالك اليوم ، ودؤسانك حين تكبر .

— لن يكون لي رؤساء أبداً .

— كيف يا بني ؟ كل شخص في الدنيا له رؤساء .

— أنت لا رئيس لك .

— كيف ؟ أفليس عبد الرحمن عزام رئيسي في الجامعة العربية ؟ اليس

لطفي السيد رئيسي في مجلس الجامعة المصرية ؟

— إن بسمارك يقول: لا أستطيع بطيمني أن أكون واحداً من العازفين في فرقة موسيقية، فلما أن أقود المرقعة أو أتجنّبها.

— هذه أقوال ستؤدي بك إلى التهلكة. فاسمع مني وألّ عريكك ولا تسع إلى تشكيل الناس حولك وفق ما تهوى، أو تعتبرهم مجرد أدوات تستخدمهم لنيل أغراضك. فإن كنت تستشهد بأقوال بسمارك أو نابليون، فاعظ أيضاً بنهايتهما.

ثم هز رأسه وأضاف في حزن:

— غير أن الأيام كغيلة وحدها بأن تثبت لك صحة ما أقول. كل ما أتحافه هو ألا تترك ما أعني إلا بعد حشد من التجارب المؤلمة.

في اليوم الأخير من شهر مايو عام ١٩٥٤، كانت وفاة والذي عن ثمانية وستين عاماً.



لا أملك إلى اليوم نفسي من العجب كلما فكرت في بساطة معيشته وقلة احتياجاته: مأكله وملبسه ومختلف عاداته. فإفطاره كوب من اللبن وقطعة من الجبن، وغداؤه خال من النشويات لإصابته بمرض السكر اليولي، وعشاؤه اللبن الربادي وبعض المأكهة. فأما الشاي فلا يكاد يشربه، وفنجان القهوة يشربه عقب الإفطار، وآخر بعد ساعة من النوم عقب الغداء. وأما الخمر فلا يشربه ثم لا إفراط في شيء غير التدخين، فالسيجارة لا تكاد تفارقه، غير أنه لا يكاد يشعلها حتى يلقي بها بعد نصفين أو ثلاثة، ثم يشعل أخرى بأصابع يذترعش.

وهو قليل الاحتمال بالملبس. غير أنه لم يهمله كلية إلا في السوات الثلاث الأخيرة من حياته بعد إصابته بجلطة في ساقه وتدهور صحته، فاستغنى عندئذ نهائياً عن رباط العنق الذي كان يصايقه دوماً ولكنه يحتمله قبل ذلك،

ولم يعد يستنكف من الظهور أمام الناس ولحيته لم تحلق، أو يستقبل صيوحه مرتدياً جلبابه.

ويساطته في أسلوب معيشته تنعكس في كتاباته وأسلوبه الأدبي فهو لا يعرف تأنيقاً أو حذقة، وإنما هو قلم يجري بما يعنّ له من خواطر، والجملة عنده على قدر المكرة. وهو يكتب للعامة كما يكتب للخاصة، ولا يسعى إلا إلى إقحام. غير أنه مع استنكاره للتأنيق أو الحذقة في كتابات غيره، كان يترك - فيما اعتقد - أن أسلوبه دون أن يستحق وصفه بالأسلوب الأدبي الرفيع. ولا أزال أذكر، بشيء من العجب والإشفاق، كيف أبهجه أشدّ البهجة أن يتحول عباس العقاد إلى الاعتراف به أديباً يعد صدور كتابه «حياتي»، بعد أن ظل دوماً قبلها يصّر على وصفه بالبحاث أو المؤرخ العالم.

ثقلته بنفسه لا تمنع الثقة بمبادئه الخلقية وموقفه الأساسي من الحياة. أما بصدد كتاباته فإعجاب النقاد والقراء، أو حتى إعجاب أولاده، كان يجلب إلى شفتيه ابتسامة الرضا الشليد، وقد يؤرقه ويؤشيه لبضعة أيام هجوم في صحيفة.



وهو خجول حيي في المحافل العامة خجل الملراء وحياءها، لا ينتقص من خجله ما يلقاه الناس به من توقيف وموّة. إن سار سار مطرقاً، وإن دلف إلى قاعة اجتماع أو مجلس قوم اضطربت خطواته وتعثّر. وقد دفعه ذلك الضعف الشديد في بصره إلى أن يتجنب النظر إلى الناس حتى لا يحسب أحدهم أنه لم يحيه استكباراً، أو تجاهله عامداً، في حين أنه لم يتعرّف عليه لضعف بصره. وقد حدثنا مرة عن كيف قصده رئيس الوزارة في محفل هام ليصافحه ويهنّئه على كتاب جديد له، فسأله والذي عن اسمه، وهو ما أخرج الرئيس وأغضبه! وهو مع خجله هذا عنيف المعارضة - ربما أعنف مما ينهني بسبب هذا الحياء

نفسه - حين يرى مبدأ يهدر، أو أخلاقيات تُنتهك، حتى إن كان (أو قل، خاصة إن كان) معارصه من عليّة القوم ورؤسائهم.

وهو شديد التواصل دون أدنى تكلف، تحيته للوزير كتحيته للساعي أو الحامد، وبأسه مفتوح لهذا كما هو مفتوح لذاك. وقد كان يروّده في المستشفى وقت إجراء عملية الشكية له ووراء وأعيان، وسعاة وفلاحون، فيأذن لهم جميعاً بالجلوس حول سريره، حتى تكاد ساق رئيس الديوان الملكي تلامس ساق فراش مكتبه بكلية الأداب.

وكان سخيّاً إلى أبعد الحدود، ساذجاً أشدّ الساذجة في أمور المال، ولا أظنه كان ليترك ملبعاً واحداً لأسرته لولا حرصه والنتي وحسن تدبيرها. فهو يمدّ يد العون دوماً لأقربائه الفقراء. والساعة تتهلل وجوههم إن هم رأوه يدخل محالهم، (إذ كان غالباً ما يشتري حاجيات البقالة والفاكهة بنفسه)، فهو لا يساوم ولا يتشكك في عدالة أسعارهم. وقد يخطيء، بسبب ضعف بصره، فيعطي الورقة من فئة العشرة جنيهات ويحسبها جنيناً، بل وقد يزيد على الثمن المطلوب حتى ينتهي البائع له أفضل بضاعة.

وقد كان مع هدوئه وتواضعه وطول صمته وقلة كلامه قويّ الشخصية مؤثراً فيمن حوله. وهي قوة نابعة أساساً من قوة خلفه ونبل مبادئه ومسلكه وعدله وموضوعيته. فالمعدل والموصوعية سمتان يارزنان فيه، سواء في حياته الخاصة أو العامة، وهي السمة الغالبة في كتاباته، إلا فيما تعلق منها بفرقة الشيعة الذين لا أظنه أنصفهم أو حاول محاولة جادة أن يلمّ بأدبيهم ووجهة نظرهم قبل أن يصدر أحكامه القاسية عليهم. وهو حريص دائماً على الالتزام بحدود المنطق، وكان يُرجع ذلك إلى اشتغاله زمناً طويلاً بالقضاء.

وسمة أخرى بارزة فيه، وغالبة عليه، وهي الحزن. حزن عميق دائم حتى في حالات الرضا، ولحظات المجد، وساعات الاستجمام. فهو نادراً ما يضحك. وإن راقته نكتة أو استنخفه موقف فأقصى ما هناك ابتسامة حزينة.

ولا شك في أن حزنه هذا نجم من نشأته الأولى، فحياته بعدها كانت سلسلة من الإنجازات والإرتقاء والسجاء، ولم يكن في حياته الخاصة أو العامة (حتى أصابه المرض)، أدنى مبرر لمثل هذا الحزن العميق، كما أنه لم يعرف من مولده إلى وفاته ضائقة مالية.



وقد تُفسّر موضوعيته وعذله كراهته للحزبية، وعزوفه عن الاشتغال بالسياسة. وقد حاول في شبابه الأول أن يهتم بالسياسة فلم يفلح: «فقد كنت أخاف السجن وأخاف العقوبة. ولعلّ من أهم أسباب خوفي إشتاقي على والدتي وقد أصبحت ابهما الوحيد بعد وفاة أبي، إذا سمعنا بحبسي أو عقابي هذا ذلك من كيانهما الذي أشرف على السقوط. وقد علّمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب. ومن فُكر في العواقب لم يتشجّع. والسبب الثاني أن مرآحي مرآح علمي لا سياسي. ولهذا كنت أختلف عن كثير من زملائي السياسيين كمحمود فهمي النقراشي وصبري أبو علم بأنهم كانوا يؤمنون بسعد زغلول كل الإيمان، ويمتثلون صحة كل ما ذهب إليه وأرثاه، ويؤولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتصون الحجة لتبريره. ولم أكن على هذا المذهب، بل كنت أؤيد سعداً وأنقذه، وأؤيد عدلي يكن وأنقذه، وليس هذا هو المزاج السياسي الذي يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له...».

كذلك يفسر هذا العزوف منه عن الاشتغال بالسياسة عدم نعييه في أحد المناصب التي توصف عادة بالخطيرة، وعدم نياله رتبة الباشوية. وقد قصّ علينا كيف أن سعد زغلول امتعض منه يوماً وأزورّ بوجهه عنه إذ أجابه والذي برأي جاء موضوعياً على نحو لم يستغف سعد، فإذا هو يتمتم في صيق:

— أنت موش حاجيني النهاردة!

وقد حاول الشيخ حسن البنا - كما سبق أن ذكرت - صمه إلى جماعة الإخوان. كما حاول صديقه النقراشي زعيم السعديين ربطه بالحزب السعدي،

وهو حزب كان يضم الكثيرين من أصدقائه كالدكتور عبد الرزاق السنهوري وأذكر أن النقراشي فاتحه مرة في منزلنا بالاسكندرية حتى يتولى رئاسة تحرير صحيفة الحرب الجديدة «الأماس»، فأبى رغم ضخامة المرتب المعروض، فأرسل إليه إبراهيم باشا عبد الهادي ليحاول كربة أخرى إقناعه، فعاد إلى الاعتذار بأنه أديب ويبحث لا يابيه كثيراً بأمور السياسة، ولا يصلح لمثل هذا المنصب.

غير أن كثرة أصدقائه من بين السعديين جعلت البعض، والقصر نفسه، يعتبرانه سعدياً، خاصة أن المراكز الرفيعة التي كان يتولاها إنما كان يتولاها متى وصل السعديون إلى الحكم، ويقعدها متى عاد الوفد. وكان أبرر سوء فهم لحقيقة اتجاهات أبي هو عندما قوت اللجنة الدائمة لجوائز الدولة في الأدب منح هذه الجوائز عام ١٩٤٨ لوالذي ولعباس العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل. ذلك أن الملك، عندما رعت إليه القائمة لإقرارها، شطب بيده اسم طه حسين منها باعتباره وفدياً معادياً له، ثم تردد في إقرار بقية الأسماء بالنظر إلى أن هيكل من الأحرار الدستوريين، بينما العقاد وأحمد أمين (في رأيه) من السعديين، وأشار بأن يُختار رجل واحد من كل من الحزبين. غير أن اللجنة رفضت أن تستبعد العقاد أو أحمد أمين، وأرسلت إلى الملك من أفهمه أن الثاني ليس سعدياً، وأن الأمر على أي حال يتصل بالأدب لا السياسة فقبِل الملك في النهاية.

واقيم في قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد احتفال ضخم كان ذروة حياة والذي الأدبية وتتويجاً لها وله. فهو لم يمح فيه جائزة الدولة للأدب فحسب، بل درجة الدكتوراه الفخرية كذلك التي قرر مجلس كلية الآداب منحها عليه. وقد حضرت مع كافة إخوتي هذا الاحتفال، فكانت دعوى الفرح لا ينقطع تدفقها من عيني طوالها، فما تقدم أبي في رويه الجامعي من المنصة لينسلم يراة الجائزة من إبراهيم عبد الهادي، حتى قمت من مقعدي أصفق بكل ما في

من قوة، ولم أملك نفسي من أن ألقت إلى الجالسين جوارى فائلاً:

— هذا أيها!

وكان إحساساً جميعاً وقد رأيناه يخرج متديلاً ليمسح دموعه أن ذلك اليوم كان أعظم أيام حياته.



وهو مع كراهته للملك وسروره بعزله، لم يجد في الكثير من تصرفات عبد الناصر خلال الستين الأوليين من الثورة مدعاة للإعجاب. وأحدني إلى اليوم أتسم كلما تذكرت كيف كان يجلس في اهتمام شديد للاستماع إلى خطب عبد الناصر في المذياع، ثم يقوم في غضب وألم لإغلاقه بعد دقائق معدودات حين تتكرر الأخطاء الحوية على لسان «الحطيب»، وهي أخطاء كانت تؤذي سمعه أيما إهداء.

وقد كان في مواقفه السياسية شيء من تناقض: فهو يتمتع، كما يشهد الكافة، بجرأة شديدة في الحق، وكثيراً ما كان يقاوم ويعارض ويحتد ويقدم استقالته من عضوية لجان ومجالس إدارات حين كان يرى اعتداء على قيم يؤمن بها، كاستقلال الجامعة مثلاً. وهو مع ذلك لم يهجم الملك في مقال أو كتاب، ولا هو انتقد تصرفاً ساءه من جانب حكومة الثورة، كما لا أعتقد أنه ساهم في شبابه في الحركة الوطنية ضد المستعمر البريطاني بأكثر من موقفين أو ثلاثة، كلها خاصة بتوحيد صفوف المسلمين والأقباط.



كان الصراع بين القديم الموروث والجديد الذي اتصل به عن طريق القراءة والأصدقاء والحياة، يحتدم دوماً في نفسه على أحد صوره، ويصعد كافة المجالات: في علاقته بزوجه وأبنائه، وفي أسلوب معيشته، وفي كتاباته. فجلوره في القديم، (في الجو العائلي الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الذي

عرفه في شبابه، وفي الأزهر حيث درس)، أعمق من أن يتأصلها الحديد
 ،لطاريء وحمامه للتغيير والإصلاح ومسايرة العصر، أقوى من أن تطفئه
 التفتايد الموروثة. وقد تحول من العمامة والجبة إلى الزي الأوروبي على
 مصص وبناء على إلحاح أصدقاء له. غير أنه لم يرتع تماماً إلى الزي الحديد،
 ولا كان يستشعر الراحة إلا في جلسته في بيته. فإن جلس إلى طعام بين أهله،
 أو إلى كتاب في حجرة مكتبه، ترتع أو رفع رجله على قاعدة الكرسي أو الأريكة
 وكبما هو في رواق الأزهر وهو يستغي بأصابعه عن الشوكة والسكين. وقد
 يستكر في قنطرة معه من أولاده نصراً لم يكن ليحلم أن يتصره في حياة أبيه،
 أو عقيدة تحالف عقيدته، غير أنه يؤمن كذلك بحقهم في أن تكون لهم حياتهم
 الخاصة، وعقائدهم المباشرة، ويرصع رصوح الحكيم لمقتضيات الشطور،
 واختلاف الأجيال. ولا أذكر أنه حاول قط أن يفرض اهتماماته الفكرية على أحد
 مناه، ولا أن يجبر أحداً على صلاة أو صوم. كما لا أذكر أنه استخدم عنفاً معي
 إلا مرة واحدة، كنت أقرأ له فيها صحيفة، فتكررت مني أخطاء نحوية، فإذا
 هو يخطف مني الجريدة ويضربني بها ثلاث ضربات على فمي

غير أن القديم يتمثل فيه أكثر ما يتمثل في علاقته بأمي. فهو لا يصلحها
 معه في زيارته أو رحلاته أو زياراته، ولا يشركها في اهتماماته العقلية أو شؤون
 حياته العامة. فإن حادثها حادثها عن الأهل أو مشاكل الأولاد والخدم. بل إنه،
 وهو ما سجد اليوم بالغ الغرابة، لم يكن يناديها باسمها قط، ولا كانت هي تنادي
 باسمه. فإن أراد أن يدعوها رفع صوته لوتنحج، أو نلدى نداءً مبهماً عاماً.
 اللهم إلا في حالات تيسط مؤثرة، أو رصاً شديداً، أو اعتراف بلسب، فكان وقتها
 يناديها بالست أم حمادة! فإن كتب إليها من بلد سائر إليه، كانت خطباته
 لصورة ملحة، ولم يستهلها بتحية أو حتى بلفظة «عزيزتي»، وإنما كان يدخل
 رأساً في الموضوع، ويذكر المطلوب. ومن خطباته التي بحث بها إليها مرة من
 رأس البر، وكان قد سبقت إليها، (وهو خطاب لا نزال نذكره في محيط الأسرة

ونضحك لتذكره أشد الضحك) ما يحري على هذا النحو:

١ - ثلاث محذات.

٢ - شمسية البلاج.

٣ - مجموعة الكتب التي تركتها على المكتب.

«أرجو إحضار هذه الأشياء معكم، والسلام»!



لم تبدأ رحلاته إلى أوروبا إلا وهو في منتصف العقد الخامس من عمره، حين بدأ اسمه يلح في ميدان التاريخ الإسلامي، وصار يدعى إلى مؤتمرات المستشرقين، أو يكلف مهمام كحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام ١٩٤٦. فإن تذكرت اليوم ما كان يرويه لما عند عودته من انطباعات عن الحياة الأوروبية، تذكرت لفوري كتاب «تخليص الأبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي. فهو منبه بأمر صارت عند أبنائه وحفدته من الأسور العادبة المألوفة: كالأمانة والنظافة والنظام وقلة الضوضاء ودقة المواعيد والديموقراطية وإطاعة القانون. وقد تأثر تأثراً عميقاً إذ رأى إرنست بيهين وزير الخارجية البريطاني يحضر مؤتمر المائدة المستديرة في حلّة رثة، وياقة قميص بالية، وقارن لنا بين هيئته وهيئة وزرائنا على تفاهة شأنهم. كما تأثر تأثر الشيخ محمد عبده من قبله إذ رأى الشعوب المسيحية أشد التزاماً من الشعوب الإسلامية بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن كان قد سطر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الإعتراف بتسوق الغرب في كل مصلح تقريباً، وإلى التحسر على حاصر العالم الإسلامي.

كذلك كان يكنّ احتراماً عميقاً لكبار مستشركي عصره، من أمثال هاملتون جيب وبرجشتراسر وشغالي ومرجوليث، خاصة الأول الذي كان يزوره كلما حصر إلى مصر، والذي تولى كتابة مادة «أحمد أمين» في الطبعة الثانية من دائرة

المعارف الإسلامية، ويرتد أمامنا قوله محمد علي: «إن المشرقين ألقوا في تاريخ الإسلام ما لا نظير له في مؤلفات المسلمين» غير أنه مع أحده ملاحظاتهم على أجزاء كتابه «مجر الإسلام وصحاه وظهروه» على نحو جلي، ومع استعادته استعادة جمة من نتائج أسحانهم التي كان يكنّ أعظم تقدير لما بذلوه فيها من جهد، لم يكن موقفه منهم موقف التحية أو الانتقاد ولا كان غافلاً عن عنصر سوء النية لدى عدد منهم. ولو أنه عاش حتى رأى تدهور حال الإشتراق، وصحالة معظم ما يشر اليوم في هذا الميدان، لكان موقفه على غير ما كان عليه.



كانت القراءة والكتابة عماد حياته، ومتعته الكبرى وقد يجعل المثقف في أيامنا هذه جوانب صحف وثغرات حطيرة في ثقافة والذي، مع تقدير عميق في الوقت ذاته للشوط الذي قطعه في هذا المضمار. فهو يذكّرني بالمثل القائل: «الثعلب يعرف أشياء صغيرة كثيرة، والقنفذ لا يعرف غير شيء كبير واحد». فوالذي كالفنفذ في هذا المثل، لا يكاد أحد يصاريه في معارفه الإسلامية، وفي إلمامه بتاريخ حضارة الإسلام وعلومه. أما فيما عدا ذلك فثمة خلل كبير، تداركه بعض كتاب عصره كالعقاد، بل وطه حسين. فهو لا يعرف شيئاً عن الموسيقى الغربية ولا يستسيحها، والأسماء الرنانة في ميادنها هي عنده مجرد أسماء. وهو لا يكاد يقرأ قصصاً أو مسرحيات غير بعض ما يهديه إليه من مؤلفاتهم أدياب عصره، كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، والروائي الشاب نجيب محفوظ، تجنباً للمحرج حين يقابلهم بعد ما فلا اعتقد مثلاً أنه قرأ في حياته رواية لتولستوي، أو دوستوفسكي، أو مسرحية لموليير. وهو لا يعرف شيئاً عن الأوبرا والباليه، ولا عن فن التصوير والنحت، ولا أظنه رار متحفاً للفنون في مدينة أوروبية إلا من قبيل «الواجب». كذلك فقد كانت معارفه الخاصة بالتاريخ، عدا التاريخ الإسلامي، بل وحتى بتاريخ مصر القديم،

شديدة القصور وهي ظلي أو أي شاب يعرف اليوم عن الماركسية وغيرها من المذاهب الاقتصادية أكثر مما كان يعرفه أبي

غير أنه مع كل هذا القصور لم يكن يتظاهر بعكسه، ولا كان الأمر يؤرقه. كل ما هنالك هو أنه حين ضعف بصره ضعفاً شديداً وصار مهدداً بفقد، أحسن بحسرة شديدة إذ لم يكن في شبابه تنمية اهتمامات وهوايات مختلفة، ولم يهو غير القراءة والكتابة اللتين أصبح الآن مهدداً بأن يحرم منهما. فكان يردد قوله: ولو أنني نمت في نمسي هواية الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، لكان في لجوئي الآن إليها العزاء عن فقد البصر.

وهو لم يشرع في تعلم لغة أجنبية إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. وقد اختار الإنجليزية (لم يعرف غيرها)، وأتقنها قراءة وإن لم يتقنها كتابة أو حديثاً. وكان بقية عمره كثير القراءة فيها، ولكنه اقتصر على قراءة أبحاث المستشرقين وكتب الاجتماع والمنطق والفلسفة، خاصة كتب برتراند راسل وجود اللذين كان يعجب بهما. وكانت تستهويه العقيدة الأنجلوسكوتية ومنطق الانجليز ومنطق عيشهم وأخلاقهم وتحفظهم في إصدار الأحكام، ويميل ما يكتبون على ما يكتبه اللاتينيون. إن كان دائماً يشعر أثناء زيارته لمرسا، أو بين جمع من العرسمين، كالسمكة خارج الماء.

وكنتم أعجب لقلّة نظره، بسياً، في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له. فهو يستنكر منه عليه المدح، وبذاعة الهجاء، وجمجمة الفخر، وتكلف المشاعر، وزيف الوصف واعتقد أن زكي مبارك كان محقاً حين اتهم والذي بالعجز عن استماعه الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً مخلصاً حقيقياً وإنما جاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكيمهما على الشاعرين.

أما أحبّ كتب العربية إليه فهو أبو حيان التوحيدي قبل كل كاتب، يليه

الجاحظ هابن عبد ربه . وكان لسبب ما، ربما لاشتراكه في تحقيق الكتاب وعمله فيه مدة طويلة، يفصل «العقد الفريد» على أغاني أبي العرج أما مذهب المعتزلة فيفصله على سائر المذاهب، لاعتقاده الخاطيء أن مدرستهم أكثر المدارس الإسلامية التزاماً بالعقلانية والمنطق وحرية الفكر . ولم يكن يتعاطف مع الصوفية التي هي في رأيه أحد أسباب ما أصاب للعالم الإسلامي من كوارث وانحطاط . ومع ذلك فالمعزالي قريب دائماً إلى قلبه، وكنائه والمنفذ من الضلال، من أحب الكتب إليه . وقد أدهشه وسره سروراً عظيماً، وأنا أقرأ له في المستشفي «اعترافات نولستوي»، ذلك الشبه العريب بين الكتائين، وتلك التجربة الروحية الواحدة التي حاصها كل من حجة الإسلام والكاظم المسيحي الروسي .



وهو يحب العناء الشرقي ويضطرب له، شديد الإعجاب بأم كلثوم، عظيم الاحترام لها . وقد كانت أم كلثوم كثيراً ما تتصل به تليفونياً قبل ساعة أو ساعتين من بدء حفلها الشهري، تسأله في إعراب أو اشتقاق كلمة وردت في قصيدته تغنيها، أو تخبره برأيها في مقال له . غير أنه كان يفضل أسمهان عليها بسبب بيرة الحزن العميقة في صوتها . فإن استمع إلى موال قديم، ظل يهز رأسه طيلة الوقت طرباً . وهو يترنم بهذه المواويل بصوت جميل عميق خافت مرتعش كلما جلس مع أحدنا إلى لوحة الشطرنج واستغرق في التفكير في الخطوة التالية فالشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي يعرفها، علمنا إياها وأنقأها وصربا تعلمه فيها . وكان يعجب إعجاباً ساذجاً بمسولوجيات ثريا حطمي، ويغني معها إذا استمع إليها في المذياع . «فتح يا بني فتح، شوف مين بيكلمك!» أما عن السينما فلا يزورها غير مرة في السنة أو الستين، فإن قصدها فمقعده دائماً في الصف الأول أو الثاني قرب الشاشة، حتى يستطيع أن يميّر ما يُعرض، ولا ينهض لمشاهدة غير فيلم مصري . وهو يفضل المسرح، خاصة إن كانت المسرحية

لشوقي أو عرير أباضة أو محمود تيمور، وكان من بين ممثليها صديقه الممثل
القدير أحمد علّام.

وهو لا يمارس شيئاً من الرياضة البدنية غير السير على الأقدام والسباحة،
حتى أصيب بالجلطة فحرم من كليهما. غير أنه في شبابه كان شديد الشغف
بالمشي لمسافات طويلة عند جبل المقطم وفي صحراء مصر الجديدة، أو في
عزته التي اشترك مع الدكتور السنهوري في شرائها. وهو لا يروقه شيء كمظن
غروب الشمس في الريف أو على شاطئ البحر، يخرج إليه لمراقبته، ويفضل
الغروب على الشروق أيضاً لما يوحى به الأول من مشاعر حزينة لا يوحى بها
شروق الشمس.



أحبّ أصدقائه إليه الدكتور السنهوري: كل منهما يرتاح إلى ذلك الالتزام
الصارم بالمطلق لدى الآخر، والبعد عن الهوى عند إطلاق الأحكام. وكان
السنهوري يحب الاستمادة من رسوخ قدم والده في التاريخ الإسلامي والأدب
العربي، فهو يمشقهما دون أن تسمح له دراساته القانونية بوقت طويل يقضيه في
القراءة فيهما. وكان والذي يحب الاستفادة من إلمام السنهوري بالقانون الذي
اشتغل به أبي زمنًا ثم انصرف عنه كلية إلى التاريخ والأدب. وكانت المكالمات
التليفونية بينهما تستغرق عادة ما بين ساعتين أو ثلاثا إن اتصل السنهوري به
مساءً هرعنا إلى إعداد مقعد لوالذي بجانب التليفون، وأحضربا له علبه سجائره
والكزيت وكوب ماء وكل ما قد يحتاج إليه خلال الساعات التالية، ثم نحبيه
مصرفين إلى حجرتنا على أن نراه في الصباح! كل ذلك قبل أن يلتقط
أبي السماعة ليبدأ مكالمته لا يعلم غير الله متى تنتهي!

وقد كان، على حدّ علمي، على علاقة طيبة بجميع أديباء عصره،
ولأذكر أنه كان بينه وبين أحدهم ما يشبه الخصومة غير زكي مبارك، بسبب
سلسلة طويلة من المقالات نشرها الأخير في مجلة «الرسالة» بعنوان: «جناية

أحمد أمين على الأدب العربي»، يردّ فيها على سلسلة أخرى طويلة من المقالات نشرها والذي في مجلة «الثقافة» بعنوان: «حياة الأدب الجاهلي على الأدب العربي». أما الأديب الأثير عنده فأشبههم به حلقاً وطباعاً، وهو محمود تيمور. وكثيراً ما كان يجتمع بتوفيق الحكيم، سواءً في مقاهما المفضل على الحر بالأسكندرية في شهور الصيف، أو في اجتماع كل خميس في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر، حيث كانت تلتقي بحجة من مفكري مصر وأدائها وعلمائها ورجال التربية فيها. وقد كان والذي يأتني وأنا بعد صبي في المرحلة الابتدائية من دراستي بحضور تلك الندوات. وأذكر أنني كنت كلما استفسرت من توفيق الحكيم عن كتب أقرأها، أو آداب ينصح بأن أعترف منها، أسرّ إليّ بالصيحة أن أركز كلية على الآداب الغربية دون الأدب العربي، «اللهم إلا إن شئت أن تتمكن من اللغة العربية، فلا بأس من النظر بين العينة والفينة في العقد الفريد أو الأغانى»، طالباً مني وهو يضحك أن أكتفم أمر هذه الصيحة من والذي حتى لا يغضب منه!

أما من العلاقة بين أبي وطه حسين قامرها خلاف أمر علاقته بهذا أو ذاك. كان كل منهما في شبابه يعشق صحبة الآخر عشقاً، ولا يجد الراحة إلا في حضرته. وكانت أفضال طه حسين على والذي كبيرة، ليس أقلها أنه هو الذي رتب نقل والذي من القصاص الشرعي إلى كلية الآداب عام ١٩٢٦، حيث وجد والذي في النهاية، وبعد طول تجارب، مجاله الطبيعي. غير أن فترة تولّي والذي لمنصب عمادة كلية الآداب أصابت صداقتهما بضربة لم يفق منها حتى مات. فقد أراد طه حسين، وهو الملوك تماماً لأياديه السابقة على والذي، أن يسيطر على أمور الكلية أثناء عمادة والذي لها، يسما أبي والذي إلا أن يصرف هذه الأمور وفق ما يميله عليه عقله وصميره. فكان أن اتهمه طه حسين بالجهود، وكان أن تنكر له وارورّ بوجهه عنه، وكان أن ماتت صداقة يندر أن نجد في يومنا هذا مثيلاً لقوتها وخصوبتها

إلا أن الاتصال بينهما عاد وتباً قرب النهاية، حين أصيب والذي في عينيه

ورقد طويلاً بالمستشفى وكان لطفه حسين مرة أخرى فصل البدء بالمصالحة فقد أتاه يزوره في المستشفى وكان اللقاء بينهما الذي حصرته مؤثراً إلى أبعد حد. وإن أنس لن أنسى منظر طه حسين الضريع وهو يدخل حجرة المستشفى بقوده سكرتيره من فزاعه، وإذ يسمع أبي، وهو معصوب العينين، صوته، يمدّ يده في لهفة في اتجاه الصوت، فأمسك أنا بيد والذي، ويمسك السكرتير بيد طه حسين، حتى تلقي اليدان فيتصافحان.

ثم صداقة قوية أخرى كانت تربطه بقانوني بارر آخر، وإسان عظيم، هو عبد العزيز باشا فهمي وكان والذي يكثر من زيارته وهو طريح الفراش في منزله بمصر الجديدة، ويصطحبني إليه. فبعد العزيز فهمي يحمل لوالدي مودة عميقة، ويكنّ أعظم الاحترام لخلفه القوي، ويرتاح إلى طبعه الهادي. وكنت أعجب أثناء استماعي إلى الحديث لتلك المرارة التي شعر بها عبد العزيز فهمي تجاه سعد زغلول، حتى بعد مرور نحو عشرين عاماً على وفاة الأخير ولم يكن والذي يكنّ إعجاباً ضخماً لسعد زغلول يدفعه إلى معارضة فهمي وتخطئته. وأذكر يوماً زبنا الرجل فيه، فأرانا إلى جانب فراشه هرماء عظيم من نحو سبعين من علب سجائر الستاتي كتب على ظهرها عبد العزيز فهمي بخط مرتعش قصيدة طويلة صمد من ثلاثمائة وستين بيتاً في ذم الحياة، وفي مختلف أوجه القصور في حياتنا المصرية، (نشرت لها لجنة التأليف والترجمة والنشر فيما بعد في كتيب مستقل). وأحس المضيف أن يسمع ضيفه القصيدة. وإذا كان كل منهما ضعيف البصر، فقد طلب المضيف إليّ، وأنا بعد الطالب بالمدرسة الثانوية، أن أنشد لها، مقدماً إليّ علب إثر علية. وكان أن وجدت في القراءة صعوبة لم أجده صعوبة مثلها في شيء من قبل أو من بعد، وتكرر وقوعي في الخطأ وتلعثم، ووالذي ينظر إليّ بين الحين والحين مظرة غاضبة تكاد تلثممني التهاماً فلما تركنا منزل الرجل، ظل أبي في السيارة طوال رحلة العودة إلى منزلنا يكرّر في حزن:

— كسفتي يا ولد... كسفتي...!

كان طويلاً عريضاً قوي السية. ولا أذكر أنه عانى قبل الستين إلا من ضعف البصر ومرص السكر. وقد استعان على الأول بقارئ يقرأ له لعدة ساعات في اليوم، فإن انصرف قرأ له أحد أبنائه لو تولى القراءة بنفسه، لا يكاد يفصل بين الكتاب ونظارته السمبكة للعابة غير ثلاثة مستقيمات. كما استعان على مرص السكر بنظام في الأكل صارم، وحض الأسولين كل صباح ومساء. غير أنه أصيب في الستين بانفصال في شبكية العين، واضطر إلى الرقاد على ظهره في المستشفى ثلاثة أشهر معصوب العينين، لا يتحرك بمة أو يسره بأمر الطبيب وقد خرج من هذه الرقدة إنساناً غير الذي كان ليس فقط لأن العملية لم تنجح وكادت البقية الباقية من بصره أن تلعب أدراج الريح، ولكن حالته الصحية والمعنوية بصفة عامة تدهورت هي الأخرى تدهوراً شديداً سريعاً. فسرعان ما أصيب بالجلطة في ساقه ويشلل نصفي. وصادف ذلك المرض إحالته إلى المعاش لبلوغه الستين، وانفصاف جمع من حوله كان يظنهم من مريديه فإذا هم من مريدي الانتعاف من وراء صلتهم به حين كان في وسعه أن ينفع. وكان يحزن أشد الحزن حين كان يجد صندوق بريده في الأعياد حالياً إلا من بطاقة نهضة أو بطاقتين، في حين كان ساعي البريد منذ زمن غير بعيد يأتيه بالبطاقات والرسائل أكواماً مكومة. بل إنه حتى بعض أصدقائه المخلصين قل انصالحهم به وسؤالهم عنه وزياراتهم له بعد مرضه، واكتفى البعض بمكالمة تليفونية بين الفينة والفينة. وكان هذا التكرار له منهم، من أكبر منغصات سنواته الأخيرة.

كان وقتها إذا دق جرس التليفون في البيت، هرع إليه في لهفة وهو يتحامل على ساقه المريضة عسى أن يكون للمتحدث صديقاً له. فإن لم تكن المكالمة له، نادى على المطلوب منا وتولاه السماعه وعاد إلى مقعده حزينا يجر ساقه خلفه. ولا أزال أذكر يوم عيد لم يزره فيه للتهنئة غير شاب مخلص من طلبته في الجامعة، هو الدكتور إحسان عباس، فزادت هذه الزيارة المفردة من إحساسه بالوحشة والمثقة، وأبى أن يستقبل ضيفه.

وفي مساء يوم ٢٩ رمضان عام ١٩٥٤ ، كان قد أنهى استعداداته للمسفر إلى الاسكندرية في اليوم التالي ليبدء إحازته الصيفية، وجلسنا معه في شرفة الطابق الأعلى من الممرل نتحدث إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان في حالة نفسية مطمئنة منسطة. وفي الصباح، أصابته الذبحة الصدرية. واستدعيها الطبيب، فلم يحضر إلا بعد أن كان قد مات.

بالرغم مما ذكرته من أنه لم يحاول قط فرض اهتماماته وآرائه ومنحه تمكيده علينا، وبالرغم من انشغاله ساعات طوالاً بالقراءة والكتابة، وببشاطه في الحياة العامة، فقد ترك في نفوس أبنائه، وربما تلاميذه، أثراً عميقاً لا يعرف حداً، وهو تأثير قائم فيمن ورت عنه منا عزوفه عن السياسة واهتمامه بالدراسات الإسلامية أو من لم يرثهما، وفيمن تدبّر أو لم يلعب الدين دوراً رئيسياً في حياته، وفيمن خلفه عند وفاته رجلاً أو صبياً. فموقفنا جميعاً من الحياة هو في جوهره نفس موقفه الأخلاقي الجاد، ومن السلطة - أي سلطة - هو نفس موقفه وتمسكه بحرية الرأي. وقد تأثرنا بمعاشره هذا الإنسان العظيم عن قرب حتى بات من الصعب علينا بعده أن نحترم في أيامنا هذه رئيساً وقد رأينا رئاسته، أو كاتباً وقد شهدنا موقفه الجاد من صنعة الكاتب، أو مسؤولاً في الحياة العامة وقد خبرنا إخلاصه وتعاونه في نهوضه بالمسؤولية. فالمثل الإنجليزي يقول: «إياك إياك أن تستأجر خادماً خدّم عند من كان يفضلك». ولم ير أولاده بعده من يفضله. رحمه الله.

سر الخلاف بين والدي

وطه حسين

من بين الأوراق التي حلفها والدي عند وفاته كراسة صغيرة من ست وعشرين صفحة، يحمل خلفها العنوان التالي .

وقصة العمادة، أو، حوادث سنة ١٩٤٢. والكراسة في حوزتي، قد سجل فيها والدي بخطه في نحو ألفي وستمائة كلمة قصة وأسباب الخلاف الذي دب بينه وبين الدكتور طه حسين خلال الفترة التي تولى والدي فيها عمادة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة)

ويتضح من دراسة هذه المخطوطة أمران :

الأول . أنه كتبها لنفسه لا للنشر، بدليل الطابع الشخصي الغالب، وضعف عنايته بأسلوبها ولغتها، وإشاراته دون إيضاح إلى شخصيات مجهولة عند الجمهور، كإشارته إلى روج أختي في عبارة «وتحت إلحاح عبد العزيز .» وإلى سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر في عبارة «وفي ١٨ أكتوبر كلمني عبد المتعال أهدي في التيليفون قائلاً . . .» إلى آخره .

الثاني : أنه كتب نحو أربعة لحماسها دفعة واحدة، (ربما في أوائل عام ١٩٤٣)، ثم ظل يضيف فقرات تتناول ما يجده بعيد علاقته بطه حسين حتى وقت انقطاع المخطوطة في نحو أواخر ١٩٤٣

وقدما يلي نص المخطوطة، مع بعض إيضاحات أضفتها للضرورة،

ووضعها بين أقواس، وتبدأ بحرفي ح ا. هذا ولم أحذف من النص غير اسم
أستاذ سابق بكلية الآداب اتهمه والذي باللمس بينه وبين طه حسين، مكتعياً
بالحرفين الأولين من اسمه.

قصة العمادة

في ١ إبريل سنة ١٩٤٠، اخترت عميداً لكلية الآداب، عقب تعيين
الأستاذ شفيق غربال وكيلاً مساعدًا لوزارة المعارف، وكان الترشيح بانتخاب
أعضاء مجلس الكلية، فنلت ١٦ صوتاً، ونال مصطفى بك عامر ١٥ صوتاً،
والدكتور (محمد) عوض والأستاذ (عبد الوهاب) عزام كل منهما ٨. وقد أيدني
في هذا الترشيح الدكتور طه (حسين)، وعمل على تزكيتي في الخارج الدكتور
(أحمد عبد الرزاق) السنهوري وكان وكيلاً لوزارة المعارف. وكان وزير
المعارف إذ ذاك (محمود فهمي) النقراشي باشا، وكان له من الفضل عليّ في
هذا الموضوع أنه بمجرد أن أبلغ بنتيجة الانتخاب، وافق على تعييني عميداً
بعد ساعتين من الانتخاب، وأبلغ ذلك لإدارة الجامعة في يومها.

(ح ا) يقضي نظام الجاهزة بأن يختار مجلس الكلية ثلاثة من بين
أساتذتها، تُرفع أسمائهم إلى وزير المعارف لاختيار أحدهم عميداً للكلية،
ومع فوز والذي بأغلبية الأصوات، ورغم صلته الوثيقة بالنقراشي باشا، فقد كان
في اختيار النقراشي له مفاجأة له. «فأنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتي
الأزهرية الأولى، وتربيتي شبه الأزهرية في مدرسة القضاة. وأنا رجل لم أتعلم
في جامعة مصرية ولا أجنبية، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ما تعلمته من
اللغة الانجليزية بناءً وبقدر محدود. فكيف أختار لهذا المنصب وأراس
الأساتذة الأجانب والأساتذة المصريين ممن تعلموا في الجامعات الأوروبية
ونحو ذلك؟» («حياتي» - دار الكتاب العربي، بيروت، صفحة ٢٤٨). وقد ورد
في ذلك الكتاب أن تاريخ تعيينه عميداً هو إبريل ١٩٣٩، والصحيح ما ألتته في
المخطوطة).

وقد حمدت الله على هذا لأنه جاء مكافأة حسنة لجدي في عملي . ولكن
مصرعان ما أحسست بهم يملؤني من تصور مسؤوليتي نحو الأساتذة والطلبة
والطالبات، وما تتطلبه العمادة من انصراف لها عن المجهود العلمي الذي
أبدله، وضعفي في اللغة الانجليزية فيكون بعض العسر في التعامل مع الأساتذة
الأجانب.

وسرت مستعياً بالله، فأبدت حرصاً وعدلاً وشأطاً في تسيير الأمور بما
يمكنني . وانتظمت الأمور وسارت سيراً حسناً وكان مركزي في مجلس
الجامعة، وعلاقتي الشخصية بعد الرحيم عثمان سكرتير الجامعة تساعد على
سير كل ما أطلب من الإدارة، وعلاقتي بوكيل المعارف (السنهوري) تساعد
على تسيير ما أطلب في وزارة المعارف.

وجرت العلاقات بي وبين الدكتور طه حسنة لما بيننا من صداقة قديمة،
ولإقراراي بجميله في مساعدتي في الانتخاب.

(ح. ١). لم يقتصر فضل طه حسين على والذي على مساعدته في انتخابات
العمادة. فهو الذي سعى حتى نقل والذي من القضاء الشرعي الذي لم يستغف
قط إلى التدريس في كلية الآداب. كتب طه حسين عن هذا يقول: «... وهو
في إنشاء هذا كله (أي عمله في القضاء الشرعي) قلق لا يعرف اطمئناناً
ولا استقراراً، ويلتمس نفسه في كتب العقه وفي علوم الدين كلها فلا يجدها،
ولا يجدها في ذلك التعليم المحدود ذي الأفاق الضيقة الذي كان يلقى في
مدرسة القضاء. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضل فيها نفسه،
فيحصل ببيتات المطرشين، ويشيء معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر،
ويأخذ في تعلم اللغة الانجليزية. ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح
قريباً. ولكنه على ذلك يلتمسها فلا يظفر بها. وألقاه في يوم من أيام حيرته
تلك، وإذا هو ضيق بعمله في القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شيء
مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد. كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته

تلك التي لا يستطيع عليها صبراً ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمراً، فإذا كان الغد تحدثت بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد، فإذا كان مساء دعوت أحمد إلى لقائي، وعرضت عليه التعليم في الجامعة، فيشك غير طويل، ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي طال البحث عنها وشقي بالتماسها أعواماً طويلاً. (من مقال «أحمد أمين العالم» في كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»، لجنة التأليف، ١٩٥٥). وقد أكد أحمد أمين هذه القصة في «حياتي» صفحة ١٩٩. وكان تعيينه مدرساً بكلية الأدب عام ١٩٢٦، وكان وقتها قاضياً بمحكمة الأزكية بالقاهرة).

بله الخلاف:

ولكن سرعان ما بدأت العلاقات بيني وبينه تفتر. وسبب ذلك - على ما يظهر لي - أنه كان يتوقع أن أعمل في الكلية حسب إشارته وطوع أمره ولكن هذا ليس من طبعي فأنا متأثر بالقضاء، أنتحزى العدل وأطالب به وأعمله مهما كانت النتائج. فلما خالفته في رأيه وعملت على تنفيذ ما أراه الحق، غضب وتغير، وبدأت الأمور تجري مجرى الخصومة.

وأذكر من هذه الحوادث الأولى أنه أراد أن يرقى (سليمان) حُزَيْن أستاذاً مساعداً للجغرافيا رغم (إرادة) قسم الجغرافيا، وكتب بذلك تقريراً مع أن هذا من اختصاص قسم الجغرافيا، وقسم الجغرافيا يرشح (عبد المنعم) الشرقاوي. وعرضت الأمر على مجلس الكلية، وأيدت ترشيح الشرقاوي، وخرجت الأغلبية له فغضب طه وقال في المجلس بأعلى صوته: «إنكم تلعبون!» فغضبت من ذلك، ورفعت الجلسة.

وكذلك من أوائل ذلك مسألة عبد الرحمن بدوي، إذ لم يقد اسمهُ للمجستير، وأراد أن يدخل الامتحان من غير أن يُقَيَّد لمدة سنة كما هو نص اللائحة. فعرضت الأمر على مجلس الكلية، فأجله إلى سنة. ولم يكن الدكتور

طه حاصراً. وكان لبندوي هذا علاقة ببعض الوزراء، فرجوني فلم أقبل، فرجوا الدكتور طه، فطلب أن تعرض المسألة على مجلس الكلية من جديد، وافقت، وأخذ الرأي على فتح باب المناقشة من جديد أولاً. وحضر الدكتور طه في هذه الجلسة ليظهر نفوذه، فكان هناك ٨ أصوات دعت باب المناقشة و ٨ للرفض، فأبدت الرفض، وغضب طه.

وكان له رجاءات في المجانية، قبلت بعضها ورفضت بعضها لعدم استحقاقهم كل ذلك أغضب طه، فانتخذ شكل الخصومة، ووقف موقف المحارب.

ويمكن تلخيص أسباب هذه الخصومة فيما يلي :

(١) أنه يريد فرض إرادته على من يشتغل معه، فإذا خالفه في أمر ناصبه العداء. وهكذا مع شفيق غربال إدريس له قبول طالب مجاناً فثار عليه ولم يتخذ الموقف إلا نقله. (أي نقل عربال إلى وزارة المعارف)،

(٢) ترحيبه وتشجيعه لمن ينقل إليه كلاماً ولو مختلفاً. وقد قام بهذا الدور في حقي حبيب الذي كان سكرتيراً، ودا أ، فكانا يتفان ويتفانان،

(٣) أعلن أن الغيرة كانت تعمل عملها، فلتنجح في العمادة الذي وفقت إليه آثار شيئاً من الغيرة، وهذا طبيعي.

بعد ذلك طلب الدكتور طه ترقية كامل حسين إلى (درجة) مدرس فرفضت المسألة بكل أمانة وإخلاص على مجلس الكلية فرفض المجلس ذلك لعدم كفايته. فثارت ثائرة الدكتور كيف يرشح شخصاً بصفته رئيساً لقسم اللغة العربية ثم يرفض مجلس الكلية قوله وإشارته. فخاصم المجلس، واستقال من رئاسة قسم اللغة العربية، وهاج لفتك هياجاً شديداً.

وكان مثل هذا الدور تماماً يمثل في وزارة المعارف، إذ كانت علاقته بالدكتور السنهوري كعلاقته معي، فأراد أن يعلي إرادته في وزارة المعارف فأبى

السهوري، فكانت الخصومة. وقد أصلحت بينهما مرتين فدام الصلح أياماً ثم عاد إلى ما كان. فادركت أن السب لا يمكن علاجه لأنه يرجع إلى الطبيعة لا إلى سبب ظاهري، فامتنعت عن السعي في الصلح، فكان هذا مما أحله عليّ أيضاً الدكتور طه.

وهكذا شأنه في المجمع اللغوي، عملت مراقبة الثقافة أعمالاً فاعترض رئيس المجمع على عملها بدون علمه، ورشح الدكتور طه عبد العزيز أحمد لعمل في المجمع فلم يوافق المجمع عليه، فآلى الدكتور طه أن يخاصم المجمع وألا يحضر جلساته. وهو لا يحضر المجلس إلى اليوم.

(٤) ومن الأسباب أن خلّق الدكتور طه هو الحاجة إلى تدليل دائم، فهو يريد الشيء ويتظاهر بأنه لا يريد. وأقرب الناس إليه من يدلّه فيرجوه في قبوله، وهكذا. وقد ضلقت صدري من هذا لإفراطه فيه وعدم قدرتي على مجاراته. وقد جرّبت ذلك في مواقف عدة.

مزاجان مختلفان:

وعلى الجملة فمزاجانا مختلفان.

هو يعمل للشهرة وأنا لا أحبها ولا أحب الظهور، وعندي نزع صوفية نهزأ بكثير من مظاهر الدنيا،

وهو يقيس الأشياء ويحكم عليها بشخصه فلا يتحرّج من أن يكيل للمقربين إليه ما يشاء ولو لم يستحقوا، ويحرم المبعدين منه ولو استحقوا. وعنده المحسوبة لا إلى حدّ. وطبعتي طبيعة القضاة في العمل على ما اعتقده مبدأ وعدلاً وحقاً، وكذا السهوري. وهو يعمل حريصاً وأنا أصمل قوياً أو إنسانياً. وهو يتعالى ويرفع وأنا أتواضع في إياه. وهكذا احتملت طوائعا وأمزجتنا مما جعل العلاقة بيننا فاترة.

(ح. ١. ناقض أحمد أمين نفسه بصدد هذه النقطة الأخيرة إذ فسّر في

كتابه «حياتي» ص ٢٥١ - ٢٥٢ الصداقة والألمة بينه وبين طه حسين ساحتلاف مزاجيهما وطبيعتيهما كتب يقول «هو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية. وهو فنان يحكمه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق. وهو يحب المجد ويحب الدوري، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهلوع. وهو معال في الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء، وأنا بطيء. وهو عفيف إذا صادق أو عادى وأنا هادىء إذا صادق أو عادى. وهو واسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلق مضطرب عضوب ضيق النفس بها. وهو عامر في الحديث إلى الناس فيجذب الكثير، وليست عندي هذه المقدرة فلا اجتنب إلا القليل. وهو في الحياة مقامر يكسب الكثير في لعبة ويخسر في لعبة، وأنا ناجر إن كسبت كسبت قليلاً في بطة وإن خسرت خسرت قليلاً في بطة، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة. ولعل هذا الخلاف بيننا في المزاج هو الذي ألف بيها، فأشعره أنه يكمل بي نقصه وأشعرني أنني أكمل به نقصي».

الضيق بالعمادة:

بعد مضي سنة عليّ في العمادة أحسست بصيق منها وكانت وزارة المعارف للدكتور (محمد حسين) هيكل ناشأ، فرجونه أن يعفيني منها فأبى. وكان ذلك في أوائل الإجازة الصيفية. وكررت ذلك في أوائل السنة (الدراسية، أكتوبر - نوفمبر ١٩٤١). وكان علي باشا إبراهيم مديراً للجامعة جديداً، وكنت له الاستقالة فأبى بحجة أن هذا يعدّ مظهراً لعدم الرغبة في التعاون معه ففضيت السنة الثانية. وفي آخرها كانت الوزارة الوعدية قد أتمت، وولي وزارة المعارف نجيب الهلالي. فكررت عليه الاستقالة فأبى، وألححت فوعد بالنظر في ذلك بعد الاجازة، وأعداً لي بأنه سيعمل كل ما يريحي.

وكانت رعتي في الاستقالة متية على أسباب:

(١) أنني شعرت بتغاضة العمادة، فأوراق تقرأ وتمضي في أشياء تافهة، مما يصرف عن العمل الجدي،

(٢) كثرة الرحلات من الطلبة في المجانية، ومن هيئة التدريس في العلاوات والترقيات وفي قبول الطلبة ونحو ذلك مما لا يحصى وأصبح صديري صيقاً بهذا الرحاء، أنفر منه واشمئز ولا أرتاح له، وقد أعصبت الناس في صلتهم، وكثيراً ما حدث ذلك

(٣) أسمي على حرمانني من لذة القراءة والتأليف، وهي في نظري أجدى وأنفع.

ح ١ في «حياتي» ص ٢٤٩. «ها أنذا في عمادة كلية الآداب، قد شغل وقتي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له. فكل الأوراق تعرض عليّ حتى شراء مكسة، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تعرض عليّ حتى الكلمة النابية يلفظها طالب، إلى شكاوي الطلبة وما أكثرها! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات ونسوبة الحالات وما أصعبها! فكان هذا شغل وقتي حتى لا أستطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلاً، ولا أن أفرغ للنظر في المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بغير. وهذه عندي من نظام الحكم في مصر حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة، وما كان أخرى بالجامعة أن تسخّل عن ذلك، وتوزع الاختصاص ويصرّخ العميد للمسائل المهمة. ولكن أني لنا ذلك!».

كل هذا جعلني أتمنى الظروف الذي يتيح لي أن أخرج من العمادة في رفق وعدو. . . والناس حولي وأهلي لا يفهمون ذلك، ويوّدون بقائي عميداً، لما يتبعها من الراحة التي أراها نافهة، ولما يقضون من وراء ذلك من منافع شخصية نافهة في نظري، كالوساطة في قبول أولاد الناس بالمجان ونحو ذلك.

تدخل نجيب الهلالي في شؤون الجامعة

فلما جاءت حكومة الوفد (فبراير ١٩٤٢) شعرت بأن الجول لا يلائمني كثيراً، وأنا طول حياتي لم أتم إلى حرب ولم أعمل بحزب.

شعرت بأن مجيب الهلالي وزير المعارف يتدخل في شؤون الجامعة من غير طريقها المعتاد، فلا يحق لمجلس الجامعة ولا إدارتها، ويتصل بمن شاء أن يتصل به فيما يريد.

وقد حدث أن قابلته مرتين لهذا العرض، وشرحت له خطر ذلك على استقلال الجامعة، مرة على أثر تشريع تخفيض نسبة النجاح، فقلت له «إني أؤيد باستقلال الجامعة يهدم بهذه الطرق» فأكد لي أنه حرص على استقلال الجامعة حرصي، وأن مجلس الجامعة كثيراً ما يخطئ ولا يبي حكمه على دراسة صحيحة. فقلت: «إن كان يخطئ فالرلمان يخطئ ولا من يقول بإهماله. ومعاليك رئيس الجامعة يمكنك أن تحضر في المجلس أو تتيب عنك من ترى عند نظر المسائل الهامة، وتشرح وجهة نظر الوزارة، وتسمع وجهة نظر المجلس، وبعد ذلك لك تمام الحرية القانونية في أن تعمل ما ترى»

واعتذر بأنه يأخذ رأي مدير الجامعة في كل ما يعمل، فقلت: «إن مدير الجامعة غير مجلس الجامعة، وموافقة المدير لا تجزئ».

وأخيراً، وبعد مناقشة طويلة وإظهار رغبتي في الاستقالة، كلمني كلاماً طريفاً في تقديره لي، وثقته بي، والعمل لخير الجامعة ووعدني من الآن ألا يعمل عملاً في المستقبل إلا بعد أخذ رأي مجلس الجامعة. فشكرت له ذلك وانصرف.

ولكن حدث بعد ذلك بنحو أسبوعين أن اجتمع عنده بعض العمداء وشفيق عريان والدكتور طه، ونظروا في تعديل نظام الامتحان في كلية الحقوق وأخذ الوزير رأيي في تعديل مثله بكلية الآداب بالتليمون، فأبدت اعتراضي على هذا النظام. ولكنني علمت في المساء أنهم أجاروا هذا التعديل، وأرسلوه إلى وزارة المعارف. فلم أتم هذه الليلة. وفي الصباح ذهبت إلى وزير المعارف، وانتظرت حتى حضر، فدخلت عليه محتجة على تشريعه لكلية الآداب من غير حضوري. فاعتذر بأن الاجتماع كان للنظر في تعديل

الامتحان في كلية الحقوق ولم يكن من رايه تعديل الامتحان في كلية الآداب، وأن الدكتور طه هو الذي ألح عليه في ذلك. وأراد أن يرهى على أنه لم يشأ أن يتعدى على كلية الآداب بأن أعطاني المشروع وأعطاني تمام الحرية في قبوله أو رفضه، بشرط أن أتحمل مسؤولية رفضه إذا هاج الطلبة. فاختذت المشروع، وعرضته على لجنة الامتحان بالكلية فاستحسنوه بعدما أدخلوا عليه تعديلات داخلية وانتهى هذا الموقف أيضاً. وقد نيت أن الأمور ستجري في غير مجراها الطبيعي، وأن الاحتكاك سيستمر في كل خطوة.

وكان أن حدث أن الدكتور طه عُين مستشاراً فنياً بوزارة المعارف. وكان الدكتور السهوري قد نفوهم معه على أن يتقل مستشاراً ملكياً، فقبل ولكن حدث أن أحيل فجأة إلى المعاش من غير سبب ظاهر، وعين الدكتور طه مستشاراً على أن يأخذ ماهيته من درجة الوكيل. فرايت أن هذا ظلم صارخ لدكتور السهوري، ولم أبرئ الدكتور طه من هذا العمل الظالم، وإن كنت لم أحتد بالضبط مقدار مسؤوليته. ولكنه على كل حال مسؤول للدرجة ما. ففرت نفسي منه لهذا السبب أيضاً.

ولما عين في الوزارة ظهرت أعراض هدم استقلال الجامعة أيضاً على يده، فهو يطر كل شيء دون مجلس الجامعة، ويت في كل شيء وهذا ما لم أستطع احتماله.

وفي هذه الأثناء لمتح لي بأنه يريد التعاون معي، فرفضت. فقد قال لي يوماً إننا سننظر معاً شؤون جامعة الاسكندرية. ورفضت أن أكون عضواً في مجلس دار العلوم. وقلت له يوماً بالتليفون إنني أرفض كل لجنة وكل عضوية بالوزارة، فكان جوابه: «إني فاهم»، أي أنه فاهم أنني رافض التعاون معه. وألح عليّ بعد وزير المعارف أن أقبل عضوية مجلس دار العلوم، فاعتذرت. وبهذا تشكل الموقف شكل حصومة وعدم تعاون.

السبب المباشر للاستقالة

وحدث أن وزارة المعارف قطعت خطوات واسعة في إنشاء جامعة فاروق في الإسكندرية، وشاع أنها ترشح بعض (أعضاء) هيئة التدريس من كليات القاهرة لقلهم إلى الإسكندرية، والإشاعات تترامى هنا وهناك، وفيهم بعض المدرسين بكلية الآداب التي أنا عميدها ولا أعرف من ذلك الأمر شيئاً. ولم يحاطبني أحد في أمر من يُنقلون إلى الإسكندرية، والمدرسون يذهبون إلى وزارة المعارف، ويرجو بعضهم في النقل، وبعضهم في عدم النقل، ويساوم من يريد النقل على ما يكافأ به، وهكذا وتترامى إليّ الإشاعات ولا يخاطبني أحد رسمياً في ذلك. ولكن لم أستطع أن أحتج على هذا لأنه لم يصدر شيء رسمياً.

وأخيراً قرأت في «الأهرام» أنه صدر الأمر بتعيين مصطفى بك عامر وكيلاً لجامعة فاروق. فتأثرت جداً إذ لم يؤخذ رأيي في هذا وهو أستاذ عسدي، والواجب أن يؤخذ رأي رئيس المصلحة فيمن ينقل من عمله، إن لم يكن قانونياً فادبياً. فلم أطلق العصر على هذا، وكنت بعد قليل من قراءتي هذا الخبر جواب استقائتي، وذكرت فيه أن هذه الاستقالة نداء على إجراء حركة النقل من الكلية.

ومضى يومان أو ثلاثة ولم تقبل الاستقالة ولم يحاطبني أحد بشأنها وعلمت أن وزير المعارف كان قد طلب أن يصرّر تعيين مصطفى عامر على مجلس الجامعة، ولكن عبد الرحيم بك عثمان سر مادة القانون التي تقول «بعد أخذ رأي الجامعة المختصة» بأن المراد مدير الجامعة لا مجلس الجامعة ورأيت أن هذا خطأ من جهتين: من جهة أن الجامعة ليس معناها مديرها وإنما معناها مجلسها ما لم يُنص على المدير، وثانياً، وعلى فرض صحة هذا، فأدّاب اللياقة والعرف الجاري تقضي بأن يؤخذ رأي رئيس المصلحة، (وهو عميد كلية الآداب)، فيمن ينقل من عمله.

على كل حال صممت على الاستقالة، فلما استبطلتها اتصلت برئيس

تحرير والأهرام» أنطون بك الجميل، ورجوته في نشر حبر الاستقالة لأستحقهم على قبولها. فحدث اجتماع في وزارة المعارف بعد ذلك بيوم، وأعلن في الجرائد قبول استقالتني؛ وأن مدير الجامعة قبلها ورعها إلى الوزير قبلها، والدلائل واضحة أن عملاً كهذا لم يعمل من غير أحد رأي الدكتور طه وإشارته وإيعازه.

وبعد ذلك بأيام كلمني الأستاذ فريد أبو حديد، وأخبرني أنه يسعى لإزالة الخلاف بيني وبين الوزير والدكتور طه، ولوجوع الوزير عن قبول استقالتني، فأبيت له أن ذلك غير ممكن. وأتاني مرة وقال أن الدكتور طه وعده بأن يقبطني على الدرجة الأولى حرفاً، فقال له فريد: «بل أعطها له فعلاً»، فقبل الدكتور طه بشرط عرض المسألة على الوزير وقبولي هذا الحل وعرض فريد عليّ ذلك فأبيت.

وعقب ذلك رارني الدكتور طه في البيت فلم يجدني. ورددت له الزيارة فوجدته. فكلمني في العلول عن الاستقالة، فأبيت له أنني مصمم عليها. وكان كلامه كجس نبض، فلم يلح. ولعله كان يتظر رأي الوزير فإذا وافق ألح. وعلى كل حال أخبرني فريد بعد ذلك أنه كلم الوزير، فقال الوزير لفريد: «وهل أحمد أمين يقبل؟» فقال فريد: «لا» فقال الوزير: «ففيما الكلام؟» «وأخبرت فريد بنفس أنني لا أقبل مثل هذا الكلام، لأنني صممت على الاستقالة بسبب وهو الاعتداء على الجامعة، فكيف يُحل هذا بإعطاء درجة أو وعد بدرجة؟ إن هذا يسقطني في عيني وأعين الناس

والى هنا انقطع الكلام في هذا الموضوع، وانقطع ما بيني وبين الدكتور طه نوبة. وقاطعت الوزارة، فلم أشارك فيها في لجان ولا في وضع أسئلة ولا امتحان ولا حديث في راديو الوزارة ولا شيء من هذا.

وكتب مقالاً في «الصدقة والصديق» في (مجلة) الثقافة، ذكرت فيها وصف صديق محلي، وفيها بعض تلميح على الدكتور طه فرد ببطقوة في

«الأهرام» من غير ذكر اسمي، ولكن في وصوح، منهما إنيائي عطف على
في يؤسه وحسده في نعيمه، وأن هذا ومن أنكره في يؤسه وعرفه في نعيمه
كمحارزي العبادي.

وانقطعت بعد هذا الصلة بيننا تماماً.

(ح. أ. كتب والذي في ترجمته الذاتية ص ٢٥١ - ٢٥٢ معلقاً على هذه
الأحداث. «وكانت حاسمة العمادة أني فقدت بها صداقة صديق من أعز
الأصدقاء، وما أقل عندهم. كل يجني وأحبه، ويقدرني وأقدره، ويطلعني
على أحسن أسرار وأطلع، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عني، ويشاكني
في سروري وأحزاني وأشاركه، وكنت هواه وكان هواي، واستفدت من صداقته
كثيراً من معارفه وفنه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته، فأصبح يكون جزءاً
من نفسي يملأ جانباً من تفكيري ومشاعري وجامات العمادة مفسدة لهذه
الصداقة لأنه - بحكم طبيعته - أراد أن يسيطر، وأنا بحكم طبيعتي أردت أن
أعمل ما أرى لأنني مسؤول عما أعمل. ثم ولي منصباً أكبر من منصبني يستطيع
منه أن يسيطر على عملي، فأراد السيطرة وأبنتها، ولراد أن يحقق نفسه بأن يبال
من نفسي فأبنت إلا أن احتفظ بنفسني فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه
الصداقة، فحزن لما أصابها وحرنت، وبكى عليها وبكيت».

هذا ولم أعر لا على مقال والذي «الصداقة والصديق» من بين مقالات
المجلدات العشر من «فيض الحاطر»، ولا على طقطوقة طه حسين في
مجلدات أعماله الكاملة، طبعة بيروت).

بعد العمادة

(ح. أ. بعد سنتين من العمادة لم يؤلف خلالها والذي كتاباً أو يتمم
بحثاً، عاد إلى كتبه ومكتبته ليبدأ في إعداد الجزء الأول من «ظهر الإسلام»،
وتحقيق كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، والاشتراك مع الدكتور
زكي نجيب محمود في تأليف كتب «قصة الفلسفة اليونانية»، ثم «قصة الفلسفة

الحديثة» ثم «قصّة الأدب في العالم». غير أن تغيراً هاماً كان قد طرأ على سطر حياته بعد هجره للعمادة كتب يقول، «تركّت العمادة وعدت أستاذاً، وحلّت يدي من كل سلطة إدارية وأتت وزارة [الوقد] لا تعدّني من رجالها، فلم يكن لي شأن في علاوات وترقيات، وليس لي قبول في شعاعات. وإذا ذلك سمّرت لي وحوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء. هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع معه، فلما سلبت مني هذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوّي، فإن لم يجد أسباباً اختلقها. وهؤلاء الذين كانوا ينهافتون على إقامة حملات تكريم لي يوم انتحيت عميداً فأرفصها، لم يذكروا في إقامة حملة وداع يوم تركت العمادة. وهذه التليفونات التي كانت تلق كل حين للسؤال عن صحتي، وطلب موعد لزيارتي لإظهار الشوق أولاً، والاحتمنان على صحتي ثانياً، والرجاء في قضاء مسألة ثالثاً، لم تعد تلق إلا للأعمال الضرورية التي ليس منها سؤال عن صحة، ولا إعلان أشواق. وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خطابات عائليّة أو مسائل مصلحية. وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهتثون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها على المكتب فأقرأ وأكتب، ولا مسائل ولا مجيب. وهذه صورة للناس لم تكن جديدة عليّ، فقد قرأت مثلها في الكتب وسمعت عنها في الأحاديث. . لكن لعل أسوأها أثراً في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي. فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق. أما أن طالباً يفرج على أستاذه ويخاصمه، ويقدم فيه بالكذب والأباطيل، فشيء لم أكن رأيت، فلما رأيت استعظمت، وحرّ في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي، ولم أهد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق، ولا أركن إليهم كما كنت أركن» - «حياتي»
ص ٢٥٥ و ٢٥٦

ويعود الآن إلى ما تبقى من المخطوطة، وهي بضع فقرات واضح أن

والذي كان يضيئها كلما جدَّ جديد على صلته بطفه حسين، ثم انقطعت هجاة في حوالي ديسمبر ١٩٤٣).



رسمت لنفسي حطة في التدريس في الجامعة: وهي أن أقصر نفسي على التعليم وعلى أربع حصص أؤديها في يومين، وأذهب قبل الحصة وأعود بعدها، وأعتزل حضور مجلس الكلية، ولا أقبل عضوية مجلس الجامعة، وحجتي في ذلك أن وراثة المعارف والدكتور طه ميطرا على كل الأعمال الإدارية، مما شاءا نقّذ، وما لم يشاءا لم نقّذ، فلا معنى إدد لمجلس، ولا حدة في نظام ديموقراطي الشكل استبدادي المعنى.

وسرت على هذا النظام طول سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣، وأرحت نفسي وانقطعت لمعلي العلمي، عكفت على إنفاذ الجزء الأول من «فئة الأدب في العالم» وأتممته مع زكي نجيب محمود في عام.



وحدث يوم ٢٩ مايو ٤٣ أن دعيتي الست قوت القلوب الدمرداشية للعشاء في بيتها، فأجبت ولم أعرف المدعويين. وذهبت فوجدت وأنا داخل الدكتور طه وأسرته واقفين على مدخل الباب الداخلي ومعهم سعيد بك لطفي [مدير الإذاعة المصرية الأسبق وشقيق أحمد لطفي السيد باشا] وفكري أباطة. فاحترت قليلاً ماذا أصنع. ووجدت الواجب بقصي عليّ بالتسليم عليهم جميعاً، ففعلت. ولكن الدكتور طه تردد بضع ثوان في مد يده إليّ حتى اضطر سعيد بك لطفي أن يهتف باسمي ليبيهه على الواجب، فمد يده في ارتعاه وبرود. وكنت أظن أن من حولي لم يدركوا هذا المتظر، ولكن علمت بعدها أنهم لاحظوا ذلك، وأن الست قوت القلوب شككت للدكتور [إبراهيم؟] مذكور ساعة الدكتور طه إليّ في بيتها.

ومن ذلك الحين صممت ألا أقرئه سلاماً، ولا أضع يدي في يده

في يوم ١٣ سبتمبر سنة ٤٣ شعرت بصيق من جو الجامعة، فقدمت طلباً بالإحالة إلى المعاش مع معاملي معاملة بقية الموظفين من إعطائي درجة أستاذ، وصممتين إلى حلمتي، وإعطائي الفرق بين المعاش والمرتب مدة سنتين، وأقمت علي باشا إبراهيم بهذا الطلب، فوعدي بمقابلة وزير المعارف سريعاً وإيجاته. ولكن مضي زمن طويل ولم أسمع شيئاً ثم قابلته، فأخبرني أن الوزير يرفض هذا، فقدمت طلباً ثانياً أنأزل فيه عن الدرجة، وأكتفي بضم سنتين

وفي يوم الاثنين ١٨ أكتوبر سنة ٤٣ كلمني عبد المتعال أفندي [سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر] في التليفون قائلاً إن الدكتور طه يريد أن يقابلني، وهو يسأل عني في اللجنة، ويسأل هل تنحصر إلى اللجنة ليزورك. فقلت له: «سأحضر الساعة السابعة» وفعلت ذهت في الساعة المحددة، وحضر الدكتور طه.

فما زال يقسمي بالعدول عن الاستقالة نحو ساعتين حتى عدلت برولاً على رجائه وتذكيراً بالصدقة القديمة. وفي هذه الجلسة ثمانياً طويلاً وأبلغته ما في نفسي مما فعله معي أثناء عمادتي، وما فعله مع الدكتور السنهوري وقد دافع عن نفسه في كل ذلك طويلاً، ثم انصرف. . وفي أثناء الحديث أفهمني أنه اتفق مع الوزير على إعطائي الدرجة، فقلت له: «إن الدرجة ليست محل مساومة، وخير ألا تذكر في الموضوع». وأخبرني أن الوزير سيكتب لي خطاباً رداً على طلبي يبلغني فيه أسفه لأنه لم يقبل استقامتي حرصاً على مصلحة الطلبة

وانتهى فصل طلب الإحالة على هذا الوجه. وقد مررت على النقراشي باشا استشيريه فيما تم، فقال إنه لو أخذ رأيه ما وافق على الاستقالة، فاما وقد تم على هذا الوجه فمن الخير، «ولا بأس إذا هم أعطوك الدرجة، فهذا حقك، ولا محل لتخوفك من أن يظن بك أنك إنما قدمت الاستقالة رغبة في الدرجة».

كما أشار [النقراشي] عليّ بالتحفظ في العلاقة بالدكتور [طه] لأنه قد تلون باللون السياسي الواضح

بعد نحو أسبوعين ردت الدكتور طه رداً لزيارته ووجلته في بيته . فمكثت عنده نحو عشر دقائق . وكان الكلام عديداً والمقابلة فيها شيء من التحفظ

بعد نحو ثلاثة أسابيع دعانا الدكتور [أحمد] زكي [المدير الأسبق لجامعة القاهرة] على عشاء أنا والدكتور طه و[عبد الواحد أو عبد الوهاب] خلاف وفريد [أبو حديد] و[الدكتور محمد] عوض . وكانت سهرة لطيفة خفيفة .

وتحت إلحاح اسي [محمد] و[زوج ابتي] عبد العزيز أفندي رحوته [أي الدكتور طه] في التليفون أن ييسر مسيل البعثة لاني [إلى إنجلترا] ويعين عبد العزيز في المعهد [الثقافي] المصري في لندن ، فوعده .
[ح أ . وقد أوفى الدكتور طه بوعده بصلد الإثنين] .



إلى هنا تنتهي مخطوطة والذي «قصة العمادة» وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طوال السنوات الخمس التالية يشوبها الفتور والتحفظ، حتى أصيب والذي في عييه عام ١٩٤٨ ، فأتاه طه حسين يزوره وهو راقد في المستشفى ، وعادت الإلفة بينهما إلى مجراها القديم ، وأكثرنا من التزاور واللقاء . فلما مات والذي كتب طه حسين في رثائه يقول :

«... كانت حياته كلها مغالية ، ولم تستقم له الأمور على ما أحب في يوم من الأيام مذ كان صبياً .. كان يريد أن يعير الدنيا من حوله وليس تغيير الدنيا مسيراً للناس ، ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع ، فيستقيم له التعبير في بيئته الخاصة ، وفي بيئته الجامعية بمصر الشيء ، ويستعصي عليه في بيئات كثيرة كل الإستهزاء ، فيسعد قليلاً ، ويشقى كثيراً فكنت تراه دائماً قليل الرضا كثير السخط ، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن

يكون متصلاً، حتى أنكسر الناس منه كثيراً من أمره، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقائه نظرة فيها كثير من التحفظ والاحتياط، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته، أو متوقعين لثورته وكانوا يتكلمون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلمون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء. وربما تندر به زملاؤه وأصدقائه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسَمَوْه «العدل» ونادوه بهذا الاسم، وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسماً ثانياً ولم يكن لهذا كله مصدر غير تخرجه المتصل، وتحفظه المقيم، وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنبه ما كان من الأمر يسيراً قريباً... » (من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»)



رحم الله الرجلين رحمة واسعة.

عن آفات الشهرة، وحلاوة النجاح

نجاح الأديب وشهرته، هل يُفسدان أدبه وشخصيته؟

نضاريت الآراء..

فمن قائل (كهيمينجواي) إن النجاح ألد أعداء الأديب: «والكتاب الجيد يأتي له بالمال وما يأتي المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو ووجه وأولاده في اعتياده، فيحرص كل المحرص على ألا ينخفض. ويؤتي حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط في الكتابة. والإفراط والسرعة في الكتابة يؤديان إلى الإسفاف وهبوط المستوى وإذ يهبط مستوى كتاباته يحمس حماس النقاد والقراء. ويحمس هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كسمرست موم) إن النجاح لا يُفسد الأديب وإنما يُصلحه وهو لا يؤتي به إلى الغرور وتعظيم الإحساس بذاته ورضائه عنها بل هو يعزز من السمات الطيبة في حلقه، ويُصفي عليه تواضعاً وتسامحاً واعتدال مزاج، في حين يميل به الفشل إلى أن يصحى قاسياً شديداً الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكتاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».



ونضارب الآراء هذا راجع في حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافاً

يجعل من الأمر الواحد صاراً بهذا ومعيداً لذلك فمن المؤكد أن النجاح المكر والشهرة لم يصراً بأدب تولستوي، أو دوستوفسكي، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو كليليج، أو توماس مان، أو آرثر ميلر كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولوحوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتييسي ويليامز، وجون أوزبورن، وكولين ويلسون. . . كذلك فقد يؤتي فشل أدب معين في إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الكتابة؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل في إيمان أدب آخر بقدراته وقيمه ما يكتبه، فيكتب لنفسه أو لأجيال نالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم أدبه تقيماً عادلاً.

فالقاعدة في هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقف على شخصية الأديب وطبيعة تكويبه. فإن كان قد قيل إن الفراق يقتل المودة السطحية ويزيد المودة الصادقة توهجاً، فلكذلك النجاح والشهرة قد يفتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصنلان الموهبة الحقيقية الضخمة.

المواهب الزائفة :

فأما عن صاحب الموهبة الضميمة أو الزائفة : فهو قد يخرج على الناس بكتابات يلقي بينهم رواجاً عظيماً ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعفوية أو سوغ. فقد يكون حاوياً لأسرار سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسياً فاحشاً، أو فكاهياً رائقاً، أو بوليسياً شائقاً، أو عاطفياً رومانسياً يستهوي قلوب المراهقات والمراهقين، أو شديد التعاطف مع تيار سياسي أو ديني له شعبية كبيرة مؤقتة. . . حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتريد دور النشر من سبة مكافأته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويُدعى للاشتراك في ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومي أو مقال أسبوعي، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُعطّر بالأمثلة عن نمط حياته

وأسلوب معيشتة، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضّلها، وعلّة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في مشاط وهمّة، إنما يحضر قبره بنفسه، فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص فتتصادم فتندثر. والمال الذي بات يُغنى عنه قد نقله من الريف أو بلد الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبي يعيض حيلة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأعيان والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقاد والكتاب، وأشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطراباً إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فبرده مدحهم الذي يحسبه محلاً ضرورياً واطمئناناً إلى استمرار موهبته.

وقد الناس صرلته غسلة وقالوا إن فسا: قد فاح طيباً

وإذ أن المجلات والصحف ودور النشر وسائر سبل الإعلام يهتمها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحاحها في طلب المقالات والتمثيلات المسلسلة والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا مس وراءه غير عقرينه. وعموده اليومي في الصحيفة يملأ، ومقاله الأسبوعي في المجلة يكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة، والبشر لا بدّ من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأعيان يتهاوتون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيبدّد وقته وتشتت طاقته اللعنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتب، وأحدث ما نشر. وثمة نساء وقتيات قاصرات العقل يرسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فحراً أن ينشئن معه علاقة جنسية. كل هذا وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة، فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أتفه من سله. حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتصر منها كل ما في جوفها، نعتب وتأنف، وتأنم وتلثم، إذ يرى الجمهور وقد تحول عنه فجأة إلى كاتب مساعد ونجم

جديد، وإذا مكانه في صميحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زمرة المخلدين.

متاع الغرور:

لا شك في أن كل هذا كان وراء قوله أنتومي ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السم الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخر العمر؛ وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعات صغيرة. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمقلب الفاسي، وأقل تعرضاً للإصابة بالزهور أو بالإفراط في تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا في الاعتبار ذلك الميل المرضي لدى النقاد إلى أن يلعبوا دور يوحنا المعمدان الذي بشر بقدوم المسيح، والتهليل الأحق ككتاب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و«أعجوبة الرمان»، و«خليفة طه حسين وعاس العقاد»، أدركنا مدى خطورة غمر الثناء المفرط على عقول الشباب الغر. والكثيرون منا قد عاصروا الضجة المفتعلة التي صاحبت صدور رواية «مرحباً أيها الحزن» لمرانسواز ساجان وهي في الثامنة عشرة، وتمثيل مسرحية «أنظر إلى الماضي في غضب» لجون أوزبورن وهو في السابعة والعشرين، وظهور كتاب «الغريب» لكوليس ويلسون وهو في الخامسة والعشرين، ثم لمسوا ذلك التدهور الغريب الذي طرأ على ثلاثتهم، وإفلاسهم الدّهي الرهيب بعد أن صاروا من مشاهير العصر ونجوم الأدب. كذلك يمكننا تبين هذه الحقيقة من قراءة الروايات الست لجي دي موباسان، ومراقبة إصداره التدريجي من رواية رائعة (حياة)، إلى رواية حيلة (بيل آمي)، إلى ثلاثة لا بأس بها (بيير وجان)، إلى رابعة متوسطة (مونت أوريول)، إلى خامسة سيئة (قوي كالموث)، إلى سادسة مشينة قبيحة بالغة السود (قلوبنا)، وهو انحدار كان يزداد حدة بنمو شهرته، وتعاطف ثروته، ولزدياد ترأسه للنساء عليه.

مزاييا تلغز الشهرة:

وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك في أن الشهرة

سكنون من نصيبهم، وأنها متلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان غير أنها كالظل، تسبق الإنسان أحياناً وأحياناً تتبعه. وقد يمتد قبل إن معبدها يحوي أموراً لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحياناً سيطردون منه فور وفاتهم. . فالكاتب المتميز العجّل، كالمتسبي وشوبنهاور، لا يمر من أن يستشير عند الكتاب من أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية فهو كالشمس إذا طلعت ولم يبدُ مهر كوكب على حدّ تعبير التابفة الذبياني. وإد تصغر وجوههم وتنقص صلورهم إزاء كل كتاب أو مقال ممتاز يصدر من قلمه، يرون السلامة في التحالف والتأزر من أجل هدمه، والتصاغر على تحقيره وإحماد صيته. وقد يلجأون إلى سلاح الصمت للحيلولة دون بيله الشهرة التي ستودي بشهرتهم، فلا يذكرون كتبه بكلمة، ويحرصون على ألا يرد ذكر اسمه على ألسنتهم، في الوقت الذي يشيلون فيه بكل مقال أو كتاب يصدر من أمثالهم من أصحاب القرائع العقيمة الجردية، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهاوش الحمير، مطمئتين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخر شهرة المجيد الموهوب هو في الغالب خير له وإن كرهه وتألّم له فهو بتأخرها قد تجنّب لسنوات طويلة ما تحدثنا عنه من أخطار الثروة والعزور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئته الطبيعية. لا زال وقته ملك يده، وقراءاته وساعات تفكيره وتأملاته لم ينتقص منها شيء. كذلك فإنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا امتنق نموّه زمناً طويلاً. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناء، وأبطؤها حلواً أبطؤها نماداً، وما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً». إن تأخرت شهرة الكاتب في حياته فالأرجح أنها ستدوم مدة أطول بعد وفاته:

بسموت رديء الشمر من قبل أهله
وجيئة يبقى وإن مات قائله

(ذهيل)

فهو إن تأتى فإنما ليبتئ . قال بعض الشعراء لبعض : أما أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرصها في كل شهر . قال : لأنني لا أقول من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك ! وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة ، لا لجيله وحده وأمنته وحدها . أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموصوعات الساعة ، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة ، فإنما شهرته أشبه شيء بالأعشاب والسائبات الصحراوية التي تمو سريعا وتذوي سريعا ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها ، أو بالورقة الحفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لاقدها أو ناشر أن يطيرها مسافة بعيدة .

أصف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب في ألا يتعجل الكتاب الإنجاز ، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم ما لم تجل بحاطره فكرة جديدة ذات قيمة . وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء جاهر داخلي قوي يحرمه إلى التعبير عن ذاته ، لا لإرضاء جمهور قراءه .

عليّ نَحْتُ القواني من مقاطعها

وما عليّ لهم أن تفهم السقُرُ

(البحثري)

وهو يدرك أن النائحة التكلّي ليست كالنائحة المستأجرة ، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان . لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء ، وإتقان الصنعة . ليس ثمة أمل له عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كلام ، ولا وراؤه رئيس تحرير مجلسه يستحثه الإيجاز كي يلحق بالممدد الأسبوعي ، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان . وقد قضى جوته في كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً . ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة ، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل ، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه .

حلاوة النجاح

غير أن للشهرة والنجاح في حياة الكاتب - وغم كل ما قلنا - آثارهما الطيبة الحميدة صحيح أن قيمة الكاتب الحقيقية ليست في إنتاجه الفعلي بقدر ما هي في قوة القريحة ورهافة الحسّ اللتين مكنتاه من كتابة ما كتب، وإنتاج ما أنتج. هي في نفسه وملكانه لا في المظهر الخارجي لاهله الملكات. غير أن الشهرة ونجاح كتبه من شأنهما أن يطمئئنا على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استقلالها وإنماؤها وتمهّدها بالرعاية، في حين قد يزعزع المشل من ثقته في وجود تلك الموهبة فيتوقّف عن ممارستها. فالثقة بالنفس هي عماد المهارة وشرط المقدرة. والأديب عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما يكتب ما لم يلمس ردّ الفعل الإيجابي أو السلبي لدى جمهور قرائه ونقاد. والعين، كما قيل، لا ترى نفسها إلا بمرآة. وإذ أن العالم زاخر بالأناس العاديين غير المتميّزين، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تعني إلا أن صاحبها فرد متميز خارق للعادة، وأنه من بين الآلاف التي يصدها في الطريق، أو الملايين التي يسمع بوجودها، ذو قيمة فذة ترفعه فوقها، وتفرقه عنها. ولا بد أن إدراكه لهذه الحقيقة سيجلب إلى نفسه الرضا والسعادة، خاصة إن كان العمر قد تقدّم به فأفطده القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب حيثشّ تصحى الشهرة عنده إحدى متعه المحلولة، ونعويصا لا بأس به عما بدأ يمتور شيخوخته من آفات، ومصدر رزق حين تضصف قواه الجثمانية عن تحصيل الرزق.

هذا إلى أن الناس عادة إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح. وعندها أن الفاشل لا بد سيء، والنجاح لا بد جيّد. فالحظ السعيد كثيراً ما يكون لازماً للإعلاء من شأن الماقلب والفضائل. وها هو كلٌّ من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر، وبيّت نفس الحظّة والمؤامرة ضدّ الدولة، وكان لدى كلّ منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة.

غير أن نجاح قيصر في إنجاز خطته قد صير بطلاً تسير بذكره الركبان، في حين أذى فشل مؤامرة كاتيلس إلى الحديث عنه في كتب التاريخ باعتباره خائناً خيماً... كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبس إبان رحلته البحرية ورفضوا راية العصيان وطالبوه بالعودة إلى إسبانيا، فاستمهلهم متوسلاً ثلاثة أيام يفعل بعدها عائداً إن لم تبد حلالها أرض فلا أفق. ثم إذا بهم في مساء اليوم الثالث وقد لاحت لأعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى إسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، للذكر الناس كولومبوس باعتباره حالمًا واهماً، قد خدع الملك فرديناند وغرر به، وبذد الأموال الطائلة وحاطر بأرواح بحارته، في حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه. . . فإن كانت جودة إنتاج الكاتب هي في بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هي في كل الأحيان سبب الإعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفضل نصيبه لتصيد الناس لنفس هذه الكتب الميوب، ويرروا بها فشله وعمول ذكره:

وانكد الناس عيشاً من تكون له
نفس الملوك وحالات المساكين

سعة العيش:

إن كان النجاح قد وفر للكاتب سعة في العيش، ونقله بذلك من حية الشعبي أو الريف وسكانها إلى حي أنيق في العاصمة، وتحول عن استخدام المحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت مصالته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين، فلا شك أيضاً في أن الضيق في جانب يصاحبه انزعاج في جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه

انفتاح باب هناك . فهو الآن قد أصبح بفضل الشهرة والنجاع بحالط أناساً من طلبة الأدباء والمثقفين ذوي الأفكار والأحاديث والمساجلات التي من شأنها أن تغذي فكره وإن لم تغدّ مشاعره إلا لماماً . وهو يقابل في أمسية واحدة يقضيها في أحد صالونات الأغنياء مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فنتمو بقلوبهم معارفه، ويتسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الحبرات الجديدة التي لم يكن له عهد بها . وما هم الممجبون به يكتبون إليه لو يحادثونه في لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم وأسرار قلوبهم مما لا يُفصّلون به إلى أقرب المقربين إليهم من أصدقائهم وذويهم ثم ما هو يُدعى إلى مؤتمر للكتاب في هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى لقاء محاضرات في جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم أسبوي أو إفريقي إلى الاجتماع به، أو أمير عربي إلى استشارته والالتئاس برأيه . فإذا هو وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفاً على كاسترو، وتداول ساعة مع شولين لاي، وجال بين الأنار الإسلامية في سمرقند وطشقند، ودخل في نقاش مع أساتذة جامعة أوكسفورد وطلبتها، وتناول العشاء هو وزوجته على مائدة يفنوشكو أو مكسيم روديسون، وأدلى بحدّث لإريك رولو في صحيفة لوموند .

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثر في غلر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسّع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على حطر أن يتحوّل إلى دودة كتب، أوراها في صومعة . كذلك فلا بدّ أن يؤثّر اطلاعه الجديد على عوالم النحت والرسم والسينما والاقتصاد والسياسة وغيرها، واختلاطه بأقطابها، إلى تغذية أدبه وتنمية جوانبه وأطرافه، فيضحي بذلك آدمس مضموناً وأعم نطاقاً أو كما قال ابن قتيبة : «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أدبياً فليتسع في

العلوم. فإن كانت الحياة الاجتماعية والمحاضرات والمؤتمرات والأحداث الإبداعية والتليفزيونية قد التهمت الكثير من وقته، فالمؤكد أن ثمة ساعات أخرى كثيرة قد وقّرتها له الشهرة والنجاح، وما جاءت به الشهرة والنجاح من ثراء، وما هيّأ له الثراء من قدرة على الاستعانة بالغير في السعي وراء إنجاز شتى احتياحاته. وسيكون بوسعهم عندئذٍ باتصال تليفوني قصير أن يطلب من وزير معجب به إنهاء مهمة له، أو من رئيس مجلس إدارة بنك قابله في إحدى مهراته أن يسر له تحقيق رغبة. وقد يحدث أن يكون معش الشجاعة في المطار قد شاهده في التليفزيون فيرحب به مبسماً ولا يفتح حقائبه، أو ناظر مدرسة مبهوراً بكتاب له فيقبل على الفور إلحاق ابنه بها، أو تاجر أثاث قد تابع مسلسله الإذاعية هجري له خصماً عظيماً على مشترياته!

مستوى الإنتاج:

فإن كان صحيحاً أن الشهرة والنجاح يواكبهما في العادة إكثار من الإنتاج وإسراع في الكتابة فليست السرعة بالضرورة مدعاة إلى الخط من قيمة الإنتاج ما دام العقل حصاً راعياً للأفكار. وإنما تمثل السرعة خطورة حين تتحول إلى عجلة، ويكون الإكثار من الكتابة ضاراً حين يتحد بصورة تجميد للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدي السرعة في الكتابة، (دوستويفسكي، بلزاك، تولوب، شارلس ديكنز)، وكانت السرعة عندهم دأباً من الرغبة في رفع مستواهم المعيشي، وأنتجوا مع ذلك كتباً خالدة لم يتورها حلل أو نقص. . فإن كان النجاح كثيراً ما يؤدي بالأديب إلى الاتجاه للكتابة للصحافة، إما لزيادة دخله، أو للإبقاء على تداول اسمه، فهناك عشرات من الأدباء المشاهير ممن أتقنوا حرفة الأدب بفضل كتابتهم للصحف، (صامويل جوسون، أديسون، هازل، تاكري، برنارد شو، جورج أورويل، بريستلي، جراهم جرين). . . والكتابة من أجل المال ليست عيباً في حد ذاته كما يرمع تولستوي، اللهم إلا أن كان الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية

أو المجندية أو الرعاية أو غير ذلك لقاء أجر عيساً. وثمة عدد من الأدباء ممن قصى الفقر على مواهبهم أكبر من عدد أولئك الذين قضى عليهم الإفراط في الخمر، أو أودى بهم الغرور، أو أصبر بهم التراء القاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والسجاح مدعاة للاسترحاء، وسأً في الركود إلى الكسل إذ ليس لدى الكاتب المغموّر حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، ما دام لا يرى جمهوراً ينتظر إنتاجاً جديداً له، أو ماثراً يستحبه، أو رئيس تحرير يقف وراءه بالمرصاد. وما من أحد بوصفه أن يكر أن المشاركة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصعة، وأنهما لا زمان للأدب لزوم التدريب المستمر للرياضي والرسّام وراقصي الباليه والمثّلين والموسقيين.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية في الشهرة والسجاح في رأيي هو حرص الكاتّب بسببهما على ألا يهبط مستواه، وحشيتة الدائمة، والمؤلمة المأساوية أحياناً، من أن يأتي إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق فهو دائماً في حوف على موهبته من أن يعثر بها نقصان، وفي شك من قدرته على أن يجعل كتابه الجديد في مستوى كتابه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النفاذ والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذي هلّلوا له وأشادوا به. وقد كانت جيل معاناة جوستاف غلوبر في حياته هو من قول الناس له إن روايته الجديدة، وإن كانت طيبة، لا يمكن مقارنتها بروايته الأولى «مدام بوفاري». والكاتب يدرك أن الجمهور متقلب هوائي، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائماً، وفي أية لحظة، لأن يخسف به الأرض وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره. فالسجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الكاتب أن يُثقي أدبه على مستواه الرفيع، وأن يُثّل يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بقارته والاستحفاف. وهو أمر قد يكون مدعراً في بعض الأحيان، بدليل قوله شتاينيك إنه ما من كاتب حصل على جائزة نوبل في

الأدب إلا كَفَّ عن الكتابة بعد الفوز بها من جرّاء حشيشته من أن يتيح عملاً جديداً يقال عنه . أمداً عمل يليق بجائزته نوبيل؟! قال هذا عام ١٩٥٦ مبرراً به عدم طمعه في أن ينال الجائزة . فلما سألها عام ١٩٦٢ ، ظل حتى وفاته سنة ١٩٦٨ لا يحطّ قلمه حرفاً!

خاتمة .

في عام ١٩٠١ ، سأل ليو تولستوي أنطون تشيخوف عمن يظنه من بين الكتّاب الروس صاحب أعظم الكتب رواجاً لدى الجمهور في تلك الحقبة اجاب تشيخوف بقوله أنت؟ قال لا . قال : لخورجيبف؟ قال لا . قال : دوستوفسكي؟ بوشكين؟ جوجول؟ قال لا . - فمن إذن؟ فذكر له تولستوي اسماً لا نجده اليوم مذكوراً في أي كتاب عن تاريخ الأدب الروسي .

فهل بوسما أن نعتبر مثل هذا الشخص الشهير في حياته ، النكرة بعد وفاته ، أسعد حظاً من فرائز كافكا الذي لم تسمع الجماهير باسمه أو بأدبه إلا بعد انقضاء الأعوام على موته ، ثم بات منذ أن عرفه الناس إحدى القمم الشامخة في الأدب العالمي؟

إن الشهرة التي كثيراً ما ينالها أصحاب المواهب المتوسطة أو الزائفة هي كالثروة التي يفتصبها امرؤ ليمسه بقاء على وصية مروّرة . أو هي كالعملة الزائفة ، يطل صاحبها في قلق مستمر من أن يُكتشف أمره ويسقط قناعه فيمتصع ، وهو ما لا يدّ واقع . أما صاحب الموهبة الحقيقية ، فهو حتى إن لم يل الشهرة في حياته ، سيظل أسعد حظاً من الآخر ، سعيداً بقدراته ونبوغه ورهافة حسّه ، سعيداً بتقته من أنه في يوم ما ، في بلد ما ، سيمرّ ناقد جليل الشأن ، مسموع الكلمة ، برصيف أمام إحدى المكتبات ، قد ألقيت عليه أكوام من الكتب القديمة تباع بقروش زهيدة . وسيلتقط الناقد كتابه وينظر فيه ، ثم إذا به وقد راعه جمال فقرة ، أو عظمة فكرة ، فيقرر شراءه لينظر فيه على مهل . . ثم إذا هو بعد

أيام يكتب عنه في صحيفة ويشيد به . وإذا بالكاتب المجهول وقد أصحى
حديث الناس أجمعين . . .

وهو بالصبط ما حدث حين التقط ناقد شهير من بين كتب قديمة على
الرصيف في أحد شوارع لندن، ترجمة إدوارد هيتزجيرالد الانجليزية الخالدة
لرباعيات الخيام .

————الفنان، هل هو بالضرورة إنسان مريض؟————

صدرت منذ أشهر عن جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، دراسة أعدتها عالمة النفس كاي جاميسون عن الصلة بين الأمراض العصبية والمشكلات النفسية وبين العبقرية الخلاقة. وقد استندت عالمة في دراستها إلى تحقيق أجرتة خلال عام ١٩٨٣ في كلي من أوكسفورد ولندن حيث درست حالات مئة وأربعين من الأدباء والفنانين البريطانيين كلهم إما من الفائزين بجوائز كبرى أو الأعضاء في أكاديمية الفنون الملكية البريطانية، فأتضح لها أن ثمانية عشر شخصاً منهم أدخلوا في وقت من الأوقات مصحات نفسية للعلاج من أمراض عصبية، إما بالصلصات الكهربائية أو مكربونات الليثيوم. وإذ كانت نسبة المرضى بين هؤلاء الفنانين، وهي ٣٨٪، تزيد على ستة أضعاف نسبة المرضى بين مجموع الأفراد العاديين، فقد انتهت الباحثة إلى نتيجة خالتها فاطمة: وهي أن ثمة صلة وثيقة بين المرض النفسي وبين الموهبة الفنية والقدرة على الخلق، وأن هذا المرض قد لا يكون «عزلاً في الموتور» كما وصفه الشاعر روبرت لويل، بل قد يكون هو الموتور ذاته!

صورة الفنان لدى العامة:

مثل هذه النتيجة «الملمية» لن تضيف جديداً إلى المفهوم الشائع لدى العامة عن الفنان وإن أضافت «سنداً» و«إثباتاً». فعند الناس اعتقاد بأن الفنان إنسان غير طبيعي، وأن اختلاله النفسي، أو مرضه، شرط لقدرته على التفاد إلى

حقيقة الأمور والتعبير عن هذه الحقيقة تعبيراً فنياً. وكثيراً ما نراهم يلتصسون العذر ويمتصرون للفنان شذوذه، وغرابة عاداته وملبسه، واضطراب نمط معيشته وحياته العائلية، وشروط ذهنه ومسلكه غير المألوف، واستخفافه بما تعارف عليه الناس من قيم، وبالقوانين الأخلاقية، ويرتدون فيما بينهم كلما صدمهم مسلك له أو استغفموا منه مقولة: «معلش، أصله مان!»

ولا شك أنه مما ساعد على تكوين هذه الصورة للفنان حقائق ثابتة وشائعة، معروفة لدى الكافة، من مشاهير من الموسيقيين والمصورين والأدباء والممثلين وغيرهم، بل وما يلاحظ من مسلك المجاهيل العاملين في الوسط الفني، كأفراد الكورس وموسيقي التحت، وما تنشره الصحف والمجلات يومياً عن فصائح المغنيات والراقصات والممثلين ومن منا لم يحط علماً بقصة قطع فان جورج لأذنه وإرساله لها في علبة إلى حبيبته، أو بقصة سيد درويش مع الكوكابين، أو بالعلاقة الشاذة بين الشاعرين فيرلين ورامبو، وبين لورد بايرون وأخته، أو بنا الأيام الأخيرة في حياة هيمنجواي وانتحاره، أو بما كان يتناهب دوستوفسكي من نوبات الصرع. . . إلى آخره؟ أو كيف يمكن للعامة أن تتجسس هذا الاعتقاد في الفنانين وهم يرون أحدهم وقد دأب على السير في شوارع باريس بجرّ ورائه فاراً قد ربطه بخيط، ويسمعون شاعراً يفخر بأنه نظم أجمل قصائده وهو تحت تأثير ما يتعاطله من محذرات، ويفرّزون في الصحف عن راقصة نصف شرطياً إذ يعترض على تركها لسيارتها في غير موقف السيارات؟

فكرة الأسلاف عن الفنان:

هذه الفكرة عن الصلة بين الفن والآفات العقلية ليست بالفكرة القديمة، ولا هي بالتي كانت شائعة قبل القرن التاسع عشر. صحيح أن العرب الجاهليين نسبوا الشعر إلى الهوائف وإلى الجن الفاطنة في وادي عقر، وأن القران الكريم وصف الشعراء بأنهم إنما يتبعهم الغلوون، وبأنهم في كل واد يهيمون، وأن حديثاً منسوباً إلى النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن ما واهم جهنم. غير أننا

جميعاً نعلم المكانة الرفيعة التي كانت للشاعر الجاهلي في قبيلته، وللشاعر الإسلامي عبد الملوك والأمراء، ولأمثال ابن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت عند الرسول ذاته

أما في الغرب، فإن كانت العامة في العصرين القديم والوسيط كثيراً ما عمت الشعراء وغيرهم من الفنانين بأنهم مجانيين، وإنما كانت تقصد بذلك في واقع الأمر أن عقل الشاعر أو الفنان يحمل بأسلوب مخالف للأسلوب الذي يعمل به عقل الرجل العادي، أو حتى عقل المفكر الفيلسوف. وهناك وفرة من الدلائل التاريخية التي تشير إلى أن أهل العصر الوسيط كانوا يرون في نظم الشعر والموسيقى وحمل السلاح أرقى أوجه النشاط الشرعي مما يحق للمشتغلين بها أن يتيهوا بها على الناس. ولا حاجة بنا إلى التنايل على مدى المحظوة لدى الأمراء، أو التوقير لدى العامة، مما كان يتمتع به الفنانون من أمثال ليوناردو ومايكل أنجلو ورافائيل في عصر النهضة. فإن كان أهل القرن الثامن عشر يزدرون الشاعر المحترف، فالواقع أنهم كانوا يزدرون الاحتراف في حد ذاته، ومحترفي أية مهنة من المهن لا الشعر فحسب. بل إن ارداءهم لاحتراف الشعر بالذات كان من قبيل التوقير العميق للشعر الذي رأوا احترافه وانخلافه تجارة للتكسب امتناناً لقدسيته.

الفنان والمجتمع الصناعي:

ثم طرأ على صورة الفنان تغير جوهري في القرن التاسع عشر، وأضيف إليها من الملامح ما لا يزال قائماً في أذهان العامة إلى اليوم والسبب الرئيسي في تغير الصورة هي اعتقادي مرتبط بعلية النظام الرأسمالي، وازدهار الصناعة، ونمو الطبقة البرجوازية، واتساع نطاق نفوذها، وتفشي أخلاقياتها وقيمها. فقد ارتأت هذه الطبقة أنه في حين كان من واجب الفنان التجاوب والتعاطف مع هذه التطورات الجسيمة، والإشادة بالعصر الصناعي، والثناء على القيم الجليلة، اتخذت غالبية الفنانين موقفاً معادياً من هذه التطورات والقيم

والأخلاقيات، وكان الإجراء بها، والتندر عليها، والتحذير من أخطارها، من الموضوعات الأثيرة لديهم

أضف إلى ذلك أن المجتمع الصناعي هو في حاجة إلى غرس عادات ومفاهيم وأسلوب عيش معين لدى أفراد من أجل ضمان حسن سير العمل فيه. وقد كان هذا المجتمع على استعداد لاحتفال لعصف هامشي من الفنانين، والتعاضّي عن غرابية مسلّكهم، وتحرّروهم من القيود الأخلاقية، وضعف احترامهم للمواعيد وتقيدهم بالوقت، وعدم التأكّد مما سيكون عليه تصرفهم وردّ فعلهم، لولا اقتناع اليورجوازية بأن من المحطّر كل الخطر على كل مقومات المجتمع الجديد أن يعمّ تأثير هؤلاء الفنانين، وأن تنتشر العدوى، فيصبح الاحترام للرؤساء، ويشيع الاستخفاف بقيود الوظيفة، ويتزعزع الإلتزام بالمواعيد المحددة، وتضعف شهوة استهلاك السلع الجديدة، ويصعب صبّ الإنسان في القالب الواحد اللازم لازدهار ذلك المجتمع.

لذلك رأت تلك الطبقة الجديدة من الرأسمالين والبرجوازيين لزماً عليها أن تصدّي لهذا التأثير بالمقاومة عن طريق إثارة الشك فيما إذا كان الفنان إنساناً طبيعياً سليم العقل، وقرس الاعتقاد بأنه في جوهره شخص منحلّ معروف مريض، إن كان لا بدّ من أن تحتل الجماهير وجوده بين ظهرائها من أجل المتعة التي توفرها أعماله، فلا ينبغي أن يؤخذ فحوى تلك الأعمال على محمل الجدّ، وإن كان لا مفرّ من الإقرار له ببعض الامتيازات وحرية التصرف، فهي امتيازات أشبه بتلك التي تعطى لعبط القرية، أو مصحك الملوك.

قد أشهر الفنان إذن حرباً على قيم المجتمع الجديد، فأشهر أرباب هذا المجتمع حرباً عليه من أجل الحدّ من فاعلية تأثيره، وذلك عن طريق تشويه معالم صورته. ولم يكن غريباً أن يبيري عدد من الفنانين أنفسهم، من أمثال برنارد شو و آرثر كوسلر وتوماس مان للإقرار بصلّة الفن بالتحلل الفردي والمجتمع والمحصارة، حتى كان هذا الموضوع محور عدد كبير من قصص

توماس مان ورواياته. وقد أورد الروائي إميل رولا، وهو الحريص دائماً على أن يكون في خدمة التقدم العلمي، أن يتحقق من صحة هذا الاتهام للفنانين، فعرض نفسه على خمسة عشر طبيباً نفسياً، انتهوا إلى أن عبقريته تنبثق بصفة أساسية عن عناصر مرضية في جهازه العصبي ومزاجه، فصداقهم رولا، وأقرّ الاتهام. ثم تبعه إدموند ويلسون فشبه الفنان بفيلوكيتيس في الأسطورة التي تتحدث عن محارب إغريقي اضطر إلى أن يعزل نفسه عن سائر الناس بسبب الرائحة الخبيثة المبعثة عن جرح أصابه أثناء الحرب، غير أن الناس ظلوا يقصدونه مع ذلك دوماً لحاجتهم إلى الاستعانة بقومه السحري الذي كان لا يخطئ هدفاً. وهي أسطورة لم تذكر أن خبث رائحة الجرح كان ثمناً للقوس الذي يمتلكه فيلوكيتيس، واعتقد ويلسون مع ذلك أن عظمة القوس تتوقف على بشاعة الجرح ورائحته.

أسباب أخرى:

وثمة أسباب أخرى لشبوح هذه الصورة الجديدة للفنان غير السبب المتصل بحضارة المجتمع الصناعي البورجوازي.

فهناك اعتقاد قديم، خاصة في الفكر المسيحي والفكر الصوفي الإسلامي، بأن العذاب والآلام طريق إلى المزيد من القوة، أو على حد تعبير إسحقيلوس، إن الآلام هي سبيل الإنسان إلى معرفة الآلهة. ثم نجم عن هذا قول بأن القوى الكامنة في الفرد يتم تصريفها عن طريق أعضاء جسمه أو ملكاته، وأنه إن تعطل عمل أحد هذه الأعضاء أو الملكات، تم التصريف في عضو آخر أو ملكة أخرى فتزداد بملك قوة هذا العضو أو الملكة. وبعبارة أخرى: أن ثمة آلية في إعادة توزيع القوى، بحيث تنمو رهاقة السمع واللمس مثلاً عند الأعمى، وبحيث يضحي كل ذي عاهة جباراً. وقد كانوا في الماضي يُخصّون الكهنة حتى تنصرف الطاقة الجنسية المعطلة لديهم إلى القدرة على كشف حجاب الغيب والتنبؤ بما سيحيي. وإذا أن الفنان يُضحي بالضرورة

بأشياء ثمينة وملذات وقدرات كبيرة الشك، فلا بد أن تزدهر لديه في مقابل ذلك قدرات حلقة أخرى، وأن يستمتع بملذات وأشياء مغايرة لا يعرفها غيره. كذلك يمكن القول بأن أي تركيز على وجه واحد من أوجه النشاط، حتى عند الناس العاديين، لا بد من الصحة معه بأمور كثيرة، كتضحية الطبيب المشغول بعمله بعلاقاته الأسرية والاجتماعية. فلا غربة في أن يؤدي استغراق الفنان في فنه إلى احتلال توازنه الروحي وما يسمى بالصحة النفسية.

والفنان عادة يرى في التصرفات «العاقلة» للأفراد العاديين حوله جنونا، ويرى «صحتهم النفسية» مرضا، في حين يرى في اختلال جهازه العصبي صحة روحية وأخلاقية، ويشير إلى أنه قد كان بوسع كاساندراف المجنونة في الأسطورة الإغريقية أن تدرك من الأمور الهامة وأسرار العيب ما عجز غيرها عن إدراكه بفضل رفاهة حسها الساجدة عن توتر أعصابها وآفتها العقلية. وقد أبى الكثيرون منهم، ومن بينهم هيمنجواي، الانصياع لرغبة ذويهم وأصدقائهم وقبول العلاج، خشية أن يؤدي زوال مرضهم إلى زوال موهبتهم معه.

كذلك رأى بعض الفنانين، شأن بعض الصوفية، أنه من المحافاة محاربة شهوات النفس، وأن الانغماس في هذه الشهوات قد يكون حير سبيل لإدراك كذب الشهوة واقتلاعها، وأن ارتكاب اللومب والمواقف هو في بعض الأحيان واجب إذ من شأنه إذلال النفس وسحق الكبرياء وإثبات القلدة على الاستهانة بالرأي العام وحكم البشر. ولا شك في أن البعض، مثل لورد بايرون، استغل فكرة العامة عن الفنانين والنظر إليهم على أنهم ليسوا كغيرهم، وبالتالي فإنه لا ينبغي أن تطبق عليهم نفس المعايير الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، فأقدم على الإتيان في حياته الخاصة بتصرفات لا يجرؤ غيره على الإقدام عليها. كما أنه لا شك في أن شيوع هذا النمط من السلوك في الأوساط الفنية ظل إلى يومنا هذا مسؤولا عن كراهة العائلة «المحترمة» في مجتمعنا الشرقي لاشتغال أبنتها وبناتها ببعض

المسود، واعتباره كارتة وعاراً، إذ يرون من شبه المؤكد أن يؤدي ذلك إلى الانخراط في جو من الفساد والشلوذ.

الدفاع :

لقد وصف فرويد الفنان بأنه إنسان مريض يسعى إلى الهرب من الحقيقة والواقع بإيجانه بدلاً من الوهم يُشبع رغباته عن طريقه. غير أنه عاد لذكر في موضع آخر أنه مدين للأدباء والشعراء، خاصة دوستوفسكي، بفضل اكتشافه لعالم اللاشعور. فكيف يمكن إذن أن ينجم عن المرض والاحتلال أبقى الحقائق، أو أن تؤتي التربة العضة أجمل الثمار؟

في اعتقادي أن القول بأن الفنان هو بالضرورة إنسان مريض، وأن اختلاله النفسي شرط لموهبته، قول غير سليم. فما من أحد قط أشار إلى اضطراب نفسي لدى ليوناردو دافينشي مثلاً أو شكسبير وجونته وتولستوي وتشيفوف وموليير، ومئات غيرهم، ولا أعمالهم بالتي تفسح عن مثل هذا الاضطراب. فإن قال قائل إن صرَّح دوستوفسكي واحتلال جهازه العصبي هما مصدر روعة إنتاجه وثقب نظراته النفسية، كان من حقنا أن نسأله: وما أدراك أن هذا الصرع وهذا الاختلال لم يُضعفا من قدرات كان يمكن أن تكون أكرس وأروع، أو أنهما لم يكونا مسؤولين عن عيوب معينة في أدب دوستوفسكي، مثل عجزه عن تصوير غير الشخصيات المريضة من الناس، أو عن أن يفهم من الحب غير الرغبة الجنسية العارمة، أو الخضوع الماسوحي، أو الحب الناجم عن الشفقة؟

قد نجد لدى المصابين بمصام الشخصية من الأفراد العاديين قدرة على التعبير عن أنفسهم تأخذ أحياناً مظهراً خلاقاً. غير أن هذا التعبير ليس فناً. فإن كان فلان جريح مصاباً هو الآخر بمصام الشخصية، فقد كان فناً بالإضافة إلى مرضه، ولم يكن فناً بسبب مرضه. والخلل العقلي قد يؤدي إلى الفشل،

أو إلى الافتقار إلى السوغ، فإن صحته نبوغ أو عبقرية فإن من الحطال القول بأنه مصدر هذا النبوغ أو هذه العبقرية.

إن الصعف لا يعني القوة ولا القوة تنهي الصعف وجميع الناس هم بمعنى أو آخر، وبتدرجات شتى، مرضى يعانون من حثل عصبي ما والفنان إنسان مريض بهذا المفهوم وحده، ومثل غيره. غير أن الجانب السليم من روحه هو المسؤول عن كفاءة مخيلته، وقدرته على التصور والتخطيط لعمله الفني وعن إنحاره إياه فإن كان سيد درويش فناناً يتعاطى الكوكاين، فهو فنان غير أنه يتعاطى الكوكاين، لا فنان لأنه يتعاطى الكوكاين وشلود فيرلين ورامبو وبايرون، أو فظاعة تصرف الراقصة مع الشرطي، مواكبٌ لهنَّ لا مصدر له. قد تساعدنا معرفتنا لطبيعة الحلل عند الفنان على فهمنا لطبيعة المادة التي يتنقيها ويحشاها موضوعاً لفنه، بل وقد تساعدنا على فهم بواعثه على الاشتغال بالفن، غير أنها لن نعرفنا سرَّ نبوغه ومصدر قوته.

كل ما هناك هو أن النبوة التي يخبرها الرجل العادي حين يقرأ شعراً أو يستمع إلى سيمفونية أو يشاهد لوحة فنية أو رقصاً، نادراً ما يحير مثله في حياته اليومية إلا في حالة الأحلام، أو الحمى، أو تحت تأثير أحد المخدرات. وهو بالتالي يميل إلى أنه ينسب مشوة الفنان نفسه إلى حالة مرضية أو شاذة كحالة الأحلام أو الحمى أو تأثير المخدرات.

كذلك فإنه لا ينبغي أن ننسى أن الفنانين أناس قد سُلِّطت عليهم الأضواء، وأن ما يُكتب عن حياتهم الخاصة وسلوكهم وتصرفاتهم يفوق بكثير ما يُكتب عن غيرهم. كما أن الأدباء هم أكثر الناس إقبالاً على الحديث المريح عن أنفسهم، ويدقق عن لا شعورهم وعما يجول في خاطرهم، سواء في حطاباتهم الخاصة أو يومياتهم أو سيرهم الذاتية. والمعروف أن السير الذاتية للأدباء هي أفضل السير، كما أنهم أكثر الناس اعتناءً بقول الصديق، وأقلهم اكتراثاً بمصدر مشاعر الغير. فلو أن غيرهم من المشتغلين بالمهن الأخرى، كالعلماء والأطباء

ورجال السوك والأعمال، أوتوا من القدرة على التعبير عن دواتهم ودهم
مشاعرهم ما أوتي الأدياء، وتركوا لنا سيراً ذاتية في مثل صراحة السير الأولى،
فلربما وصح لنا أنهم ليسوا أقل عرضة من العائين للإصابة بالحلل النفسي
والاصطرابات العصبية.

لقد أورد تولستوي في روايته «الحرب والسلام» ملاحظة شيقة، هي أن
المرأة فائقة الجمال إن شاب حسنها عيبٌ صثيل الشأن، حُبل إلى الناظرين أن
هذا العيب بالذات هو مصدر جمالها كله!

وهو حكم يسري على الفنان سريانه على المرأة الحسناء.

عريب جارية المأمون

المصر :

كانت الحياة في العصر الأموي أقل تكلماً، وأكثر مذاكرة، وأدلى على الملوك العربي البدوي السيط من الحيلة في عصر العباسيين، وذلك بالنظر إلى هيمنة العصر العربي في العصر الأول. وكان العرب في ظل الأميين إذا أرادوا الترف تحيروا من ترف الأمم الأخرى، وعُدّلوا فيه حسب أذواقهم وميولهم، فيجيء ترفاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً، ولا رومياً صرفاً. أما العباسيون فقد انتقلوا بحذافيرهم إلى العادات الفارسية، بحيث انقطعت الصلات الاجتماعية ونصادت أوجه الشبه بين المسلمين في العراق والمسلمين في جزيرة العرب أو كادت. وقد كان لا بدّ لقيام الدولة العباسية من خلفاء جاذبين غير لاهين، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة، واصطناع الموالين لها، وكبح جماح الثائرين. حتى إذا هدأت الدولة واستقرت، أصبح لدى الحليقة من الوقت ما يسمح بشيء من اللهو والترف، وإنفاق ما تجتمع لديه من المال الكثير فيهما.

فالمعروف عن أبي العباس السفاح - وهو أولهم - أنه كان يؤثر الجدّ والعلم على ضروب اللهو. كذلك لم يُر في دار المنصور لهو قط، وهو الذي كانت لا تزال به بقية من بدادة، وميل إلى البساطة والتقتير. فهو لا يحب الشراب، ولا يشرب على مائدته أحد. وهو لا يُسرف في عطاء لشاعر ولا لملاح، ولا يتغالى في ثوب ولا في مائدة. أعجبه مرة إنشادُ مشد فامر

بإعطائه درهماً! وسمع خادماً له بضرب بالطيور للجوازي فضرب رأس الخادم بالطنبور وأمر ببيعه!

فلما مات المنصور، شعر الناس بشيء من الإرتياح وقد أجهلوا أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس الدولة وإرساء دعائمها من مشقة، وملأوا الإفراط في الجذِّ والاقتصاد، وتطلَّعوا إلى حياة فيها سعة في المال، وطرف من النعيم. وقد كانت السنوات العشر التي حكمها المهديّ جسراً بين حياة الجذِّ والجفاف والعمل في عصر المنصور، وحياة الترف والنعيم في عصر الرشيد ومن بعده. وكان المهديّ سحياً كريماً؛ فَرَّق في الناس ما خلقه المنصور من المال، وكانت قيمته أربعة عشر مليون ديناراً وستمائة مليون درهماً، سوى ما حَبَّيَّ في أيامه. وإذ كان محباً للفنون الجميلة، فقد جرى الناس على أثره، وأنفقوا الأموال على الفنانين، فرقي الفن، وبدأ يتشرب بين طبقات الشعب

وأخذ المهديّ يجلس للمعنين. كان في البداية يسمع ضياءهم وهم وراء ستاره لا يرون له وجهاً. ثم بدأ يظهر لهم. وقد أصبح وَلَدُ له وبت، هما إبراهيم وعُليُّه، بهجة عصرهما في الطرف والعناء.

كذلك كان المهديّ يحب القيان، مترفاً في ملبسه ومأكله. أما الخمر فكان لا يشربه، لا تحرجاً بل من عدم اشتهاؤه له. غير أن أصحابه كانوا يشربون عنده. وزعم أنه كان معتدلاً في لهوه وترفه، فإنه ما كاد يَرْتَحِي للناس العنان في هذا السبيل، حتى استطابوه ولم يقفوا عند حدِّ. ثم انتقلوا مقلة أخرى من حيث السرف في الترف في عهد هارون الرشيد حين زادت الثروة وعظم سلطان الفرس، وهم المعروفون من قديم بالميل إلى اللهو والسرور وحب النبيل والغناء. ثم جاء الأمين فزاد في اللهو فعمت، وطلب الخصبان وصبرهم لخلوته في ليلة ونهاره، ورفض النساء الحرائر والإماء. أما المأمون فلم تكن شهراته وملاهيه كشهوات الأمين وملاهيه. فقد كان للمأمون ملادٌ عقلية تشغل وقته، كالكتب والفلسفة والجدل في المسائل الدينية والفقهية. وقد أقام بعد انتصاره

على أحيه ودحواله بغداد عشرين شهراً لا يسمع الثناء ثم بدأ يسمعه وكان
يفنيه إسحاق الموصلبي الذي كان أبوه إبراهيم يضي للرشيد. وكان الناس قد
تجرعوا غصص البؤس أيام الحرب بين الأمين والمأمون، وخرت بغداد. فما
عادت السكنية حتى عادوا إلى اللهو ومرططين بموصون ما فقدوه

وقد قلّد الأغنياء في اللهو والبلح قصور الحلماة، بل زادوا في لهنهم لما
تفتضيه طبيعة مجالس الحلفاء من حشمة ووفار لا يلتزمها غيرهم من الأعياء.
وسرت العدوى من الأعياء إلى الطبقة المتوسطة، فسار أفرادها على مهجهم
ولعبوا بالنرد والشطرنج، ونهارشوا بالديوك والكلاب، وانتشر القمار حتى في
حانات الفقراء، وأولعوا بالنقش والتصوير. واشتهر من بينهم الرافضون، وأحبوا
البساتين، وأكثروا الخروج إليها، والأزهار يرشون بها موائدهم وكان أهل
الورع والصلاح يرون كل ذلك من حولهم في بغداد، فتزيد كراهيتهم لها،
واستنكارهم للفسق فيها. وكان بشر بن الحارث يقول:

«بغداد ضيقة على المتقين، لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها»

الجواري:

أسباب الرق في الإسلام ثلاثة:

الأول: وقوع غير المسلم أسيراً في يد المسلمين عند الحرب، أو حمله
غزوة من بلاد الأعداء، بشرط أن يكون عند أسره أو أخذه غير مسلم. غير أنه
لو أسلم بعد استرقاقه لا يزول الرق عنه؛

والثاني: أن يولد الولد من أمة مملوكة وأب على الرقيق، أو من أب غير
مالك لأمة، أو من مالك الأمة ولكنه لا يعترف بأبوتّه للولد؛

والثالث: شراء الرقيق.

وبعد الرقيق مالاً شأنه في ذلك شأن المتاع. والقاعدة هي أن يحتجر
الإمام خمس الرقيق من الأمرى للصالح العام، وتقسم أربعة الأحكام على

من اشترك في الحرب، فيكون للمارس منهم سهمان، وللراجل سهم واحد

وإذ كانت الحروب في صلب الإسلام تكاد تكون دائمة، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون مطرداً، صار الرقيق لا يحصى كثرة، متنوعاً تنوع الأمم التي حاربها المسلمون. وإذ كان يُعَدُّ مالاً فيجوز بيعه وشراؤه وإيجارته وورثه، فإن لم يقتصر على المحاربين، بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً.

وفد أوصى القرآن الكريم بالعدل والرحمة في معاملة الرقيق، وجعل لعنق كفاً للذنوب عديداً، وقوة من أحسن القرب: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَأَوْتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سورة النور ٣٣). وكان من اليسر والمصادات المحمودة أن يُوصي الإنسان قبل وفاته بعنق بعض من يملكه من الرقيق. ومن الناس من كان يمتق الرقيق كرمائه عتقاً كاملاً، ومبهم من كان يُطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد. فالرقيق له أن يشتري حريته، وله أن يشتمل أثناء رقه بالعمل الذي يريده. لما عن شراء الرقيق فليس في القرآن أو الحديث شيء يصلحه.

والرجل المسلم الحر لا يحل له أن يكون على فته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات، سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو إماء. ولا يحل له أن يتزوج أمة إذا كان متزوجاً حرة، على أساس أن في ذلك امتهاناً للحرّة. غير أن له أن يتزوج الحرّة على الأمة.

والأمة جلّ لمالكها سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، ولا يتخذ في ذلك بعدد ولا يجوز أن يشترك رجلان في أمة في وقت واحد كما لا يصح للمالك أن يبيع أو أن يهب وأم الولدة، وهي الأمة التي تلد من سيدها، والتي كان لها منزلة أرفع من منزلة غيرها من الجوّاري. فإن مات، صارت أم الولد حرة. أما أولادها من مالكها فأحرار من يوم يولدون. وكانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرّة، لأنها تُعتبر أقل دنياً لما ينقصها من حرية.

الاهتمام بتعليم الجوّاري :

كانت قصور الحلفاء والأمراء والأعياء تجمعهم رقيقاً من أمم متعدّدة تختلف في الطّعام والمعادن واللّغات . وقد ذُكر أنه كان للمتوكّل أربعة آلاف جارية من مختلف الأجناس . وقد ترك الحلفاء والأعياء لمماليكهم حرية الديانة ، وكان البعض منهم يلبس لبسه القومي ويظلّ يتكلم بلغته .

وانتجّه المباشيون إلى تعليم الجوّاري ، خاصّة الغناء الذي انتشر في عصرهم انتشاراً عظيماً ، وعُدّ حاجة من حاجات الإنسان الضرورية . وقد بما ذوق الناس في الغناء نواً غريباً ، وضعفوا به حتّى لبّثي مغي على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم ! ولم يتحرّج الخلفاء أنفسهم ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بها

واستبّيع تعلّم الجوّاري الغناء تعلّمهم الأدب وحفظ الكثير من الشعر العربي حتّى يُجِدْنَ مخارج الحروف ويَحَسِّنَ عناؤهن بالشعر . بل كانت هناك من الجوّاري المغنيات من كنّ يظمن الألحان

وكان هذا التعلّم يُعَلِّي قيمة الجارية أصعباً منها . وقد عُرضت جارية بثلاثمائة دينار ، فلما علّمها إبراهيم بن المهدي الغناء عُرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار . وكان إبراهيم الموصلي مغني الرشيد من أكثر الناس نشاطاً في تعليم الجوّاري . وقد ألّف هو وزيد حوراء شركة لشراء الجوّاري وتعليمهن الغناء والمشاركة في ربحهن . وقد يتفق لدى المغني المشهور وجود ثمانين جارية لغيره يودعونهن عنده لتعليمهن فن الغناء

وقد عُي الرجال بتعليم الجوّاري أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ، ودعاهم إلى ذلك طلب الرّيح . فالجوّاري هنّ ملهى الرجال . ولبدا حاول القائلون بأمورهن أن يرقوا هذه العالهي بكل ما يتطلّنه اللاهون ، ورأوا أن الجارية إذا كانت مغنية أدبية موسيقية شاعرة كان ذلك أفعّل في قلوب الرجال ، واجلب للمال

وكانت الجوّاري أنشط من الحرائر في ناحية الإنشاء الأدبي، وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء وإلهامهم. فقد كان الناس يعارون على الحرائر أكثر مما يعارون على الجوّاري، ويحبّون الحرة دون المحارية. فالرجل لا يغيّر بالجارية كما يغيّر بقويته الحرة. والجارية ساقرة إلى حدّ بعيد بحكم أنها عُرسَة لأنّ ناع وتُشتري وهي تقضي للرجل حوائجه، وتعيشي الأسواق، وتجلس معه إلى أصحابه، وتستمع إلى أحاديثهم فتعبد بها. أما الحرائر فلا يقع عليهنّ إلا نظر أقاربهن. لذلك كان طبعياً أن يغدّي الأدباء والشعراء أدبهم وضرعهم بالجوّاري أكثر مما يغدّونه بالحرائر.

وكان الجوّاري موعين: جوار مغيّات للخاصة، بتهاداهنّ الأمراء والأغنياء حباً في التجديد، وفراً من الاقتصار على صوت واحد، وقيان عامة يملكنهنّ النحاس أو غيره، فيعرضهنّ للفناء في محال يؤولي إليها الفتيان لسماعهنّ والإيقاع عليهنّ، ويقولون في النحاس وفي قيانه الشعر. وقد ساهم هذا النوع الأخير في نشر الخلاعة والمجون، غير أنهم ساهموا أيضاً في نشر الفنون الجميلة، ورقيّ الذوق الفني، ونشر أنواع من الطرب قلّدهنّ الناس فيها، كحب الأرهار، وكتابة الأشعار الرقيقة والجمل الطريفة نظيراً على الأقمصة والأكمام والمصائب والمناديل والوسائد والسطر والأسرة والكُتَل والنعال، وبالحياء على الأقدام والراح. ونجح الجوّاري في إشعار الناس بالطرب والترام حدوده، حتى أصبح للظرفاء عُرف خاص في الزيّ والنظر والطعام والشراب.

النحاسون وأسواق الرقيق:

انتشرت أسواق الرقيق في مدن الإسلام الكبرى. وكان في بغداد شارع يسمى شارع دار الرقيق. ونجد بالسوق طرفاً متشعبة فيها العُرف والحواسيت للرفيق. فأما الرفيق الجيد فكان يباع في متارل خاصة أو بواسطة تاجر كبير. وأما غيره فيباع في السوق العامة، وهو ما كان بمثابة عقوبة تحطّ من قدره.

وإذ كان الرفيق تجارة من التجارات، تقع عليها المساومات، ويحتاج

المشتري إلى التأمل البين وخيار الرؤية المشترط في جميع السلع، حُلل
مكالمة القيان ومفاهيمهن ومعازلتهن ومصافحتهن ووضع اليد عليهن للتقبيل
والنظر

وكان النحاسون يوصون الجوارى بأن يُظهرن أجمل ما فيهن، ويُخفين
أقبح ما فيهن، وأن يشوذن إلى المشايخ وناصري الطباع وتبجي الرجوه
ويستميلوهم، ويتمنن ويتجنن على الشاب ليمكنوا من قلوبهم!

وكان الراعيون في الشراء يُخدرون من شراء الرقيق في المواسم. فهي
مثل تلك الأسواق كان النحاسون يلجأون إلى الحيل، كأن يهشروا الثياب
كالسكر، ويخفوا حُمْل الجارية، ويطلوا الشعور بأن يوصلوا في طرفها شعراً من
جنسها. فكم من نجيمة بيعت بسمية، وممسوح المعر بتجمل الروادف، وأسخر
العم بطيب النكهة. وكم صُغروا اليأس الحادث عن البرص والبهق في الجلد،
وجعلوا العين الرقواء كحلاء، وحرقوا الحدود المصعرة، وأزالوا عن الخدود
شعر اللحي، وأكسبوا الشعور الثُغر حالك السواد، وجعلوا الشعور السطوة،
ويضوا الوجوه المسعرة، ودملجوا السيقان الضامرة، وأذهبوا آثار الجدري
والوشم. وكم من مريض بيع بالصحيح، وغلام بجارية، هذا بالإضافة إلى
ما يوصون به الجوارى من دَلٍّ ومجانة. وكان بعض النحاسين يقول: «ربح
دروهم جناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة!»

ومن جملة ما خُفّر منه المشتري ألا يستعرض جارية أو يكره في شرائها
وهو شيب، إذ ليس لمنعطف رأي كما يقال فهو عندئذ يقطع بأول نظرة، وأول
نظرة سحر، وللجديد والغريب روعة فإذا صاخب معه حاجة داعية قطع بما
تكذبه الحواس عند الاستمساء ولهذا قيل: تكريرُ اللَّحْظ يُحْلِقُ كُلَّ جَنَّةٍ،
ومعاودة التقليل تُظْهِرُ التَّصَنُّعَ

وعليه أن يأخذ بسوء الظن، فلا يقطع بأول لفظ من كلام أوجارية؛ فربما
جاءت بالاتفاق، فوافقت قبولاً ولا يكون وراءها أمثالها.

وعليه أن يسأل عن سبب بيع المملوك، وعما إذا كان السبب من جهته أو من جهة مالكه .

وعليه أن يتحرّر في استبراء الإماء من الحمل، فكثيراً ما يجعلن في فروجهن خرقاً بلم غيرهن .

وليملم أن في شحوب لون الجارية وشهوتها للطعام المالح دليلاً على توخمها .

وإن كان له عدوّ يحشى منه عيلةً، أو يخاف أن يطلع له على سرٍّ، فليأخذ حذره حين يُقدِّم على شراء خادم أو جارية، خاصة إن كانت تعمل قبل عرضها للبيع في دار السلطان، فإن هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك والرؤساء .
وإذا اشتريت جاريةً غير بالغة فربما تَلَعَتْ في مذكك وأنت لا تعلم، وَكَمَتْ ذلك عليك رعة في الولد .

واحذر الجوّاري اللواتي يُوهِمْنَ أنهن عَفَمٌ أو كارهات للحمل، فربما حَدَّثَتْكَ بذلك ولا تُخرج جارية من ملكك إلى نحاس إلا وهي حائض، فربما تحبل فتدعي أنه منك !
أصحاب القيان :

قلنا إن الرقيق الذي لم تكن له من المواهب والمزايا غير قدراته الجثمانية الظاهرة للأعين كان يُباع في الأسواق أما أصحاب الموهبة الفسائية أو الشعرية، أو دور الدّل والظرف وجمال الحديث وحسن المفاصلة، مما يُحتاج لتبشيره إلى عشرة طويلة أو قصيرة، فكان لا مدّ من جمعهم في مجالس يعقدها التاجر في دار خاصة له، وترتدّ عليها ذور الثراء أو الجلاء .

وكان الناس يقصدون مالك القيان بالرجبة كما يُقصد بها للخلفاء والعلماء فيروا ولا يَكُفُّ الرِيارَة، ويُوَصِّل ولا يُحْمَلُ على الصَّلَة، ويَهْدَى له ولا تُفْتَضَى منه الهدية . وهم يرسلون إلى بيته بصوف الأظعمة والأشربة،

ويُكفَى مؤونة جواريه ثم هو يُستقبل إذا أَعَسَرَ ولا يُردُّ، وَيُسْأَلُ الحوائجُ فلا يُسَمِّعُ، وَيُلْقَى أبدأ بالإعظام، وَيُكْفَى إذا نُودِيَ، وَيُحِبُّ بطرائف الأحبار، وَيُطْلَعُ على مكنون الأسرار

وهو يعلم أن ثمن الجارية إنما يخلو لأحد مسكين أو باجتماعهما - مواهب القينة، أو عشق أحد المترددين عليه لها. فأما المواهب فهو يعني بإنمايتها وإبرازها وأما العشق، فهو يُدرك أن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه، ونقص من برِّه ورفقه بقدر ما نقص من عشقه. ولذا فهو يُعنى منصب الرفاء، وبالأناجحة العروسة للعاشق لأن يظفر بسؤله، حتى يضطر إلى الشراء. وهو مع ذلك يُعْرِضُ عن القَمَرَةِ، ويعفر القُبلة، ويتعاهل عن الإشارة، ويتعاضد عن المكاتبه. وهو يصير أصناف تجارته فيسعرها وفق قيمتها، ويعرف ما يصلح لكل من رباته. وَمَنْ كان ذا جاه من العشاق اعتمد على جاهه وسأله الحوائج. ومن كان ذا مال اقترض منه بلا ربا. ومن كان مقرَّباً إلى السلطان دَفَّتْ عنده زيارته الطبول وتُفَخُّ في الأبواق، نظراً إلى أنه كفيل بأن يردَّ عن التاجر مالك القيان مضايقات الشرطة والمشاعين

مجالس القيان :

والقينة أقرى بما فيه صالحتها وما يتطلَّبه منها التاجر صاحبها من سلوك فهي إن رأت في المجلس فتى له عنى وكثرة مال، مالت إليه لتحلِّده، ومنحته نظرها، وغمرته بطرفها، وداعبته بالتبسم، وغالزته في أشعار الغناء، ولهجته باقتراحاته، وشغلت للشرب عند ضربه، ومقته أنصاف ألداحها، أو شربت من فضلة كأسه، وباولته قصوض نقاحها، ونحية من ريحانها، وتغايرت على أهله، وحمت النظر إلى صواحباتها، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والنسابة لسرعة عودته، والحزن لمرافقه. ثم ترسل إليه بالرسول، وتخر عن شهرها، وتشكو إليه الفلق والأرق، وتبث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها، وقطعة من برطها، وقلامة من ظفرها، أو شظية من مصرايعها، وتلك قد جعلته عرضاً عن قلبها،

وكتاب قد نَمَقته وطيّيته وشنّته بوتر من عودها، ونَقَطت عليه قطرات من دمعها،
تسأله المواتة على حُبّها، وأن يبعث يطلب زيارتها، لتقرّ بالسطر إليه عيها
وتوهمه أن الذي بها منه أكثر مما به منها، وأنها لا تريد سواه، ولا تريد له مالاً
بل لنفسه. ثم تُظهر ستر الكتاب عن مواليتها ليكون المغرور أوثق بها.

وهي تُهدي إليه في عيد التيروز سَكراً، وفي المهرجان حاتمًا وتفاحة،
وتنقش على حاتمها اسمه، وربما أتت إلى بيته فتُمكنه من القفلة فما فوقها،
وتُقرّضه مِسْها

وربما اجتمع عندها من عشاقها ثلاثة أو أربعة، فتُكي لواحد بعين،
وتضحك للآخر بالآخرى، وتعمد هذا بذلك، وتعطي واحداً جرّها، والآخر
علائقها، وتوهمه أنها له دون الآخر، وأن الذي تُظهر خلاف ضميرها. وتُكتب
إليهم جميعاً عبد الانصراف كتباً على نسخ واحدة، تُظهر لكل واحد منهم
تبرّمها بالباقيين، وحرصها على الخلوة به دونهم.

يقول الجاحظ: «وليس هذا بلَمَ لهم، ولكنه من فرط المدح. وقد جاء
في الأثر: حير نائكم السواحر الحلاّيات»

حتى إذا ما مال إليها الرجلُ بوَدّه، وحوث عقله وسلبت قلبه، أخذت في
طلب الهدايا العظيمة، ونشّئت الثياب والمصائب المرصّعة، وخواتيم الباقوت،
وتمارضت من غير سقم لتجيّسها هداياه.

فإن نفذ اليسار وأُتلف المال، أظهرت المثلل، وتبرّمت بكلامه، وتنبّعت
عليه سَفَطاته، وأخذت في الجفاء والعتاب، والقُلَى والإبعاد، ومالت إلى
سواه

على أن القينة وإن كانت لا تكاد تخلص في عشقها، لما أُجِبت عليه من
نَصَب الحيلة، فإن هواها أسرع إلى النفوس وأوقع في القلوب. فهي أقرب
أَملاً، وأقلّ عِللاً، والظفر بها أسرع من الظفر بالحرة. وهي تجمع للإنسان من

اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض؛ فللمعين النظر إلى حُسْنِها،
وللسمع منها حظٌّ، وللمس فيها الشهوة والحس إلى الماء والحواس كلها رَواد
للقلب وشهود عنده. وقد تطلّب القينة الهدايا لحولاها لرعبتها في هوى عاشقتها،
لأن التاجر إذا تنابعت عليه أَلطافُ العشيّق رغب في صغائه، فأحلاها معه الأيام
الكثيرة، والذليالي المتتابعة.

تبرير مسلك الجوّاري:

يقول الجاحظ:

وكيف تَسْلَمُ القَيِّنة من القَيْتَةِ أو يَمْكِنُها أن تكون عفيفة، وإنما تُكْتَسَبُ
الاهواء، وتُعَلَّمُ الألسُنُ والأخلاق بالمشاء، وهي نشأ من لُذٍّ مولدها إلى
أوان وفاتها بما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب، وبين
الحلماء والمُتَماع، ومن لا يُسمع منه كلمة جَدٌّ، ولا يُرجع سه إلى ثقة ولا دين
ولا صيانة مُرَوَّة

وَوَرَوِي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت مصاعداً، يكون الصوت فيها
بين البيتين إلى أربعة أبيات، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، وإنما بُيت كلها
على ذِكر الرِّزَا والقيادة، والعشق والصُّوة، والشوق والغُلْمة...

وَم لا تنفك من الدراسة لصناعتها مُنْجَبَةً عليها، تأخذ من المطارحين
الذين طَرَحَهم كُلُّه مِثْالَةً، وإنشادهم مرادة وهي مضطرة إلى ذلك في
صناعتها، لأنها إن جَعَتْها تَعَلَّتْ، وإن أَمَلَتْها تَفَضَّتْ، وإن لم تسمع منها
وَفَقَّتْ، وكل واقف إلى التفصيص أقرب. وإنما مُرّق بين أصحاب الصناعات
وبين من لا يحسنها التزيّد فيها والمواظبة عليها. فهي لو أرادت الهدى لم
تعرفه، لأن فكرها وقليلها ولسانها ويذبها مشاعيل بما هي فيه...



وننتقل بعد هذا كله إلى الحديث تفصيلاً عن حياة واحدة من هؤلاء

عريب:

عريب جارية من أشهر الجواري المعنيات في التاريخ الإسلامي، ولدت ببغداد عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) أثناء خلافة هارون الرشيد، وتوفيت عن ثلاث وتسعين سنة عام ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) في أواخر عهد المعتمد، فتكون بذلك قد شهدت عهود أحد عشر خليفة من خلفاء العباسيين، هم: الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)، والأمين (٨٠٩ - ٨١٣)، والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣)، والمعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢)، والواثق (٨٤٢ - ٨٤٧)، والمستنصر (٨٤٧ - ٨٦١)، والمتنصر (٨٦١ - ٨٦٢)، والمستنير (٨٦٢ - ٨٦٦)، والمعتز (٨٦٦ - ٨٦٩)، والمهتدي (٨٦٩ - ٨٧٠)، والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢). قالت عريب «جامعتني منهم ثمانية، ما انتهت منهم أحداً إلا المعتز» والمؤكد بالظر إلى سنها وقت تولية كل منهم الخلافة، أن عدداً منهم إنما عاشوها قبل تقلده الحكم.

صفاتها:

قال عنها إسحاق الموصلي إمام أهل صناعة الغناء العربي: «ما رأيت امرأة قط أضرب من عريب، ولا أحسن صنعة، ولا أحسن وجهاً، ولا أخف روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولا أسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والشرط». ووصفها أبو الفرج الأصبهاني صاحب «الأغانى» بأنها «مغنية محسنة»، وشاعرة صالحة الشعر، مليحة الخط والمنهج في الكلام، وبهاية في الحسن والجمال والطرف، وجودة الضرب وإتقان الصنعة، والمعرفة بالعم والأوتار، والرواية للشعر والأدب. لم يتعلق بها أحد من نظرائها، ولا روي في النساء بعد الفياض الحجازيات القديمات، مثل جميلة وعرة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن جرى مجراها - على قلة عددهن - نظير لها. وكانت فيها من القضاائل التي وصفاها ما ليس لهن مما يكون لمثلها من جواري الخلفاء، ومن نشأ في قصور الخلافة، وغُدي برقيق العيش الذي لا يدانيه عيش الحجار والنساء بين العامة والعرب الجفافة ومن غلظ طبعها».

وقد أورد ابن المعتز لأخبارها وعنايتها كتاباً مفقوداً. وذكرها في كتابه «طبقات الشعراء»، ووصفها بأنها «شاعرة مُعلّقة مطبوعة»، وكانت تتبع آثار الشعراء فتخرج منها مواضع خطتهم وتعرضه على المأمون وكانت من أطرف الناس وأسرعهم تلامذة، ومن أحسن الناس وجهاً، وأصحبهم لساناً، وأبلغهم بياناً، وأصنعهم كفاً. ثم أضاف قوله:

«ولها حديث في غرامها أيام شبابها لم نودعه كتابنا هذا لشاعته!»

ابنة جعفر البرمكي؟

كانت عريب تزعم أنها بنت جعفر بن يحيى البرمكي من امرأة شريفة وقد آيد زعمها هذا آخرون من بينهم خال المعتصم، وابن لمولاه المراكبي. وكان العسل بن مروان يقول: «كنت إذا نظرتُ إلى قلمي عريب شَبَّهْتُهَا بقلمي جعفر بن يحيى». وعندما ذُكرَتْ بلائُها في كُتُبها لبعض الكتاب قال: «فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر؟» وكانت إن تحدّثت عن البرامكة وصفتهم بأنهم أهلها ويحكي المغني جَحَظَةً أنه دخل إليها وهو عَلام فأنكرته وسألت عنه، فلما أعلمها أنه ابن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي وأنها ابنة عم أبيه أدنته وقربت مجلسه وسمعت عناءه وأمرت له بخمسين ديناراً.

وكانت أمها فاطمة صبية نظيفة تعمل لدى أخت لجعفر. فلما رآها جعفر حوَّيها، وسأل أخته أن تزوجه إياها ففعلت. وبلغ الحبر أباه فأنكره، وقال لولده: «اتزوج من لا تعرف لها أم ولا أب؟ اشتر مكانها مائة جارية وأخرجها». فأنخرجها وأسكنها، سرّاً من أبيه، دار امرأة كانت مربية للبرامكة، هي ناحية بباب الأنار بقداد، ووكل بها من يحفظها، وكان يتردد عليها، فولدت عريب سنة إحدى وثمانين ومائة.

طفولتها:

ماتت أم عريب وهريب طعنة صغيرة فدفن جعفر ابنته إلى امرأة نصرانية وجعلها مربية لها. ثم أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر يوم أول صفر سنة

١٨٧ هـ (٢٩ يناير عام ٨٠٣ م) ، وجعفر في السادسة والثلاثين من عمره وهي أثناء انتهاء الرامكة، سرقت عريب وهي طفلة في السادسة، وبيعت لنخاس في سوق الرقيق يدعى سنس، وقيل إن مربيها الصرانية هي التي باعتها له، فاشترها من عبد الله بن إسماعيل المراكبي صاحب مراكب الرشيد

هذه المراكبي:

انتقلت الفتاة مع مولاها إلى البصرة وتولى المراكبي تأديتها وتخريجها، فعلمها الكتابة والحو والشعر والغناء، برعت في ذلك كله، وتزايدت حتى قالت الشعر وقد حكى عريب أن المراكبي اصطحبها معه في حسابها إلى الحج، فكانت في طريقها تطلب الأعراب وتستشدهم الأشعار، وتكتب عنهم النواذر وسائر ما تسمعه منهم، فإن استحسنن أبياتاً تسمعهن مهم وضعت لها الألحان وعنتها. وكان المراكبي يفرح بذلك فرحاً شديداً، ويحزل لها المكافأة، ويزداد بها شغفاً

هذه الخليفة الأمين:

فلما ولي محمد الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد عام ٨٠٩ م، جاء المراكبي، والأمين راقب، ليقبل يده، فأمر الأمين بمنعه ودفعه فلما تولى خادمه ذلك ضربه المراكبي وقال له: أتمنني من يد سيدي أن أقبلها؟ وجاء الخادم إلى الخليفة يشكوه، فأمر الأمين بحبس المراكبي، وطالبه بحمسمائة ألف درهم أنهم بأنه مدين بها لبيت المال. وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدم كانوا له. ويقال إن الأمين كان قد سمع بها أثناء حياة أبيه، فطلبها منه فلم يجبه الرشيد إلى ما سأل، فاضطعن عليه الأمين لذلك.

ويعتد الأمين في إحضار عريب فأحصرت، وكانت وقتها في نحو الرابعة عشرة من عمرها. وغتته بحضوره عمه إبراهيم بن المهدي، الذي كان من أساطين الغناء في عصره، أغنية مطلعها:

لكل أناسٍ جوهرٌ متنفسٌ
وانتِ طرازُ الأناسِ الملجحِ.

فطرب الأمين واستعاد الصوت مراراً، وقال لإبراهيم
- يا عم، كيف سمعت؟

قال، سمعتُ حسناً. وإن تطاولت بها الأيام وسكن رَوْعُها، ازداد عناؤُها
حُسنًا.

وافترضها الأمين. حكى بحريز الخادم دخلت يوماً قصر الحرم فلمحت
عريب جالسة على كرسي ماثرة شعرها تفتسل، فسالت عنها فقيل: هذه
عريب، دعا بها سيدها اليوم فافتضحها

وقالت عريب: كنت لمحمد الأمين وصيفة في عداد الوصائف، ألس
قباء ومنطقة وأقوم على رأسه وربما سقيته. وكان أحسن خلق الله، لم نر ذكراً
ولا أنثى مثله جمالاً وحُسنًا مع حُسن خلق.

ثم انتفض أمرُ الأمين، وشغل عنها بحريه مع أخيه المأمون، وشعلت
عنه فلما قُتل، توجه المراكبي إلى دار أمه زبيدة وأخذ عريب منها عترةً.

هربها من المراكبي:

عادت عريب إلى مولاها المراكبي. وكان للمراكبي هذا صديق يُدعى
حاتم بن عدي من قُرّاد حراسان. وكان مولاها يدعوه كثيراً ويخالطه. ثم ركب
حاتماً الذي فُلجأ إلى دار المراكبي يستتر عنده. وهناك مدَّ عيه إلى عريب،
وكاتبها فأجابته، وكانت المواصله بينهما وعشقه. فلما انتقل إلى منزله، انفق
مع عريب على أن تهرب من المراكبي، وأعدَّ هولها موضعاً. فلم تزل تحتال
حتى اتخذت سُلماً من العصب الذي تعمل منه الأوتار، وختانه، ولقت ليلها
وجعلتها في فراشها بالليل حتى تَوَهَّم المراكبي أنها هي، ثم نسَّوت من
الحائط ومضت إلى حاتم، فمكثت عنده زماناً دون أن يعلم مولاها بمكانها.

ويقال إن حاتمًا لما صارت عنده، بعث ليلة إلى المراكبي يستعير منه غُودًا حتى
تعبه عريب به، فأعاره المراكبي غُودها وهو لا يعلم أنها عنده ولا يتهمه بشيء
من أمرها.

هربها من حاتم:

ثم إنَّها ملَّت حاتمًا بعد ذلك فهربت منه إلى قوم من معارفها، فكانت
تفني عندهم وهي مستورة متخفية. فلما كان يوم من الأيام اجتاز ابنُ أخٍ
للمراكبي يستأجر كانت فيه مع القوم تفني، فسمع العناء وعرف صاحته. فبعث
إلى عمه من وقته يستدعيه، وأقام هو بمكانه فلم يرح حتى جاء عمه. وأمسك
المراكبي بتلابيبها وأحدها فضربها مائة مضرعة وهي نصيح:

.. «يا هذا! لم تقتلني؟ أنا لست أصبحُ عليك. أنا امرأة حرة. . إن كنتُ
مملوكةً فيخني. لست أصبح على الصبيقة».

فلما كان من غدٍ ندم على فعله، وصار إليها فقبلَ رأسها ورجلها، ووهب
لها عشرة آلاف درهم.

قصة حلّويه:

ويحكى المغمّي المشهور حلّويه الذي وصف عريب بأنها أظرفُ الناس
وأحسنهم وجهًا، وبأنها أحسن غناء منه ومن محارِق، أن المأمور أمره وسائر
المضين في ليلة من الليالي أن يصيروا إليه بكرةً لبسطح. فلما غدا، لقيه
المراكبي مولى عريب وهي يومئذ عنده، فقال له المراكبي:

— يا أيها الرجل الظالم المعتقد، أما ترق ولا ترحم ولا تستحي؟ عريب
هائمة تحلم بك في النوم ثلاث مرات في كل ليلة

قال حلّويه: أم المأمور راتية! (يريد بهذه العبارة الاستخفاف بموعد
الحليفة كأنه ما تكون النتيجة). ومضى مع المراكبي. فلما دخل إذا عريب
على كرسي عظيم تطيح وبين يديها ثلاث قلدور من دجاج. فلما رأت حلّويه

قامت تعانقه وتقلعه، وأدحلت لسانها في همه، ثم قالت

— أيما أحب إليك؛ أن نأكل من هذه القندور، أو تشتهي شيئاً آخر يُطعم
لك؟

قال علويه : بل قدر من هذه تكفيني.

ففرغت قلراً منها، وجعلتها بينها وبينه، فأكلوا ثم دعت بالسيد فصبت
رطلاً شربت بصره وسقت علويه بصفه، فمارالوا يشربون حتى سكروا ثم
قالت لعلويه . يا أبا الحسن، أخرجت البارحة شعر أبي العتاهية فاخترت منه
شعراً عبت فيه قال . وما هو؟ فأشدت .

عزيزي من الإنسان لا إن جموت
صفا لي ولا إن كنت طويغ بدني
واني لمشتاق إلى قرب صاحب
يروق ويصمر إن كذرت عليه

وقالت: قد بقي فيه شيء أريد إصلاحه. قال. ما فيه شيء. قالت
بلى! فظلاً يرتداه حتى استوى اللحم. ثم جاء حجاب الخليفة وأحلبوا علويه،
فأقبل على المأمون يمشي برقص وتصفيق من أقصى الديوان وهو يعني
الصوت. فسمع المأمون وبداؤه ما لم يعرفه، واستطرفوه. وسأله المأمون عن
حبره فشرحه له. فقال له: أذن فرده. فرده عليه سبع مرات

عن محمد بن حامد:

ثم إن عريب عشقت قائداً حراسانياً آخر يقال له محمد بن حامد
الخافاني، وكان أشقر أصهب أزرق العينين وكانت إذا خرجت إلى الحمام
أو إلى من تزوره من أهل المراكبي ومعارفه، يرسل المراكبي معها جارية تدعى
مظلومة لتكون رقية عليها. فكانت عريب تُعرِّج مع مظلومة إلى بيت ابن حامد
لزيارته

ثم كان أن هربت عريب من مولاها إلى ابن حامد فتقدم المراكبي إلى
الحليمة المأمون يتظلم، فأمر بإحصار ابن حامد فأحضر. وسأله عنها فأنكر.

فقال له المأمون: كنت. قد وصلني خبرها وأمر صاحب الشرطة أن يجترده في مجلس الشرطة ويضربه بالسوط حتى يرتدّها، فأخذه.

ويبلغ عريب البحر، هركبت حماراً وجاءت وقد جُرّد لِيُضرب، وصاحت وهي مكشوفة الوجه:

— أنا عريب! إن كنت مملوكة فليبعني، وإن كنت حرة فلا مبيع له عليّ.

فرفع خبرها إلى المأمون، فأمر قتيبة بن زياد الفاسي أن يقصي هي أمرها. وتقدّم المراكبي إلى قتيبة مطالباً بها، فسأله البيّنة على ملكه إيّاها. فعاد متظلماً إلى المأمون وقال: «لقد طولبت بما لم يطالب به أحد في رقبتي، ولا يوجد مثله في يد من ابتاع عبداً أو أمة». وتطلّعت زبيدة إلى المأمون من أن المراكبي هجم على دارها عقب مقتل ابنها الأمين وأخذ عريب معها. فقال المراكبي:

— إنما أحدث ملكي لانه (أي الأمين) لم ينفذني ثمنها.

فأمر المأمون بدفع عريب إلى الواقدي (مؤلف كتاب «المغازي» الشهير)، وكان قد ولّاه القضاة بالجناب الشرقي. فأخذها الواقدي من قتيبة بن زياد، وأمر بيعها مائة.

شراء المأمون إيّاها:

وفي هذه الأثناء، كان إسحاق الموصلي قد وصف عريب للمأمون وأوصاه بشرائها. فاشترها المأمون بمائة ألف درهم. ودعا بالمراكبي فدفع المال إليه، وقال:

— «لولا أنني حلفت ألا أشتري مملوكاً بأكثر من هذا لبيدتك ولكنني سأوليك عملاً تكسب فيه أصحافاً لهذا الثمن مصاعمة.

ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألف دينار، وخلع عليه خلعاً

منية. فقال المراكبي: يا سيدي، إنما يتبع الأحياء بمثل هذا. وأما أنا فإنني ميت لا محالة، لأن هذه الجارية كانت حياتي.

وخرج عن حضرتي، فاحتلظ وتغير عقله، ومات بعد أربعين يوماً.

ويحكى إبراهيم بن رباح متولي نفقات المأمون أنه لما أمره الخليفة بدفع المائة ألف ثمناً لعريب، ومائة ألف درهم أخرى إلى إسحاق الموصلي، لم يذكر كيف يشتها في الديوان، فكتب أن المائة ألف خرجت في ثمن جوهرة، والمائة الألف الأخرى خرجت لصانعتها ودلالتها. وجاء الفصل بن مروان يراجع النفقات فأنكر ما رأى، وسأل المأمون عن أمر الجوهرة فأنكر الخليفة شراءها، ودعا إبراهيم يسأله. فدنا إبراهيم من المأمون وقال هامساً أيها أصوب يا أمير المؤمنين، ما فعلت، أو أثبت في الديوان أنها خرجت في صلة معين وثمن منية؟ فضحك المأمون وقال. الذي فعلت أصوب. ثم أمر الفصل بالآ بعتراض على كاتبه في شيء.

عند المأمون:

وتمكنت عريب من المأمون وأجلت بمجامع قلبه، وذهب به حبها كل مله. ويقول علي بن يحيى المسجم إن المأمون قتل في بعض الأيام رجلها، وأنها قالت. أتر ذلك. والله يا أمير المؤمنين، لولا ما شرفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعناها ولكن لله علي ألا أغسلها إلا بماء الورد ما عشت.

كانت عريب وقت اتباع المأمون إياها دون العشرين. وقد قيل لي صفتها في ذلك الوقت إنه كان يُقلم إليها الفرس فتطير عليه بلا ركاب. ولم تكن تقوم أبداً لأصلاة. وكانت تُروى الجوارى الأشعار ليتغنين بها. فإن عنت هي جلست على كرسي كالسرير يُقرء لها، وعليها قميص موشح بالذهب مكتوب في وشاحه.

وإني لأهواه سيئاً ومحسناً وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى رُوح الرضا لا يتالي وحتى متى أيام سخطك لا تمضي
وعتب المامون على عريب في أمر فهجرها أياماً، ثم اعتلت حرارها،
وقال لها: كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارة
الهجر ما عرفت حلاوة الوصل، ومن دمّ به الغضب أحمد عاقبة الرضا. فخرج
المامون إلى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال

— أترى هذا لو كان من كلام النّظام (الفيلسوف) ألم يكن كبيراً ؟ !

وحرى بيها يوماً وبينه كلام، فكلمها المامون بشيء غضبت منه، فهجرتها
أياماً ثم دخل القاضي أحمد بن أبي دؤاد على المامون، فقال له: يا أحمد،
إنّفس بيتنا. فقالت عريب:

— لا حاجة لي في قصائه ودحوله فيما بيتنا. وأشدت تقول

ونخبط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيتنا أحد

وعندما تزوج المامون بوران عام ٨٢٥ م، أرسلت إليه عريب برقعة تهنيئ
كتبت فيها

| | |
|--------------------------|-----------------------|
| إنعم تحطنتك صروف الردى | يقرب بوران مدى الدهر |
| درة جبر لم يزل نجمها | ينجم مامون العلا يجري |
| حتى استقر الملك في جبرها | نورك في ذلك من جبر |

وكان المامون يصطحبها معه في خروجه لعزو بلاد الروم. يروي
ابن البريقي أنه رأى عريب هناك في هودج « فلما رأته قالت لي: يا يزيد،
أنشدني شعراً فقلت حتى أصعب فيه لحناً، فأشدتها.

| | |
|---------------------------|------------------------|
| ملدا يقلبي من دوام الحفني | إذا رأيت لمعان السرق |
| من قبل الأردن أودمشق | لام من أموى بذاك الأفي |
| ذاك الذي يملك مني رقي | ولست أبغي ما حيت عني |

فَتَنَسَّتْ عَرِيبَ تَنَفَّسًا ظَنَنْتُ أَنْ ضَلُّوعَهَا قَدْ تَقَصَّصَهُ مِنْهُ. قُلْتُ: وَيَحْكُ! عَلَى مَنْ هَذَا التَّنَفُّسُ؟ فَصَحَّكَتْ ثُمَّ قَالَتْ: عَلَى الْوَطْرِ! قُلْتُ: هِيَاتِ! لَيْسَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى الْوَطَنِ. هَذَا وَاللَّهِ تَنَفَّسُ عَاشِقٍ. فَقَالَتْ: وَيْلَكَ! أَظُنْتُ أَنَّكَ تَسْتَعْرِبُنِي؟ وَاللَّهِ لَقَدْ نَظَرْتُ بَنْزَرَةً مَرِيَّةً فِي مَجْلِسٍ، فَلَذَعَاها مِنْ أَهْلِ الْمَجْلِسِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رَئِيسًا ظَرِيفًا، وَاللَّهِ مَا عَلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِمَنْ كَانَتْ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ!.

تَجَدَّدَ صَلَاحُهَا بِمُحَمَّدِ بْنِ حَامِدٍ:

وَيُحْكِي أَنَّ الْمَأْمُونِ اسْطَبَحَ يَوْمًا وَمَعَهُ نَدَمَازُهُ وَفِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ حَامِدٍ عَشِيقُهَا الْقَدِيمِ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُعْجَنِينَ بَيْنَهُمْ عَرِيبٌ. فَأَوْمَأَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ بِقُبْلَةٍ وَالْمَأْمُونُ مُشْغُولٌ عَنْ نَدَمَائِهِ. فَالْتَدَعَتْ عَرِيبٌ تَعْنِي:

رَمَى ضَرْعُ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بَطْنُهُ كَحَاشِيَةِ الْبَرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمُسْتَهْمِ

تَرِيدُ بَخْنَائِهَا جَوَابَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ لَهَا الْمَأْمُونُ: أَفُصِّحْكِ! فَاسْكُتِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّدَمَاءِ فَقَالَ:

— مَنْ فِيكُمْ أَوْمَأَ إِلَى عَرِيبٍ بِقُبْلَةٍ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَهْدِقْنِي لِأَضْرِبَ عَنْقَهُ.

فَقَامَ مُحَمَّدٌ وَقَالَ:

— أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا، وَالْعَمْرُ أَقْرَبُ لِلْمُتَوَدِّعِ.

فَعَفَا الْمَأْمُونُ عَنْهُ.

وَاحْتَالَتْ عَرِيبٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْحِسْرِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَامِدٍ وَيَقُولُ الْمَوْزُوجُ ابْنُ عَسَاكِرٍ إِنَّهَا كَانَتْ تُدْخِلُهُ إِلَى دَارِ الْخُلَافَةِ سِرًّا. وَكَانَتْ إِذَا وَجَدَتْ مِنَ الْمَأْمُونِ غَفْلَةً وَضَعَتْ عَلَى فَرَاشِهَا مِثَالَ رِخَامٍ يَحْسَبُ مَنْ رَأَاهُ مِنْ بَعِيدٍ أَنَّهَا نَائِمَةٌ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى سَطْحِ الْقَصْرِ وَتَنْزِلُ فِي سَلَّةٍ مِنْ خَوْضِ النِّخْلِ وَتَمْصِي إِلَى حَيْثُ يَقِيمُ ابْنُ حَامِدٍ بِجُودَارِ قَصْرِ الْمَأْمُونِ، حَتَّى إِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ مِنْهَا عَادَتْ

فقدت في السلة وتجذبها إحدى الجوارى ثم تعود إلى مكانها.

وكانت تلقى ابن حامد في الوقت بعد الوقت في دور أصحابه ممن كان يطلب إليهم إحصاءها، ثم يأتي فتوافيه عريب فيها. ويحكى أبو عبد الله بن حمدون أن عريب رارت ابن حامد مرة في حضرته، فجعل ابن حامد يعتابها ويقول: فعلت كذا وفعلت كذا. فقالت له:

— أهذا في رأيك وقت عتاب؟! يا عاجز! خذ بنا فيما جئنا من أجله
وضمتني إليك، فإذا كان غداً فاكب إليّ بعتابك في ورقة حتى أكتب إليك
عذري في ثلاثة!

ثم أنشدت:

دعي عذ الذنوب إذا التبتنا نعالني لا أعد ولا تعسني!

ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه قوله:

كنتُ حاضراً مجلس المأمون ببلاد الروم بعد صلاة المشاء الأخيرة في ليلة
ظلماء ذات رعود وبروق. فقال لي المأمون: اركب الساحة فرس النوبة وبرز
إلى عسكر أبي إسحاق (يعني المعتصم) فأد إليه رسالتي في كيت وكيت
فركبت. وسمعت وقع خفر دابة في الظلام تقترب. ثم برقت بارقة فأضاءت
وجه الراكب، فإذا عريب. قلت: عريب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم
من أين أتيت في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد. قلت:
وما صنعت عنده؟ قالت: يا أحمد! عريب تجيء من عند محمد بن حامد، في
هذا الوقت من الليل، خارجة من مضرب الخليفة وراجمة إليه، تقول لها: أي
شيء عملت عنده؟! صليتُ معه التراويح! قرأت عليه أجزاء من القرآن
ودارسته في الفقه! يا أحمد! تعابنا وتحدثنا واصطلحنا ولعنا وشربنا وغيينا
وانصرفنا. فأعجلتني وهاظتني وافترتنا. ومضيتُ فأتيت الرسالة، ثم عدت
إلى المأمون وأخبرنا في الحديث وتناشد الأشعار، وهممتُ والله أن أحدثه

حديث عريب، غير أنني هبته، ففكرت أن أقدم قبل ذلك تعريضاً بشيء من الشعر، فأنشدته قصيدة:

أَلَا حَيَّ اطلالا لواسعة الحبل . أَلَوْفٍ تَسْوِي صالِح القوم بِالرَّدْلِ
(واسعة الحبل - كناية عن أنها لا ترد يد لأمس - والأبيات هي وصف امرأة متهنكة غاية التهنئة)

فقال لي المأمون: احبض صوتك لا نسمعك عريب فتعضب وتظن أننا في حديثها!

فلسكت عما أردت أن أخبره.

وكتبت عريب مرة إلى محمد بن حامد تستزيه. فكتب إليها: إني خائف على نفسي. فكتبت إليه:

إِذَا كُنْتُ نَحْلُزُ مَا تَحْلُزُ وَنَرَعِمُ أَنْكَ لَا تَحْمُسُرُ
فَمَا لِي أَقِيمَ عَلَى ضَبَوْتِي وَيَوْمَ لِقَائِكَ لَا يُقْلَرُ
فصار إليها من وقته.

زواجها من ابن حامد:

وطئت عريب على علاقتها بابن حامد حتى خيلت منه وولدت بنتاً فلما وقف المأمون على خبرها أمر بإلباسها جثة صوف، وحبسها في مكان مظلم شهراً لا ترى الضوء، يُدْحَلُ إليها خبز وملح وماء من تحت الباب في كل يوم. ثم ذكَّرها هرق لها، وأمر بإخراجها. فلما فتح الباب عنها وأخرجت لم تتكلم بكلمة حتى اندفعت تغني.

حجبوه عن بصري فمثل شخصه في القلب فهو مُحْجَبٌ لَا يُعْجَبُ
بلغ ذلك المأمون، فعجب منها وقال:

— لن تصلح هذه أبداً!

واستدعاهما وابن حامد، وقال لجلسائه:

— إشهدوا أنني زوجت الزانية منه.. خذ بيدها

فأخذ بيدها وقامت من المجلس إلى مصره. غير أن المأمون اشترط عليه أن يحضرها إلى مجلسه كلما اشتهى سماع غائلها.

تزوج محمد بن حامد عريب والظاهر مع ذلك أنه كان بتهمها بخيانتة. فقد عُثر بعد وفاته في صندوق مختوم له على رقاع عريب إليه، منها رقعة كتبت إليه فيها:

| | |
|--------------------|--------------------|
| زُفِّي عليك ومنكما | أوقعت في الحق شكاً |
| زعمت أنني غفون | جورا علي وإفكا |
| إن كان ما قلت حقا | أو كنت أزمعت تركا |
| لأبذل الله ما بي | من ذلة الحب نُسكا |

ويروي أحمد بن حمدون أنه وقع بينها وبين زوجها شر، وكان يحبها الحب كله، فكادا يفرحان من شرهما إلى القطيعة. قالت له ذات يوم: كيف قلبك يا محمد؟ قال: أشقى ما كان وأفرح. قالت: استبدل نكلاً فقال: لو كانت البلوى بالختيار لعلت. فقالت: لقد طال إذا تعبك فقال: أضيق مُكرهاً أما سمعت قول العباس بن الأحنف:

تعب يطول مع الرجاء بلبي الهوى غير له من راحة في اليأس
لولا كرامتكم لما عاتبْتُكم ولكنكم عندي كيعص الناس

فلرمت عينها واعتذرت إليه وأعتته. واصطلحا وعادا إلى أفضل ما كان عليه.

أبو عيسى بن الرشيد:

والواضح أن عرامها باين حامد لم يكن باعثاً لها على الوفاء يقول
ابن المعتز إن عريب كانت وقتها تعشق أبا عيسى بن هارون الرشيد، وأنها كانت
لا تضرب المثل إلا بحسن وجهه وحسن غيائه. وكانت ترغم أنها ما عشقت
أحداً من بني هاشم وأصفتها المحبة من الحلفاء وأولادهم سواء. وكانت عريب
تفسر اشتهاها فيما بعد للخليفة المعتز بأنه كان يشبه أبا عيسى.

واسم أبي عيسى هذا أحمد. وكان يقال إن الساس لم يروا أجمل منه
وأخيه الأمين قط. وكان المأمون شديد الحب له، وكان يعدّه للحلافة بعده،
ويقول. إنه ليسهل عليّ أمر الموت وقُفد المُلْك أن يلي أبو عيسى الأمر بعدي
وكان أديباً ظريفاً مستحقاً بالدين. وتقول عريب إنها ما سمعت قط أحسن غداً
منه. وكان يحب صيد الخازير، فوقع يوماً من حصانه وأصيب في راسه، فكان
يُصرع بعد ذلك مرّات في كل يوم إلى أن مات عام ٨٢٤ م، وصلى عليه
المأمون ونزل في قبره، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يضر ذلك به.

عند الخليفة المعتصم:

توفي المأمون وقد بلغت عريب السادسة والثلاثين من العمر. هيبت في
ميراثه، ولم يُع للمأمون عبد ولا أمة غيرها واشترأها خلفه المعتصم بمائة ألف
درهم وأعطها. غير أنه أقدم على فعله لا نجد لها تفسيراً في المصادر بين
أبيدنا، وهي أنه كتب وهو غائب عن العاصمة إلى إسحاق الموصلبي بأن يأمر
محمد بن حامد أن يطلق عريب. فلما أمره إسحاق رفض. فكتب المعتصم إلى
إسحاق أن اصبره. فضربه بالمقارع حتى طلقها.

وظلت عريب مدةً مُسجّلةً عند المعتصم مُحبةً إليه غير أنها لقيت من
إحدى جواري المعتصم، وتدعى شارية، منافسة شديدة في الغناء. فكانت
شارية تغني غناء إبراهيم بن المهدي، وهو من الغناء الحفيف، وعريب تحكي

في غنائها صنعة الأوائل على مذهب إسحاق. وكان أهل سامراء حزبيين: قوم مع شارية وقوم مع عريب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. ويحكى أن أحد أصحاب شارية دعا يوماً عريب وجواربها لتعني بعض أصحابه العريبيين. فلما اتصل الخبر بشارية غضبت، وبعثت إليه بعد يوم أويومين بجواربها، وأمرت إحداهن أن تغني له:

لا تعودنّ بعدها فترى كيف أصنع!

فلما سمع النساء ضحك، وقال: لست أعود.

ثم أقدمت عريب على فعلعة عظيمة أثارت غضب المعتصم وجعلته يسحر عنهما. ذلك أنها أثناء غيابه في بلاد الروم، أرسلت كتاباً إلى العباس بن المأمون - وكان في صحبة المعتصم - تشير عليه بقتل الحليفة، على أن تتولى هي قتل الواثق ببغداد (وكان المعتصم قد استخلف الواثق فيها)، ووصفت الواثق في كتابها بالأعور الليلي، إشارة منها إلى سهره بالليل. وعثر المعتصم على كتابها فأخرجها من قصره، وأعملها وتركها وشأنها. ويعلق التويري في «نهاية الأرب» على هذا الحديث بقوله:

«ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحتمل من الأولاد والإخوة، فكيف من أمة مغنية! ولو لم تكن عندهم بالمكانة العظمى والمحل الكبير لما أبغوا بعد الاطلاع من ماطى حالها على هذه الطوية»

وانطلقت عريب وجواربها إلى دار لها ببغداد يتردد عليها فيها عشاقها والمعجبون بشائها. ويروي المغني أبو العباس بن حمدون أنه زارها يوماً في دارها مع أصدقاء له، فدعتهم إلى البقاء حتى تطعمهم صنفاً من الطعام أعدته جارية لها من لوز رطب، ثم تغنيهم هي وجاراتها. قال أبو العباس: على شريطة. قالت: وما هي؟ قال: شيء أريد أن أسألك عنه منذ سنين وأنا أهأبك قالت: ذلك لك، وأنا أقدم الجواب قبل أن تسأل فقد علمت ما هو. فعجب لها

وقال: فقولني . قالت : تريد أن تسألني عن شرطتي أي شرط هو . قال : إي والله ذلك الذي أردت . قالت : شرطتي قوة في الجماع ، ونكهة طيبة ، فإن انصاف إلى ذلك حُسْنٌ يوصف ، وجمالٌ يُحمد ، فقد زاد قلرةً عندي ، وإلا فهدان ما لا بد لي منهما !

عند الخليفة الوائق :

تناسى الوائق ، وقد ولي الخلافة بعد المعتصم ، ووصف عريب له بالأعور الليلي واعتزامها قتله . وزعم أنه لم يُعرف عنه أنه اشتراها وصحبها إلى جواربه ، فالمعروف أنها اتصلت به ، وكانت تقوم بمجالس الغناء لديه حين يطلبها . عبر أن شارية الآن صار لها المقام الأول بين المغنين ، وكان الوائق يسميها «بستي» ، وוכל إليها دون عريب تعليم جاريته المفصلة فريدة

قالت عريب :

كنت مع الوائق وهو يطوف على حُجَر جواربه عند خروجه إلى الأبنار متنزهاً . فدخل إلى فريده ، وهي جارية كان يحبها جداً ، وكان يهرى أيضاً وصيفة لها لم يكن يعلم بذلك عيري . فلما رآته الوصيفة عد مولاتها دخلت خزانتها وخرجت وقامت على رأس فريدة وعلى رأسها عصابة مكتوب عليها باللهب :

هينني تكبي خَلَوَ البُيْنِ ما اسخنَ الفُرْقَةُ للعَيْنِ
لم أر في الحب ولو عاتيه أوجع من فُسرقة العَيْنِ

فقال لي الوائق . فهمت يا عريب ؟ قلت : نعم يا سيدي . فكتب على الأرض بقضيب كان في يده :

ظهر الهوى وتهنكت أستاذهُ والحب خير سبيله إظهارهُ
فأعص العواذل في هواك مجاهرأ فالدَّ عَيْنِ المستهام جهارهُ
وتضحكها ففطنت فريدة ، فقلت : يا سيدي ، علمت ما انتما فيه ، فامتنن

على أمتك بقولها. فقال الوراق: قد فعلت؛ خديها إليك يا عريب فأحدث بيدها. فما ملك نفسه أن انصرف من خلفي مسرعاً وخلا بها. وأمر لي سالف دينار.

والواضح من هذه القصة أن دورها الآن في قصر الخلافة بات ثانوياً فهي الآن قد تجاوزت الخامسة والأربعين وإن ظلت على حُسبها وظرفها والوائق مقيم بغيرها. وكان كثيراً ما يحق عليها إذ كانت تكايد فيما يصوغه من الألقان، وتصوغ في الشعر عيه الحاناً تكون أجود من الحان هيعناظ.

صالح المنذري:

ثم برى عريب وقد بلغت الخمسين وقت تولية المتوكل الخلافة، نعتش صالِحاً المنذري الحادم وتقول فيه الشعر، وقيل إنها تزوجته سراً. وقد عت يوماً بين يدي المتوكل بشعر قالت في صالح، فاستمعه، يسما جعل جواربه يتغامز ويضحك. فقالت لهن سراً من المتوكل. يا مستحافات، هذا حير من عملكن.

وذكرت بعض جوارى المتوكل أنها دخلت يوماً على عريب، فقالت لها: تمالي ويحك إلي. فجمعت. فقالت. قبلي هذا الموضع مي فإنك تجددين فيه ربح الجنة. وأومات إلى مقدم عنقها. فضلت. ثم قالت لها: ما السبب في هذا؟ قالت: قلني صالح المنذري في ذلك الموضع.

غرامها بإبراهيم بن المنذر:

قال الفصل بن العباس بن المأمون:

زارني عريب يوماً ومعه عدة من حواربها، فوافقتا ونص على شراها فتحدثنا ساعة. وسألها أن تقيم عندي فابت وقالت: ودعائي جماعة من إخواني من أهل الأدب والظرف، وهم مجتمعون في جريرة المؤيد، فيهم إبراهيم بن المنذر وسعيد بن حميد، وقد عزم على المسير إليهم. فحلفت

عليها فأقامت عنديا، ودعت بدواة وقرطاس فكتبت في سطر واحد ثلاثة أحرف متعركة لم ترد عليها، وهي : أردتُ، ولولا، ولعلِّي، (تعني : أردتُ الحضور إليكم، ولولا أنهم متعنوني ما تحلقتُ، ولعلِّي أستطيع الإفلات). ووجهت به إليهم. فلما وصلت الرقعة أخذها إبراهيم بن المديبر، وكتبت تحت «أردتُ» «ليت»، وتحت «لولا» «ماذا»، وتحت «لعلِّي» «أرجو»، (يعني : ليت ما أردته نعد، وماذا يحسبهم يفعلون لو تركتهم، وأرجو تعيد ما رجوته). ووجهوا بالرقعة إليها. لفصفت عريب وصاحت وشربت رطلاً من البيذ وقالت لنا : أأترك هؤلاء وأقمعد عندكم؟ إذا تركني الله من يديه! ولكي أخلف عندكم من جواربي من يكفيكم، وأقوم إليهم فعملت ذلك، وخلفت عنديا بعض جواربها، وأحدث معها بعضهن وانصرفت.

كان ابن المديبر شاعراً كبيراً وكتاباً متقدماً من وجوه الكتب. وكان المتوكل يقدّمه ويؤثره ويمهد إليه بالكتابة في أمور الملك. وقد عشقته عريب في خريف حياتها وعشقها. قال فيها:

زعموا أني أحبّ عريباً صدقوا والله، حباً عجيباً
حلّ من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلق نصيباً
هي شمس والنساء نجوم فإذا لاحت أفلت غروباً
وله فيها:

ألا يا سلوتي أنتم سألت دار بنا عنكم
فإن كنتم تبتلتتم فما قلبي ارتوى منكم
وإن كنتم على العهد فاحسنتم وأجملتم
ويا ليت المعنى حقّت فليديها ولا نكنتم
فكنتم حينما كنا وكنا حينما كنتم

وحثّ أبو عبد الله بن حملون قال:

اجتمعت أنا وإبراهيم بن العليّ وابن ميلاد وابن زُرُور في بستان في يوم

غيم ورزاد، وبحر مي أطيب عيش وأحسن يوم. فلم نشعر إلا بعريب قد أفلت
من بعيد. فوثب إبراهيم من بيسا فخرج حافياً حتى تلقاها وأمسك بركابها حتى
سرت وقبّل الأرض بين يديها. وكانت قد هجرته مدة لشيء أنكرته عليه
فجاءت وجلست وأقبلت عليه متسمة، ثم قالت: إنما جئت إلى من ماها
لا إليك. فاعتذر، وشعنا له فرخيت. وأقامت عندنا يومئذ وباتت فقال
إبراهيم

| | |
|------------------------|-------------------------|
| باسي من حقّ الظن به | وأتانا زائراً مبتدياً |
| كان كالغيث تراخي مدة | وأتى بعد قنوط مُزروباً |
| طاب يومان لنا في قُربه | بعد شهرين لهجر مضباً |
| فاقر الله عيني وشعبي | مقماً كان لجسمي مُبلياً |

ومن شعره في عريب :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| إلا يا عريب وقيت الرقي | وجنبك الله صرّف الزمن |
| فإنك أصبحت زين النساء | وواحدة الناس في كل فن |
| فقربك يُدني لذيذ الحياة | ويُبعّدك ينفي لذيذ الومن |
| معهم الأنيس ونعم المجلس | ونعم السميع ونعم السكن |

وأرسلت إليه مرة رقعة مع جاريتين لها، هما بدعة وتحفة، كتبت فيها:

«بسمي أنت وسمي وبصري، وقُلْ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيباً،
- طيب الله عيشك - قد رقي هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رقعة
شمائك، وطيب محضرك ومحبرك. لا فقدتُ ذلك أبداً منك ولم يصادف
حسّه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأمور صفتني من ذلك، أكره تعييس ما أشتبهه
لك من السرور بشرحها. وقد بعثت إليك بدعة وتحفة ليؤنسك وتسرّ بهما،
سرّك الله وسرّي بك». فكتب إليها:

كيف السرور وأنت مريحة عني؟ وكيف يسوغ لي الطرب

إِنْ عَصَيْتَ غَابَ الْعَيْشُ وَانْقَطَعَتْ أَسَابُغُهُ وَالْحَتَّ الْكُفْرُ
وَأَنْفَعُ الْجَوَابُ إِلَيْهَا . فَلَمْ تَلُتْ أَنْ جَاءَتْ عَلَى حِمَارٍ ، فَيَادِرُ إِلَيْهَا وَتَفَاقَهَا
حَافِيًا حَتَّى جَاءَ بِهَا إِلَى صَدْرِ الْمَجْلِسِ ، يَطَأُ الْحِمَارُ سَاطَهُ وَمَا عَلَيْهِ ، حَتَّى أَخَذَ
بِرُكَابِهَا فَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا

وَمَعَ حَبِّهِ لَهَا غَانَهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَعْشَاهَا وَيَتَّصِلُ بِعَمِيرِهَا وَيَحْلِفُ وَعَدَهُ إِذَا مَا
وَكَانَ يُشْرِكُ فِي حَبِهَا جَارِيَةً أُخْرَى تَسْمَى «نَت» كَانَتْ مَعْنِيَةً جَمِيلَةً وَقَالَ فِيهَا
كَثِيرًا مِنَ الشَّعْرِ . وَقَدْ كُنْتُ إِلَيْهِ غَرِيبَ مَرَّةٍ فِي شَيْءٍ بَلَغَهَا عَنْهُ .

وَمَا رَلْتُ أَمْسَ فِي ذِكْرِكَ ، فَمَرَّةً يَمْلَحُكَ ، وَمَرَّةً نَاكِلُكَ وَبِذِكْرِكَ مَعَا فَيَكُ
لُونًا لُونًا . أَجِئْتُكَ بِكَ الْآنَ ، وَهَلَتْ حَجِجُ الْكُتُبِ وَتَفَاقَهُمْ . فَلَمَّا حَسَرْنَا أَمْسَ
فَلَمَّا شَرِينَا مِنْ فَصْلِ نَبِيْكَ عَلَى تَذَكُّرِكَ رُطْلًا . وَقَدْ رَعِمَا حَسَابِيَا إِلَيْكَ هَارِغَ
حَسَابِكَ إِلَيْنَا ، وَحَبْرُنَا مِنْ رَارِكَ أَمْسَ وَالْهَلَاكَ ، وَلَا تُخْطِرُفُ فَتُخَوِّجُنَا إِلَى كَشْعِكَ
وَالْبَحْثِ عَلَيْكَ وَعَنْ حَالِكَ . وَقُلِ الْعَقْ فَمَنْ صَدَقَ نَجَا . وَمَا أَحْوَجُكَ إِلَى
تَأْدِيبٍ ، فَإِنَّكَ لَا تُحْسِنُ أَنْ تُوَدَّ . وَكَفَلَكَ بِهَذَا مِنْ قَوْلِي عَقُوبَةً . وَإِنْ عُدْتُ
صَمِعْتُ أَكْثَرَ مِنْهُ . وَالسَّلَامُ .

ثُمَّ حَدَّثَ أَنَّ حَامِتَ حَوْلَ ابْنِ الْمَدِيرِ الشَّيْهَاتِ فِي بَعْضِ تَهْصُفَاتِهِ
الدِّيَوَانِيَةِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى بْنُ خَالِقَانَ وَحَسَّهُ . وَكُتِبَ ابْنُ الْمَدِيرِ
إِلَى غَرِيبٍ مِنَ السَّجَنِ يَشْكُو حَالَهُ .

إِلَى اللَّهِ أَشْكُرُ وَخَشْتِي وَتَقْجُمِي وَيُعْذِرُ الْمَدَى بَيْنِي وَبَيْنَ غَرِيبٍ
مَهْمَى دَوْمَهَا شَهْرٌ إِنْ لَمْ أُحْلُ فِيهِمَا بَعِيشٌ ، وَلَا مِنْ قَرِيبِهَا بَنْصِيْبٍ
وَإِنْ حَبِيبًا لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُعْنَى بِكُلِّ حَبِيبٍ

وَرَعِمَ أَنْ غَرِيبَ وَقْتُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ كَانَتْ غَاصِبَةً مِنْهُ مَقَاطَعَةٌ لَهُ بِسَبَبِ
الْجَارِيَةِ «نَت» ، فَقَدْ صَحَّتْ لَدَى الْمُتَوَكَّلِ حَتَّى يَفْرَجَ عَنْهُ . وَكُنْتُ إِلَيْهِ كِتَابًا
تَشْوِيقًا وَتَخْبِيرًا اسْتِجَابَتُهَا لَهُ وَاهْتَمَلَهَا بِأَمْرِهِ ، وَإِنْ الْخُلَيْفَةُ وَعَدَهَا مَا تَحِبُّ .

فأجابها عن كتابها، وكتب في آخر الخطاب.

لعمرك ما صوتٌ بديعٌ لمغيدٍ بأحسن عندي من كتاب عريبٍ
تأملت في أثنائه خطَّ كاتبٍ ورقةً مشتاقٍ ولغظَ حطيطٍ
وراجعي من وصلها ما استعري وزهدني في وصل كل حبيبٍ
فصرت لها عدداً مُقرأً يملكها ومتمسكاً من وُدّها بصيبٍ

وإستأنف ابن المديبر صلته بعريب بعد عفو المتوكل عنه، غير أنه استأنف كذلك صلته بِنَيْتٍ وعاد إلى التعلُّل فيها. وقد أصبح في عهد المعتمد وزيراً، ومات بعد وفاة عريب بفترة قصيرة.

السنوات الأخيرة:

قُتل المتوكل عام ٨٤٧م وعريب في الرابعة والستين من العمر وقد عاشت بعده نحواً من ثلاثين عاماً شهدت خلالها عهود خمس آخريين من الحنساء لا نعرف صلتها بأيّ منهم خلاف المعتز الذي كانت تعني له وقد جاورت السبعين، والذي ذكرت أنها كانت تعشقه في شبابها وهي مع تقدمها في السن لم تنقطع عن عشاق مجالس الأمراء والشعراء والعشاق، تغنيهم وتشاركهم لهوهم.

يروى أحمد بن الفرات أنه كان يوماً عند جعفر بن المأمون وأصحابه يشربون وعريب حاضرة، إذ غي بعض من كان هناك

يا بندر إنك قد كُتبت مُشابهاً من وجه ذاك المستير السلائح
وأراك تذهب بالمحلق، وحُسنها باني على الأيسام ليس سارح

فضحكت عريب وصفقت وقالت:

— ما على وجه الأرض أحدٌ يعرف خير هذا الصوت هيري.

فألها ابن الفرات عنه، فقالت:

— أنا أحرككم بقصته ، ولولا أن صاحب القصة قد مات لَمَا أخبركم إن
 أبا مُحَلِّم قدم بغداد فنزل في حان هناك . فأطلعت أم محمد ابنة صالح يوماً
 فرأته فأعجبها ، وأحسَّت مواسلته ، فجعلت لذلك جَلَّةً بأن وَجَّهَتْ إليه تقرُّص
 منه مالاً . فعبث إليها عشرة آلاف درهم ، وحلف أنه لو ملك غيرها لبعث به ،
 فاستحسنت ذلك وواصلته ، فكانت تُدخِلُه إليها ليلاً ، وكَتَبْتُ أنا أَعْطِي لهما
 شرباً ليلة في القمر ، وجعل أبو محَلِّم ينظر إليها ، ثم دعا مداوة ورقعة وكتب
 فيها :

يا بلدر إنك قد كُتِيت مشابهاً من وجه أم محمد ابنة صالح
 والبيت الآخر . وقال لي : غي فيه . ففعلتُ واستحسناه وشرباً عليه
 فقالت لي أم محمد في آخر المجلس :

— يا اختي ، قد أحسنت في هذا الشعر ، إلا أنه ميبقى عليّ فضيحة آخر
 الدهر .

فقال أبو محَلِّم : أخبروه .

فجعل مكان أم محمد ابنة صالح وذاك المستبهر اللائح . وغشيت كما
 غيَّره ، وأخذته الناس عني . ولو كانت أم محمد حيَّة لما أخبركم بالخبر .

ويروي عليّ بن محمد بن الفرات :

كنت يوماً عند أخي أبي العباس وعنده عريب جالسة على صمت ممرِّدٍ
 لها ، وجوارها يعنيس بين يديا وخلف ستارتنا . فهمست لبعض الحاضرين :
 تُرى كيف شهرتها الساعة ؟ فضحك . ولمحَّته عريب ، فقالت :

— أي شيء قلتم ؟

فصكَّت . فقالت لجوارها :

— أُمسِكُن ! ففعلن . فقالت :

— هن حرائر لئن لم تحيراني بما قلتما لينصرفن جميعاً، وهن حرائر إن
عصيت من شيء قلتماه مهما كان

فأعدت عليها ما قلت. فقالت.

— وأي شيء في هذا؟ أما الشهوة فبحالها، ولكن الآلة قد بطلت

ثم قالت:

— عودوا إلى ما كنتم فيه .

وعصبت عريب يوماً على بعض جواربها، فجاء إليها أبو العيس يسألها
أن تعفو عنها. فقالت وهي تمّد عليها دنوبها:

— يا أبا العيس، إن كنت تشتهي أن ترى زناي وصداقة وجهي وجراعتي
على كل عطيحة أيام شبابي، فانظر إلى هذه المجارية واعرف أخبارها!

وتوفيت عريب في سامراء سنة ٨٩٠ م عن ثلاث وتسعين سنة.

مكاتها في الغناء:

أمر المعتمد يحيى بن علي بجمع غناء عريب الذي صنعتته، فجمعت
دفاترها وصححها التي كانت قد دوّنت فيها غناءها فإذا هو ألف صوت وقال
بعضهم: بل كان ألفاً ومائة وخمسة وعشرين صوتاً.

وقد عاب عليها أبو عبد الله الهشامي أن الألف صوت كان في معنى
واحد، ومن ثمّ فإنه بمنزلة صوت واحد. غير أن الهشامي كان متحاملاً عليها
نسب دعاء إلى ظلمه إياها وغمطها ما تستحقه من التفضيل. فقد دخل مرة على
المعتمد وهو يشرب وعريب تقى. فلما أمره المعتمد بالغناء أجاب بأنه قد تاب من
الغناء ثمّ قتل سيده المتوكل. فقالت له عريب

— قد والله أحسنت حيث نبت، فإن غناءك كان قليل المعنى، لا متقن
ولا صحيح ولا مطرب!

فأضحكت أهل المجلس جميعاً منه وتجلجل فكان بعد ذلك يُسقط لسانه
فيها ويعيب صنعتها

ويجيب أبو الفرج الإصمعياني في «كتاب الأعاني» على زعم الهشامي
فيقول إنه تعامل لا يجمل، «ولعمري إن في صنعتها لأشياء مردولة لئمة، وليس
ذلك مما يضعها، ولا غري كبير أحد من المعين القدماء والمتأخرين من أن
يكون في صنعتها النادر والمتوسط، سوى قوم معدودين مثل ابن محرر ومُعبد من
القدماء، ومثل إسحاق وحده في المتأخرين . وهذا إسحاق يقول في أبيه،
على عظيم محله في هذه الصناعة وما كان إسحاق يُشيد به من ذكره وتفصيله
على ابن جامع وغيره - «ولأبي ستمائة صوت، منها مائتان تشبه فيها بالقديم
وأبى بها في نهاية من الحودة، ومائتان غناء وسط مثل أعاني سائر الناس،
ومائتان تافهة وجدت أنه لم يُظهرها ويسبها لنفسه فأمرها عليه فإذا كان هذا
قول إسحاق في أبيه فمن يمتثل بعله من أن يكون له جيد ورديء . وحسب
المحتج لعريب شهادة إسحاق بتفصيلها، وفلما شهد لأحد أو سلم خلق وإن
تقدم وأجمع على فضله من شئنه إياه وطعنه عليه، لتمكُّه من هذه الصناعة
واستصغاره أهلها» .

وروي أن أبا العباس بن حمدون جلس يوماً بعد وفاة عريب مع حفظة
المغني يتحدثان عنها فقال ابن حمدون :

— ما خلقت عريب بعدها امرأة مثلاً في الذناء والرواية والصناعة

فأجابه حفظة بقوله :

— لا، ولا كثيراً من الرجال أيضاً

التطرف الديني في الجزائر

تقدمة

بدأت تظهر في الجزائر، منذ وفاة الرئيس بومدين، جماعات سياسية معارضة للنظام الحاكم، أخطرها وأكثرها الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأتباع الرئيس الأسبق أحمد بن بيلال، فالمنظمة الاشتراكية للعمال (OST)، فالتنظيم السانبي الماصر لحرية المرأة (الذي ساءه أن تعمد الحكومة فانسون الأحوال الشخصية الرحي)، وأن يرى تزايد تأثير رجال الدين في الحياة العائلية والحياة الاجتماعية في الجزائر، ثم قاتل البربر الساحطة على حطة لتعريب التي تنتهجها السلطات، وعلى سعي الحكومة الدائب إلى إحكام وتسمية روابط الجزائر بالعالم العربي، والثقافة العربية.

غير أنه بالرغم من تزايد نشاط هذه الجماعات المعارضة في الداخل، واتسام بعض أوجه هذا النشاط بالحدة والعنف المفرطين، فإنها لم تتطور حتى الآن في صورة قوة سياسية محكمة التنظيم ولعل أبرز أسباب ذلك هو الافتقار إلى رعايات لها وزنها واحترامها في صفوف الجماهير. فإن كان بن بيلال هو أشهر رعيم معارض، فالواضح أن آراءه لا تمتنع بحظوة ملموسة لدى الشعب الجزائري وقد حاول بن بيلال بعد أن أفرج عنه الشاذلي بن جديد عام 1980، ومنذ هجرته إلى أوروبا، تنظيم معارضة للنظام القائم، دشنها في 20 مايو 1984، وأسماها بالحركة الداعية إلى الديمقراطية في الجزائر (MDA)،

داعياً كافة جماعات المعارضة إلى التوحد في إطار «جهة ديمقراطية» تعمل من أجل إحلال نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب محل النظام «الفاشي» الراهن . بيد أنه ما من أحد كان يوسعه أن يفهم ما يرمي إليه بن بيللا بالوسط، وهو الذي نراه تارة ينادي بديموقراطية ليبرالية، وتارة يحكم ثيوقراطي فاشي وإسلامية رجعية ، وتارة بما هو بين هذه وتلك . وبالرغم من أن السلطات الجزائرية ترقب نشاطه ونشاط أتباعه بقلق بالغ ، فالواضح لنا أنهم لا يشكلون تهديداً حقيقياً للنظام ، وأبهم أجدر بالاستحقاق والسحرية منهم بالاهتمام

فأما عن السمات المشتركة التي تجمع بين هذه الجماعات المعارضة هذا الجماعات الإسلامية - فهي :

- أنها تمثل الماضي أكثر مما تمثل الحاضر والمستقبل .
- أنها لا تحظى بتأييد سياسي كبير من جانب المثقفين والمصفوة .
- أنها تعكس آراء أفراد ذوي أحقاد شخصية لا اتجاهات شعبية عريضة
- أنها لا تملك من الموارد والامكانات ما يؤهلها لمواجهة فعالة مع النظام القائم .

أما عن الفريق الذي يشكل بالفعل خطراً حقيقياً على النظام، فيشمل أفراد تلك الطبقة الضحمة من الشباب من أنصاف المتعلمين، وذوي الكفاءات المهنية المحدودة، ممن لا يعرف من اللغات غير العربية، وتكفل حطاتهم الروابط التقليدية والدينية، ويجنون مشقة بالغة في الالتحاق بعمل في المدن التي ساءت تعمّر بهم هذه الجماعات من الشباب هي أكثر الجماعات الجزائرية اعتماداً للإذعان نفسياً للدعائيات الإسلامية المتطرفة . فحيث أنه لا المثل الرأسمالية ولا النظرية الشيوعية لها رويق وجاذبية في أعين هؤلاء، فقد كان من السهل أن يشيع بينهم الاعتقاد بأن الثورة الإسلامية وحدها هي الكفيلة بأن تحفف عنهم عبء العزلة الاجتماعية التي يعيشون فيها .

الإسلام في الجزائر

خلال سبي الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962)، وخاصة في سني الكفاح المسلح ضد هذا الاستعمار في السنوات الثماني الأخيرة منه، كان الجزائريون يجدون في العقيدة الإسلامية ملاذاً ومصلراً يزودهم بالقوة والهوية، ويعينهم على الوحدة والتلاحم. كان الإسلام هو لغة الرفض للاستبداد الفرنسي، ورمزاً لإرادة تأكيد الذات في مواجهة قوة استعمارية تهدف صراحة إلى رعوقة المعتقدات والأنظمة والتقاليد المحلية بحجة «نشر المدنية والتحضر»، وتعمل على إحلال المسيحية واللغة الفرنسية محل الإسلام واللغة العربية. وإذ كان رد الفعل العنيف لسياسة استعمارية عنيفة هو التركيز على الروابط القوية التي تربط الجزائر بالثقافة الإسلامية وبالعالم العربي، فليس من المستغرب أن يجد الإسلام وقد أضحي جزءاً لا يتجزأ من مفهوم القومية الجزائرية.

وقد كان من رأى السلطات الجزائرية عقب الاستقلال عن فرنسا عام 1962، أن الإسلام ينبغي أن يلعب دوره الهام في تحديد هوية الشعب، غير أنه لا ينبغي أن يسمح لرجال الدين أو السلطات الدينية أن يكونوا مركز قوة مستقل بمعزل عن أهداف الحزب والحكومة والجيش. بل إنه حتى في سني الثورة، وخلال لقاء بين جمال عبد الناصر وبين يلا عام 1957، استجاب الأول لطلب الثاني أن يحتجر في القاهرة عدداً من أعضاء وفد من رجال الدين الجزائريين (ومن بينهم الشيخ بشير الإبراهيمي والد وزير الخارجية الحالي)، جاؤوا إلى مصر يطلبون المساعدة للثورة الجزائرية، وأن يحول بينهم وبين العودة إلى بلادهم حيث ينشرون دعوتهم الإسلامية. وقد كان يومدين معه رجلاً صادق الإيمان، حريصاً على دعم ثقافة قومية تقليدية عمادها الدين. بيد أنه في نفس الوقت، ألحق وزارة الشؤون الدينية إلحاقاً مباشراً برئاسة الجمهورية، ليضمن تعاون «الإسلام الرسمي» مع ثورته الثقافية، وأيديولوجيته

الإشترائية، ومساندة دعوته إلى التمدد السريع، والتركيز على التصنيع وقد بدا أن هذه الحطة قد نجحت لمدة تقرب من عشرين عاماً غير أنه مع نهاية السبعينات ويوماء بومدين واتجاه الشاذلي بن جديد إلى إحكام رقابه السلطة على النشاط الديني في البلاد، وإلى احتوائه والتحكم فيه، بدأت في الظهور معالم توتر واصطدام حادين بين «الإسلام الرسمي» وإسلام شعبي ينادي بإقامة حكم ديني حالص، وتطبيق شامل لأحكام الشريعة.

الإسلام الرسمي

منذ بداية القرن العشرين، شارك عدد كبير من علماء الإسلام المؤقرين (من أمثال عبد الحميد بن باديس وشير الإبراهيمي)، في الدعوة إلى مقاومة الآثار الحصارية للاستعمار الفرنسي، وفي نعت الرأي العام من أجل حماية الدين والراث واللغة العربية والتقاليد الإسلامية غير أن هؤلاء، وقد كانوا أكثر اهتماماً بالثقافة والتعليم منهم نبيل الاستقلال السياسي، وأكثر ميلاً إلى التطور التدريجي منهم إلى الطفرة الثورية بدأوا مع أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات بفقدون رعاتهم لحركة التحرير الوطني الناهضة لصالح فافة سياسيين علمانيين، حتى مع اعتراف هؤلاء الأخيرين بأهمية دور الإسلام سواء في مجال الكساح ضد الاستعمار، أو في تكييف المجتمع والثقافة الجزائريين وقد اصحى «الإسلام العلماني»، شعار السلطة منذ الاستقلال، ووصفت حكومة بومدين بعسها بأنها «الورث الشرعي الوحيد لعبد الحميد بن باديس»، واختصت تلك الحكومة الدين كما أخصمت كل مظاهر الحياة الأخرى، لرقابة مباشرة وكاملة من جانب سلطات الدولة المركزية، ولم تسمح بممارسة أي نشاط قيادي ديني غير مشاط المسؤولين من علماء الدين أو على حد تعبير الشاذلي بن جديد «إننا لن سمح للجماعات الدينية غير المشروعة بأن نعلمنا ديننا، أو نعلمنا دروساً في الإسلام».

ومعهم السلطات عن الدين هو أن الإسلام أداة فعالة في تشكيل الهوية

الجزائرية، غير أنه ليس تشريعاً قانونياً ينظم أمور الدولة والمجتمع. فإن كانت المادة الثانية من الدستور نصّ على أن الإسلام هو دين الدولة، فإن سادته الأولى نصّ على أن الجزائر دولة اشتراكية (أي علمانية وثورية) وحصيلة هذه وتلك هي أن الدولة دولة علمانية ذات مقومات إسلامية حضارية. أما الشريعة التي أُغفل تطبيقها تماماً في زمن الاستعمار الفرنسي، فلم ير الحكم الجزائريون بعد الاستقلال حاجة أو داعياً إلى إحيائها من أجل تنظيم المجتمع الجديد.

وهي رأي السلطة، كما هي رأي فقهاء السلطة، أنه من الممكن الجمع بين التمدن والإسلام، وأن الحكومة هي وحدها القادرة على خدمة الإثنين معاً. وقد أنشئت وزارة للشؤون الدينية (تابعة، كما قلنا، لرئاسة الجمهورية)، وريزها هو المتحدث الرسمي عن الدولة فيما يختص بالممارسات الإسلامية والعقيدة، ولها سلطة تعيين وفصل رجال الدين، وإدارة المدارس الدينية وغيرها من مراكز الدراسات الإسلامية، والرقابة على الأوقاف والمساجد، وعلى ما يُنشر من الكتب الدينية، وما يُلقَى من خطب في كافة مساجد الدولة أيام الجمعة واختصاراً، فإن مهمتها هي ضمان ألا تخرج أمور الدين إلى أيدي القوى المعادية للنظام القائم وسياساته العلمانية.

الجماعات الإسلامية المتطرفة -

مثل هذه السياسة التي يتبناها الإسلام الرسمي، ارتأى نعض الجماعات من السلخطين وأصحاب المظالم الاقتصادية والاجتماعية أنها لا تسمح ولا تعمي من جوع، ولا تسدّ احتياجاتهم الروحية، ولا تسمى إلا إلى خدمة النظام لا خدمة الإسلام، وتعزيز الهوية القومية للجزائريين لا تعزيز الإيمان. وقد أحلّت هذه الجماعات فكرة «الإسلام المناصل»، محل «الإسلام المؤتم»، الذي يحاول دون جدوى إقناع الجماهير بإخلاصه حين يذهب إلى اتفاق التمكن مع الدين، والإيمان بالاشتراكية مع الإيمان بالله.

وقد كان لثورة إيران عام 1979 تأثيرها العميق في نفوس الجزائريين كما هي نفوس غيرهم من شعوب الدول الإسلامية. غير أن ثمة اعتبارات محلية معينة لا شك في أنها ساهمت في نمو التطرف الديني بالجزائر ذلك أنه لا المبدأ الاشتراكي، ولا الإسلام الرسمي، هياً الراحة والعناء الممسين لشعب يعاني معاناة قاسية من آثار التعبير الاجتماعي السريع، بما فيها من توترات وتفكك في العلاقات وتفكك في القيم والتقاليد، ويشعر شعوراً قوياً بالإحباط والسخط إزاء التصحيحات التي يطالب ببدلها في سبيل التمدن والتنمية وقد حرص المتطرفون منذ البداية على تأكيد رفضهم القاطع للمصاهيم والقيم الغربية، ولأي تآكل للعقلانية الأوروبية، أو شعارات الاشتراكية. وعندهم أن كافة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية هي في جوهرها مشكلات أخلاقية، وأن الشرط الأساسي لإرساء دعائم مجتمع إسلامي سليم وقوي، وإقامة المدينة لفاصلة والدولة المثالية، هو الإيمان بالله من قبل شعب قوي الحلق والبرعات، صادق العزم على العيش وفق مبادئ الإسلام التي أوردها القرآن والسنة، وعلى أن تدبر الشريعة كل مظاهر حياته بصورة مباشرة وشاملة

وقد اكتسحت دعوة هذه الجماعات المدن الجزائرية منذ نهاية السبعينات، وتولى تدبيرها نوع من التنظيم وبعض الرعامات، تركّز نشاطهما على الدعوة إلى أمور مثل عودة النساء إلى الحجاب، والإقبال على الصلاة في المساجد، ومع بيع الخمور وتقليدهما في الأماكن العامة، والتوسع في التعليم الديني في المدارس، والإسراع في تنفيذ برامج التعريب، وزيادة عدد الساعات التي تخصصها الإذاعة والتلفزيون للبرامج الدينية

وكان أن لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في الجامعات على الأخص، حيث تميز نشاط الطلاب الإسلاميين بالحدة والعنف، وبصدامات متكررة مع الطلبة اليساريين وأحت ضحيتها أرواح الكثيرين. وعلى سبيل المثال هاجم الإسلاميون في عامي 1979 و1980 جماعات الماركسيين وجمعيات البربر في الجامعات، واعتقلوا بالصرب على الطالبات المرتديات للري الأوروبي، كما

شجعهم نجاح سياسة التخويف والإرهاب والإرغام التي يتتبعونها داخل الحرم الجامعي على البدء في تنظيم مظاهرات خارج الجامعة، أحرقوا ودمروا خلالها عدداً كبيراً من العداق والمقاهي والمطاعم التي تقدم المشروبات الكحولية.

كذلك فقد أزعج الحكومة بصفة خاصة تزايد عدد المساجد غير المرخص بإنشائها وغير الحاصلة لرعاية وزارة الشؤون الدينية، وهي مساجد يتناول فيها أئمتها السلطة وسياستها الاشتراكية بالانتقاد والطعن الصريحين، والسحرية من دعوى رجالها بأن «الإسلام أيديولوجيتنا». وقد بلغ بالمعتصرين الأمر حد طرد أئمة المساجد المعيّنين من قبل الحكومة وأحلوا مكانهم أئمة من بين رجالهم. كما أدت محاولة قامت بها الشرطة في أكتوبر 1981 في مدينة الأغواط شمالي غرب الجزائر لإغلاق مسجد غير مرخص بإنشائه وتحطى حطب إمامه بشعيرة كبيرة، إلى صدام دموي، واعتداء وحشي على الشرطة.

وفي نوفمبر 1982 قام الطلبة الإسلاميون في جامعة الجزائر (داخل مبانيها وخارجها) بتوزيع منشورات وكتيبات تدعو إلى وضع حد صدام للتأثيرات الغربية في المجتمع الجزائري، وتطالب بإقامة حكومة إسلامية، وإلغاء الميثاق الوطني الصادر عام 1976 (وهو المعبر عن أيديولوجية الدولة)، وبأن يحل القرآن محل هذا الميثاق العلماني أساساً لبيان معالم الحياة الاقتصادية والفكرية للأمة، وإلغاء التعليم المختلط، وحظر مواصلة الفتيات لتعليمهن بالمدراس بعد سن الثانية عشرة.

وتنهج الجماعات الإسلامية في سبيل نشر فكرها وفرضه سبيل الوعظ والإرشاد، وسبيل العنف المنظم هي آية واحد. ولا يقتصر العنف على اعتداءات هدية وغير مسقة ضد أشخاص معينين أو طوائف في زِيّ أوروبي. فقد بدأت تظهر الآن في المساحة اعتداءات جماعية محكمة التنظيم والتنسيق في سبيل تحقيق غايات ومقاصد تخدم فكر هذه الجماعات. وقد حدث في نوفمبر 1982 أن غار الإسلاميون في انتخابات اتحاد الطلبة بجامعة الجزائر

فلما شكك الطلبة الشيوعيون في سلامة هذه الانتخابات، حدثت اصطدامات عنيفة بين الفريقين أسفرت عن مقتل طالب يساري وجرح الكثيرين، فاعتقلت الشرطة أكثر من أربعمائة من الإسلاميين، ما أن سري خبر اعتقالهم حتى تجمع في العاصمة نحو مائة ألف متظاهر بعد صلاة الجمعة يعصّدون الإسلاميين ويطالبون بالإفراج عن المعتقلين. وكان رد فعل السلطات هو الإلتجاء إلى سبل القمع العنيفة لهذه المظاهرة، تلتها بعد أيام فلائل نصريحات وقرارات تستهدف امترضاء الإسلاميين وتهذبة خواطهم.

وقد كان من بين أخطر القيادات في الحركة الإسلامية المنطرفة، ضابط سابق في الجيش الجزائري يدعى مصطفى أبو علي، فصل في عهد بومدين بسبب اتجاهاته الدينية، وقام بعد ذلك بعدة عمليات إرهابية مثيرة، كتدبير هجوم على ثكنات الجيش في مدينة بوداواو بولاية بومرداس عام 1982 استولى خلاله على كميات كبيرة من الأسلحة والدخيرة، ثم الهجوم عام 1985 على شركة للنساء تابعة للقوات المسلحة، وفي عام 1986 على كلية الشرطة في مدينة صومعة بولاية البليدة، ثم على إحدى المستشفيات التي استولى مها على كميات هائلة من الأدوية. وقد لقي مصطفى أبو علي هذا حثفه هروسة من أتباعه بالقرب من العاصمة في معركة مع قوات الأمن في لوانل عام 1987 استخدمت خلالها الأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية.

فإن صرفنا النظر عن الممارسات اليومية العادية لأفراد الجماعات المنطرفة، (كتنسرع بعض زوجاتهم بمجوهراتهن مساهمة منهن في تمويل الجماعات)، أو التهديدات المتكررة بقتل المحالفين في العقيدة، كما حدث مؤحراً مع مخرج وممثل فيلم «حورية» الذي يصور معاناة المرأة الجزائرية في مجتمع رجعي متحلف، يصر على حرمانها من أبسط الحقوق، وكذا معثلة الفيلم التي اتهمت بالكفر والخروج عن أصول الدين لمجرد قبولها تمثيل الدور)، وجدبا المظهر الأخطر لشاط هذه الجماعات يتمثل في تلك الأحداث

من الشعب المصحوبة بأعمال التخريب، كتلك التي وقعت في ديسمبر 1986 في مدينة قسنطينة، وقام فيها ندور بارر طلبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي كان من أبرز أهداف إنشائها عام 1984 بث مفهوم عن الإسلام معتدل مستنير تقاوم به الدولة المعاهيم المتطرفة، والتي تستعين بخبرات بعض علماء الدين العرب المعروفين باعتدالهم، كالشيخ محمد الغزالي الذي عين مستأداً بها، والذي أفصح للتلاميذ والإداعة وقتاً لحدث ديني يلقى فيهما مرة كل أسبوع.

وقد كان هذا الاشتراك من جانب طلبة الجامعة الإسلامية في اضطرابات قسنطينية الدامية، هو ما حدا بالبعض إلى التشكيك في حكمة تشجيع تيار إسلامي مستنير معتدل، بدعوى أن مثل هذا التشجيع يخلق قاعدة عريضة من الإسلاميين سرعان ما ينتقل منها المعتدلون إلى التطرف متى ما لحقت بهم مظالم إجتماعية أو اقتصادية.

موقف الحكومة الجزائرية :

واجهت حكومة الشاذلي بن جديد إذن من مثل هذه الظواهر ما لم تواجهه حكومة بومدين قط وقد كانت سياسة الشاذلي في البداية هي السماح للرأي العام بقدر أكبر مما كان يسمح به سلفه من سبل التعبير بصدد مختلف الموضوعات والمشكلات. غير أنه سرعان ما أدرك إزاء ازدياد العنف وتعاظم خطر الجماعات الإسلامية، ودعوة بعض أئمة المساجد إلى الإطاحة بالقوة بحكمه «الوثني»، أنه لا مفر من اللجوء إلى سياسة حازمة حاسمة من المواجهة السريعة للعنف، وإلى حملات واسعة النطاق من الاعتقالات لأفراد هذه الجماعات التي وصفها ببعضيات المجرمين والمهيجين اللذين تساعدون دول أجنبية معادية للجزائر في محاولاتهم لتقويض النظام العام. وقد ذكر أن حملات الشرطة قد كثفت خلال النصف الأول من عام 1987 عن حيازة تنظيمات غير مشروعة لكميات ضخمة من المفرقات والأسلحة، كانت تنوي

استخدامها في محاولتها قلب نظام الحكم، مما برّر بعد ذلك اعتقال المثات من المتطرفين، ومحاكمتهم أمام محكمة أمن الدولة التي أصدرت في 10 يوليو 1987 أحكامها بالسجن على مائة وأربعة وثمانين شخصاً وإعدام ثلاثة.

وبالرغم من استمرار هذه الحملات والاعتقالات والمحاكمات الهادفة إلى استئصال كافة بؤر الإسلاميين في البلد الجزائرية، فقد بدا واضحاً للسلطة أن العنف وحده لا يكفي، خاصة وقد تزايدت احتجاجات المنظمات الدولية ضد انتهاك حقوق الإنسان في الجزائر، واستمرار حبس المتهمين دون تقديمهم إلى المحاكمة، وتبين أن يعود الجماعات الإسلامية قد تعدى الجامعات إلى المدارس والمصانع والمعاهد الدينية والإدارات الحكومية ذاتها وسائر المهن والحرف في المدن. وقد وصلت الحكومة إلى اقتناع بأنه إلى جانب الردع والاعتقال، لا بدّ من اللجوء أيضاً إلى سياسة موازنة من المصالحة والمهادنة والتهدئة. وكثيراً ما تبدأ السلطة بقمع الإضرابات وتمرقة المظاهرات بأقصى درجات القوة والعنف، ثم يعقب ذلك تلبية معظم المطالب والتنازلات عند عودة الهدوء. فبعد انتهاء مظاهرات الطلبة، يتجه النظام عادة إلى مسح الطلبة حقوقاً أوسع في توجيه السياسات الجامعية، ووعدهم بتوفير فرص العمل لهم في القطاع العام بعد تخرجهم وبعد اعتقال المضربين من العمال وسجن قاداتهم، يأتي رفع أجورهم والاستجابة لعدد متدنٍ من الانتقادات والمطالب

كذلك تحاول الحكومة انتزاع المبادرة الإسلامية من أيدي المتطرفين والخطباء الشيعيين من المشايخ. وبالتالي فقد كثر استخدام رجال السلطة للتعبير الدينية، واقتباساتهم في خطبهم وتصريحاتهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتركيزهم على أن «القرآن منبع حصادنا وأسلوب عيشنا». غير أن الأهم من ذلك إقدام الحكومة على التوسع في إنشاء شبكة قومية من المعاهد الإسلامية ومراكز إعداد وتدريب أئمة المساجد ورجال الدين، بعد أن ظهرت بجلاء عواقب التقدير السابق في الإنفاق على هذا التدريب، ومنها أن أكثر من ثلاثة آلاف إمام من أئمة المساجد البالغ عددهم

نحو خمسة آلاف. كانوا حتى وقت قريب من الأميين الجهلة بأمور الدنيا والدين وقد راد الآن عدد مراكز تعليم القراء، وراد الإنفاق عليها، وشجعت الحكومة الشباب على الالتحاق بوظائف الأئمة مكان الشيوخ الأميين. ثم جاء متوجاً لكل هذا تأسيس جامعة الأمير عبد القادر التي ذكرناها والتي وُضعت مهمتها بأنها وربط التعليم الديني بصورة أوثق بواقع المجتمع واحتياجاته، سواء في المجالات الدنيوية أو الروحية أو الفكرية.

والواضح الآن أن الحكومة تستهدف بصفة أساسية ضمان الحيولة بين الأئمة غير المعيّنين من قبلها وبين إلقاء خطب معادية لها في مساجد غير مرخص بإقامتها. وقد بات الآن من مستلزمات تعيين الإمام الحصول على شهادة من معهد ديني. كما تدأب الحكومة على استضافة وتنظيم ندوات ومؤتمرات قومية سوية حول موضوعات إسلامية، وعلى إصدار المجلات الدينية، والتوسع في البرامج الدينية في كل من الإذاعة والتليفزيون.

ومع كل تلك الإجراءات والسياسات الجديدة لحكومة الشاذلي بن جديد في المجال الديني، فإن هذه الحكومة تدرك جيداً في قرارة نفسها أن المفاهيم الإسلامية لم يعد بالإمكان إبقاؤها حكراً على أجهزة الدولة، خاصة ما بقيت المشكلات الاجتماعية والاقتصادية قائمة دون حل، وما دام التوتر الحضاري، وتصارع الثقافات، يهزّان المجتمع الجزائري من جلوره. كذلك فهي تدرك أن هذه المفاهيم الإسلامية والتعابير الدينية الخطابية هي سلاح ذو حدين، وأداة يمكن للمسلحين استعمالها لإذكاء التمرد والعصيان، وللحكومة استخدامها لحث الرعية على طاعة السلطان.

عناصر التوتر في المجتمع الجزائري التي تساعد على نمو الاتجاهات الدينية المتطرفة

ربما كان المجتمع الجزائري من أكثر المجتمعات في العالم تعرضاً في حياته اليومية لمختلف أسباب التوتر والمتناقضات، والعصراعات الخفية

والضريبة، وهو ما نجم عن ثلاثة أساليب رئيسية

الأول : حكم استعماري دام 132 عاماً حاول المستعمر إنشاءها
جاهداً، وبنسبة كبيرة من النجاح، أن يحدّ اجتثاثاً الجذور
الحضارية للأمة، من لغة ودين وتراث وهوية وتقاليده
وانتماءات.

والثاني : ثمانى مسوات من الجهاد الثوري وحرب التحرير ضد
الفرسيين، استشهد فيها نحو مليون ونصف مليون نسمة،
وكان الإسلام حلالها إحدى الوسائل الرئيسية لتعبئة الطاقات،
واستثارة الهمم، وتوحيد الصفوف، ثم إذا هي وقد تلاها إقامة
نظام علماني لا يلعب في الإسلام دوراً أكثر من المساعدة
على تعزيز الهوية الجزائرية.

والثالث: مسوات طويلة من سياسة التصنيع الثقيل والسريع في عهد
بومدين ساعدت على انحصار التقاليد والقيم الموروثة،
وتفكك الأسر والقبائل، واندثار تضامنها ومشاعر ولاء الأفراد
لها، وإهمال الزراعة، وتزايد الهجرة من الريف إلى المدن
التي غصّت بالعاطلين، مما هدّد الجزائريين بانتزاع
جلدورهم، والمجتمع الجزائري ذاته بالتحلل، حتى بدت
العقيدة الدينية وحدها القادرة على الحيلولة دون ذلك، خاصة
وقد فشلت الأيديولوجيا الاشتراكية التي تتناها الدولة في إثارة
الحماس لها، والإيمان بها

غير أنه مع هذا الاعتقاد المتزايد لدى حشود الساعطين العاطلين والمقروء
المشردين، والناشرين من الريف إلى المدن، بأن الإسلام هو الحل، وفيه
يكمم الخلاص والأمل في انصلاص الأمور، فلمس عدداً من المفارقات:

فغالبية أنصار الجماعات المتطرفة - كما ذكرناهم ممن لا يتمتعون بكفاءة

أو مهارة مهية تيسر لهم الخروج من مأرق الظالة . وهم على جهل تام بأية لغة أجنبية، ومع ذلك فإن جهلهم بالعربية ذاتها ليس بأهون خطراً وضعفهم هذا هي العربية لا يعيهم على فهم القرآن، أو القراءة في كتب الدين للتعرف على تعاليمه وبالتالي أصحى من السهل على المعرّضين من رؤساء الجماعات استخدامهم أداة طيعة في أيديهم، وتلقين أية فكرة يريدون تلقينها لهؤلاء السُّلَح

ثم إن الشعب الجزائري بطبيعته من أقل الشعوب الإسلامية حرصاً على إرام نفسه بأداء العروض الدينية فالتقليدون مثلاً هم الذين يؤدون الصلوات الخمس، سواء في الريف أو المدن، ويستعوضون عن هذه العروض بواجبات أقل شأنًا، كالامتناع عن أكل لحم الحسبر وشرب الحمر، وليس المرأة للنجاب، وأحياناً نطقوس وشعائر ذات جذور وثنية، كالتردد على مزارات الأولياء، وتقديس أحجار أو أشجار معينة يثيرون بها . ومع ذلك الجهل بالدين، والاستحفاف ببعض فروعه الرئيسية، والمعجز عن قراءة الكتب الأساسية فيه، أو فهم القرآن ذاته، والجهل بعلم العربية الذي هو الإسلام بعينه على حدّ تعبير أبي عمرو بن العلاء، فبوسع هؤلاء إقناع أنفسهم بأنهم متى أظنقوا الفحى ولبسوا النجباب، قد أصبحوا حماة الدين والقيم عليه، وبات من حقهم وحسم النظام بالكفر، وسبب الضلال إلى غيرهم.

كذلك فقد تسبّب الاستعمار الفرنسي، واستحواد المواطنين الفرنسيين على أفضل الأراضي الزراعية في الجزائر وطردهم أصحابها منها، ثم مانع ذلك من حرب الاستقلال والعارات الفرنسية الانتقامية التي أدت إلى تهجير الفلاحين قسراً، وتدمير آلاف القرى، وإحراق الغابات، وقتل المواشي، في تدفق جماعي رهيب الأبعاد من جانب الفلاحين ورجال القبائل على المدن، دون أن تكون لديهم أدنى خبرات صاعية أو حرفية، مخلفين وراءهم عائلاتهم أو قبائلهم التي كانت في الماضي تروّدهم بإحسان من الأمن والدفع والتحصن

وقد ساهم النظام الجزائري بعد الاستقلال في استكمال وطأة هذه الصعوط، ولم يبذل أدنى محاولة لتوفير البدائل الماسية أو الحلول الكفيلة بإصفاء المعنى والعرض على الحياة الاجتماعية المعاصرة. وقد كان الهم الأول لهذا النظام هو التصنيع الثقيل والسريع، وفتح الأبواب في أقصر وقت أمام التكنولوجيا والمدينة الحديثة، دون اعتبار لأنماط الحياة التقليدية، وهو ما أوجد الفرد العادي الجزائري في وضع المعلق بين عالمين متباينين لا يدري إلى أيهما ينتمي، ولا لمن هو مدين بالولاء. بل إنه حتى في المناطق الريفية أو الرعوية والنائية من البلاد، حيث كان محور حياة الفرد هو أسرته أو قبيلته، قد حُلّ مكتب الحزب، أو مقر الشرطة، أو مركز العلاج الصحي أو المدرسة، محل القبيلة، وفضت هجرة الرجال إلى المدن على الترابط الأسري وبالتالي فقد انحسرت، ثم انقرضت، المعايير التقليدية للسلوك ولقيم والمعتقدات التي لم تعد قادرة على ضمان الولاء الكامل لها، دون أن تكون لشمعدن والحدائق القلدة على إشباع الاحتياجات الروحية والنفسية للشعب، وللشباب من أفرادها بالأخص.

قد أصبح سكان المدن الآن يشكلون نحو 55٪ من مجموع الجزائريين، تأتي في قمّتهم قشرة بحيلة من المثقفين والتكنيين، تليها طبقة عريضة سبباً من البورجوازية من أصحاب الحوانيت والمقاهي والموظفين والكتبة، ثم العمال الصناعيين وعمال البناء والأشغال العامة، ثم طبقة كبيرة من المتعطلين وأشباه المتعطلين من العمال اليوميين، ممن يفضلون الحياة النائية في المدن (حيث يوجد قدر من الأمل في الحصول يوماً ما على عمل) على الحياة النائية في الريف (حيث لا أمل على الإطلاق في تحسن الأحوال). ولابد بتصادم الأمل في حياة كريمة يوماً بعد يوم بسبب تآزم الاقتصاد الجزائري ومشكلاته المستعجلة وانخفاض سعر النفط، وبسبب الترايد المخاطر في عدد السكان وبسبب المواليد (أكثر من 3٪ سنوياً، علماً بأن نحو 65٪ من مجموع السكان هم من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 18 سنة)، فإن الخوف من المستقبل ومن البطالة، قد

اتسع نطاقه حتى بات يشمل طلبة الجامعات والمدارس أنفسهم (خاصة ممن يتلقون تعليماً عربياً صريحاً ويجهلون اللغات الأجنبية، وهم 25٪ من مجموع الطلبة)، ممن فقدوا الثقة في قدرة الدولة على توفير الأعمال لهم عند تخرجهم.

وكان من الطبيعي أن يلقي كل هؤلاء السمع لأي انتهازي سياسي، أو مأجور من ليبيا أو إيران، يبت في روعهم أن الإطاحة بنظام الحكم، وإقامة دولة تطبق شريعة الله، من شأنهما حل كافة مشكلاتهم، وتوفير الحياة الرعنة لهم، معززين دعواهم بالإشارة إلى مظاهر الفساد في الدولة. وشيوع الرشوة بين موظفيها، والثراء الفاحش لدى كبار رجال الجيش والحكومة والحرب، وتسيّد الأموال على قضائها لا تعنيهم في شيء كقضية البوليساريو. وانتشار الدعارة على كافة المستويات، وحظر النقد والمناقشة الفعالة لسياسات الحكومة خارج دائرة ضيقة من أفراد معدودين من رجال السلطة، وشدة وطأة المخابرات والشرطة، وتعاظم نموذ الجيش وهيئته على جميع مظاهر الحياة الجزائرية، وقصر الترفي إلى المناصب العليا على المعروفين بولائهم للخالف للنظام.

وقد سهّل على هؤلاء مهمتهم استمحال المشاكل التي لا حصر لها في الحياة اليومية للشعب: كالتقص الحاد في السلع الاستهلاكية، وبشاعة الخدمات الاجتماعية وحال المواصلات العامة، وغلاء الأسعار وعدم كفاية المؤن الغذائية، والأزمة الشديدة في المساكن، وتدهور الأحوال المعيشية في المدن وفي نوعية الحياة بوجه عام. وقد أدّى ازدياد تعداد السكان خاصة في المدن - إلى أن أصبح البيت الواحد من حجرتين يشغله عشرة أشخاص أو أكثر وهو ما أسفر عن ظاهرة مخيمة تكاد أن تنفرد بها الجزائر، وهي منظر الآلاف من الشباب والصبية مجتمعين ليلاً ونهاراً في حلقات على أرصفة الشوارع تحت عواميد الإنارة، يلعبون الورق أو الدومينو، أو يتحدثون أو يتصافحون على الأقفاء مارحين، أو يحاولون تضييع الوقت بسرقة هوائيس السيارات، أو السطو على الشقق، إما عن كراهة للعودة إلى مساكن غاصة

مقاطعتها، أو في انتظار دورهم ليحلّوا محلّ الإخوة أو الآباء في السرير لبضع ساعات.

فالنوادي الاجتماعية والرياضية هنا غير معروفة بالمرة، والمدارس لا يمكنها استيعاب كل هذه الأعداد الغفيرة والمتزايدة من الشباب، وهي التي أدّى ازدحام المصوّل فيها بالفعل إلى تدهور سريع في مستوى التعليم، بدليل أن نحو 18 ألف طالب فقط هم الذين يجتازون امتحان المكالوريا من بين حوالي مائة ألف طالب. أما عن نسبة الأمية فهي أكثر من ستين في المائة، وهي أعلى من ذلك بكثير بالنسبة للنساء اللواتي يسوء وضعهنّ وتقلص حقوقهنّ يوماً بعد يوم، عكس الحال في المغرب وتونس. فالمجتمع الجزائري هو في المقام الأول مجتمع رجال، ولا تكاد النساء يرين خارج ديارهن بعد غروب الشمس، بل وإن مجرد سيرهنّ في الشوارع نهائراً لا يحلّو من خطر التعرّض لهنّ بالتعابير الدبّية أو امتهان أجسادهنّ بالمبثّ الغليظ من جانب الرجال، خاصة إن كنّ يرتدين الملابس الأوروبية، وهي ملابس توحى للرجال بأن صاحباتها على استعداد لتقبل أي شيء. وقد ثبّت في عقول معظم هؤلاء الرجال أن تحرر المرأة يعني الانحلال الحلقى. وهذا هو السبب الرئيسي في لجوء الكثيرات هنا إلى ارتداء النقاب، على أمل حماية أنفسهنّ من تعرّض الرجال، وكرّم لهنّم رغبتهنّ في المغازلة.

وقد حاولت الحكومة منذ عام 1963 إصدار قانون أحوال شخصية يوفر قدراً أكبر من الحقوق للمرأة، ويحررها من القيود الثقيلة التي تكبلها غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل نتيجة معارضة قوية من الإسلاميين والمحافظين، وإدّا بمشروع قانون جديد للأحوال الشخصية تقلّعه الحكومة في سبتمبر 1981 ويتّسم بأقصى درجة من الرجعية، مما أثار ثائرة النساء التقدميات فنظّمن المظاهرات أمام مبنى المجلس الشعبي الوطني في العاصمة. فلما حاولت الحكومة تعديله لإرضائهنّ هاج عصب الإسلاميين الذين لم يهدأوا حتى أقرت الجمعية في 9 يونيو 1984 قانوناً يرضيهم، قائماً على أساس الشريعة الإسلامية

في كل ما يتعلق بالزواج والطلاق وتعدد الزوجات والموارث والولاية

خاتمة .

إن كانت حرب التحرير قد خلقت نوعاً من التضامن والتقارب ووحدة الهدف بين طبقات الشعب، فقد جاء مع الاستقلال بمصفي السنين تمزق وشرقة، وانقسم الجزائريون بصعده أساسية إلى فريقين . مثقفين وتكننيين نرجماتيين، لا يأبهون كثيراً للسياسة، قد حلّوا في المناصب العليا في الدولة محل المواطنين المتحمسين، وبهصون وحدهم بإدارة القطاع الصناعي والتجاري من الاقتصاد المؤمم، وجماهير ينمو نمودها تدريجياً من الطابع العلمي للدولة والثقافة الجزائرية، ويتزايد إقبالها على بصرة الجماعات الإسلامية والانخراط في صفوفها، وكذا كراهيتها لأولئك التكنوقراطيين والذين أرادوا للجزائر أن تصبح بمثابة ألمانيا في القارة الإفريقية، وفشلوا فشلاً ذريعاً في تحسين الأحوال المعيشية لشعبها .

هذا إلى أن تدهور مستوى التعليم مع التوسع فيه، قد أسفر عن تحرّج حشود من الشباب الذي لم يلقّ غير الأوليات والقشور، وهي قشور قد أفلحت في تعاطم مطامحه وتزايد احتياجاته المادية، وإن لم تملح في جعله مؤهلاً لتحقيق هذه المطامع، وسدّ تلك الإحتياجات . وقد أصبحت هذه الحشود من الشباب نصف الأمي كالجني الذي أطلق من القمقم ويات من المحال إرجاعه إليه ؛ ليس لدى النظام أوهى فكرة عن كيفية تعامله معه، والجهة الوحيدة التي لديها مثل هذه المكرة، وأفكار أخرى عن كيفية استغلال هذا الجني لخدمة مصالحها الخاصة، هي قادة الجماعات الإسلامية المتطرفة .

التطرف الديني عند اليهود

كتب فولتير في معجمه الفلسفي تحت مادة «يهود»

« . والحلاصة أن اليهود شعب جاهل غير منحصّر، يجمع بين أشنع ألوان الشرّ، وأفظع ضروب الحرقة، وأقوى صوف الكراهية لكافة الأمم التي تتسامح معهم، وتتيح لهم فرصة الإثراء على حسابها. . . ومع ذلك، فليس ثمة مبرر لإحراقهم»!

كان هذا هو موقف فلاسفة عصر الاستنارة السابق للثورة الفرنسية من المشكلة اليهودية: مهاجمة كافة الأديان بما فيها اليهودية، والدعوة إلى فلسفة إنسانية يستغل بها الشر أجمعين، وتحل محلّ الديانات المتصارعة التي تبلر بدور العداوة والفُرقة بينهم. وقد أخذ فتاة ثورة ١٧٨٩ بهذا الرأي، ودعوا إلى دين جديد هو دين العقل، وإلى التسامح والمساواة، وشاركوا مشاركة إيجابية في مناقشات الجمعية الوطنية الفرنسية للمشكلة اليهودية، وهي مناقشات دامت قرابة عامين، وأسفرت عن توفير المساواة الكاملة بين اليهود وغيرهم من المواطنين. وقد اعترضت على هذا القرار أقلية قليلة تزعمها الكاردينال موري، محتجة بأن اليهود «لن يصبحوا أبداً جزءاً من الشعب الفرنسي، وسيظلون دوماً دولة داخل دولة، وسيستغلون حرياتهم الجديدة من أجل تحرير قوتهم وموقعهم الامتصالي، وأنهم مهما أعطوا من حقوق، أو استقبلوا بالموثّة والترحاب، فلن يكونوا غير أقلية غير قابلة للاندماج». خير أن النصر كان حليف الاتجاه التقدمي

المؤيد للمساواة، والذي كان من رايه أن العيوب الملموسة في اليهود إنما نجمت عن اضطهادهم وسوء معاملتهم على مدى قرون طويلة، وأنها زائلة لا محالة مع منحهم المساواة الكاملة.

الاندماج ثمة للمساواة:

ومع أن قادة الثورة هاجموا المعارضين الكاثوليك لمدأ مساواة اليهود بغيرهم في الحقوق والواجبات، ووصفهم بأنهم أعداء الثورة ومبطلوها، فقد أوضح رويسبير على نحو قاطع أن الشعب الفرنسي ينتظر من اليهود أن يتحلوا عن عزلتهم، وأن يصبحوا في المستقبل القريب جزءاً لا يتجزأ من الأمة.

وقد قبل معظم اليهود الفرنسيين هذا الشرط، وسارعوا في همة لإنهاء عزلتهم والاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وباصر بعض الشباب منهم في حماس دين العقل الجديد، وهلكوا لمبادئ الثورة.

ومع ذلك فقد كان من رأي نابليون عند توليه الحكم أن عملية الإندماج لا تتم بالسرعة المطلوبة. فدها مجموعة كبيرة مختارة من اليهود البارزين للاجتماع به، وموافاته بإجابات شافية عن اثني عشر سؤالاً حول كمية التعميل بتحقيق الإندماج. وقد أبدى الحاضرون استعداداً للمتجاوب مع كافة اقتراحات نابليون ومطالبه سوى مطلب واحد، هو تشجيع التراوح بين اليهود والمسيحيين، وهو ما كان نابليون يعتبره أجلى وسائل الإندماج المنشود.

على أي حال، فقد حققت عملية الإندماج في فرنسا قدراً عظيماً من النجاح. وأبرى بعض علماء الدين اليهود فيها يقولون إن مبدأ المساواة ومبدأ الأخوة بين البشر بما في الواقع ولأول مرة في تاريخ الإنسانية من كتب اليهود المقدسة ومن تعاليم أنبيائهم، وهي مبادئ نقلتها الثورة الفرنسية من حيز الدين والمثل إلى حيز السياسة والواقع. ويحتل الجيوش الفرنسية لقطر تلو قطر في أوروبا، وإعلانها تحرير اليهود في تلك الأقطار، انتشر تأثير مبادئ الثورة انتشار النار في الهشيم، حتى لقد خشي قيصر روسيا، الإسكندر الأول من أن يلعب

مبدأ المساواة يعقول اليهود في دولته فيؤازروا الفرنسيين في حربهم صده فاسرع بإصدار قرارات تحقق من وطأة القيود المفروضة عليهم، وتمنحهم بعض الحقوق.

مشكلات التحرر:

بشوب الثورة الفرنسية إند فوجي= اليهود بقدر صحم من التحرر لم يجبروا مثله إلا خلال القرون الأولى من الدولة الإسلامية، وربما في ظل الجمهورية الرومانية. فقد أصبحوا - رسمياً - مواطنين في الدول التي يسكنونها، لهم ما لغيرهم من غير اليهود من الحقوق، وعليهم ما على الآخرين من واجبات، وابتأوا مطالبين في نفس الوقت، أويات من المتنظر منهم، أن يندمجوا إندماجاً كاملاً في المجتمع الذي يعيشون فيه، بأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمحصارية، حتى مع احتفاظهم بديانتهم وهويتهم.

غير أن هذا التحرر أثار لليهود مشكلات عويصة جديدة، ربما كانت أعوص وأشدّ خطراً من مشكلات الاضطهاد والتمييز والتشريد. فهم كانوا قد اعتادوا في شتاتهم الذي دام ما يقرب من ألفي عام أوصاعاً معينة خاصة بهم، وبمطأ من العيش جاء التحرر والمساواة والاندماج تزلزل كيانه. والمؤكد أنه ليس صحيحاً ذلك الاعتقاد الشائع بأن كافة اليهود رحبوا بمساواتهم بغيرهم من المواطنين. فالكثيرون من زعمائهم ورجال دينهم الذين ارتسخت مصالحهم الخاصة بالوضع التقليدي لليهود كأقلية مضطهدة مكروهة، وجدوا مودهم بين اليهود ينزعج نتيجة لما منحوه من حقوق ووُفّر لهم من مساواة وتسامح ديني. وكانت هناك حشية لدى هؤلاء وغيرهم من المواقب «الوثنية» على الديانة والتقاليد اليهودية للمساواة السياسية الكاملة، بما تتضمنه من حق الانتخاب والخدمة العسكرية، وما تعنيه أيضاً من مطالبتهم بإنهاء عزلتهم وعيشهم المستقل عن غيرهم وإلغاء حق زعمائهم في تدبير شؤونهم

قد تبين للمفكرين والمتدبّنين اليهود بمرور الوقت أنه وإن كان التحرر والمساواة قد حلما الفرد اليهودي العادي، وحسباً من ظروفه المعيشية

والاجتماعية والاقتصادية، وأراحته من التمييز والغصاء والاحتقار وسوء المعاملة، فقد ثبت أنهما يهتدان الأمة ككل، ويبحران في العقيدة اليهودية، حاصه مع ذلك الإصرار المستمر من جانب المسيحيين على أن الشرط الأكبر لتحقيق التحرر التام لليهود هو أن يتحلوا عن كل المظاهر الانعصالية والانعرالية لمط عيشهم، وأن يهجروا تقاليدهم التلمودية، وأن يتراوحوا معهم، وهو موقف يعني انتشاره نهاية اليهودية، ودويان كيان الأمة على النحو الذي كاد أن يحدث في أقطار الدولة الإسلامية في ظل التسامح الديني

المواقف

في ظل التحرر إذن بدأت وحلة الشعب اليهودي في التفتك. لقد ظلوا حتى القرن السابع عشر في شتاتهم يعرف يهود مدينة كراكاو مثلاً عن يهود مدينة صَند، ويهود صعد عن يهود كراكاو، أكثر مما كان يعرف أولئك أو هؤلاء عن جيرانهم المسيحيين أو المسلمين على بعد نصف خطوات منهم. أما اليوم فما هم يهود بريطانيا وقد بات جُلهم يرون أنفسهم بريطانيين أولاً ثم يهود ثانياً، ولم تعد ثمة غير أوهى الروابط الروحية بين اليهود الفرنسيين والأرجنتيين والأمريكيين والعرب... إلى آخره.

ثم حطر آخر يتمثل في انتشار المادية في العصر الحديث، وروح الاستخفاف بالدين، والسعي وراء الملذات خارج الحياة الروحية، وطلب صنوف المتع واللهو وهناك تيار العقلانية الذي وعزع من القوى الروحية لليهود، وطابع عدم الاكتراث الذي سهّل على الكثيرين التحول إلى المسيحية لضمان قبول أكبر لدى الشعب المسيحي الذي يعيشون بين طهرايه. وقد كتب إسرائيل هيلديشايمر عام ١٨٦٧ يقول إن تسعة أعشار الشباب اليهودي قد باتوا إما ملحدين أو غير أنهيين للدين. وهاجم كل من آينر وموشي شراير وصامويل دافيد لوتزاتو تحرير اليهود ومساواتهم بغيرهم، واستكروا تبني اليهود لأنماط العيش الغربية كمنس للتحرر، وأبرروا أوجه الخلاف والاختلاف بين اليهودية

والحصارة المسيحية، ووصموا التحرر بأنه لا يعلو أن يكون عبودية في إطار الحرية! وارتفعت الأصوات اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنادي بالقومية اليهودية، وتطالب بدلاً من المساواة، سظمن من الحقوق للأقليات، والحكم الطائفي الذاتي، وحرية اللغة والتعليم المدرسي المستقل وتقرير المصير، بدلاً من الإلحاق القومي في الغالبية من السكان.

أصاب المتدينين من اليهود الذعر إذ يرون الكثيرين من بني جلدتهم - خاصة من أفراد الطبقات العليا - يتزوجون مع غير اليهود. ورأوا الآلاف من شبابهم تنشق الماركسية وغيرها من المذاهب الاشتراكية، والتعاطف مع قولة فورييه «إن معظم اليهود الأتقياء متطعمون على المجتمع»، ومع قولة كارل ماركس الشهيرة «إنه من المحتم أن نحتفي اليهودية من الوجود، وأن تحرر اليهود الاجتماعي لن يتأتى إلا بتحرر المجتمع من اليهودية»، وقولة ليس «إن كل من يتحدث عن ثقافة قومية اليهود هو - مهما حسنت نيته - علو للبروليتاريا».

وها هم علماء ومتفقون من اليهود قد شرعوا يفسرون الديانة اليهودية وديانها وفق المفاهيم العلمية الحديثة، وينقدون «المهد القديم» على ضوء أفكار سيورا ومندلسون، ويحللون جذور العقيدة ويبرزون ما اقتبسته من الأمم المجاورة لدولتهم القديمة. ومنهم من ذهب إلى أنه ليس في التوراة في حقيقة الأمر حديد، وأنه يكاد يكون برته مأخوذاً عن عقائد مصر الفرعونية وبابلون وفينيقيا. وقد أضحي اليهود التقدميون من علاة دعاة الوطنية والإندماج الكامل، وشاع بينهم هجر التقاليد وأنماط العيش القديمة، خاصة بين الأعياء والمتقنين ذوي التأثير الأكبر في غيرهم، رغم أن اليهودية إنما تُعنى سمط العيش أكثر مما تُعنى بالمعائد. فهم لم يمدوا يحترمون إجازة السبت ومتطلباتها، ولا يحتفلون بالأعياد، ويرونها ضارة بالاقتصاد ومضيعة للوقت ومجحفة بالتجارة. وقد ضاقوا بالتحريم الديني لبعض المأكولات ورأوه يحد من صلاتهم الاجتماعية بغير

اليهود وسأولهم اللواتي قرأن لفلاسفة عصر التنوير وغيرهم قد تُرن على الأخلاقيات اليهودية المتزمتة، وشجس أولادهن على إغفال دراسة التراث اليهودي. وقد انكمش بعد ذلك رجال الدين وزعماء الطائفة، وبخا الاحترام لهم، وانتقل هذا الاحترام للمثقفين وكبار رجال المال والصناعة والتجارة والمهنيين، وهم الذين لم يتلقوا تعليماً دينياً يهودياً عميقاً ولا يكتوثون بثرااتهم. أما الشبيل اليهودي الذي تلقى تعليمه في الجامعات الأوروبية والأمريكية فقد بدأ ينظر إلى ديانتة نظرة رفاقه المسيحيين إليها، وتأثروا تأثراً عظيماً بسخرية فولتير من كافة التقاليد الدينية والحرافات، ووصل جميعهم إلى اعتقاد بأن الدين اليهودي يطالب بإذعان ثقيل الوطأة للتضاليد البالية، وأنه من الواجب تحميم قيوده وتضييق نطاق سلطان رجال الدين. وهم في كل هذا إما يحاولون إرضاء أصدقاتهم ومعارفهم من المسيحيين، وتيسير اندماجهم في المجتمع حولهم، راثين أن الإلحاد أو الاستهفاف بالدين من شأنه أن يسهل قيام علاقات اجتماعية وثقافية أوثق، ويخدم التحرر السياسي والاقتصادي.

تفسير جديد لظهور الحركة الصهيونية :

الاعتقاد الشائع بين الناس هو ان الحركة الصهيونية ودعوة القومية اليهودية هما رد فعل لمظاهر العداء للسامية، ولمظاهر الاضطهاد والظلم التي عانى منها اليهود في شتاتهم. وقد يكفي لبيان فساد هذا الاعتقاد أن نشير إلى أن الدعوة الصهيونية لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي أوروبا العربية، حين كان التحرر اليهودي مساواتهم بمعيرهم قد قطعاً شوطاً بعيداً، ولم تظهر لا في أقطار كروسيا وشرق أوروبا حيث كانت مظاهر العداء للسامية قوية ملموسة، ولا قبل الثورة الفرنسية في عصور الاضطهاد الحقيقي لليهود.

وواقع الأمر في رأيي أن الحركة الصهيونية إنما جاءت كرد فعل لتحرير اليهود ومساواتهم واندماجهم، لا للعداء للسامية.

ذلك أن رعماء هذه الحركة إنما كانوا من بين أناس آمنوا إيماناً قوياً بأن

اليهودية لا يمكن أن تظل قائمة بانتهاء عرلة اليهود وتآكل نمط حياتهم
باندماجهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول
المختلفة التي يعيشون فيها

لقد كانت القومية في الماضي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالدين. أما في
العصر الحديث فقد غدت القومية ذاتها ديناً، وأحدث كافة الدول بالعلمانية
مذهباً، مرتبة أن الدين ليس إلا شأن من الشؤون الخاصة للفرد ولا دخل له
بالحكم وغيره من شؤون الدولة، فأضحى على اليهود إن أصروا على تمسكهم
بمعتقداتهم أن يعدلوا إلههم في دورهم ومعاييدهم، فإن خرجوا منها فهم أعضاء
في المجتمع الذي هم فيه، لهم ما لغيرهم من حقوق وعليهم ما على غيرهم
من واجبات.

نظر دعاة الصهيونية إلى اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، فإذا هم
يرون العلمانيين منهم وهم يعلنون أنهم لم يعودوا في حاجة إلى مسيخ
يخلصهم من الإضطهاد إذ لم يعد ثمة اضطهاد، ويرون المثقفين يجاهدون
باعتقادهم أن الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والواهي الدينية إنما كانت
مرتبطة بأسباب وظروف تاريخية معينة قد زالت وانقضت، وأن استمرار مراعاتها
واحترامها هو من قبيل السفاهة وحطل الرأي والرجعية فهي ليست قانوناً ميتاً
فحسب - على حدّ تعبير بولس الرسول - وإنما هي أيضاً عقبة في سبيل
الاندماج وناسيس روابط الود والإخاء مع أفراد المجتمع حولهم. بل إن بعض
الفلاحين والعمال من اليهود ذوي الحظّ المحدود من التعليم كموا عن الإلتزم
بالأوامر والنواهي، وهجروا فرض المختار الذي هو الطقس التقليدي للدحول
في عهد إبراهيم، وبلدت بهم القنعة والصماعة حدّ وصف كل ذلك بالتقليد
البالية التي لا تناسب أحوال العصر الحديث واحتياجاته

فالصهيونيون إذن هم في الأصل جماعة تؤمن بأن لليهود رسالة خاصة،
وهوية خاصة، قد أضحت في خطر نتيجة انتشار العلمانية والمادية والإلحاد،
ومن اللازم حماية الشعب اليهودي من هذا الخطر بتجميعه في وطن خاص به،

يواصل فيه أهدافه الحصارية دون تدخل أو تأثير من الغالبية غير اليهودية .
وعدهم أن اليهود كانوا دائماً أمة واحدة ووحدة حضارية مستقلة «الوطنية
الحقة ليست في حبّ أرض معينة، بل هي في حبّ الماضي الحصارى وفي
احترام الأجيال التي سقتنا» وقد أعلنوا صراحةً تفصيلهم لوصف اليهود في
أقطار القارة الأوروبية قبل الثورة الفرنسية حين كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واسع
البنطاق دون المساواة . فالحكم الذاتي دون مساواة هو في رأيهم أفضل لليهود
من المساواة دون حكم ذاتي . . أما عن حرافقة «التسامح الديني» فهي ليست
ناجمة عن اتساع أفق وتهذيب طباع كما يدّعي البعض ، وإنما هي ثمرة الإلحاد
الذي ساد أهل هذا الزمان ، وما أسهل التسامح على غير المؤمن!

انقسام اليهود:

وقد كان من بين ما حذّر الصهاينة اليهود منه خطر انقسام اليهودية - شأن
المسيحية - إلى طوائف ذات معتقدات متباينة . وهو بالضبط ما حدث خلال
المائة عام الأخيرة، وبعد قيام دولة إسرائيل بالذات .

«الطائفة الأولى، ويُعرف أفرادها بالإصلاحيين، (ونجد معظمهم في
ألمانيا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية وإنجلترا وفرنسا)، ترفض فكرة
الوطن القومي اليهودي، أو الهجرة إلى إسرائيل، وتذهب إلى أن خلاص اليهود
إنما يكمن في تحقيق المُثل التي نادى بها أسباط اليهود من الالتزام بالمبادئ
الأخلاقية والإيمان بوحداية الله . وهو أمر بمقدور أيّ يهودي أن يحققه في أية
بقعة من الأرض، وبين أيّ شعب من الشعوب . ومثل هذا الالتزام هو نفسه
«المسيح المخلص»، لا الكائن الذي يرمعون أنه سيعود بهم إلى أرض الميعاد
في زمن لا يعلمه غير الله . وعند هذه الطائفة أن الإدماج مطلوب ومرغوب فيه
وفي مصلحة اليهود سواء من الناحية الحصارية أو الاقتصادية أو السياسية
أو الاجتماعية . أما شعارها فهو «كن يهودياً في بيتك، وإنساناً في الطريق» .

أما الطائفة الثانية، وهم الصهيونيون القوميون، فيرون أن إقامة دولة

لليهود في فلسطين ستجعل للحياة اليهودية بؤرة موحدة، وأن فلسطين وحدها هي الأرض الصالحة لانتعاش الهوية والتقاليد والحضارة اليهودية. قد ينظر بعض المحافظين في حين إلى الماضي وقت الشتات والاضطهاد والعزلة، حين كانوا يتمتعون بأكثر قدر من التضامن والتشبث بالتقاليد وبقاء العقيدة وإطاعة الله. غير أنه ما من أحد بوسعه أن يكرر نفس الظروف في العصر الحديث، وأن تحرر اليهود قد بات أمراً واقعاً خاصة بعد هزيمة النازية عام ١٩٤٥، في العالم العربي على الأقل، ويعد أن نصّت كافة دساتير دول العالم تقريباً على الحق في حرية العقيدة، ولم يعد ثمة من لديه الجرأة على معاداة السامية. وقد قامت الصهيونية على أساس تحرير اليهود، وتحرر اليهود جعل من الصهيونية ضرورة لا غنى عنها للإبقاء على اليهودية وحمايتها من أخطار التحرير والاندماج. ذلك أن الوطن اليهودي القومي من شأنه أن يصع المعايير التي يمكن بها لليهود خارج إسرائيل أن يقيسوا بها مدى يهوديتهم. أما موقف المحافظين فلا يمكن أن يكون قوة فعالة للمحافظ على اليهودية في العصر الحديث ما دام على عدائهم للتحرر والمساواة وما كان بمقدور دولة إسرائيل ذاتها أن تقوم إلا على أكتاف اليهود المتحررين، وما حصلوه في جامعات الغرب من المعارف العلمية والتكنولوجية الحديثة، ولولا المساعدات المالية الفخمة التي تلقتها من أثرياء اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، والتي ما كان ليمكنهم تقديمها لولا تحررهم واشتراكهم الكامل في الاقتصاد الغربي، ولولا مؤازرة وتمعيد ونفوذ كبار اليهود في المناصب الرفيعة في الغرب، ولولا التدريب العسكري المكثف الذي حصله الجنود اليهود ممن خدموا في جيوش الحلفاء خلال الحربين العالميتين.

أما الطائفة الثالثة طائفة المحافظين الأتقياء الذين يستكروا تأسيس دولة إسرائيل، ويعتبرون قيامها مخالفاً للدين وصدّ إرادة الله. ذلك أن خلاص اليهود وعودتهم إلى أرض الميعاد لا ينبغي لهما أن يتحققا إلا بقدوم المسيح وتتدخل مباشرة من الرب في الوقت الذي يشاؤه ويحدّه. أما أية جهود بشرية تأتي باليهود

إلى فلسطين، فهي ليست عبثاً وحسب، بل وكفراً صارخاً إذ تحاول تحقيق النتيجة وقطف الثمرة قبل الموعد المقرر عند الله

الوضع الراهن في إسرائيل:

وفي إسرائيل اليوم، تُعرف هذه الطائفة الأخيرة من المتدينين المتطرفين باسم «حار يديم»، أي الاتقياء الذين يخافون الله. وهم يمثلون نحو خمسة في المائة من مجموع السكان، وللكثيرين منهم جذور عائلية في فلسطين ترجع إلى ما قبل وصول الصهاينة الأول إليها، حين كان لا يسكن فلسطين من اليهود غير الاتقياء شديدي التدين. وقد ظلوا حتى مؤخراً يعيشون بمعزل عن سائر المجتمع الإسرائيلي، ويرون أن العلمانية والحدادة اللتين هما طابع هذا المجتمع نهذان ديههم ومط عيشهم، ولا يذلون أدنى محاولة للاندماج أو حتى لشرف فكرهم. غير أنهم في الأعوام الأخيرة باتوا يرون الكثيرين من الإسرائيليين المتدينين تنجبه إلى التعاطف معهم تعاطفاً زاد من ثقتهم بأنفسهم، إلى درجة حدث بهم إلى الخروج إلى النور يعلنون فكرهم، ويعرضونه كبدل للمجتمع الإسرائيلي الفاسد.

وهم لا يزالون على عدائهم للصهيوية التي تريد تحويل اليهود إلى أمة كسائر الأمم، وهو مامن شأنه - في رعمهم - أن يهدم الهوية الدينية الفريدة للشعب اليهودي. وبالتالي فهم لا يشاركون بقية الشعب في الاحتفال بعيد استقلال إسرائيل، وعندهم أن عيد الاستقلال الحق هو ذكرى خروج اليهود من مصر منذ نحو ثلاثة آلاف عام. وعندهم أن الإخلاص للتوراة والالتزام بتعاليمها، لا الوطنية، هما اللذان أعطيا للحياة اليهودية مذاقاً ومعنى، وحفظا الدين على مدى عشرات القرون.

وقد كانت الغالبية العلمانية من اليهود وقت تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، على استعداد لتقبل واحتمال هذه الجماعة الغريبة التي يصر أفرادها على ارتداء المعاطف السوداء الطويلة، وقلانس من الفرو الأسود، (تماماً كهيئة

يهود أوروبا الشرقية في القرن السابع عشر)، وينادون بإغلاق دور السينما والملاهي، وإزالة الملصقات التي تعرض صوراً للنساء في ملابس البحر، ومع مباريات كرة القدم أيام السبت إلى آخره. فقد كان العلمانيون يرون فيهم صورة تذكرهم بأجدادهم وبالماضي اليهودي، وكانوا واثقين من أنه بمرور الوقت، وبعد جيل على أكثر تقدير، ستلتئم هذه الطائفة الشاذة من الوجود.

غير أن هذا لم يحدث. . والدلائل اليوم تشير كافة إلى أن التطرف الديني في إسرائيل في ازدياد، وإلى أن ميزان القوى يتجه أكثر فأكثر إلى أن يكون في صالح الكتلة الدينية التي تسيطر عليها الآن جماعة حارديم، بحيث بات الصهيونيون مضطرين إلى اتخاذ موقف الدفاع. كما توضح الإحصاءات أن متوسط عدد الأطفال في أسر الكتلة الدينية هو ٨، وفي عائلات الصهيونيين ٣،٥، وفي باقي العائلات ٢،٢، وأن الغالبية العظمى من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل هم من بين اليهود المحافظين المتدينين من كل من أمريكا الشمالية وهرب أوروبا.

فإن استمر هذا الاتجاه في التصاعد فلا شك أنه سيحدث تأثيراً هاماً في المجتمع الإسرائيلي، وفي علاقات دولة إسرائيل سواء بالدول العربية أو باليهود في سائر أنحاء العالم. ويمكن المتابع لمجريات الأمور في إسرائيل أن يلمس بواحد هذا التأثير من الآن:

فمن ناحية، نجد الحزب الوطني الصهيوني الذي فاز في انتخابات عام ١٩٧٧ بإثني عشر مقعداً في البرلمان، لم تعد له اليوم غير أربعة مقاعد، ومن المتوقع أن يستغنى هذا العدد في الانتخابات المقبلة، في حين أن الحزب الديني المتطرف «شاس» الذي لم يكن له وجود عام ١٩٧٧، له اليوم أربعة مقاعد، ولجماعة أجودات إسرائيل المماثلة مقعدان.

ومن ناحية أخرى، نجد الأحزاب العلمانية الكبيرة، وعلى رأسها حزب العمال و«جبهة ليكود»، تراقب الموقف واتجاهات الرأي العام عن كثب، لتقرر

على صوتها مع أي الجماعات الدينية يمكنها أن تبرم الصفقات والمحادثات السياسية، مما سيضمن لها الأصوات والتأييد لسياستها مقابل بعض التنازلات في الشؤون الدينية. وبالتالي يرى السياسيون العلمانيون من الأحزاب المختلفة يتنافسون على مراعاة حارديم واستقطابها هي وسائر جماعات الكتلة الدينية التي باتت قوة لها وزنها في أي اقتراع يجري في الكنيست. وقد تمكن إسحاق شامير زعيم جبهة ليكود ورئيس الوزراء في مايو ١٩٨٧ من عقد صفقة مع «شاس»، يقر بمقتضاها موقف «شاس» من موضوع الهوية الإسرائيلية، مقابل امتناع «شاس» عن مساندة شيمون بيريز زعيم العمال ووزير الخارجية في دعوته إلى عقد مؤتمر سلام دولي حول قضية الشرق الأوسط ولو أن بيريز كان قد تقدم إلى «شاس» بنفس العرض بشأن الهوية الإسرائيلية، لكان من المؤكد أن يحظى بتأييد ذلك الحزب لفكرة المؤتمر الدولي.

بقي أن نذكر أن غالبية أفراد حارديم ترى تحقيق أهدافها بالطرق السلمية دون العنف، وينشر الدعوة والترويج لمبادئها لا بأعمال الإرهاب وقد تمكنوا في العشرة الأخيرة من استقطاب اثني عشر رجلاً من نخبة ضباط الطيران الإسرائيليين الذين يعتبرون في إسرائيل صعوة العسكرية والمجتمع، وإقناعهم بالاستقالة وتكريس حياتهم لدراسة التوراة. وقد سارعت حارديم عقب ذلك بطبع المصنفات التي تحمل صور هؤلاء الضباط وتوزعها على شوارع العاصمة والمدن الإسرائيلية الأخرى، للتنليل على مدى نجاح الدعوة، ولمحاولة إقناع الإرهابيين من أعضائها بفضل وسائلهم السلمية على وسائل العنف التي يلجأ إليها هؤلاء، من تفجير القنابل، وتحطيم الحوائط وأكشاك بيع الجرائد، وإرهاب المحالين لهم في الرأي، وهي ظاهرة أشارت الصحافة العالمية في الفترة الأخيرة إلى تفاقمها، خاصة في «بنى براك» إحدى ضواحي تل أبيب التي أصبحت معقلاً من المعازل الأساسية لهؤلاء الإرهابيين

بروتوكولات حُكماء المسلمين

. . قد مضى قولنا في اجتماع الحميس الماضي في بيان أوجه الضعف في النظام الراهن في مصر وهو مأجزة الآن في ثلاث نقاط، كلها معا يمكن لشركائنا وللجماعات الإسلامية التي نمولها أن تستغلّ لصالحها، وأن تُعيد منه

أولاً: إدراك فريق قوّي داخل السلطة أن قوة الحركة الإسلامية المتطرفة في مصر راجعة في المقام الأول إلى مظالم اجتماعية واقتصادية لا ينسحب حلّها وتداركها إلّا على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السلطة إلى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلّا في حالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهم، حتى لا يجتمع على هؤلاء «البؤساء» همّ الصائقة الاقتصادية والاجتماعية، وهمّ اضطهاد الحكومة لهم وقد هيّا لنا ذلك فرصة أن نستغلّ استمرار الصائقة، ويد المصالحة التي تمنحها السلطة للإسلاميين، وإذهابها المتكرر لمطالبهم، في المطالبة بالمزيد من التنازلات، والتوسّع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحفيين والكتّاب والقضاة وكبار رجال الدولة والمسؤولين بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجروا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعاً من خلخلة دعائم النظام القائم؛

ثانياً: ذلك المعجز المضحك من جانب الحزب الوطني عن أن يطرح في

الساحة الأيديولوجية فكراً متكاملأ قادراً على منافسة أيديولوجيا الأقطام التي جندناها، وعن إلهاب مخيلة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها. فالواضح للجميع أن برنامج ذلك الحزب خالٍ من أي فكر متبلور، أو طابع مميز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمة بمجتمعتنا، وهو مأعزوته في حديثي إلى طبيعة الظروف التي نشأ فيها الحزب أثناء حكم السادات. وقد ذكرت أن نقطة البداية هي شاة أي حرب سياسي هي أن يتجه أفراد يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم له برنامج يعكس هذا العكس. وهو بالضبط ما لم يحدث في حالة تأسيس الحزب الوطني الذي جاء نائة على تعليمات من أبور السادات، واحتير أعضاؤه بصورة عموية وتحكمية (بل انتقي بعضهم من أحزاب المعارضة ذاتها)، ثم أنبل على الانضمام إليه عدد هائل من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه أصلاً لولا أنه في السلطة. (وقد أعددت في هذا الموضوع ورقة مفصلة ستوزع على حضراتكم في نهاية هذا الاجتماع)؛

ثالثاً: هزوف مستمر من جانب الأحزاب القائمة عن توحيد صفوفها من أجل التصدي لمد الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معاً أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هية النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهية وروال هذا السلطان. وبالتالي فقد شغلت الأحزاب جميعاً، حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الحظر الذي سيتلهم جميعاً في المستقبل القريب جداً بإدله... فإن تركنا جانباً حزب العمل الذي وقع طوعية في الشرك الذي نصباه له عام ١٩٨٧ بفضل جهود عادل حسين، وجدا حزب الوفد بعمل من منطلق جد غريب، لا هو بالكافي ولا بالمقنع ولا بالعمال، ألا وهو الحيين إلى سوات ما قبل الثورة، سنوات عزه ومجده، ويرتد زمناً بين التمسك بعلمانيته التقليدية التي جلبت له في الماضي تأييد غالبية الساحيين الأقباط، وبين التزلف للتيار الديني ومراضاته، ثم يستقر رأيه على أن مثل هذا التزلف من شأنه أن يفيد في المعارك الانتخابية أكثر مما يفيد التمسك بالعلمانية. أما حزب التجمع فإن هويته الأصلية تصبغ شيئاً فشيئاً

بمرور الأيام، منذ أن أدار ظهره لوصية ليس الشهيرة للحزب الشيوعي السوفيتي بالحرص فوق كل اعتبار آخر على النقاء الأيديولوجي للحزب، والتصحية في سبيله بكثرة أعضائه، راثياً أن مائة صابرة صادقة أكثر فعالية من ألف من ذوي الاتجاهات المائعة والمواقف الانتهازية . وقد أدرك الشعب في يسر ما طرأ على موقف التجمع من ضعف اضطره إلى التسول والاستجداء، حين سعى إلى التغرب من بعض جماعاتنا الإسلامية التي راحا أقل تطرفاً ورجعية من أجل زعزعة الحكم، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء العسكري للحزب قد صاع، وأن موقعه الأيديولوجي قد ماع، فتركوا صموفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تعد هذه التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين . . .

كان هذا هو محور حديثنا في الأسبوع الفائت . ونحن قائلون اليوم إن شاء الله في مهام الدعاة الإسلاميين ووسائلهم في نشر الدعوة إلى نظامنا وهي تجديد الشباب .

مشاعر الإحباط هي حماد دعوتنا:

وأبدأ فأقول، إن كافة الحركات الجماهيرية الثورية، دينية كانت أو اجتماعية أو قومية، تشترك في عدة خصائص جوهرية، كالاستعداد للتضحية بالنفس، والميل إلى العمل الجساعي، والحماس والتعصب الأعمى، والكرامية وضيق الصدر بالآراء المخالفة، والأمل العظيم فيما سيأتي به العد . وجميعها من المشاعر التي يوسعها أن تطلق من عقالة فيضاً هائلاً من النشاط، وتتطلب من أصحابها إيماناً أعمى وولاء مطلقاً .

وجميع هذه الحركات الجماهيرية تستهوي نفس الصنف من الناس، ومن العقلية . إذ مهمماختلفت الأهداف والمبادئ التي يُبدي أصرأدها استعداداً للموت في سبيلها، فإنها - في الأساس والجوهر - تحمل نفس

الطامع، وتربط بينها وجوه شبه عظيمة، لا تكاد العين المجردة معها أن تفرق بين حركة وأخرى.

أهم وجوه الشبه هذه هو أن المقلين على الانضمام إلى أي من هذه الحركات هم في الغالب من الشبان المحيطين بالمفكرين المشائين، الذين يرون حياتهم قد فسدت وتبدد معناها، والذين يُقِلُّون عادةً على الانضمام إلى حركات كمحركتنا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلي كامل بالمبدأ الذي تمثله الحركة. فالإحساس بالقهر والإحباط كفيلاً وحده بأن ينشئ عنه معظم الخصائص التي حدثتكم لتوي عنها. لذلك فإن أنجح وسائل الإقناع التي يمكنكم انتهاجها في تجنيد الأتباع والأنصار هي استعمال إحساس الأفراد بالإحباط، والتكرير عليه، وترسيخه وإلهابه والحيولة دون تبدله أو تصاوله إلى حين استيلائنا على السلطة بإذن الله، باعتباره خير ما يخدم مصالحنا، ويحقق مطالبنا، ويضمن نجاح دعوتنا وحركتنا

والفرد عادة - كما لا شك قد لاحظتم أثناء اصطلاحكم بمهام الدعوة لحركتنا - يميل إلى إلقاء المسؤولية عن فشله على الظروف المحيطة به، والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لا يفقد احترامه لذاته. ولذا فإن عالماً ما نرى أولئك الذين نجحوا في حياتهم، وحققوا معظم ما كانوا يصبون إليه من آمال، وراضين عن العالم حولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم والأنظمة التي يعيشون في ظلها على ما هي عليه، في حين نرى المخفقين المحيطين بشديدي التطلع إلى حدوث تغييرات جذرية في تلك الظروف والأنظمة. فالفاشلون إذن يصرّون دائماً على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشلهم وخيبتهم، حتى إن حاول البعض أن يشير لهم إلى أهمية بعض الاعتبارات الشخصية كالمواهب والمقدرات الذاتية والشخصية والصحة والمظهر الخارجي إلى آخره. أو كما يقول حكيم من حكماء الغرب 'وما يصيب الإنسان من آفة تتوقَّفه عن أدائه مهامه، حتى إن كانت هذه الآفة مجرد

الم في أمعائه، حتى يشور وينري لإصلاح الكون!..

وهذا الميل لدى الفاشلين إلى إلقاء تبعة الفشل على النظام القائم والظروف المحيطة، هو ما يبني عليكم في المقام الأول أن تغلّوه وتغوّره وتدموه بكافة الوسائل.

مفاتيح الغد المشرق:

بيد أن السخط في حدّ ذاته لا يشير دائماً الرغبة في التغيير إذ لا بدّ من أن تتوفر معه عوامل أخرى قبل أن يتحوّل إلى تمرد أو ثورة

فالوثك الذين طحتهم الظروف المحيطة طحناً، والفقراء المعدمون الذين أذلّ المقرّ أعاقهم، لا يتطلّعون إلى تغيير مهما بلغ بهم سوء الحال، ولا يرحّبون بثورة أو يتحوّل جلري، لدرجة أما قد تجد بينهم من المحافظين مثلما نجد بين الأثرياء المخطوظين والنظام الاجتماعي يدين باستقراره لأولئك قدر ديه لهؤلاء . وإذ أن شرط إقدام الفرد على محاولة تغيير الأوضاع هو ألا يرتبط السخط الشديد عنه بالإملاق الشديد، فإني أنصحكم بالأا تصيخوا الوقت والجهد في الدعوة إلى حركة في أوساط الفقراء المعدمين

إن الفارق بين المحافظ والثوري يبع أساساً من موقفهما حيال المستقبل . فخوفنا من المستقبل يجعلنا نتشبّ بمعالم الحاضر، في حين تدفعنا الثقة في المستقبل إلى الرغبة في التغيير . والراصون عن الحاضر ممن حققوا إنجازات كبيرة، أو يعيشون حياة خصبة سعيدة، يميلون إلى التجمّ في وجه كل تغيير جلري، ويرون في كل تغيير تدهوراً، ولا يريدون إلا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه . هؤلاء إذن يخرجون عن نطاق محاولتنا من أجل التجديد والاستقطاب . أما من يشي أن نسعى إلى تجديدهم فالشباب الذي يحذره الأمل في تغيير هائل وجلري ومفاجيء في أحوال معيشته، المؤمن بأنه بالوسع أن تتغير الأمور لمسة واحدة من عصا سحرية، أو بتمتمة عبارة «إفتح يا سمسم» . مثل هذا الأمل هو الكفيل بإثارة الحماس اللازم لإحداث الثورة.

وإنما فشل بطرس الأكبر في روسيا رغم ثورية مطالعته وبرامجه، إما لأنه لم ير ضرورة لإثارة حماس الجماهير لمخططة أو لأنه عجز عن أن يجعل من هذه المخططة قضية مقدسة، في حين أنه من المهم للغاية في أية حركة - حتى إن كانت حركة إلحادية - أن تضعي على نفسها طابعاً دينياً، وأن تدفع الجماهير إلى النظر إلى أعراسها العملية باعتبارها قضايا مقدسة . هذا هو ما صنعه العاشيون والشيوعيون بالأمس، وهذا هو ما صنعه نحن اليوم .

إنه لمن المحتمل علينا، نحن قادة الحركة، من أجل صمان النجاح في الوصول إلى السلطة، أن نحلق الاعتقاد لدى هؤلاء الشباب بأن في حورتنا مفاتيح المد المشرق، وأن نبعث في قلوبهم الآمال العريضة، والثقة في قدرتنا على تحقيقها، وفيما يحبه هذا القدر لهم من كنوز، سواء تمثلت هذه الكنوز في جنات الآخرة وملكوكة السماوات، أو في بناء المدينة الفاضلة، أرض اللبن والمسل، أو في الهيمنة الدولية وفتوح للبلدان على نهج فتوحات عهدني أبي بكر وعمر.

ولا ينبغي هنا إلا أن أشتكم على نجاحكم في خلق هذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير . وهو نجاح لا يدانيه في الأهمية غير نجاحنا فيما فشل فيه بطرس الأكبر من قبل، وأعني إضفاء الطابع الديني على حركتنا، وحلج سمة القدسية على أراضنا، بحيث بات أنصارنا يرون في خدمة أهدافنا خدمة لله وشريعته، وموتهم في سبيلها استشهاداً، وإطاعتنا من إطاعة الله والرسول، والعمل على تكميد مخططاتنا عبادة، والتخلص من أعدائنا بالاغتيال والإرهاب قربة إلى الله وذلقى .

وقد وصلتُ وأصحابي إلى اقتناع بضرورة هذا الأمر حين لمسنا من خلال قراءتنا في التاريخ الإسلامي أن من أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التي أثارها في دار الإسلام اعتبارات اجتماعية أو مظالم اقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً بفكر ديني، وما كان

ليدور يحدد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة تابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غير تحليل الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الشريعة وطريق الدين القويم.

تعتبر المسلمين إذن، وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذاك، كان دائماً تعبيراً دينياً بصورة أساسية. ولنا في طائفة الحوارج دوماً أسوة حسنة. فهم قوم ولوعون بالحرية الدوية المطلقة، ولوعون يش الغارات على القوافل والقبائل من أجل الفتيمة شديدة، والعصر لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذي لم يألوه. غير أنهم وجدوا حاجة إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام الدين. فكان أن خرجوا على السلطة شديدة الوطأة وأنهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بفرض السلب والفتنة وحالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوتق الوشائج بين أفراد جماعاتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

لست مبالغاً إذن حين أقول إن امتخاذا الدين قناعاً لمطامحننا، وعلناً لمصالحنا، هو من جميع الوجوه أعظم إنجاز لشركائنا. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسلام جعل من العسير للغاية على الحكومة أن تفرض طاعتها وطاعة قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا. فمن خال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره. ومن ظن أنه يتلقى الوحي مباشرة من السماء ليس في حاجة إلى أن يُنصت لحديث من في الأرض. فلأي نجاح إذن يمكن أن يعلن نجاحنا في إيهام الشباب بأن غايات شركائنا غايات إلهية، وصالح جيورنا مما تقضي به الشريعة الإسلامية، وتطلّعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سموات. وإنما فشل العلمانيون وغيرهم في استشارة حماس الجماهير، لإحجامهم عن الحديث باسم الله. وكثيراً ما كنت في شبابه أقول لمعارفني من الماركسيين إنهم لو كانوا ملهمين بطبيعة تكوين شعبنا، وبشوايحه واحتياجاته

النمسية، لأقبلوا بمن طيب خاطر على تعليف مبادئهم الماركسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام، ونسبة أحاديث إلى النبي مثل: «من تملكت وسائل الإنتاج عاملاً متممداً جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسده»، أو «من قال بأن قيمة السلمة بحذوها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها، فليتبوأ مقعده في النار» - أو كما قال -.

إنه لشرط أساسي لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم، أن يتورع لديهم اليقين بأن في جمعيتهم عقيدة لا يتطرق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطئ، وفي صفوف جماعتهم قوة لا ترد، وفي انشطارهم مستقبل مشرق جم الوعود. كذلك فإنه شرط أساسي لإقدامهم وحماسهم أن يتمتعوا بجهل مطبق بالمقبات العملية التي تعترض تنفيذ مخططاتهم، وتحقيق آمالهم، وتنفيذ الإصلاحات المنشودة. فالخبرة الواسعة والتجارب العريضة عادة ما تعرقل مسيرة الحركة الثورية، وتبطل من العزم، وتضعف من الأمل. وهذا هو بالضبط سر عزوف الشعب الإنجليزي، بخبراته السياسية عريقة القدم، عن مشاركة الحركات الجماهيرية وتأييد الثورات، وسر كراهيتهم للتمتعص. فهم يعلمون أن عقلية المتعصب كحدقة العين، تزداد تقلصاً بازدياد قوة الضوء. ويعلمون أنه إن كان المحافظ سياسي مفرم بالشروء القائمة، فإن الثوري إنسان يمسى إلى أن يحل محل هذه الشروء شروءاً من صنف آخر غير أننا نقول لهم إنه ما دام العاقل هو من كيف نفسه وفق أحوال الدنيا، والاحمق هو من يسعى إلى تغيير أحوال الدنيا وفق أحلامه، فإن كل نقم أو تغيير يحدث في أحوال الدنيا هو من صنع الحمقى!

التخلص من الذات بميلاد جديد:

ثم يهمني أن أفرس في أذهان حضراتكم فكرة بالغة الأهمية؛ وهي أنه لا يقبل على الانضمام إلى حركة كحركتنا إنسان يحب ذاته ويحترمها ويسعى إلى إنمائها ورعاية مصالحها. وإنما يُقدِّم على الانضمام إليها كل من ينشد

التخلص من ذاته التي يكرهها ولا يريد لها. . . فحركة كحركتنا لا تجلب
 الانتاع بسبب قدرتها على إشباع حاجتهم إلى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام،
 وإنما بسبب قدرتها على إشباع رغبتهم المصارمة في أطراح الذات والتخلص
 منها. . . فهما شوق إلى ذات أخرى، وحيلة مخالفة، وميلاد جديد. . . إلى
 اعتزاز بالنفس يقتلع كراحتها، وثقة تعوض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحل
 مكان اليأس، وإحساس بالهدف يبدد الإحساس بالضياع، وإيمان الفرد بأهميته
 وقيمه وجدواه متى اقترن بغيره في تبني قضية مقدمة. . . وحركتنا تتيح لهم
 فرصة تحقيق كل ذلك، هي بدیل عن الذات البغيضة، تُوحى إلى من انضم
 إليها أنه قد وُلد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن
 تمزج كثرتهم من ثقة الفرد بهم بنمته وياختياره.

فلتحرصوا إذن أثناء دعوتكم وتبصيركم للاتصال على مراعاة هذا
 الاعتبار. وقد سبق للمفكر الفرنسي باسكال أن عرض لهذه الفكرة حي قال:

«يود الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل ويود لو أنه
 سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقي. ويود لو أنه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مُعَمَّر
 بالنفائس. ويود لو أنه موضع حب الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه
 ليست أهلاً إلا لِبُخْضِهِمْ واحتقارهم. فإذا الحيرة والارتباك وقد تملكاه يثيران فيه
 أشد المشاعر إجراماً وأبعداً عن العدل والحق. ذلك أنه قد أصحى وقد علمت
 عليه الكراهية القاتلة تجاه الحقيقة التي تُدينه وتُريه عيوبه ونفاثته في جلاء».

عن الانتهازين والأتقياء المخلصين.

صحيح أن كل حركة جماهيرية تجتذب بالضرورة عدداً لا يُستهان به من
 الانتهازين - خاصة من بين الكتّاب والصحافيين ومحترفي السياسة - ممن ينضم
 إليها على أمل أن تصل يوماً إلى الحكم فيفيد منها على قدر مصلحته إياها وهي
 في المعارضة. . . هذا أمر حتمي، بل ومرغوب فيه إلى حد ما. بل أقولها
 صراحة إنه من المفيد للحركة أن تلجج من بعيد لضعيفي النفوس والخلق بالتمتع

الشخصي الذي سيعود عليهم ، والثمار التي سيجتنيها متى نجحت الحركة . غير أنني أسارع فأقول أيضاً إن قوة الحركة إنما تعتمد أساساً وفي المقام الأول على المحصلين الأتقياء لا على الإتهائين ، وعلى من هم على استعداد للتضحية بالنفس في سبيل القضية لا على من يثقون أنه سيهجر القضية فور أن يتبين عقبات صغلاً تعترض سبيل نجاحها ، أو يلمس أن مصالحه الشخصية قد باتت مهددة .

فالإيمان إذن هو المطلب الأول . . وإيمان المرء بقضية مقدسة - كما ذكرت لتوي - هو إلى حد بعيد بديل عن إيمانه المفقود بذاته . . ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلما تضاعفت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه ، عظم استعداده لأن يضيف المواقف والفصل على أمته ، وعلى دينه ، وعلى جنسه ، وعلى قضيته .

كذلك لا بدّ قد لاحظتم أنه كلما فقد الإنسان إيمانه بجدوى شؤبه الخاصة ، تحول إلى الاهتمام بشؤون الآخرين ، وإلى الاعتقاد بأن من واجبه المقدس أن يتدخل في أمورهم الشخصية ، في لهوهم وجدهم ، في مآكلهم ومشربهم ، في طول لحاهم أو طول جلابيهم . وهو في أقdamه على إفساد حفل بإحدى الجامعات ، تكسير آلات موسيقية ، أو الحيلولة دون عرض مسرحي ، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقساط ، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام ، وهو لا يخدم إلا ذاته . ويخال أنه إنما يمد يد المساعدة إلى غريق ، وما الغريق إلا هو . ويخال أنه يعلمه إنما يشت تواضعه وإنكاره لذاته واستعداده للتضحية بها ، والحقيقة أن زهو بذاته الجديدة لا يدانيه زهو الطاووس ، وأنه لو فقد البحر لما فقد كبرياؤه وخيلاؤه . قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعتذروا أنفسهم ويأخذوها بالقسوة . وأظهروا التواضع في سلوكهم وحديثهم وأكثروا الكبر في قلوبهم ، وإن أحلهم لشدّ عجباً بكسائه المرقع من صاحب الحلة الثمينة بخلته !

طبيعة التطرف:

ثم أمضي فأحدثكم في طبيعة التطرف . قد قلت إن مثل المرء في تحقيق آماله ومطامحه، ووصوله سبب الإحباط إلى اقتناع بأن حياته قد غلتت حاله من المعنى، يخلقان لديه حاجة ماسة إلى الانتقال إلى حزمة قضية خارج ذاته . وما كل أشكال الحماس الرائد والتطرف وإنكار الذات والولاء المطلق إلا من قبيل تعلق المحيط بشيء يضيء المعنى على حياته، ويجدد لديه الثقة والأمل . وإذا أن هذه الحاجة هي الأولى من بين احتياجات الإنسان، وأن إثبات الذات قد يعوق في ضرورته ضرورة الطعام والماء، فإن التعلق بهذا الدليل لا بد أن يتخذ سمة التفاني والتعصب والتطرف، وأن يصبح الأمر مسألة حياة أو موت . وهذا الاستعداد لدى الفرد للموت في سبيل القضية التي جذبت لحياته معناها، هو نفسه أقوى دليل في مظهره على أن هذه القضية هي أعظم القضايا قديمة وأصعبها حجة .

لقد يتساءل أحدكم : ولكن، أية قضية؟ وإجابتي هي : أية قضية . . المطرقة والسندان، الصليب، الهلال، الصليب المعقوف، راية مصر الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة . . كلها قضايا لها سمة الدين، وطقوس الدين، ولها عقيدتها وقديسوها وشهادؤها ومحارباؤها ونبيها الملهم أو الموحى إليه . وكلها مما يمكنه أن يشبع حاجة الشباب الفائق الضائع إلى شيء يؤمن به . وحيث أن كل هذه القضايا وغيرها تجتذب إليها نفس النوع من الشباب، فجميعها متنافسة فيما بينها في مجال نصيب الانتصار، في مكاسب هذه خسارة تلك، كما يصح من المطلق ومن الممكن بالتالي أن يتقل هذا الشاب، ويكل يسر، من الولاء لقضية إلى الولاء لأخرى، وأن يتحمس للثانية تحمسه للأولى، ويضحي على استعداد للموت هنا كما كان على استعداد للموت هناك . وقد رأينا في التاريخ كيف تحول شاول بطبيعته النارية من اصطهاد المسيحيين ليصبح القديس بولس أحد أعمدة المسيحية، وكيف تحول عمر بن الخطاب بطبيعته النارية من اصطهاد المسلمين ليصبح أحد أعمدة الإسلام . قال هتلر في «كفاحي» . «إنه

لمن المستحيل أن يصبح البورجوازي الصغير نازياً، غير أنه من أسهل الأمور أن يتحوّل الشيوعي المتحمس إلى النازية. كذلك فقد كان كارل راديك الزعيم البلشفي يرى في الشاب النازي جنود المستغل في صفوف الشيوعية!

وبحسب نحمد الله على أن الحزب الوطني في مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصري أن يتناها ليموت في سبيلها! كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى قد ضلّت وماعت، ولم يعد في الساحة غير حركتنا الإسلامية مما بوسعنا أن يجتذب المُخْطِطين، وأن يبعث الأمل في عبدٍ مشرقٍ في قلوب الفاشلين واليائسين.

في ألمانيا، رأى كبار الرأسماليين من رجال الصناعة في رعاية نمو النازية أنجع وسيلة لصرب الديموقراطيين الإشتراكيين. وفي إيطاليا رأى مساستها في دعم التعصّب الكاثوليكي أفضل سبيل لصدّ الرّحف الشيوعي. غير أننا في مصر، والله الحمد، لا نرى ساسة ولا مفكرين ولا غيرهم يحطّطون لطرح فكر بدليل عن فكرنا في الساحة الأيديولوجية، يمكنه أن يلهب مخيلة الشباب، ويصدّ الأنصار عن الانحراف في صفوفنا.

الهجرة والجريمة.

وأودّ الآن أن أذكر ملاحظة طريفة. إن الهجرة إلى خارج الوطن نهى عنها للفاشلين المحبطين نفس الآمال التي يُهَيِّئها انضمامهم إلى جماعاتنا الدينية؛ الأمل في التعبير، والأمل في بدء حياة جديدة في أرض الميعاد. ولذا فإن كلاً من المهاجرين وأفراد جماعاتنا هم، في الجوهر، نفس الصنف من الناس. وليس من الغريب أن يتخذ التطرف الديني هو أيضاً شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن. هي هجرة «داخلية» إذن. والمهاجر عن مصر يُنزع تحقيره لمجتمعه بالرحيل عنه، في حين يُتبع المتطرف تكفيره لمجتمعه بالهجرة الداخلية. فهذا «تحقير وهجرة»، وهناك «تكفير وهجرة». وليس من

المصادقة على الإطلاق أن يشهد مجتمعنا في توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطاق الانضمام إلى الحركات الدينية

والأطراف من ذلك ما يتصل بالجريمة ففي نفس الفترة التي رادت فيها جرائم القتل والسرقه والنصب وانتهاك العرص وغيرها في مصر زيادة كبيرة ممتدة، زاد لجوء أفراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهاب والاعتقال وإحراق الكنائس. هذه باسم الشيطان، وتلك باسم الرحمن. وهما أيضاً نجد الاقتران الرمي ليس من قبيل المصادفة. فالأوصاف الاجتماعية السائدة قد أسهمت في زيادة عدد العناصر الإجرامية والكثيرون من هؤلاء المجرمين، بانضمامهم إلى الجماعات الدينية، قد أحضوا عن أنفسهم تلك السرعات الإجرامية الكاسية فيهم بالناسها ثوب الدين والتفوى ومخافة الله وطاعته، فامكن لهم بذلك الاحتفاظ بالنزعة الإجرامية وسكينة الروح في أن واحد. وهو دافع بوسعنا أن نستغله أعظم استغلال في التخلص من بعض أهدائنا، وإرهاب العصب الآخر، وذلك باستدراجنا للمجرم الذي هو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حُلَّيها، لتنفيذ اغتيال الشيخ الدهمي أو محاولة اغتيال حسن أبو ماشا ومكرم محمد أحمد، و«للعنوة» ذي السروع العازم إلى إثارة الشجارات أو الدحول فيها، وتحطيم المتاجر وتكسير الفوانيس بالشوارع، لتنفيذ تفريق الفرق التمثيلية، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار في نوادي الفيديو.

أهواننا

المجرمون إند، والفاشلون المحطون، والماطلون والمراهقون، وكل من ألقى صموية في التكيف أو السجاح في مجتمعه، هم أعواسا الحاليون والقداميون. قد جمعت بينهم الكراهية لهذا المجتمع، فصاروا على أتم الاستعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بينهم لتخريبه، طائين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا. ولنا يضمحى الحجر المرفوض

ركن الزاوية، لمجرد إيحائنا إليهم أن كافة آمالهم المحبطة مستحقّ هور وصولها إلى المحكم.

لا تضيقوا إذن وقتكم في محاولة استمالة العامل العنابر، أو الفلاح القانع، أو الموظف الجاد، أو أيّ امرئ أعفاه جِدّه ومثابرته - مهما بلغ به العقر - من الإحساس بالصياح. ولتركّزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التي باتت اليوم في رُعب من أن تتحوّل إلى بروليتاريا بسبب الأحوال الاقتصادية الراهنة.

وثمة صنف آخر من الناس - من جميع الطبقات - لا بدّ من أن توليهم اهتمامكم، وأعي أولئك الذين يخشون نعمة حرية الاختيار، بل ويمقتونها. وهم بحمد الله أكثر مما تظنّون. فالحرية عنه على من لا موهبة لديه في أن يصنع من نفسه شيئاً، ومن شأنها أن تلقى بنبعة الفشل على عاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به. وقد وصلت إلى إيمان بأن عالية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحرروا من حرّيتهم، وفرازاً من المسؤولية الشخصية. هم يخشون الحرية أكثر مما يخشون اصطهاد السلطة وسُجونها، والخوف ما يخافونه هو تلك المافسة الحرة المعروفة في كل مجتمع حرّ، والتي من شأنها أن تمضج حجرهم وافتقارهم إلى القدرات. وبالتالي يصبح جماعٌ همهم أن يتحوّلوا إلى تروس بلا هويّة في جماعة تسودها المساواة، أو إلى حيوط بين حيوط جمّة في ثوب أوقماش، لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره.

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال الواعدين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، محلّفين ورائهم دفعه الحياة العائلية الأمة التي هي الدّ أعداء حركة كحركتنا وقد علّمنا التاريخ أن جلّ الحركات الثورية كان يقف من العائلة موقف الخصومة والمداة، وأن رجالها كانوا دائماً يعملون جاهدين من أجل الوقية بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنه، حتى

يفضي في النهاية مقدره، وحيداً في محيط لا يأمن له أوفيه، فيسهل بذلك على الدعاة اصطياحه. وما من شك في أنه من أقوى الاعتبارات التي ساهمت في نجاحنا ما شاهده المجتمع في عهد ثورة يوليو من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحزاب، وتحلل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة النزوح من الريف إلى المدن ممن اضطرت نمووسهم، وضاع إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا النزوح. وهو نفس الحال مع الجمود المسروحين من الجيش.

أهمية تحقير الحاضر وتمجيد الماضي والمستقبل.

أشد ما نخشاه السلطة من حركتنا ويُقلق بالها، ذلك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة لتنصحية بالنفس، بل للموت في سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذي يربط بينهم، والذي لولاه لما نما الاستعداد لتنصحية بالنفس. فتدريب الأفراد على العمل الجماعي تدريباً على إنكار الذات، والتشكّر لحياته الخاصة، ولحقه في التفكير الحر واستقلال الرأي، وتدريب على احتقار الموت. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر، وتوهم المرء بأنه جره من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو من تمثيلية رائدة المفخامة، وحلقة صلبة بين ماضٍ مجيد، ومستقبل مجيد، في حاضر تافه بغيض وكل هذا يتطلب عدة أمور: محو شخصية العضو وإحساسه بالتفرد والتميز، وصمان ألا يستشعر الفرح والأسى، أو المعز والثقة، إلا من خلال جماعته وقدراتها ومقدراتها، وأن يشعر دوماً بأن أعين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه بالهوس، وتسفيه المجتمع ورميه بالكفر، لا زمان لاستشارة شجاعة أنصارنا وتوهمهم أنهم لا يحسرون كثيراً بمقد حياتهم. غير أننا لن نكتفي بالقول وتكراره في هذا المجال وإنما يسعي على القادة أيضاً أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنة غليظة، قائمة مملّة، لا لهُر فيها ولا متعة ولا راحة. علينا أن نصوّر لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قلوبهم، والسعي وراء السعادة الشخصية على أنه من وساوس الشيطان، وأن مخترع

الأحاديث في تحريم الموسيقى والثناء والرقص والعروض المسرحية وكل ما من شأنه أن يروج عن النفس، ويخفف من عبء الحياة. ولتسهيل كل هذا فلو جِه أنظارهم دوماً للتطلع إلى روعة المستقبل الذي يتظرهم، وأمجاد الماضي التي سيحيونها. ويسوعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جداً إقناع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبوبكر وعمر بن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الدين أو خالد بن الوليد. ذلك أنه ما من صعوبة في أن سدد من أقدم سلفاً على خداع نفسه، بل وطلباً يومياً بأن نخدعه ونستمر في خداعه، حتى بطش وسترج، وحتى يُلقَى مسؤولية القتل حين يفشل على قوة الجاهلين ويطش أهوان الشياطين، ويُرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقة على عاتقه، في حين يؤثّر فشله في مهام الحياة العادية؛ في الدراسة أو الوظيفة أو التجارة، إلى التضايق قصوره الذاتي وضحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلاً لأنه كان مقتنعاً سلفاً من قبل أن نحاول أن نقتعه، وسيكون خداعه سهلاً لأنه منهياً للكل سلفاً من قبل أن نحاول خداعه.

. . وأهمية إدكاء الكراهية :

قد لا نرى بعض الحركات الثورية الجماهيرية - كالشيوعية والعاشية والنازية - حاجة إلى الله. غير أنه ما من حركة ثورية في التاريخ كله كانت في غنى عن الشيطان وإنما تقاس قوة الحركة بقوة كراهية أعضائها لعدو جدد لهم تجسداً، يرون فيه مصدر بلاكهم وأصل دأهم. دليل ذلك أننا حين نحب لا نلقت حولنا بحثاً عن حلماء، بل وننظر إلى من يشاركنا في هوى المحبوب باعتباره غريباً ومنافساً. أما حين نكره، فنحن دوماً في حاجة إلى من يشترك معنا في مشاعر الكراهية، وإلى أكبر عدد ممكن من هؤلاء حتى تقوى ثقتنا في أننا في كراهيتنا قد أصبنا حين الحق.

وأمراد جماعاتنا بما قُرِّبوا عليه من إنكار الذات، والتضحية بالمتع والملذات، ويشغف حياتهم وخشونة معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا

شديدي الفسوة والمرارة في حقدهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم أسعد منهم، وأرضى نفساً، وأوفر حظاً من السجاح في الحياة وفي تحقيق فواتهم. وقد قيل عن الثوار إنَّ الثورة الفرنسية أنهم كانوا كلُّها أُمعنوا في كراهيتهم لأعدائهم، وفي قطع الرقاب وصعك الدماء، راد إيمانهم بصحة مبادئهم. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف ليس فقط في إرهاب الأعداء وقمع الخصوم، وإنما أيضاً في تعزيز إيمان الإرهابي بعدالة قصيته، كما تعرّره كثرة الأعضاء في جماعته أو كما قال مونتيني في إحدى مقالاته «يوسع الحماس الرائد أن يصح المعجزات، ولكنَّ شريطة أن يستند إلى ما جُبلنا عليه من الفسوة ومشاعر الكراهية».

السلطة والتطرف:

أيها السادة،

تساءل بعضكم في اجتماع الأسبوع الماضي عما إذا كان من المحتمل أن تلجأ السلطات الحاكمة في يوم من الأيام إلى موجة علوية من إجراءات العنف والقمع تجاه حركتنا الجماهيرية، وعن احتمالات نجاح هذه الإجراءات. . وأجيب الآن صراحةً أن أية حركة جماهيرية من الممكن قمعها واستئصالها بالعنف مهما بلغت قوتها وضعفيتها، ولكنَّ شرطاً أساسياً، هو أن يتوفر لهذا الحزم الثبات والدوام والقوة، بالإضافة إلى إيمان قوي لدى رجال السلطة (يعادل في قوته إيمان أفراد جماعاتنا) بأن الحق في جانبهم، وأنهم إنما يقاومون حطراً رهيباً يهدد مستقبل البلاد

وبحي نحمد الله أن هذا الشرط لم يتحقق إلى وقتنا هذا، وأن عتف السلطة وحرصها تجاه التطرف لا يزالان على تذبذبهما وترددتهما وتقطعهما وضعف الإيمان وراهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلاً، ولن يدوما طويلاً. وقد علّمتني الحياة أنه متى تفجّست السلطة بين العنف والتساهل، والمكافأة والمصالحة، والتشدد والتنازل، فسيكون من المقتدر للحركة أن تهيق

دوماً بعد كل كربة، وأن تستردّ قوتها بعد كل هزيمة، بل وستزيد هذه القوة بعد كل مواجهة عيفة معها، بالنظر إلى اكتسابها خبرات جديدة، واكتساب ضحاياها حالة الشهداء الأبرار نتيجة كل صدام.



أيها السادة،

أشكر لحضراتكم صبركم وحسن استماعكم. وسيُفتح باب المناقشة بعد استراحة قصيرة نُقدّم خلالها المرطبات.
وفّقكم الله...

خاطرات على ضفاف الراين

عند القنصل المصري في بون . دخل علينا أثناء حديثنا شاب ألماني عاضب، يستجّل شكواه من أمر وقع له أثناء جولته السياحية بمصر

قال إنه في يوم ٣ مارس توجه إلى مكتب للتعريف بالقاهرة، كي يرسل إلى أبيه في ميونيخ برقيةً يهنّئ فيها بعيد ميلاده السبعين . وقد تسلّم من البرقية موظف يدعى صالح، كان بالغ الظرف والأدب معه، وطمأنه إلى أن البرقية ستصل والده يوم عيد ميلاده الموافق ٤ مارس، ثم تفاصى منه مبلغ ثمانية جنيهات وعشرة قروش أجراً لها، مقابل إيصال مخبوم أرائنا الشاب إياه

عاد الشاب إلى ألمانيا فإذا والده يومئذ توبيخاً عيافاً إذ قد سي أن يبعث إليه بالتهنئة في عيد ميلاده . فالبرقية إذاً لم ترسل . والغالب أن يكون الموظف، رغم ظرفه وأدبه، قد احتفظ بالمبلغ لنفسه . وهو يطلب الآن القسيلة المصرية برزّ قيمة ما دفعه بالمارك الألماني، وإلا فقد احترامه للشعب المصري، وعاهد نفسه ألاّ تغطاً قدماء مصر مرة أخرى.

لم أملك نفسي من الابتسام بعد الاستماع إلى القصة . إذ أين يمكن أن نجد مثلاً أصدق من هذا لعجز أساء اليشأت الحضارية المختلفة عن فهم بعضهم البعض؟ ههنا موظف مصري مائس مطحون، ليس واسع اللعة بالضرورة . ولو أن البرقية كانت خاصة بحادث وقع، أو أرملة مائلة يطلب الشاب من والده إنقاذه منها، لكان من المؤكد أن يرسلها الموظف . غير أنها مجرد تهنئة

بعد ميلاد رجل عجوز وهو أمر لا يمكن للموظف أن يتخيل إنفاق ثمانية جنيهات من أجله . ثمانية جنيهات يمكنه أن يشتري بها نفسه وزوجه وأولاده من اللحم ما لا يأكله إلا مرة كل أسبوع أو أسبوعين . والعالم أن الشاب الألماني سيرحل عن مصر عن قريب، ولن يعلم أن البرقية لم تُرسل إلا بعد عودته إلى ألمانيا . كما أن المؤكد أنه لن يثير صجحة بسبب ثمانية جنيهات، وهو مبلغ لا شك ناه في نظر مواطن من دولة غنية كالمانيا . أما عن الألماني فهو يراه أمراً هاماً أن يبعث إلى أبيه بتهنئة في عيد ميلاده، وأمرأ مستظلاً أن يدفع مبلغاً مقابل حلقة لن تؤذي . وهو يعتبر الموظف مجزماً في حق دولته، ينبغي أن يفصل أو يسجن . والغالب أنه يحسب أن موظف البريد والبرق في مصر يتقاضى ما يتفاهه رمله الألماني من أجر، أو أنه موصوع المرتب لم يخطر بذهنه . وهو واثق من أن الفصلية المصرية ستتعاظم مع شكواه، وستزعج إزاء تأثير مثل هذه التصرفات في حجم السياحة إلى مصر .

تسلم منه الفصل الإيصال، ووعده بالكتابة فوراً إلى السلطات في مصر لاتخاذ اللازم، والتكرم بالإفادة .



دلفت وزوجتي - بعد انتهاء الحفل الموسيقي بصالة بيتوهمن - إلى مطعمها المطل على نهر الراين لتناول العشاء . كانت أصوات كورال سيمفونية بيتوهمن التاسعة لا تزال ترن في أذني، ونشوة أقرب إلى النشوة الدينية تملأ كياني كله . . . وساءلت نفسي عما إذا كانت هناك طُرق إلى الله أقصر من مثل هذا الطريق . ثم قمزت إلى ذهني صورة أفراد الجماعات «الدينية» المتطرفة في أسيوط وهم يحطمون الآلات الموسيقية بالجامعة، معلمين تحريم الموسيقى والغناء . أحمد عدوية وموتزارت على سواء .

جاءت الجرسونة الألمانية إلى مائدتنا تسألنا مبتسمة عن طلبنا . ثم قطعت تدوين الطلبات في دفترها لتسأل زوجتي : «عندك برد يا سيدتي؟» فما أجبتهما

روحتي بالإيجاب حتى اختفت لتعود بعد بضع لحظات بصينية فضية صغيرة عليها كأس من السيد الأحمر الدافئ، وطبق صغير به قرصان من الأسبرين، وشارة بحيلة قصيرة بيضاء بها أدهار الزئبق.

في أي بلد آخر، يمكن أن تأتي هذه اللمعة الظرفية من حارسوبة في مطعم؟ وابتسمت إذ تذكرت سائق السفارة المصرية (وهو حديث العهد بالوصول إلى ألمانيا من مصر)، وحديث إليّ ظهر اليوم وهو يوصلني بالسيارة إلى مدني بوسط المدينة قال وهو يتلفت حوله إلى الرهور والأشجار والأرصفة بالشارع الواسع:

— حسين بك!

— نعم.

— همّ موش كانوا يقولوا زمان إن مصر أم الدنيا؟

— صحيح.

— أمال ألمانيا تبقى أم مين؟



غير أن تفكيري - تحت تأثير بينهوفن - سرعان ما عاد إلى حكاية أسبوط، وبالاحص إلى مقالات استنكار المعللة في الصحافة المصرية ... وجدت غصبي على المتحلفين الذين حطّوا الآلات الموسيقية أخفّ حلة من عصبي على «المستثيرين» الذين أدانوا هذا التحطيم مستندين إلى منسدين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التي تحرّم الموسيقى والغناء أحاديث صعبة أو موضوعة، وأن ثمة أحاديث «صحيحة» تحلل الموسيقى والغناء، وقصصاً في السيرة النبوية تثبت أن محمداً، أو إحدى زوجاته، أو أحد العشرة المبشرة بالجنة، كان يستمع إلى الموسيقى والغناء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحد من التخلف إذن قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد باتت عندنا محصورة في إثبات ورود حديث يصلحها أو يرد حديث. قد أفهم عذراء قوم متحلفين للغناء والموسيقى بسبب ما يخالفونه حديثاً صحيحاً غير أنني لا أفهم أن يأتي دفاع «المستبشرين» عن الموسيقى والغناء مستنداً إلى حديث أو سيرة لا إلى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيل شاباً ألمانياً يتحدث عن الموسيقى على النحو التالي:

«إنني شديد الولع بالموسيقى لأنني قرأت أن مارتن لوتر - فُتس الله روحه - مرّ يوماً هو وزوجته يقوم في قرية قرب فيتنبرج يعرفون ويغنون، فشرعت زوجته تغني مع القوم، بينما وقف لوتر أمامها وهو يهرّ رأسه استحساناً. وفي قول آخر، ظل يلقى الأرض بمقدمة قدمه مسائراً للشم. . . أما عن ثقتي من أن الموسيقى هي من أهم الفنون طراً وأجدادها على البشرية فتابعة عن القصة التي أوردها إدموند لودلو، عن هنري لوتريل، عن أوين فليتهام، من أن بعض رفاق لوتر سألوه يوماً «ما قولك يا مارتن في بابا روما الذي يكره الموسيقى؟» فأجاب لوتر: «دهوكم منه، فهو لا يفقه شيئاً» (وهو حديث متفق عليه).

هل يمكن أن يصادف ألمانياً يتحدث على هذا النحو؟ المعرفة عند الفرنجة هي استخدام المعروف في إمالة اللثام عن المجهول والمعرفة عندنا معشر المسلمين قائمة جاهرة كاملة بين أعلمة الكتب، وكلما كانت الكتب أقدم كانت المعارف أصح. هذا هو موقف متحلفينا ومستبشرينا على سواء. قد لا أعبأ كثيراً بالقرار المتخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها، غير أن الكارثة الحقيقية في رأيي هي في المنهاج، صحته أو عسكه. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون في مستهل القرن السابع عشر بتشكك في النتائج التي وصل إليها أرسطو (وكانت من المسلّمات في القرون المظلمة)، فأصرّ على رفض المسلّمات، وإخصاص كل شيء للتجربة ولإعمال

العقل والتفكير . فإن كان موقف مستيرياً في القرن العشرين على ما هو عليه ، فمن ذا الذي سيعدّ أمناً يا ترى لاستقبال القرن الحادي والعشرين ؟

يا معشر العلماء ، يا بلّج البلد ما يصلح الجّلج إذا الملحُ قَسَدُ؟



على الشاي مع المستشرقة الألمانية أنا ماري شيبيل سألني عن حلالة رأيي في الجماعات الإسلامية المتطرقة ، فأجبت

— حين يفقد المرأة احترام الغير، يوحى لنفسه بأنه يتمتع برصا الآلهة!

— فسر؟

— إن كان من شأن تطوير الدين أن يخفّف من حدة الصراع بين أهله وبين الظروف والأحوال المعيشية والقيم المستجدة ، فإن هناك من العوائق ما لا يسمح باستمرار هذا التطوير إلى ما لا نهاية . . من هذه العوائق :

● أن ثمة حدود للتطوير والتأويل تكاد الكافة أن تجمع على أن تجاوزها يشلّ خروجاً على الدين .

● لجوء الفقهاء لظروف معينة إلى قفل باب الاجتهاد .

● ظروف تسمح بغلبة علماء الدين المترنّمين ضيق الأفق ، وسيطرتهم على الحياة الفكرية في مجتمع معين .

● جمود وانعلاق وعزلة طويلة الأمد تسمح باستمرار العقيدة دون تطوير ، ودون احتمالات صراع . وقد تنهي هذه المرحلة فجأة (نتيجة غزو عسكري وحضاري قوي مثلاً ، كذلك الذي تعرّض له العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر) فتتدفّق على ذلك المجتمع قيم ومعايير شديدة الاختلاف ، ودون تلرج أورق ، بحيث لا يسهل دمجها واستيعابها وتبنيها . أما السبب في شدة التباين في القيم فهو انعدام أو ضعف

الاتصال والتأثير المتبادل التدريجي بين المجتمعين لقرون طويلة

وقد تكون الصلحة الحضارية هـا من القوة والفسوة، والفجوة بين المفاهيم من الاتساع، بحيث يعجز الكثيرون عن مواجهة هذه عبور تلك دون التعرض لحظر فصام الشخصية، فيفضّلون التمسك بما ألفوه على محاولة التكيف والتأقلم وملاءمة الفكر للأحوال الجديدة. وبالتالي، وبسبب هذا الموقف الذهني، تبدو عقيدة هؤلاء عاجزة عن مسايرة العصر، وتبدو لغيرهم عقبة في سبيل التطور والتقدم والمعاصرة والتكيف وفق تطورات حتمية وهـا ينشأ عادة صراع مرير بين الرجعيين والمستنيرين، بين الفضي التطوير وقابليه، تكون ثمرته مرارة شديدة لدى جماعتيهما، وشك عميق من جانب كل طرف في نوايا الآخر، ورذ فعل عنيف من جانب العصر يمثل في هجر الدين بأسره باعتباره من الأوهام البالية، ودعوة إلى تشييد صرح فكري جديد على أنقاض العقيدة الدينية. وغالباً ما يكتب النجاح لهؤلاء الأخيرين، بحيث يتحوّل أنصار التشبث بالقديم إلى جماعه من المتخلفين عن ركب الحضارة. غير أن جماعتهم لا تستسلم بسهولة للمصير الذي ندرك لا شعورياً بأنها آيلة إليه. وهـي في نفس الوقت لا تملك الإمكانيات العقلية والروحية التي تؤهلها لتجنب هذا المصير بانتهاج سبيل غير السبيل الذي اختارته مضطرة بسبب ضعف هذه الإمكانيات. وهـنا يحدث لها ما يمكن تشبيهه بصحوة الموت، ويتحول أفرادها من الاعتدال والجدال المهلّب الوائق من نفسه، ومحاولة التوصل الهادئ إلى حقيقة الأمور، إلى العنف وأعمال الإرهاب والاعتتيال والبطش بالمخالفين، وتكفير المجتمع، والتجتميع في إطار جماعات دينية متطرفة، كمحاولة أحيـرة بآسة لإثبات الحق في البقاء.



تمشية طويلة على ضفة نهر الراين.. ليس ثمة أجمل من المناظر إلى

يميتك غير المناظر إلى يسارك. . الأزهار والورود في أحواصها لا يعبت بها عات، ولا تمتد إليها يد إلا بالرعاية. فالأزهار تترك حتى تدبل على أعصابها ويستقبل الثري أوراتها. . فيا ألف حسرة على الأزهار في الشرق. . وعلى الإنسان في الشرق. . . أب وأم قد خرجا بطمعهما الرصيع لاستقبال أشعة الشمس وكلهم على مقربة منهم يعدلون لهث حيلة ودعاباً في ابتهاج لقيف من السيدات في السبعين أو الثمانين في ثياب ربيعية الألوان، وقبعات أنيقة، يسرحن على المقاعد من سيرهن، وإذا اقترب منهم أسمعهن يتحدثن في أشعار هايني. . شاب وثقة على دواجنهما يتحدثنان مبتسمين وقد أمسك كل منهما بمجلة القيادة بيد، ويد رفيقه باليد الأخرى. . قد عشت فيما مضى سنوات بين ظهرائي هذا الشعب، فما رأيت من بين شعوب الأرض من هو أظهر وأعفت منه عشقاً، ولا رأيت رجلاً أحرص من الرجل الألماني على النظر إلى المرأة باعتبارها بشراً، ورفيق حيلة، واختاً في الحياة الإنسانية، لا موضع شهوة، ولا رمزاً جسيماً، ومحلّ تحكم واستعباد. . ومع ذلك فإن بعض السالحين العرب ممن يقدمون إلى هنا بحثاً عن المتع الجنسية، وهيونهم تكاد تغفر من محاربتها كلما لمحوا فستاناً في الطريق، لديهم من القنعة ما يجعلهم عند عودتهم يتحدثون عن انحلال الأخلاق الجنسية هنا بالمقارنة بأخلاقيات مجتمعتنا الطاهر.

وأعود من الجولة إلى فندق في فادير التيليفزيون للاستماع إلى نشرة الأخبار. . القوم مشغولون بإجراءات الاستعداد للوحة الأوروية عام 1992، واجتماعات وزراء مالية واقتصاد وراعة وصناعة وتجارة دول المجموعة. غير أن الأولوية في أنباء الساعة هي كالمادة للشرق الأوسط والعالم العربي! مناظر مرعبة لضحايا الأسلحة الكيميائية في شمال العراق. أفراد عائلة كردية أموات حول مائدة طعامهم. أم ميتة تحتضن طفلتها الرضيعة الميتة على أسفلت الطريق. . شيخ جاحظ العينين قد أسند ظهره إلى حائط البدرم الذي أوى إليه متوقفاً أنه سيعصمه من الموت. ثم أنباء قصف المدن في حرب الخليج.

المباني الأثرية في عروس الدنيا شيراز التي ألهمت أشعار حافظ وسعدي في حراب، وكذا آثار أصمهان . والأحياء السكتية في بغداد وطهران والبصرة وغيرها، وحول المباني المتهدمة فيها يقف ساكنوها السابقون حياري يلطمون . ثم أنباء الطائرة الكويتية المحتلقة والحاطون يلقون منها في مطار لارمكا بجثة إنسان في كيس قمامة إلى أرض المطار . ثم أنباء الصدمات بين حزب الله ومنظمة أمل في لبنان . . وأنباء عن تدفق الصبية السوداني اللاجئين من حرب الجنوب في السودان إلى إثيوبيا والصومال . ثم مناظر عن استعدادات الصحراويين في تدفد لشن هجمات جديدة على المعاربة .

وتقفز إلى ذهني قولة رسول الله للأوس والحزرج يوم نادوا بالمدينة لقتال بعضهم البعض « يا معشر المسلمين أبدو عى الجاهلية وأما بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألف بيسكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً!! » الله الله!! . ولكن هيهات! فزغاريد النصر التي سمعناها بالأمس في طهران إنما تسجل إبادة جيش من المسلمين لجيش من المسلمين. وزغاريد النصر التي سمعها اليوم في بغداد إنما تعبّر عن فرح إد يقوم مسلمون بتدمير ثروات المسلمين. وكل من هؤلاء وأولئك إنما يستعنون على هذه الإبادة وهذا التدمير بأسلحة يروّدهم بها مرجة لا يريدون لأولئك أو هؤلاء الخير، ولا يهتمهم في شيء أتى العريقين على حق في غصبه وفي حربه، وإنما يهتمهم إنهاك قوى الفريقين، وتبديد ثرواتهم، وإنهاك قوى الإسلام، وتبديد قدراته وإمكاناته

وأمرع إلى كتاب المنقري «وقعة صفين» لأعيد قراءة هذه الكلمات لأحد المسلمين الذين حضروا الحرب بين عليّ ومعاوية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولأنظر فيما إذا كان فيها حرف واحد لا ينطبق على حال الأمة الإسلامية اليوم قال:

« كانت حياتنا ورقاً لا شوك فيه فأضحت شوكاً لا ورق فيه . . خيار الناس يقتلون خيار الناس، دعوتهم واحدة، ورسولهم واحد، وصلاتهم واحدة،

وحجتهم واحد . وكل فريق يرى أنه على الحق فيما يطلب، وأنه إنما يعصب الله ويقاتل في سبيل الله ! ألا والله لقد هلكت العرب ! سيعون ألف مسلم في القتلى ! ! من لقتال المشركين إن فني الساس ؟ من لحمايه الشام بعد أهل الشام، وحماية العراق بعد أهل العراق ؟ لو دنت أنهم قتلوا في سبيل الله في حرب الروم، وما أرى غير أنه سيجيء الفرقاء يوم القيامة تضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيما أرى حمة . . يقول عليّ إن العراق لن يستقيم أمره إلا بهلاك الشام . ويقول معاوية إن الشام لن يستقيم أمره إلا بهلاك العراق . . وما حيرنا بعد صياح الشام والعراق ؟ الله الله في الإسلام يا رجال ! الله الله في الثعور ! أكلتنا الحرب وقُتلت الرجال، ومبعضهم في الدماء وما أصرحكم القتال ؟ ألا أُنتم الله منكم أولادكم كما أبنتم أولاد المسلمين ! سيوف المسلمين قد أرسدت لقتال العدو لا لقتال الصديق . ولكن لا رأي لمن لا يُطاع ! لا رأي لمن لا يُطاع !



في جريدة الصباح (دي فيلت) تصريح للحكومة الألمانية تعترف فيه بأنها هي التي رُوِّدَت العراق وإيران بالمواد التي صُغت منها الأسلحة الكيميائية وإن كانت قد زُوِّدتهما بها لصناعة المبيدات الحشرية لا الأسلحة . . لا بأس ! ما عليكم ! هي لا تزال مبيدات حشرية . كما أن أكياس القمامة المنقاة من الطائفة المحتطفة لا تزال أكياس قمامة . .



برامج ديني في إذاعة كولن العربية سؤال من مستمع يعني يجيب عنه أحد شبوخ المركز الإسلامي بمدينة كولن :

السؤال : استخدام التليفون، حلال هو أم حرام ؟

الإجابة : استخدام التليفون حلال إذا ما استُخدم فيما أحله الله، كتهنئة

قريب، أو تعزية صديق، وحرام إذا استخلم فيما حرّمه الله، كاتفاق على منكر، أو تهديد بمكروه... قال تعالى...

لا بأس! ما عليكم! وما صرّ الالامك أن يذبحوا في إذاعتهم العربية الإجابات السخيفة على أسئلة سخيفة ما دامت هذه الأسئلة هي كل ما يشغل أذهان شعوبنا المتخلفة..



في مقهى «بونار كافيه هاوس» مع صديق مصريّ يعمل بالسفارة.. شكا لي من آلام رهيبة في المعدة نتناه كل بضعة أشهر منذ حلوله بألمانيا ولا يعلم لها سبباً.. أجبتة على الفور:

— أشاهدت فيلم «المهاجرة» للمخرج الألماني فاسيندر؟

— لا.. لماذا؟

— حاول أن تشاهده، فهو معروض الآن بإحدى دور السينما في باد جودزبرج.. إنه عن عامل جزائري مهاجر إلى ألمانيا. وإذا يصاب بآلام رهيبة في المعدة بعد قدومه بأشهر، يهرع إلى طبيب ألماني، فإذا بالطبيب يخبره أن تسعة أعمار المهاجرين إلى ألمانيا من الدول المتخلفة يصابون بمثل هذه الآلام كل ستة أشهر، وأنه قد تبين أنه لا سبب لهما غير الصدمة الحضارية التي نتابهم نتيجة العيش في دول متقدمة.

قال صديقي في صيق: ماذا تعني؟ لقد عشت سنوات طوالاً في كندا وإنجلترا والولايات المتحدة السوفيتي والأرجنتين.. وما أنا ممن يمكن أن يُعنوا بالتخلف، أو يصعب عليهم التأقلم والتكيف، أو يجدون الحياة في ألمانيا غريبة عليهم.

أجبتة بقولي: ولو.. ثم غيّرت الموضوع.



في منى إدارة جامعة بون مع ابنتي نسرين لتقييد اسمها طالسة بالجامعة قلبي وقلب أمها يكادان ينقطعان لفكرة افتراقها عنها مدة أربع سنوات كاملة. . غير أنني إذ أمسكت بالقلم لإمضاء التعمد بالإتفاق عليها طوال مني للدراسة، أحسست وكأنما أركبها سفينة نوح، أعود بعدها مع أمها إلى اليوم. .



في قديم الزمان، كان البحارة متى أحذقت بسفبتهم المتاعب، وأسفط في بد الرئان إذ يرى اضطراب البحر وصحب الأمواج والرياح، هتفوا صائحين. لا بد أن ثمة جنة قد أحضت في أحد صناديق الضائع المشحونة على ظهر السفينة! ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محنتهم، ويبان التخلص منها بإلقائها في البحر كضيل بأن يرفع عنهم ما حل بهم من بلاء ولعنة.

هل أحلو حذو هؤلاء - وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح واضطربت الأمور واختلت الأوضاع - فابحث عن الجثة المسؤولة في حمولة السفينة؟ لا شك في أن البحث سيكشف عن علة جث لا جثة واحدة. . غير أنني واثق من أنني سأجد إحداها وقد بلغت من الضحامة والعف درجة لا تدع مجالاً للشك في أنها المسؤولة الأولى عما أصاب سفينة العالم الإسلامي من نقمة. ألا وهي استمداذ أثناء الأمة لتمكين بد الماضي الميتة من أن تفيض على أعناقهم، وتمسك بخناقهم، ولأن تتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته في حاضرمهم ومستقبلهم.



الفجوة بيننا وبينهم هي اتساع، ما هي تلك رية، وسرعة مخيفة، وبرعم كل ما تبدل حكوماتنا من جهود من أجل ما أسماه أخي جلال وتحديث المقروء في كتابه بهذا العنوان. ويومئذ أن نلتبس للأمر آلاف الأسباب، غير أن منظوراً

واحداً هذا الصباح في شارع سمارك الذي قصدها لنقل أمتعة ابنتي بسري إلى شقة فيه ، وضع يدي على سبب جوهرى قد يفسر الفجوة .

سيارة مكشوفة يركها أربعة من الشباب الألماني وقد أداروا المذياع فيها هجاء صوت الموسيقى منه أعلى مما ينبغي . وإذا تقف السيارة عند إشارة مرور حمراء ، يتقدم من الشباب شيخ ألماني عاضب ، يعنفهم على صخب مذياعهم الذي قد يزعج المارة والسكان ، فلا يحاولون تنويعه ، ولا يخفصون الصوت ، بل ويشيح أحدهم بمرأه في وجه الشيخ هائناً . فما يكون من الشيخ إلا أن يخرج ورقة من جيبه ، وقلما من جيب آخر ، يسجل رقم السيارة من أجل إبلاغ الشرطة . فإذا بالأربعة يقفزون من سيارتهم على الفور بعد إغلاق المذياع ، ليحيطوا بالشيخ على الرصيف ، متوسلين إليه أن يمتص رلتهم .

أئمة ما هو أصلى دلالة من هذا الحادث على الفارق بيننا وبينهم ؟ هذا الإحساس المدني ، هذا الشعور لدى الفرد بالمسؤولية عن المجتمع بأسره ، هذا الالتزام الصارم بالقاعدة الإسلامية التي هجرناها نحن وتبناها هم والتي تقضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذه المصالح ، هذه الإكثارات ، هذه الجدلية في تقييم الحياة ، أي شيء من كل هذا قد بقي لنا ونحن نردّد في كل مناسبة مماثلة . . . وما هم صلّ على النبي ! هوّ إحنا حانصلح الكون ؟ ! أو دحلّيس . . . دي عرفانة عرفانة . . .



﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أي هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله، وليعلم المؤمنون﴾

لقد التقى الجمعان في زمننا هذا ، فأصابت العالم الإسلامي مصيبة هي من عند نفسه ، وأصبح اليوم أشبه شيء بخالية النحل التي فقدت ملكتها . قد نرى النحل مستمراً في مجبه ودهابه ، وقد تحسب هذه الحركة حياة . غير أننا

متى اقتربنا من الخلية لتأملها بعناية، هالتنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطرافها فيها بعد رحيل الملكة، والتي جعلت من الأجندي التخلّص من الخلية بإلقائها طعمة للثيران.



أخبار فيضان نهر الراين تشغل صفحات كاملة من الصحف هنا. نلّينا أخبار قصيرة عن الجفاف والقيح في أفريقيا السوداء ولايات عديدة من البرازيل . وفي المساء، حديث طيّ في التليفزيون عن كيف أن أحد الأسباب الرئيسية للموت لدى الألمان علمي 45 و 1946 كان فقر التغذية، فأصبحت البطنة اليوم والإفراط في تناول الأطعمة الدسمة أبرز أسباب الوفاة.

لينا سبحانه الله! فيضان مدّمر هنا وجفاف مدّمر هناك. وبطنة ملوّنة هنا ومجاعة ملوّنة هناك. أفما هناك وسطٌ عدل؟



زيارة للمنزل الذي ولد فيه كارل ماركس بمدينة تريو . لقد تنبّأ الرجل في القرن الماضي بأنه من شأن النظام الرأسمالي أن يُزيد الفجوة بين مستوى معيشة الأغنياء ومستوى معيشة الفقراء، وأن من شأن تزايد اتّساع الفجوة بين الطب أن يجعل بشورة الكادحين . غير أن الواضح كالشمس أن الكثير من النظم الرأسمالية (ومنها النظام الرأسمالي في ألمانيا الغربية) قد أمكنه في القرن العشرين أن يُحيط نبوءة ماركس عن طريق العمل على تضيق هذه الفجوة بشنّى الوسائل ورفع مستوى معيشة أفراد الطبقة العاملة بها، وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية ينفي شبح الثورة ويبعد أسباب التوتر والسخط.

ومع ذلك، فإن نبوءة ماركس بدأ يظهر صدقها واحتمال تحقّقها في مجال آخر ما كان هو نفسه ليتوقّعه أو يحلم به، ألا وهو اتّساع الفجوة بين مستوى المعيشة في الدول الغنية والدول الفقيرة، مما ينذر الآن بأوخم العواقب في

ميدان العلاقات الدولية. لقد تمكن عدد من الدول من تحقيق رفاهية في عيش شعوبها تصل أحياناً إلى حدّ البذخ، في الوقت الذي تتعاقم فيه المشكلات الاجتماعية والضائقة الاقتصادية في دول أخرى. وقد كان الفقراء في الماضي أقل إحساساً بفقرهم، وأقل تبرّماً به، وثورة عليه من فقراء يومنا هذا الذين باتوا يتركون جيداً - بفضل الإذاعة والصحافة والسينما - كيف يعيش غيرهم في الدول الغنية المتقدمة، وما يتلقّون فيه من تعيم وترف. فالفجوة قد صارت واضحة لكل من يرى وأخذ تسمع. ومع وضوحها زاد إحساس الفقراء بفقرهم، وضيقتهم بوضعهم، وثورتهم على واقعهم، إذ تحرّمون مما يرون غيرهم يستمتعون به. وقد نما عندهم من التطلّعات والمطامح ما لم يعرفه أجدادهم، وما ليس بوسع اقتصاد الدولة الفقيرة أن يحقّقه لهم أو يُشبعه.

وبالتالي فقد غلب عليهم الشعور بالقهر والإحباط والسخط والمذلة، وهي مشاعر كثيراً ما سادت تجد متنفّساً لها في حروب أهلية، أو حروب بين الدول المتخلفة ذاتها، أو في أعمال عنف وتخريب، أو في عمليات إرهابية تنفّذ ضدّ مصالح الدول الغنية في الخارج، أو في أراضيها ذاتها وضدّ رعاياها.

وقد بدأت الدول الغنية تستشعر القلق إزاء هذه التطورات، وتدرك أن أمنها وورغد عيشها لا يمكن الاطمئنان إلى استمرارها ما دامت هناك شعوب ودول خارج حدودها تعلب عليها مشاعر البسود والإحباط والإحساس بالظلم والقهر. وقد يحسب رؤساؤها والسلطات فيها أن الخطر محسّر إن هي اتخذت الإجراءات القوية لمحاربة الإرهاب، أو لمنع اختطاف الطائرات، أو عزّزت من حراسة مصالحها في الخارج، أو حدّثت من دخول رعايا الدول الفقيرة إليها أو أبعدتهم عنها، أو وحدّت جهودها مع جهود غيرها من الدول الغنية لوضع حدّ لهذا الخطر المستفحل غير أن الخطر - في اعتقادي - سيظل ماثلاً وقائماً ما دامت المظالم ماثلة، والفجوة بين الشعوب قائمة، وما دام السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في نطاق الأفراد والطبقات في الدولة الواحدة لم يتبعه السعي إلى تحقيقها بين الدول كافة

كان المسيح يقول: «لكي تكون كاملاً، بع ما تملك واعط الفقراء» لم يقل إن هذا التصقّق واجب للصالح الفقراء، وإنما ذكر أنه لصالحك أنت، ولكي تكون كاملاً.. وهو بالصبط ما ينطبق اليوم حيال الدول العبية لكي يكتمل نعيمها.



في القطار من بون إلى فرانكفورت أقرأ في مقال بالصيغة الأولى من «الهيرالد تريبيون» عن مشكلة العمال الأجانب في ألمانيا، من أتراك ويوغوسلاف وعرب. يذهب المقال إلى أن حماس الألمان المشهور للعمل قد حبا بعض الشيء، وأنهم قد باتوا يفضلون ممارسة هواياتهم الخاصة، وينصرفون عن الأعمال الوضيعة كجمع القمامة، وكس الشوارع، والأعمال اليدوية وبيع الصحف والماكهة والخضروات، وهي أعمال صار الأتراك والعرب واليوغوسلاف يقومون بها، إلى النشاطات القيادية في المصانع والمؤسسات.. ثلاثة أرباع العمال في صناعة السيارات الألمانية مثلاً هم الآن من المهاجرين الأجانب، والربع الألماني متفرغ فيها للإدارة والرقابة والاختراع.

ليس من المحتمل أن يكون هذا الوضع بطيئاً بما سيكون عليه الحال في المستقبل غير البعيد بصدد الدول المتقدمة جمعاء والدول المتخلفة جمعاء؟ أن ينخصص رعايا المتخلفة بعد انقضاء أجل الصراعات الدموية فيما بينها، وحين تكفّ في النهاية عن اختطاف الطائرات وإلقاء المتفجرات في مطاري روما وفيينا، في الأعمال الوضيعة التي يمزف رعايا الدول الغنية عن القيام بها، ويتفرّع الآخرون للفنون والرياضة والاختراع والتكنولوجيا الرفيعة، وإحكام الرقابة على المتخلفين؟

كل الدلائل الراحنة تشير إلى هذا الاتجاه.



في مطار فرانكفورت لاستقلال الطائرة الجزائرية عائداً إلى الجزائر .
الغالبية العظمى من الركاب في انتظارها من العرب ، كلٌ يحمل أحمالاً من
البضائع الألمانية . وإذ تعلن المصيفة في الميكروفون عن بدء استقبال الطائرة
لركابها ، إذا بهم هجأة يهبون من مقاعدهم ويهرعون إلى الباب رقم 32 ، يدفع
بعضهم بعضاً دعماً غليظاً ، ولو كانوا أطفالاً أو نساء ، حتى يكون لهم السبق في
الصعود إلى الطائرة . وتحاول المصيفة الألمانية في البداية إقناعهم بالتريث
والنساء ، شارحة لهم أن المقاعد محجوزة لكل منهم ، وعلى بطاقات الصعود
أرقامها ، فلا داعي إذن للتزاحم والتدافع . غير أنها إذ تمشل في إقناعهم تلجأ
إلى النهر والتفريع . وإذ تفشل في هذا أيضاً ، تلجأ بلراعتها يائسة وعلى وجهها
تعبير من الازدراء الجَم . وأحاول أنا وزوجتي أن نلفت نظرها إلى أننا لسنا من
المزاحمين المدافعين ، وإلى خطواتنا الهادئة البطيئة ، صاها أن نظننا من
جنسية أخرى . . غير أننا رأيناها مع الأسف تشيح بوجهها عن الجميع ، وتدير
لنا ظهرها . وهو ظهر احتكّ بمؤخرته أحد المسافرين العرب ، وكأنما هن غير
قصد . . .

تاريخ الإسلام

من روايات جرجي زيدان

شهدت الفترة ما بين عام ١٨٨٢ وشوب الحرب العالمية الأولى، اردهاراً اقتصادياً في مصر، وقلداً عظيماً من حرية التعبير، كان لهما المصل في إرساء الدعائم اللازمة لقيام نهضة فكرية. وقد اجتذبت هذه النهضة سحبة من العلماء والأدباء والصحفيين في الشام حيث كانت وطأة الحكم العثماني تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، وحيث كان المسيحيون بالأخص يلقون من الاصطهاد ما دفعهم إلى الهجرة زرافات ووحداناً إما إلى العالم الجديد، وإما إلى مصر التي باتت لها في العالم العربي مكانة فريدة لا ينافسها فيها قطر آخر.

وقد تولد عن هذا التلاقي والتلاحق بين أفئدة المصريين والوهابيين حركة فكرية مشقة، وظهور عدد كبير من الصحف والمجلات والمطابع والجمعيات، وبزوع نجم حشد من ألمع الشخصيات في أدبنا الحديث. وقد ساهم في إنضاج هؤلاء، وفي توسيع أفقهم ونظرتهم إلى العالم الخارجي وإلى أنفسهم، سعة اطلاعهم النسبية على الآداب الأوروبية، وتأثرهم الإيجابي بشار الفكر العربي، مما أدى بمصي الوقت إلى هجرهم الأساليب السلاعية العتيقة، واتجاههم إلى تبسيط اللغة، وتغليب المعنى على اللفظ، واستحداث الكلمات الكفيلة بالتعبير عن الأفكار الجديدة، وابتدأه النماذج الأدبية العربية وكلها سمات من سمات الأدب العربي الحديث، بحيث يمكن اعتبار ذلك الجبل مؤسسه ورافع رايته.

كذلك فقد كان من أثر احتكاك هؤلاء بالفكر الغربي، أن دفعهم دفعا إلى النظر من جديد - وعلى نحو أكثر عمقا - في تاريخهم وتراثهم الحضاري وكان منهم من ركز جهوده على دراسة تاريخ قطره دون غيره من الأقطار العربية أو الإسلامية، لينبيري بعد ذلك للدفاع عن تطلعات هذه القومية أو تلك، عن طريق إبراز جذور مصر الميعونية، أو جذور إيران الهندية الأوروية، أو الجذور التركية المنسقة عن آسيا الوسطى، ندلاً من التأكيد على التراث الإسلامي الذي يوحد بين كافة هذه الأقطار وإنه لمن الغريب حقاً، ومن الشائق، أن يكون من أبرر الداعين إلى التأكيد على هذا التراث الإسلامي، مسيحي من لبنان، هو جرجي زيدان.

قد كان ثمة من بين مواطنيه المسيحيين، مثل يعقوب صروف وفارس نمر مؤسس مجلة «المقتطف»، من استمر معه تأثير التعليم الديني الذي تلقاه في حدائنه بمدارس كالمدرسة البروتستانتية في بيروت. وكان منهم من ساورته الحشة نتيجة لما عاناه المسيحيون من اضطهاد على يد العشمايين، من أن يؤدي التركيز على التراث الإسلامي إلى تأكيد ذاتي إسلامي يصحح المسيحيون العرب من جرائمه. وبقي جرجي زيدان، في ثلة قليلة، يرى أن التاريخ العربي والتراث الإسلامي ينبغي أن يكونا من المكونات الفكرية الأساسية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً، ويحلم بأمة عربية تصمم جميعاً على أساس من المساواة التامة في الحقوق والواجبات، شأن أتباع الديانات المختلفة في أقطار أوروبا الليبرالية.

وقد سعى الكثيرون غيره، كبطرس البستاني وناعيف اليازجي وابنه إبراهيم، ثم ذلك الكاتب الفذ جميل محلة الملبور صاحب كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» (١٨٨٨)، إلى إثارة اهتمام العرب بأمنجاد تاريخهم وعظمة ماضيهم. غير أن زيدان كان أنجحهم في خلق الإحساس العميق لديهم بذلك الماضي، سواء بكنايه الكيسرين «تاريخ التمدن الإسلامي» بأجزائه الخمسة، و«تاريخ آداب اللغة العربية» بأجزائه الأربعة، أو برواياته التاريخية

الإسلامية الثماني عشرة التي عالجت تاريخ العرب منذ أواخر العصر الجاهلي (قتلة عسان)، إلى عصر السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر (الانقلاب العثماني). وقد كان في هاذين وتلك ملحاً محطصاً يقره الإعجاب بالحصارة والأدب العربية، مع علم غريب، ونظرة شاملة، وأسلوب شائق رائع، ولغة سهلة طيعة

وقد اتهم عدد من المؤرخين المتخصصين بعض مؤلفاته بالسطحية، ورأى رواياته تنفرد إلى التحليل النفسي العميق لشخصياتها، وأنها جميعاً قد كتبت في عجلة لا يعتمدها الباحث للباحث. غير أن هؤلاء - وإن أصابوا - ينسون أن زيدان كان رائداً في ميلادين شتى، وأول من عالج من العرب بعض مئون الأدب، وأن بعض كتبه كان أول ما ألف من كتب عربية في موضوعها، ككتابه في تاريخ بريطانيا، وأنه أخذ على عاتقه رسالة تعليمية في العالم العربي، قد تبدلنا دون كيشوتية غير قابلة لأن يحققها رجل بمفرده، حتى نرى آثاره المعجزة فيها. وليس من قبيل المبالغة القول بأن ما من كاتب في أي أدب من الآداب الحديثة، شرقها وغربها، يدانيه من حيث وفرة الكتب التي ألفها، وتنوع الموضوعات التي عالجها.

فهو إلى جانب ما ترك من مؤلفات في التاريخ الإسلامي، وفي اللغة العربية وآدابها، ورواياته التاريخية، عمل أكثر مما عمل أي كاتب عربي آخر على نشر الثقافة الغربية، والتعريف بتاريخ الدول الأوروبية، وبث المصاهيم والأفكار الجديدة عن الحضارة والعلم والأخلاق والمجتمع. فإن نظراً إلى قائمة بأسماء كتبه وجدنا من بينها: تاريخ اليونان والرومان، والفلسفة اللغوية، وطبقات الأمم أو السلالات الشريفة، وعلم العرسة الحديث، ومختصر جغرافية مصر، وعجائب الخلق، وتاريخ الماسونية، والتاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن، وترجم مشاهير الشرق، وتاريخ إنجلترا، وتاريخ مصر الحديث. إلخ. وإن نظراً إلى عدد واحد من مجلة الهلال التي أسسها عام ١٨٩٢ وظل رئيساً لتحريرها حتى وفاته فجأة عام ١٩١٤ عن ثلاثة وخمسين عاماً، (وهو عند مبرأير

سنة ١٩١٣)، وجدناه يحوي مقالات بقلمه عن تاريخ لبنان، وحصار الصليبيين للبيضا، ومقاربة بين ماكيافلي وابن خلدون، وصلة التعليم بالنظام الاجتماعي، والشيخوخة وأعراضها، والسمنة وعلاجها، بالإضافة إلى وصف لرحلته إلى فرنسا وإنجلترا وسويسرا، وعصل من روايته «صلاح الدين ومكايد الحشاشين»!

من حق كاتب كهذا ألا تسلم بمصر كتاباته من السطحية، وهو الذي وضعه المستشرق سير هاميلتون جيب بأنه، وإن لم يكن كاتباً عظيماً بالمعنى الشائع، فهو «مدرس مصر خارج المدرسة»، قائلاً إن جهوده كانت «أعظم أثراً من جهود الشيخ محمد عبده في توجيه الأدب العربي في مصر». غير أن أثر زيدان تعدى موطنه المختار إلى سائر الأقطار العربية والإسلامية. فقد استطاع هو من ناحية، والشيخ محمد عبده من ناحية أخرى، أن يصلا طرفي الهوة الواسعة التي تفصل بين الثقافة العربية القديمة والثقافة العقلية الجديدة الآتية من الغرب، فأتاحا بذلك لأبناء الشرق أن تطلق طاقاتهم من عقالها، ولادبائها أن يقدموا أدباً غريباً تقدمياً داخل إطار إسلامي أو عربي. فإن كان زيدان، بوصفه لبنانياً بين مصريين، ومسيحياً بين أغلبية مسلمة، قد اضطر إلى تجنب الخوض في موضوعي السياسة والدين حتى لا يثير غضباً أو شبهة، فقد كانت كتاباته تسطع بحماس المشربين في دفاعه عن قيم الحضارة، وضرورة الاهتمام بالعلوم، والاهل من منافع المعرفة، باعتبارها جميعاً المصدر الرئيسي لقوة أي مجتمع، بما في ذلك المجتمع الإسلامي. فإن كانت الفكرة قد باتت في جيلنا من التدهيات، وفي غير حاجة إلى تكرار أو إثبات، فإنما يرجع جانب كبير من العصل في ذلك إلى جهود زيدان، وهو الذي جابه حرباً مريرة من جانب النواثر المحافظة في مصر والشام والعراق بسبب تمييزه عنها، في وقت كان التعبير عن مثل هذه الأفكار بدعة.



كان ثمة الكثير الكثير مما يريد الرجل الشبيه والدعوة إليه، والحديث إلى قومه فيه فكان لا بد من إنتاج سريع غزير. وقد كان يهيمه رجل الشارع والقاعدة العريضة أكثر مما يهيمه ذور الثقافة الرفيعة، فكان لا بد من التسيط سواء في اللغة أو في عرض الفكرة والكتاب الذي يهيمه الإنتاج العرير السريع أكثر مما يهيمه الفن والعكر العميق والأصالة، كثيراً ما يفصل الاتجاه إلى الرواية التاريخية استسهالاً للأمر فالحوادث قائمة في الكتب ليست في حاجة إلى اختراع والشخصيات التاريخية واضحة المعالم في ذهن القارئ المتعلم من قبل أن يفتح الرواية فليست في حاجة إلى الرسم والتحليل النفسي الدقيقين. وما يسهو عنه المؤلف من الأحداث أو معالم الشخصية، يمكن الاعتماد على القارئ اللبيب في إكماله بمعرفته. ثم إن عامة القراء تقبل عادة على الرواية التاريخية، لاعتقادهم أن الماضي ألد وأغنى وأحفل بالأحداث المثيرة من الحاضر المقفر الملل.

وكانت الرواية التاريخية هو المؤرخ الشعبي بلا منازع ويؤونه لن يصل التاريخ إلى عامة القراء اللهم إلا عن طريق الكتب المدرسية في التاريخ، وهي التي لا يحبها أحد، ولا يستفيد استفادة حقيقية منها أحد. فالجمهور لا طاقة له بالسرد الموضوعي والتحليل البارد والوثائق المملة التي تميز كتب التاريخ الجاد. وهو لا يطلب الحقيقة بقدر ما يطلب التسلية والترويح، ويفضل العرض الشائق السهل، والتفاصيل الطلية الحافلة بالألوان، حتى إن حاطها الكذب، على الحقائق الصارمة الجافة. ومؤلف الرواية ليس مقيداً بمراعاة الدقة التاريخية، ولا يشعر بمسؤولية عما أوردته تجاه الأجيال التالية. أما المؤرخ فمقيد بما بين يديه من وثائق، لا يخطئ إلا ما شئب عنده أنه حقيقة، أو اطمأن إلى رجحانه، ويشعر المسؤولية لاتجاه أبناء جيله فحسب، وإنما تجاه الأجيال التالية أيضاً إذ يهيمه ألا تصمه بالكذب المتعمد.

ولا أقصد من وراء ما ذكرته لتؤي أن أحط من قدر الرواية التاريخية. فهي

بإدائه ذي بدء قد تكون المدخل الرئيسي - أو الوحيد - للتاريخ لدى عامة القراء، خاصة إن تحولت بعد ذلك إلى فيلم تاريخي أو تمثيلية تاريخية. ثم إننا ننظر فنرى عدداً من الروايات التاريخية هي من قمم الأدب العالمي، وأذكر على سبيل المثال: «الطلمس» لوالتر سكوت، و«دير بارما» لستدال، و«أنا، كلوديوس» لروبرت جريجز، و«المصير الدموي» لروي أولندسبورج، و«المصارعون» لأرثر كوسلر، و«الملك يجب أن يموت» لماري ريو. ثم أذكر أن أعظم رواية في تاريخ الأدب في رأي غالبية النقاد، وهي «الحرب والسلام» لليوتولستوي، رواية تاريخية.

فالرواية التاريخية، حتى إن اتخلت من يوليوس قيصر أو صلاح الدين موضوعاً لها، قد تجيء هزيلة سخيفة في هزال وسطح أية رواية غرامية تكتب لإرضاء المراهقات متى عجز مؤلفها عن تمثيل الماضي بروحه وأنماط شخصيات المجتمع الذي يصفه. حيثئذ تصبح حتماً من الأدب الرخيص، وأشبه شيء بالحفلة التنكرية التي تخفي فيها الرجوه وراء أقنعة من الدجس أو الورق المقوى. والأمثلة على هذه الروايات أكثر من أن تخضع لحصر، أكتفي منها بذكر روايات رفايل ساباتي، و«عبر إلى الأبد» لكاتلين وينسور، و«ذهب مع الريح» لمرجريت ميتشل. وقد تكون أرفع شأناً - في مجال التاريخ - من أروع كتب التاريخ البحتة، متى تحولت الوقائع والوثائق، بفضل خيال الكاتب، إلى تجربة عاطفية فريدة، وصورة جليلة تنبص بالحياة عن مجتمع لم نره، وأحداث لم نشهدها. ويكفي هنا أن أعيذ إلى الأذهان حكم النقاد على تاريخ كارلايل للثورة الفرنسية، ورواية «فصة مدينتين» لتشارلس ديكنز. قالوا: إن كارلايل - من أجل تأليف كتابه - قرأ كل الكتب والوثائق المتعلقة بالثورة الفرنسية فلم يفهم شيئاً من روحها، ولم يقرأ ديكنز - وهو يعد نفسه لكتابة الرواية - غير كتاب كارلايل، فأصاب كيد الحقيقة!

وروايات زيدان التاريخية ليست من هذا الباب ولا من ذلك. فهي بالقطع ليست من الأدب الرخيص. ويوصع القارئ العربي المثقف - حتى في أيامنا

هذه - أن يجد المتعة في قراءتها، وأن يفيد منها، كما أن من التندر أن يكون بوسع المؤرخ المتخصص أن يشير إلى أخطاء تاريخية رهية كذلك التي تحفل بها روايات ألكسندر ديماس الأب، أو حتى سير والتر سكوت. وإنه لمن الطريف حقاً أن نجد زيدان - دون غيره من كتاب الرواية التاريخية - يعرض على أن يورد في هوامش صفحات رواياته ذكراً للمصادر التي اعتمد عليها في ذكر هذا الحادث أو ذاك، أو حتى في وصف هيئة هذه الشخصية أو تلك! غير أنها، في نفس الوقت، ليست من روائع الأدب، لا العالمي ولا حتى الأدب العربي الحديث. كل ما يمكن قوله بصلدها هو أنها روايات جيدة، ولا تزال إلى يومنا هذا مقروءة مستساعة، ثم فوق كل شيء، أنها في زمانها كانت فتحاً مدهلاً، بل وحدثاً هاماً في تاريخ الأدب العربي، وأنها خلقت في نفوس قرائها العرب احتراماً لأنفسهم ولتراثهم، وعرفت أساساً منهم تاريخهم لولاها ما كانوا ليعرفوه، وأنها خلقت تأثيراً عميقاً في أدب طائفة كبيرة من شباب الكتاب في كل الأنظار الإسلامية، بما فيها الهند، نذكر من بينهم محمد فريد أبو حديد، وعلي أحمد باكثير، ومحمد سعيد العريان، ونجيب محفوظ في مرحلته الأدبية الأولى، ثم بالأخص، أديباً من أعظم أدباء سوريا، هو أحمد أرساؤوط (١٨٩٢ - ١٩٤٨)، الذي فلق أستاذته، وأضحى في نظر الكثيرين من النقاد أبا الملاحم الشريفة العربية.

فمنذ أن كتب جرجي زيدان رواياته هذه، أصبحت الرواية التاريخية النوع المفضل في الأدب المبدع لدى كتابنا، الذين مزجوا - شأن زيدان - التقاليد الموروثة من الملاحم الشعبية (أبو زيد الهلالي وعنترة والأميرة ذات الهمة) بالأساليب الفنية المستحقة في روايات سكوت وديماس وجورج ألفريد هيتمي. وقد كان لواتر سكوت بالذات تأثير ذو حدين في أدب زيدان فهو من الناحية الإيجابية قد زود زيدان بالأسلوب الفني لمعالجة الأحداث التاريخية. غير أنه من الناحية السلبية كان المسؤول الأول عن اتجاه زيدان إلى خلق صورة رومانسية للماضي الإسلامي وأبطاله وكان زيدان بدوره المسؤول الأول عن

استمرار هذه الصورة الرومانسية في أذهان عامة المسلمين إلى يومنا هذا .

إن كافة عيوب أدب زيدان تبلى كالكلف على الشمس متى أحياننا بعين الاعتبار خدماته الجليلة للعالم الإسلامي ، وللأدب العربي ، إلا هذا العيب غير أن الأمر هنا في حاجة إلى إيضاح .

لم يكن المؤرخون المسلمون في العصر الوسيط بالعاقلين عن منهج البحث التاريخي وسبله . وقد طبقوا بالفعل على ما تحصيل لديهم من مادة تاريخية نفس المبادئ العلمية التي ابتدعها ونماها علماء الحديث في دراستهم للأحداث المسوبة إلى النبي وما من شك . في أن المؤرخين المسلمين قد حققوا إنجازات رائعة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، والتزموا بالمعايير العلمية الدقيقة التزاماً لا يزال المؤرخون الغربيون يعطونهم عليه إلى يومنا هذا . غير أنه بعضي الأسين ، وبازدياد تحررهم من تأثير الفقهاء ورفابتهم ، أثاروا عداوة هؤلاء الأخيرين وريبتهم ، وهما عداوة ودية تحولتا إلى حرب مريرة على المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية . وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء ، وعن اضطراب المؤرخين إلى تسي موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها ، وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذي حثه الفقهاء للمؤرخين ، ألا وهو أن يكون علم التاريخ وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية ، والمبادئ الأخلاقية الرفيعة ، والمثل العليا ، لا تسجيل الحقائق بعد تمحيص ما نجتمع منها

ومن هنا بدأت تتكون نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم ، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية كثيراً عن هدف تعزيز الإيمان ، والوعظ ، وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتقين أن يحذوا حلوها أو يتجنبوها . تكونت لديهم مثلاً صورة ثابتة شوهاء من الصعب تغييرها عن يزيد بن معاوية ، لمجرد أن جيشه قتل الحسين بن علي وصحبه ، غير آخلين في الحساب كفاءة يزيد الإدارية المتميزة ، ولا الآثار الوخيمة التي

كان لا بدّ وأن تعود على الدولة الإسلامية من جرّاء ثورة الحسين وهم دائماً متحازون في عواطفهم إلى المأمون في حربه ضدّ الأمين بتأثير القصص التي رواها المؤرخون عن تهتك الأمين في مملكته الشخصي، ووقار مسند المأمون، دون أن يلقوا بالآ إلى حقيقة نوابا أنصار المأمون، وهم الفرس الذين ساءهم تغليب الأمين، الخليفة العربي الفتح، للعنصر العربي عليهم، وأملوا أن تكون لهم الهيمنة على مقاليد الحكم بتولية المأمون نصف الفارسي، وهو ما حدث فعلاً.

على أي الأحوال فإن مثل هذه النظرة إلى التاريخ وشخصياته التي لا تعرف عاصلاً بين التمتوى والسلوك الشخصي، وبين اعتبارات السياسة والمصلحة العليا للدولة ومقتضيات الإدارة الجارمة الرشيدة، لا يمكن أن تحدم المهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية، ولا يمكن أن تتمخض إلا عن تمجيد سطحي لهذا، وحط من قدر ذاك، وحين إلى الماضي من الصعب تبريره أو الدفاع عنه.

ثم جاء العزو العثماني للأقطار العربية بما صاحبه من موات فكري، فانسرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلا في كتب الأدعية والحديث والحكايات الشعبية، وأدارت للمؤلفات التاريخية ظهرها حتى بست ماضيها أو كادت، وتلاشى التأثير السيء الذي كان لهذه المؤلفات فيما يتصل بالنظرة الرومانسية إلى الأحداث والشخصيات. وإذا برعت مع القرن التاسع عشر بوادر نهضة فكرية جديدة، كان جرجي زيدان من أسرار حاملي شعلتها، كان المفروض أن يتولى هو وأقرانه مهمة تصويب هذا الخطأ. وقد كان من السهل عليهم جميعاً - نظرياً على الأقل - أن يغرسوا بكتاباتهم في التاريخ الإسلامي نظرة جديدة إلى ذلك التاريخ وأبطاله في أذهان قرائهم التي باتت غالبيتهم جاهلة كل الجاهل به وبهم، بحيث اعتمدوا اعتماداً كلياً على المؤلفين المحدثين في تحصيل معارفهم غير أن هؤلاء القادة لم يفعلوا، وتسنوا نفس

المظرة ونفس القيم والمعاهيم التي كانت للأسلاف، وكانوا أعجز من أن يطبقوا معايير جديدة مستترة في الحكم.

وقد كان جرجي زيدان، في رأيه، أقدر أهل ذلك الجيل على توفير هذه المعيير المستحدثة، بدليل ما جعل به كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية» من نظرات صائبة غير أنه يبدو أن وقته كان أضيق من أن ينمّيها ويوفرها في رواياته التاريخية، وأن تأثير روايات والترسكوت بتصويرها الرومانسي الحاصل لأحداث التاريخ الأوروبي، كانت عنده فوق كل تأثير. وقد لقيت هذه الروايات لزيدان نجاحاً ورواجاً منقطع الطير لدى جمهور القراء، واستمرت إعادة طبعها لا تنقطع إلى يومنا هذا. وقد اطلع هذا الجمهور على أحداث تاريخه في رواياته ربما لأول مرة، وتكثرت نظراته وتكوّن حكمه على هذه الأحداث وأبطالها وفق المظرة والحكم الواردتين في هذه الروايات؛ فكان أن كتبت الحياة من جديد لمعايير القدماء، وهيمنت مقاييس الموتى على الأحياء.

لقاء مع المحقق الكبير الأستاذ محمود شاكر

١٢ ديسمبر ١٩٨٣

كنت اليوم في «دار الشروق» حين لتخبرني صاحبها الأستاذ محمد المعلم أنه ينوي القيام في الثامنة مساءً بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفسوره بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته. وإذا كنت شديد التطلع إلى مقابلة محمود شاكر منذ قرأتني كتابه الغريب «أباطيل وأسماره» والمقدمة الشيقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده العظيمة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثيره في دائرة المعجبين به، رغم حلة طبعه، وسلاطة لسانه، فقد رحت بمرافقة المعلم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجع والرهبة، والحشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضاً من مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «دليل المسلم الحرين».

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثاً كان قد دار منذ نحو عام بيني وبين صاحب مكتبة «وهبة» بمابدين.. قصصت المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب ابن سلام «طبقات فحول الشعراء» الذي حققه شاكر. وإذا دخلت مع وهبة في حديث عثرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصياً، فاجبت بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يتسم:

— لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وسألته متحشاً: كيف؟ أتعرفه شخصياً؟

— قصيبنا فترة في السجن في زمرانة واحدة خلال حكم جمال عبد الناصر. وكنت شديد الإعجاب به قلبها، فلما عاشرتة إذا هو أنقل الناس وطأة، وأقلهم أدباً ومراعاة لمشاعر الآخرين. كنت على استعداد بسبب تقديرى العظيم له لأن أكون خلامه في الزمرانة غير أنه تقبل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة المخدم الأجير.

— أي نوع من الشخصيات هو؟

— لفظاً، فظاً، وعي ظني أن معنات شخصيته يكمن في إحساسه العميق بالمشغل رغم ثقافته الأصيلة، ومواهبه الجمعة، وشعوره بأن حياته قد صاغت سدى في حين كان مؤهلاً لأن يكون أكبر كاتب في العالم العربي. هذا الإنسان الضخم الذي حصل من الثقافة الإسلامية ما لم يحصله غيره ولن يحصله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عادي عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب صحم في هجاء لويس عوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. أهدا إنتاج خليف برجل مثله؟ أهو إنتاج يؤمله لأن يشغل مكانة رفيعة في حياتنا الأدبية؟ لقد كان مؤهلاً لأن يمطي الكثير. غير أنه لم يفعل. وإحساسه بقدراته مع عجزه عن ممارستها جعلاً منه إنساناً حقوداً مرأً فظاً لا يطين أن يرى غيره يتج ويحرر الشهرة كله حسين مثلاً الذي لم يحصل جزءاً من المائة من ثقافة محمود شاعر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالثور الهائج يهاجم ويطن، ويسب ويلعن، وينسب المسؤولية عن فشله وقلة إنتاجه إلى آخرين، وعلى رأسهم طه حسين. . إنه، بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

— أي حالة شبيهة بحالة ركي مبارك؟

— لا يا سيدي. مرارة الفشل تجمع بين الرجلين، كما تجمع بينهما كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسؤولية عليه. غير أن الفشل في حالة

ركبي مارك كان فشلاً في نيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف وبطءه يذهب، كلما لمس من الناس إعجاباً وتقديراً زاده ذلك التقدير ثروة ومرارة وهياجاً إذ يريد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدراً ولم ينتج ما كان يوسعه إنتاجه من مؤلفات نهر الحياة الفكرية عدداً هراً إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه. ولكن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوفقه وكسل شاكر وقعوده عنه، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذلك.



وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها شاب دميم شديد الأتمة، يرتدي جلباناً، حسبته الخادم حتى حيّاه محمد المعلم تحية حارة وباده باسمه «فهر»، فأدركت أنه ابن ربّ الدار ودلّنا مباشرة إلى الصالة، فإذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته وروح الله وقد اجتمعوا حول جهاز التيليزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسلّة. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المحيط جالساً أمام التيليزيون يصيح وفته بمراقبة تمثيلية عنّة غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عن طيب خاطر، واصطاحنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة وإذا اعتدنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعوا به إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر صاحكاً بعدم الملاءة بتعاهات التيليزيون.

هناك المعلم بجائزة الملك فيصل، وكان واضح السرور بها وعندما عرفتة بنفسه لم الحظ في وجهه أي رد فعل، فأيقنت أنه لم يقرأ شيئاً من كتاباتي، كما رجحت - بسب فتور ترحيحه بي - أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي. ثم بدأنا نتحدث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه رغم أهميتها المعطى، ورغم أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطى الجائزة لأحد أبنائها، لم تتحدث أي من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه

بها، وهو ما ارتأه دليلاً قاطعاً على أن ثمة مؤامرة حكومية صوّدها غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصوداً، ونسبته إلى قصور من صحافتنا في تعاطية الأخبار. ثم قال:

— سأنتقل الليلة بأحمد بهجت في الأهرام وأطلب منه أن يكتب مقالاً في الموضوع في الصفحة الأدبية.

قالها بلهجة الواثق من أن أحمد بهجت لا بدّ ممثّل للأمر، وكأنه موطّئ عنه في «دار الشروق». غير أن هذا لم يكن مفاجئة لي. فأننا أعلم أنه هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالين في الأهرام في الإشادة بكتابي «دليل المسلم الحرّ» وقت صدوره عن الدار، وأن إبراهيم المعلم هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالات يهاجم فيها سياسة الحكومة حيال تصدير الكتاب المصري، وسياسة مدير الجمارك بصدد استيراد مستلزمات الطباعة، مما يسبّب صيفاً شديداً لدار الشروق.

— هيهات يا سيدي، هيهات! ليس كافة موظفي الأهرام من تلاميذ حسين هيكل، ذلك الدّنب الأكبر للاستعمار الغربي؟. وعلى أيّ حال فإن رسالة الأهرام هي هي لم تنعير منذ كان يرأس تحريرها تقلاً الذي بصق في وجه أحمد عربي. هي عملية الاستعمار منذ عهد تقلاً إلى عهد إبراهيم نافع

ثم شرع يتحدث عن كيف أن لويس عوض، بعد صدور «أباطيل وأسما»، شعر بأن من واجبه إزاء عداحة الانتهاكات التي وجهها شاعر إليه، وعجزه عن الردّ عليها، أن يتقدّم باستقالته من الأهرام إلى حسين هيكل، غير أن هيكل رفض قبولها، وأصرّ على أن يواصل لويس عمله وكتاباته في الصحيفة.

ثم قال موجّهاً الحديث إلى المعلم:

— أنتحسب أن أحداً من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي حطر

في ذهنه أن يهتني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي . بل إن منهم من بلغت به
القحة حد الاستهزاء أصلي بقيمتها الأدبية . غير أنني لم أعبأ بالرد أو المعاتبة ، إذ ماذا
صاي أن أتوقع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم أن شاكرًا لم يوجه إليّ كلمة منذ أن استقر بنا المجلس ،
ولا يكاد يلتفت إليّ بوجهه أثناء حديثه ، فحسب أنه لم يسمع إسمي وأصحا
حين عرفته بنفسه . فأنبرى يقول :

— الأستاذ حسين أمين هو ابن استاذنا المرحوم أحمد أمين

قال شاكر : أحرف ذلك .

— وقد نشرنا له مؤخراً كتاباً بعنوان «دليل المسلم الحزين» أحرز نجاحاً
عظيماً . سأرسل إلى سيادتكم في الصباح نسخة منه .

فإذا بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة
إلى أن الكتاب موجود بها) ، ويتمتم قائلاً

— قرأته !

قلت في دهشة :

— قرأت سيادتكم «دليل المسلم الحزين»؟

— أبوه يا سيدي !

— وما رأيك فيه؟

— قوّت ! (أي لا داعي للحديث عنه) .

— إسمح لي بأن أصرّ على سماع رأيك مهما كان .

احتدل في مجلسه ليواجهني ، ثم قال :

— أتحبني غافلاً يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحبني غافلاً عن نواياك
ونخطئك من وراء مقالاتك في «المصور» أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين !
لا أنا بالغافل ولا أنا بالأيّله حتى أسميك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ

أسبوع في «الأهالي» بالكتاب الإسلامي المستنير ما معنى «الإسلام المستنير» بالله عليك؟ أهناك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير، أم أن الإسلام كله نور ومن لم يستر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟ . . الكتاب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويلدي! حس حنفي!! دعني أقول لك إن كل ما نكتبونه هو عبث أطفال نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال . . يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهداً ومؤهلاً للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة! . . محمد عمارة هذا تلغ به الصداقة والادعاء والجهل مبغماً يجعله يصف كتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» بأنه من أهم ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ!! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحفير الغث لمؤلفه ضحل الثقافة، من أهم الكتب في الموضوع!! ما هذا العث وهذا الاستغلال لجهل الناس!! لا . . الأمر أخطر من ذلك . . إنها مؤامرة!

.. مؤامرة؟

.. مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصدوق لكرور.

ودخلت زوجته السمينة، بعد انتهاء التمثيلية، تدور عليها بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشعة بصوت هائل، ثم عاد يتمتم:

— نعم. تبدو مندهشاً غير أنني قائل لك إن المسؤولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هاذين الحبيشين، خاصة الأفغاني الذي هو أسّ الفساد كله. . . وقد تعجبان إن قلت لكما إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متامر وأنه لم يكن صحيح الإسلام

وعلى أي حال فإن رأي لويس ليس جليداً، وكل هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته.

ويدا محمد المعلم نفسه مذهولاً، رغم صلته الوثيقة القديمة شاكر فكان أن خيم عليها الوجوم، وساد المجلس سكون لم يقطعه غير صوت احتساء رب الدار لشايه وقد بدا غير عابىء بما أصابا.

— ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام! جهل مطبق بالمعز الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي تدهور هيب في اللغة العربية عظم التعليم في مدارس غربية محصنة حتى الجماعات المسماة بالإسلامية قد ألقت بتراث أربعة عشر قرناً في صندوق القمامة نعم ولكنهم ينسرون للتلهيل لإسلام جارودي وكأنه حدث هام في تاريخ الإسلام، وذلك لمجرد أن هذا الأفاق الإنتهازي نطق أمامهم بالشهادتين وأثنى على الإسلام في كتب له كلها أخطاء وكفر ومعالطات . ويعصهم بهلل للخميني والثورة الإيرانية والإثنا عشرية، وما منهم من يلري أن الإثنا عشرية هم غلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق.

— كافر زنديق؟

— بالتأكيد . ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت: إراء فرحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، ساكون شاكراً لو فصلت لنا الأمر.

— وساكون أنا شاكراً لو غيرت الموضوع .

— وهو كذلك . هل لي أن أسالك سؤالاً يحيرني منذ مدة؟

— قل .

— ما السب يا ترى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتنع وجهه امتناعاً شديداً لسؤالي، وسُئِلَ إليّ لأول وهلة أنه في سبيل
أن يسبني سناً غليظاً. غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء.

— لماذا توقفتُ عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل
بساطة يا سيد حسين إني حشيت على نفسي من أن بصيبي العرور. لقد كتبت
والمتنبي في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تنهي
عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزهو،
إلى أن أفقت لنفسي. أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة بالضبط كما
فعل الشاعر على محمود طه ولنفس السبب. الكتابة لا تهمني وإنما تهمني
نفسي وتقويم ذاتي. وكان أن انصرفت إلى تحقيق الكتب القديمة وبذلت كل
جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

— غير أنك توقفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري..

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

— نعم لأن الناشرين معظمهم لصوص.. لا تؤاخذني يا محمد بك! ولأن الناس لم تعد تقرأ. فإن قرأوا فليست الكتب الجادة هي التي يقرأونها،
وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة..

— وحسين أمين.

— وحسين أمين!

— هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال:

— نفوت!

— لا يا أستاذ شاكر لن أفوت!

— لم أكن أحبه .

لحظة صمت .

— ولم ؟

— ما كل هذه الأسئلة المحرجة ؟ تريد أن تعرف لماذا لم أكن أحبه ؟
حسناً . لم أكن أحبه لأنه كان رجلاً خبيثاً داهية .

— لم يكن ثمة رجل أطيب قلباً ولا أبسط من أبي .

وانفجر شاكر ضاحكاً ولدهشي البالغة إذا بمحمد المعلم هو أيضاً
يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب

قال المعلم :

— لا تؤاخذني يا حسين بك ، ولكن المرحوم أحمد أمين لم يكن طيب
القلب على الإطلاق ، ولا كان رجلاً بسيطاً .

— كيف ؟ كيف ؟

قال شاكر :

— لن نخوض في هذا الأمر . . عبد الوهاب عزام ، على حيويه ، كان
رجلاً طيباً بسيطاً ، أما أحمد أمين فلا ولكنه على أي الأحوال لم يكن في حبث
طه حسين ودهائه ومكره . . غير أن ما أعيبه حقيقة على أحمد أمين هو أنه
وهو الرجل العالم المثقف الذي كان يوسعه أن يقدم فكراً جديداً مبتكراً في
ميدان الدراسات الإسلامية ، والذي يُحبُّ علمه علم كافة المستشرقين ،
امتسلم وأذعن لتأثير طه حسين وآرائه ، ووقف موقفاً ذليلاً من أحكام
المستشرقين الخبيثاء الحاقدين على الإسلام ، وتبى في كتبه فجر الإسلام
وصحاه وظهوره هذه الأحكام ، دون أن يجرؤ على تعنيدها والتعصبي لها .
ما هذا اللئل ، وهذه الاستكانة ، وهذا المصعف ، سواء منك أو من أبيك ، تجاه
المستشرقين العربيين ؟ أهم أدرى بترائنا وأقدر على إصدار الأحكام بصنده من

علمائنا نحن الذين مهلوا من هذا التراث مع لس أمهاتهم ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حق «حواجة» بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل «يتنهه» بها إلى أن يصوت، أن يُدلي برأي في المعتقدات السبع، وأن يصدر حكماً على الممتني أو أبي العلا؟ كيف تسوّغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الوثائق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموصوع؟ أيجوز لي، وأنا العربي، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أن أولف كتاباً عن تشوسر شيئاً بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن الممتني؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبلع بها الصمافة والعزور حدّ الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالم إسلامي فدّ كأحمد أمين أن يقع في فخّ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طه حسين أبسر فهما؛ فهو لم يقع في الفخ، وإنما قرّر باختياره الحرّ أن يشارك الصليبيين في نصف الأفحاح لبي قومه ودينه. أما أحمد أمين، بالرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع «زّي الشاطرة» في حائل الشيطان.

ثم استطرد يقول:

— كلّمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يريد أن يجتمع بي . . . رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به. أسمع هن مارسدن جونز هذا؟

— محقّق كتاب «المعاري» للواقدي

— آه! حتى أنت قد صدّقت هذه الأكلوبة كسائر الناس . . . مارسدن جونز لم يحقّق مغاري الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد. وهذا هو السبب في أنني رفضت مقابلته. فقد حدث يوماً أن جاءني رجل مصري «علبان» اسمه عبد الفتاح الحلوة، وأخبرني أنه هو الذي حقّق كتاب المغازي من أوّله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ملحة

إليها، ولم يظهر اسمه على العلاف لا باعتباره محققاً ولا حتى باعتباره مشتركاً في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقلعة باعتباره أحد الدين قلعوا له المون أثناء تحقيقه للكتاب!! هذا مجرد مثل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الدين تنفى والتك بفضلهم!

... وما الذي مال بك إلى تصديق رعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق رعم ماربلدن جونز أنه محقق الكتاب؟

قال شاكر في صيق وهو يتململ في كرسية مؤذناً بانتهاء الجلسة :

— الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو ياسيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين . بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليوت، شانت، كلهم مختار استعماريون . واني لأردّ على كل عربي يتحدّث من فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المبهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ . أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع المهارس للكتب لا الغربيون كما يدعون . . : لقد وضعت بنفسي فهرس كتاب المقرئ «إمتاع الأصم» الذي حققته، فوصلتني رسالة من مشرق فرنسي شهير يُدعى فيها انه ياره بروعة هذه المهارس، ويقول إنه ليس بوسع أي عربي أن يأتي بمثلها . . فالمسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلّق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم . كل الأمور معنا تسير من سيء إلى أسوأ؛ في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت . . والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير .

وتحرّك في مقعده حركة من يهمّ بالوقوف، فنهضنا على الفور للإصراف.

— بلدي يا جماعة!

وكرر محمد المعلم عند باب الشقة وعلمه بأن يتصل بأحمد بهجت حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

— لا تعب نفسك... لن يشروا شيئاً. إنها مؤامرة يا صديقي، وعزم قاطع من جانب السلطة على ألا يُذكر إسم المبدع المقيم في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشر حتى ينسى الناس وجودي... لا يأمن... لا يأمن... شرفتم... خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهتف بالجائزة. غير أنني حين حاولت أن أحلوه حلوه لم يطاوعني لساني.

البرازيل : مارو القرن الحادي والعشرين

وعلق لله جمال الطبيعة في سفر أنطواء الدنيا
من أجل البشر، وعلق جمال البرازيل لنفسه.

مثل شعبي برازيلي

ها أنذا أسجل انطباعاتي عن دولة البرازيل ولما تمض على إقامتي بها
بضعة أشهر. وقد شجعتني على الإقدام على هذه الخطوة المتسرعة بعض
الشيء قوله بريستلي الشهيرة 'من حق المرأة أن يتحدث عن دولة أجنبية بعد
إقامته بها إما لمدة اثني عشر يوماً أو اثني عشر عاماً، أما فيما بين هاتين المدة
فلا يجوز له الحديث عنها! فهي إذن - كما ذكرت - مجرد انطباعات أولى. وقد
أعود إلى القاريء بعد اثني عشر عاماً للحديث عن البرازيل حديثاً أعمق
وأشمل!

دولة نامية أم متقدمة؟

أول سؤال يفرض نفسه على زائر هذا البلد هو ما إذا كانت البرازيل تسمي
إلى مجموعة الدول النامية أم المتقدمة. فالنظرة الأولى، خاصة إلى مدن
الساحل الشرقي وإلى العاصمة 'برازيليا'، توحي برخاء جم، وتقدم في
التكنولوجيا والصناعة ليسا بدون الرخاء والتقدم في دول أوروبا الغربية، مع
إمكانيات وثروات لا حدود لها وحديث دائم عن أوجه النشاط الإنتاجي وعيها
بصيغة أفضل التفصيل؛ وهي الصيغة المفضلة في حديث البرازيليين عن بلادهم
وعن أنفسهم.

فها دولة تبلغ مساحتها أكثر من مساحة أوروبا الغربية والشرقية معاً (إذا استعدنا الاتحاد السوفيتي)، ولا يصوقها في الاتساع غير الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين وكندا. وقد اكتشفوا منذ أشهر قلائل أن نهر الأمازون أطول من نهر النيل بمسافة أميال، فبات نهرها أطول أنهار العالم والعاصمة «برازيليا» هي أحدث مدن العالم تخطيطاً ومعماراً، كما أن العاصمة السابقة «ريودوجانيرو» بشهادة الكثيرين ممن يعتد برأيهم، وعلى رأسهم الكاتب النمساوي الشهير شيفان تسفايج، هي أجمل مدن الدنيا قاطبة. والشعب البرازيلي هو أكبر أمة كاثوليكية في العالم، ولا يصوق تمدده (١٣٥ مليون نسمة) غير تعداد الصين والهند والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وإندونيسيا. ولا يفوق البرازيليين في فن الطهي غير الفرنسيين والصينيين. أما في مجال الاقتصاد فإن الناتج القومي الإجمالي الذي يقدر بحو ٢٣٠ بليون دولار يحتل المرتبة الثامنة بالنسبة لاقتصاد دول العالم. وهي الدولة الأولى في إنتاج البن والسكر والبرتقال وفي احتياطي الذهب، والثانية (بعد ساحل العاج) في إنتاج الكاكاو، وبعد الولايات المتحدة. في إنتاج فول الصويا، والحديد الخام، ومن حيث قيمة الصادرات الزراعية والسلع المشتقة من الإنتاج الزراعي، والثالثة في إنتاج اللثة (بعد الاتحاد السوفيتي والصين)، والرابعة (بعد الولايات المتحدة وروسيا)، والرابعة في إنتاج المنجنيز، والخامسة في إنتاج القطن والديابات، والسابعة في إنتاج الألومنيوم والنحاس، والثامنة في إنتاج الصلب، والعاشر في إنتاج السيارات والأسمت وتوليد الكهرباء.

فإن كان هذا هو الوضع، فما بال البرازيل صاحبة أكبر دين خارجي من بين دول العالم (١٠٤,٤ بليون دولار)، وواسع أكبر معدل للتضخم (٢٢٥٪ سنوياً) بعد إسرائيل ويوليفيا والأرجنتين؟ وما سر هذه المشكلات الاقتصادية الرهيبة التي تركت بصماتها على الكيان الاجتماعي والسياسي للدولة، وهذا الفقر الذي تعيش في ظله غالبية السكان، وحياة الفطرة التي

يحياها سكان البلاد الأصليون من الهنود الحمر، وارتفع نسبة البطالة إلى أكثر من ٧٠٪، ثم ما ترتب على الفقر والبطالة من انتشار جرائم السطو المسلح والسرقة والاعتداء على المتاجر، مما رفع البرازيل إلى المرتبة الثانية من بين دول العالم (بعد كولومبيا) في عدد السرقات بالإكراه، ومما كان له تأثيره الصار في قطاع السياحة الذي كان يحتل حتى عام ١٩٨٣ المرتبة الثالثة في الأهمية بالنسبة للاقتصاد البرازيلي؟

ابن اللورد

في رأيي أنه مما يساعدنا على فهم طبيعة هذه المشكلات، تشبيه سلوك البرازيل بسلوك ولد لأحد أثرياء اللوردات، لا يزال أبوه على قيد الحياة، والولد مع قلة ما هي يده من مال يصّر على أن يعيش حياة رعدة تليق بما يشير به المستقبل - بعد أن يرث ثروة أبيه - من ترف عظيم، ولا يرى وسيلة لتحقيق مراده غير الاستدانة من هنا وهناك، ومن كل من هب ودب، والدائون يقدمون له القروض عن طيب خاطر، لاطمئنانهم إلى قلوبته على سدادها حين يتقل والده المسنّ إلى رحمة الله

يقول المثل المصري . وعلى قدر لحافك، مدّ رجلبكاء وهذا بالضبط هو ما تأمّي البرازيل أن تفعله . فهنا اطمئنان كامل إلى المستقبل، إلى ما سيأتي به العبد من رخاء عميم بالنظر إلى الإمكانيات الهائلة ومصادر الثروة التي لم تستغل بعد، وهي ما يؤكد الجميع - في الداخل والخارج - أنها ستجعل من البرازيل في المستقبل القريب إحدى الدول العظمى في العالم، بل ومارد القرن الحادي والعشرين . وعلى أساس هذا الاطمئنان إلى المستقبل (رغم ضخامة المشكلات الراية وقذاحة الدين الخارجي) يتصرف البرازيليون .

أراد حكامها منذ عام ١٩٥٦ أن يدفعوا عجلة التقدم في البلاد بحيث يسجلوا خلال خمس سنوات ما لا ينجزه غيرها خلال خمسين! وهو ما تمّ لهم فعلاً بفضل نرمينج دعائم الانتاج الصناعي، خاصة صناعة الحديد والصلب

والصناعات الثقيلة. وقد كان سيبلهم إلى ذلك هو اللجوء إلى طلب القروض من الخارج، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية من أجل استغلال المناطق الداخلية وتعميرها، بعد أن كانت العناية منصبّة في الماضي على المناطق الساحلية في الشرق. وقد شجعتهم صورة المستقبل المضيء على تجاهل القيود التي يصرها حجم الموارد الراهنة. فهم لا يريدون أن يشعروا مدساً أو يؤسسوا مصانع أو يضعوا برامج لا تليق بمستقبلهم كدولة عظمى... فحين شرعوا عام ١٩٥٧ في بناء عاصمة جديدة في الداخل تكون أقرب إلى المناطق المراد تعميرها من ريو دي جانيرو الساحلية، أنفقوا على بنائها البلايين من الدولارات، وكانوا ينقلون إلى موقعها أكياس الأسمنت وقصبان الصلب ومعدات البناء الثقيلة بالطائرات عبر مئات الأميال! غير أن النتيجة والثمرة كانتا «برازيليا»، مدينة المستقبل، مدينة القرن الحادي والعشرين، لا يفوقها في جمال معمارها أي من عواصم العالم. وهم حين قرروا إنشاء مترو الأنفاق في ثلاث من المدن الكبرى، جعلوا منه أكثر نظم مترو الأنفاق تقدماً في العالم. وقد أطلقت البرازيل أفسارها الصناعية، وأدخلت الكمبيوتر في كافة مجالات نشاطها الاقتصادي، وطوّرت صناعاتها الإلكترونية بحيث لم يعد لها في ميدانها غير القليل من المنافسين، وحفرت مئات ومئات من الأنفاق في بطون الجبال، وشقّت أكثر من مليون ونصف مليون كيلومتر من الطرق المرصوفة حتى عبر الجبال الصخرية الشامخة، وأقامت ناطحات السحاب من المباني في المدن الرئيسية. غير أن الأهم من ذلك كله هو العناية الفائقة بالصناعة. فقد تمكنت البرازيل خلال ربع القرن الماضي فقط من تصنيع كل ما تحتاج إليه وكل ما يفتقها من الاستيراد من العالم الخارجي، من الكمبيوتر إلى السفن والطائرات والسيارات والملابس وأجهزة التليفزيون والفيديو والآلات الحاسبة والأسلحة والمخيرة والأدوية والورق والصناعات البتروكيميائية والميكانيكية والمعدنية. وكانت رغبته الملحة في تصدير فائض إنتاجها إلى العالم حافزاً لها على استخدام أحدث وسائل التكنولوجيا من أجل إنتاج صلب تعنى بمتطلبات

السوق الدولية وتنافس منتجات الدول المتقدمة

كل هذا كان له المضل في تقريب البرازيل من مستوى الدول الصناعية الغنية. لقد ظلت أمداً طويلاً، وحتى الماضي القريب، دولة زراعية، وكان العالم الخارجي لا يكاد يعرف عنها غير إنتاجها للين، (ولرقصة السامبا الشهيرة كارمن براندا)، تماماً كما كان لا يعرف عن اليابان غير إنتاج الراديو ترانزستور ولعب الأطفال! أما اليوم، فقد بلغت قيمة صادراتها نحو ٢٦ بليون دولار سنوياً، أربعة أضعافها من السلع الصناعية.

أيلول الأسود:

ولأجل تحقيق هذه الطفرة الهائلة، كان على البرازيل أن تدفع الثمن. وهو ثمن باهظ نجده اليوم يرهق كاهلها ويؤرق حكومتها، دون أن يهقد شعها ثقته في المستقبل. قلنا إنه كان عليها من أجل الإنفاق على كل هذه المشروعات الطموحة أن تلجأ إلى الاقتراض، الاقتراض من الحكومات والبوك الأجنبية ومن صندوق النقد الدولي. وكانت معظم هذه القروض قصيرة الأجل وذات فوائد بلغت حوالي ١١,٥٪. وكان سبيل البرازيل إلى دفع قيمة الفوائد المستحقة، إلى جانب زيادة صادراتها، هو طلب المزيد من القروض، هي أيضاً قصيرة الأجل وذات فوائد باهظة. وقد عرفت البرازيل هي الأخرى «أيلول الأسود». وكان أيلولها الأسود (سبتمبر ١٩٨٢) حين وجدت لزاماً عليها سداد عشرين بليون دولار من الأقساط والفوائد واجبة الأداء، منها ١١ بليون دولار فوائد على أصل الدين، فلم تتمكن من أن تسد غير ثلث هذا المبلغ. وكان أن أسمر الوضع عن ظهور أزمة ثقة لدى البوك العالمية والحكومات الأجنبية في قدرة البرازيل على سداد ديونها، بل وعلى مجرد سداد فوائد هذه الديون. عندئذ تراجع الدائنون عن منح تسهيلات ائتمانية جديدة لها ما لم يثبت اقتصادها جدارته بالثقة، وانبرى صندوق النقد الدولي يحاول أن يفرض على البرازيل شرط اتخاذ إجراءات تقشف و«إصلاح» تمكنها من تسديد الديون،

كحفض الإنفاق الحكومي، وتحميد الأجور والمرتبات، وتخصيص قيمة العملة، ورفع الضرائب، والتركيز على الاستثمار في مجالي الزراعة والطاقة دون الصناعة، وإلا امتنع عن تقديم قروض جديدة. غير أن البرازيل ردت عاضبة بأنها ترفض مثل هذه الوصاية وهذا التدخل الأجنبي في سيادتها الوطنية، والحد من حريتها في انتهاج السياسة التي تريد، وبأن من حقها أن تطلب إعادة جدولة نواحيح استحقاق الديون، خاصة أن جزءاً كبيراً منها كان في صورة أجور للخبراء الأجانب.

ومع ذلك فلا شك في أن البرازيل تحرص أشد الحرص على تهدئة مخاوف الممولين الدوليين، وإقناعهم بتقديم قروض جديدة، إلى حين «وفاة الأب المعجوز»! لذا فقد اتجهت بكل طاقاتها إلى زيادة صادراتها إلى أقصى حد ممكن، وتقليل وارداتها إلى أدنى مستوى، حتى توفر فائضاً في الميزان التجاري يمكنها من سداد فوائد ديونها على الأقل. ولا تعدو الحقيقة إن قلنا إن هذا الهدف الأسمى هو أهم عامل - إن لم يكن العامل الأوحد - الذي يصوغ سياسات البرازيل الداخلية والخارجية. فالدولة ذات الحاجة الملحة إلى زيادة صادراتها تحاول دوماً أن تكون على علاقة طيبة وثيقة بالجميع، وأن تبادر إلى تسوية أية خلافات تدب بينها وبين غيرها من الدول. فإن اضطرتها ظروف دولة خارجة عن إرادتها إلى التظاهر بالانحياز إلى جانب دون آخر في نزاع لا شأن لها به، حددت لها حساباتها وعلاقاتها الاقتصادية ومصالحها التجارية أي الأطراف تزيده في المحافل الدولية. وهو تأييد نادراً ما يأخذ عدالة القضية بمين الاعتبار.

فن الاستمتاع بالعمية.

غير أن الذي يبدو واضحاً جلياً للأجنبي الزائر لهذا البلد، هو أن الشعب البرازيلي قد ترك لحكومته وسياسييه مهمة القلق إزاء كيفية التخلص من هذه

الورطة الاقتصادية، وانصرف هو بكلية إلى ممارسة من الاستمتاع بالحياة ولا أعني بقولي هذا عروفاً عن الإنتاج والعمل، وإلا لما حقق الشعب خلال سنوات قلائل هذه النهضة الاقتصادية الرائعة التي لا يكاد يكون لها نظير سوى تلك التي شهدتها ألمانيا الاتحادية بعد الحرب العالمية الثانية. وإنما أعني تلك القدرة المدهلة على الجمع بين الإنتاج واللهو، مع عشق للحياة وإقبال نهم على الاغتراف من مباحجها، ومرح رائد، وبغور طبيعي من كل ما من شأنه تضييع المتعة، وتكدير المراج.

تحدثت عن جمال الطبيعة في البرازيل ما شئت، أو عن مسرح ريو دو جانيرو غير أنه أجمل ما في البرازيل في اعتقادي هو طبيعة شعبها. وقد كان أول ما ذكره لي القنصل البريطاني في ريو خلال الأسبوع الأول من إقامتي أنني لن أقدر حق التقدير مدى سماحة هذا الشعب وطيبته واستمداده المطلق لمعاونة الغير وخطمته دون انتظار مقابل، إلا حين أترك البرازيل إلى أي بلد آخر. صحيح أن الأزمة الاقتصادية الراهنة، والتضخم الرهيب، وسوء أحوال الأمن، قد حدثت بعض الشيء مما عرقوا به من كرم الضيافة والترحيب بالغرباء. غير أنهم لا يزالون مع هذا أكرم شعوب الأرض والطفها عشرة. وقد مرت بي الآن هنا بضعة أشهر زوت خلالها عشر مدن، لم يطرق سمي خلالها صوت غاصب، ولا رأت عيني شجاراً في طريق، لم أظلم انفعال، إلا أثناء مباريات كرة القدم! لا أدخل مع عائلي مطعماً إلا وجدنا مائدة على الأقل، قد أتى الجالسون إليها بالآت موسيقية يعرفون عليها ويفنون على أنغامها قبل الأكل وأثناءه وبعده. ونذهب إلى شاطئ البحر المزدهم دائماً طيلة أيام الأسبوع، فإذا العزف والغناء والرقص على قدم وساق، ولعب الكرة والصحك والعزل. والملابس هنا على الشاطئ، سواء الرجال أو النساء، لا يكاد قماشها يكمي لصنع بدلة بحر محتشمة لمصهور صغيراً هائلي في البرازيل - ربما بتأثير الأفارقة والهنود المحمر وحرارة الجو - غير مستنكر أو مستهجن، ولا يلفت غير انظار الأجانب. وليس أمراً نادراً أن تبادرك عاتلة برازيلية تجلس على مقربة

منك وعائلتك بالحديث، ثم تبادل بعد الحديث إلى دعوتكم لزيارتها في دارها وتناول وجبة طعام معها.

ويومئذ أن يقول في ثقة إن الرقص والبحر وكرة القدم وكارنفال شهر فبراير هي أهم ما يشغل بال البرازيليين. أما الاهتمام بالسياسة فلا يكاد يخطر بذهن أحد غير من اختار لسوء حظه ويكاد طالعه أن يشتعل بها. وقد قابلت هنا من الشباب البرازيلي من لا يعرف اسم رئيس جمهوريته، ناهيك عن اسم رئيس جمهوريتي! واهتمامهم بشؤون العالم الخارجي ضئيل للغاية، أو قل هو غير قائم أصلاً، كما أن الصحف ووسائل الإعلام الأخرى لا تخصص لهذه الشؤون من المساحة أو الوقت إلا قليلاً. يفرضه الواجب وتحتمه اللياقة. فإن ذكروا الولايات المتحدة فإنما يجيء ذكرها بمناسبة فرار مجلس الشيوخ الأمريكي فرض قيود على امتداد الأحذية أو عصير البرتقال من البرازيل. وهو الأمر الوحيد الكفيل بإغضابهم! ولا أدري ما إذا كان عدد كبير منهم قد سمع بالحرب العراقية الإيرانية، فإن كانوا قد سمعوا بها فلا بد أن يكون السبب هو إبرام العراق صفقة كبيرة لشراء الذبابت البرازيلية «كاسكاميل» لاستخدامها في تلك الحرب!

وهم - عكس الكثير من شعوب أمريكا اللاتينية الأخرى - شديدو الكراهية للثورات والحروب وكل مظاهر الإرهاب والعنف. شعب وديع يفضل الفناء على الشكوى، والرقص على الشجار، خاصة أهل ريو دو جانيرو المعروفين باسم «كاريوكا» الذين لا يرون شيئاً أهم وأخطر من أن يكون مثاراً للفرح ومداراً للضحك. ولم تعرف البرازيل في تاريخها ثورة دموية واحدة، أو اغتيالاً لرئيس سياسي، أو إرهاباً أو حرب عصابات، رغم حدوث بعض المواجهات في مناسبات معينة بين وحدات من الجيش وجماعات من المتظاهرين كانت دائماً تنتهي بتبادل القبلات والنكات، قبل أن ينصرف كل من الفريقين إلى شأنه، ودون إطلاق رصاصة واحدة.

كرنفال! سامبا! ماكومبا!

فأما عن الكارنفال الأكبر في شهر فبراير فهو حدث تفوق أهميته عندهم أهمية عيد الميلاد المجيد وعيدي الفصح ورأس السنة. والبرازيليون يعيشون سائر عامهم على ذكرى الكرنفال المنصرم، واستعداداً للكارنفال التالي. وهو لا يقتصر على حيّ من أحياء المدينة أو على طبقة اجتماعية من الطبقات وإنما هو بمثابة احتفال صانع يشترك فيه الكافة في مختلف أنحاء البلاد. وإنك لو اجد أقر الفقراء هنا وما من هم عنه غير أن يكسب حلال العام ويتحرر ما يمكنه من شراء زيّ تنكري باهر لهذه المناسبة المجنونة التي يطل الناس فيها على مدى أربعة أيام وخمس ليال متتالية لا يعرفون النوم، ولا يتوقفون عن رقص السامبا والغناء وعرف الموسيقى وقرع الطبول والطواف بالشوارع لعرض أزيائهم المعجبة بهيجة الألوان. غير أن الحديث عن كرنفال البرازيل في حاجة إلى مقال طويل يُفرد له.

وأما شاطئ «البحر فلبعب هو الآخر دوراً رئيسياً في حياة البرازيليين، من سكن منهم على الساحل أو في مدينة بالداخل. وقد لجأت الحكومة الفيدرالية إلى عشرات الوسائل من أجل تشجيع السرازيليين على استيطان المساطق الداخلية والسكنى في العاصمة الجديدة، كمضاعفة الأجور والمهايا فيها، والإعفاء من الضرائب، وتخفيض إيجارات المساكن. غير أن البحر ظل دائماً عامل جذب يحول دون الاعتماد عنه لمسافة طويلة، أو لمدة طويلة والحياة على شاطئه تبدأ في ساعة جد مبكرة من اليوم. فمسلد الخامسة صباحاً تجد الشباب يلعبون القولي أو كرة القدم، والكلاب يؤدون تمرينات الصباح الرياضية قبل توجيههم إلى مكاتبهم ورجال الأعمال يرمون الصفقات التجارية ويوقعون العقود وهم مسترخون على الرمال في ملابس البحر، والباعة المتجولون يمشون وعلى رؤوسهم صينيات نحاسية كبيرة تحمل جوز الهند والأناناس والبرتقال وعصير الفاكهة، ورجال الشرطة يراقبون ملابس السابحين في البحر خشية أن

يحفظها للصوم، والنساء وقد ارتلين «البيكي» (والبيكي من احتراع البرازيليين) يأتين ناطقاتهن الرضع في سلال من الفخار للاستمتاع بالشمس وسيم البحر، والمريبات يراقبن الصبية والصبيا يبحرن بين الأمواج العالية، أويذاكرون في كتهم المدرسية، والفتيات يقابلن أصدقاهن، أو يرسن صديقاتهن خاتم الحطوية . حتى إذا ما اكتملت اللحرة، إذا بصبية الأمس وقد جاءت توليها إلى الشاطئ في سلة من الفخار، للاستمتاع بالشمس ونسيم البحر |

غير أن أعرب المآظر طراً وأحملها بمظاهر الوثنية ورواسها ذلك الذي تراه على الشاطئ ليلة رأس السنة من كل عام . آلاف مؤلفة من وثني البرازيل ومسيحيها على سواء، توجه في حوالي العاشرة من مساء ٣١ ديسمبر إلى شاطئ المحيط في ملابس بيضاء، يحملون الشموع البيضاء الموقدة في يد، والقرايين في الأخرى أناس من مختلف الأعمار والأجناس والألوان والطبقات، قد بنى المسيحيون منهم هذا الجانب من عقيدة الوثنيين المدعّوين بالماكونيا، المتأثرة بدورها بديانات الأفارقة والهنود الحمر . حتى إذا ما وصلوا إلى الشاطئ، شرعوا يرسمون علامات غريبة على الرمال، ويعرشون المفارش البيضاء ليضعوا عليها القرايين التي سيقدّمونها لإلهة البحر «بيمانيا» من زهور وعطور ونيذ ودجاج وأمشاط ومرايا، وحولها مناج من الشموع المصاصة . ثم يشرعون في الترميم بترانيم خاصة، ثم في الرقص وقرع الطبول حتى إذا ما أعلست دقائق الساعة منتصف الليل، إذا بالصواريخ الملونة تطلق، والأجراس تدق، والصرجات تملو، وإذا هؤلاء القوم جميعاً وقد نزلوا إلى البحر بهداياهم وأزهارهم، فلا يخرجون حتى تأخذها الأمواج بعيدة عن أنظارهم . حينئذ يطمشون إلى أن إلهة البحر قد تلقت قرايينهم قبولاً حسناً، وأنها مستحق لهم أمانيهم وأحلامهم خلال العام الجديد |

البونقة الكبرى:

ها إذن، وعلى نحو شبه إلى حد ما بما حدث في الولايات المتحدة

الأمريكية، قد امتزجت الأعجناس والأديان والعادات والتقاليد في بوتقة واحدة، بعد موجات متعاقبة من الهجرات من مختلف بقاع العالم. فهنا سلالات السكان الأصليين من الهنود الحمر، والبرتغاليين المستعمرين الأول للسلا، والأمازيقة الذين أتى بهم البرتغاليون قسراً لصلاحة الأرض، والمهاجرين الإيطاليين والألمان والبولنديين واليابانيين والإنجليز والإسبان واليهود، بالإضافة إلى ستة ملايين من اللبنانيين والسوريين من سل أولئك الذين تركوا وطنهم في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن فراراً من سطوة الحكم العثماني، أو طلباً للرزق في الدنيا الجديدة. وتقدر نسبة البيض هنا بحوالي ٥٤,٢٤٪. يتركزون في المنطقة الجنوبية المماثلة في مناحها لمناخ أوروبا. أما الزنوج فتقدر نسبتهم بحوالي ٥,٩٢٪. يتركزون في منطقة الجيوب الشرقي ويعملون في مصانعها. أما الهنود الحمر فلا يتجاوز عددهم ٢٣٠ ألف سمة يعيشون حياة بدائية في الولايات الشمالية عند حوض نهر الأمازون. وأما باقي السكان (أي نحو ٣٨,٨٥٪) فيعرفون باسم «المولاتو» Mulatto، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية «مولود»، إذ هم نسل التزاوج بين البيض والزنوج والهنود الحمر، لون بشرتهم أقرب ما يكون إلى لون بشرة العرب، ويسكن معظمهم في المنطقتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية.

فإن كنا قد قارنا وضع الأعجناس هنا بوضعها في الولايات المتحدة، فإن هناك فارقاً صخماً يتعلق بالتعايش بينها. إذ ليس ثمة في البرازيل ما يوحي بوجود تفرقة عنصرية بين أعجناسها. فهنا العشرة الطيبة بين الأبيض والأسود والأسمر، والاحترام المتبادل، والتزاوج غير المقيد أو المنهي عنه، وعبر المعصوب عليه. وهذا مسموئية رائدة من الأكلوا، من الأسود الماحم كلون بشرة موحيي أو نكومي، إلى الأبيض الناصع كلون بشرة مسر تاتشر، مروراً بالوان بشرة الحبيب بورقيبة والسادات وأنديرا غاندي، مما يجعل من المحال التفرقة بين البرازيلي والأجنبي إلا حين يشرع الأجنبي في الحديث بلغة برتغالية ركيكة. وقد كان للبرنوج تأثير عظيم في الحياة البرازيلية، خاصة في العقيدة

والمعدات والموسيقى والرقص وفن التصوير والرياضة والاعتقاد في السحر. كما استفاد اقتصاد البلاد استعادة عظمى من النشاط التقليدي المشهود لليابانيين والألمان الذين توافدت أعداد كبيرة منهم على البرازيل في السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية والتالية لها. وقد أبدى هؤلاء جميعاً - عدا الألمان - استعداداً كاملاً للاستخراط في البوتقة البرازيلية الكبرى، وهجر لغاتهم الأصلية إلى اللغة البرتغالية. فمن البادر مثلاً هنا أن تصادف برازيلياً من أصل لبناني أو سوري يعرف العربية، أو شديد الاهتمام بالأوضاع الراهنة في لبنان وغيره من الأقطار العربية. كذلك فإن المسلمين البالغ عددهم حوالي مائتي ألف نسمة لم يعودوا يعرفون الكثير عن دينهم، والعص من شابههم يلبس حول عنقه سلسلة ذهبية تحمل علامة الصليب دون أدنى إدراك منه لوجود تناقض. ثم من يدري، لعل بعضهم يقدم أيضاً القرايين في ليلة رأس السنة لإلهة البحر «بيمانيا»!

بعم قد لا نجد إلا القليلين من السود البرازيليين في مناصب القضاة أو الدبلوماسيين، أو الوزراء وكبار رجال الدولة، أو حتى من الأطباء والأساتذة والمحامين وقادة الجيش. غير أن هذا يرجع إلى المستوى الاقتصادي الناجم عن تباين الحظوظ من التعليم والثقافة (وهو تباين من ثمار الماضي)، والناجم أيضاً عن تفضيل الزواج عادةً للاستمتاع بالحياة على العمل الشاق، وقلة حاجاتهم وتطلعاتهم. غير أن الظاهرة الهامة في الأمر كله هي ما ذكره لي أحد كبار رجال الحكومة هنا من أنه في حين كان الرجل البرازيلي الأبيض في الماضي القريب يحاول جاهداً إنكار سريان دم رنجي أو هندي في عروقه، ثم بعد هناك اليوم إلا من يصرح علناً وعن طيب خاطر بأنه رغم بياض بشرته من المولدين، بل ويفخر بأنه منهم، وهي دلالة طيبة على أن ما بقي من آثار ضئيلة للترقة العنصرية هو في طريقه إلى الإندثار.



وأقول في النهاية: إنني قد أكون صادت هنا ما هو أهل للاستنكار، غير

أني أحببت كل شيء . قد تطلعتني الأيام في المستقبل على بعض الخبايا مما قد
يغير من نظرتي ورأيي . غير أنني في يومي هذا ووقت تسطيري لهذا المقال أكاد
أجزم بأن الرحيل عن البرازيل هو بمثابة خروج آدم من الجنة . وكثيراً ما أجديني
إذ أرقب الشعب هنا في الشوارع والمطاعم والمتاجر وعلى شاطئ البحر،
يضحكون ويرقصون ويعنون، أتذكر ما سحن فيه في عالمنا العربي من بلاء
وفرقه، وتعصب وتطرف، وتطاحن وتناحر وإرهاب، وعنف وعداوة، فأقول في
نفسي . لقد قيل قديماً وسعيد هو الشعب الذي لا تاريخ له، غير أنني أقول .
سعيد هو الشعب الذي لا يأبه لأمر الميامنة، ولا يقرأ من الصحف غير نتائج
مباريات الكرة، ولا يرى ما هو أفضل من الضحك والغناء، ولا أسعى من مذند
العدو للغير، ولا تسمح طبيعته بأن يرى من الأمور غير جانبها المضيء الهيج،
ولا يكاد يعرف ماهية التطرف الديني أو التعصب العرقي . وكلها أمور قد
اجتمعت لهذا الشعب الكريم الذي أحى الآن بين ظهرانيه . . شعب
البرازيل .

— نزهة الأئمة والنفوس ، في معرفة أحوال الروس —

كان للمسلمين في المصور المسماة عد الإفرنج بالمصور الوسطى قصب
السبق في ميدان الرحلات والدراسات الجغرافية . وقد ساهمت في ذلك عدة
اعتبارات :

• سيادتهم في البر والبحر ، واتساع دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى
المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجمال الفوقاز شمالاً إلى صحاري
أفريقيا جنوباً .

• ما جمع بين الدول الإسلامية - حتى بعد زوال وحدتها السياسية - من
روابط الدين واللغة والثقافة ، مع ضعف القوميات الإقليمية في ذلك العصر .

• حاجة الحكام إلى من يقوم برحلات في أنحاء الدولة لدراساتها
ووصفها ومعرفة طرقها وحاصلاتها وحراستها وما إلى ذلك ، تمهيداً لتطبيق أحكام
الشريعة .

• الرعاية القوية لدى الكثيرين في طلب العلم في مراكز الثقافة المتعددة
في ديار الإسلام ، والدّرس على مشاهير العقهاء والمحدثين واللغويين والأطباء
والفلاسفة والرياضيين .

• قيام ألوف المسلمين بأداء فريضة الحج كل عام ، ورحلتها إلى الحجاز
في شتى بقاع العالم الإسلامي ، مارةً بمختلف البلدان

• إتساع نطاق التجارة حتى شمل بلاداً حاوح حدود الديار الإسلامية

• إبعاد أمراء المسلمين الرّسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين وملوك غير المسلمين.

• تنقل العناتين ومهرة الصّاع من إقليم إلى آخر سعياً في طلب الرّوق، أو بقاء على تكليف من الأمراء.

• ما أسهم في تسهيل الرحلات من اعتنات مثل عادة إكرام الضيف صد الشرقيين، وبساطة العيش في القرون الوسطى، وانتشار لرباطات ولخانات التي يمكن للمسافرين الإقامة بها، وجس الأوقاف للإعاق منها في سبيل راحتهم، وحث الإسلام على السفر، وإباحة تعذد الرّوجات بحيث يمكن للمسافر الذي يتعب مدة طويلة عن بلده التزوّج في البلاد التي يزل فيها.

وقد خلّف الرحالة والجغرافيون وغيرهم من المؤلّفين المسلمين بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (التاسع والخامس عشر الميلاديين) مؤلفات كثيرة حوت وصفاً لرحلاتهم، أو تلخيصاً لرحلات غيرهم، كما ضمّن المؤرخون المسلمون كتبهم ذكر العلاقات والحروب بين دولة الإسلام ودول غير المسلمين، وملاحظاتهم عن سلوك الأجانب في الحرب والسلام.

وقد رأيت أن أجمع ها بعض ما دونه عدد من هؤلاء الرحالة والجغرافيين والمؤرخين في وصف روسيا وعات أهلها وأخلاقهم، نلحق به وصفاً أورده المؤرخ مسكويه (توفي عام ٤٢١ هـ/١٠٣٠م) في كتابه «تجارب الأمم» لحادث غمرو الروس واحتلالهم لأرض من أراضي المسلمين عام ٣٣٢ هـ/٩٤٣م، ولمقاومة المسلمين لهذا الغزو حتى اضطر الروس إلى الانسحاب، ووصفاً أورده المسعودي في «مروج الذهب» لغزو روسي آخر

• • •

البلد والشعب:

أرض الروس أرض واسعة، إلا أن بلادها قليلة، وعماراتها منقطعة، وبين البلد والبلد مسافات متباعدة^(١) وهي بلاد وخمة^(٢) وأهل هذه الأرض من ولد يافث، ويُنسبون - على ما رُغم صاحب كتاب «زهة المشتاق» (الإديسي) إلى مدينة من مدنها تسمى روسيا^(٣) ويُقال إنهم يتسبون إلى روس بن ترك بن طوح^(٤). والروم تسميهم أروسيا، ومعنى ذلك «الحمرة»^(٥). ويقال لهم «رس» بعير واو^(٦) وهم أمة عظيمة، لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة^(٧) ورجلهم على التقدير مائة ألف إنسان وليس لهم زرع ولا ضرع^(٨)، وإنما يأكلون مما يحتويه من أرض الصقالية^(٩). وليس لهم عقار ولا قرى، وإنما حرفة التجارة في السمور والسجاب وغير ذلك^(١٠)؛ وللروس في أرضهم معدن فضة كبير، ويختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية والقسطنطينية والحزر^(١١).

وأهل هذه الأرض شقر الأبدان، صمر الشعور، طوال القامات. وهم أشد

(١) جامع الفنون لابن شبيب الحراني.

(٢) عجائب الأقطار لابن إياس.

(٣) مناهج الفكر للوطواط.

(٤) نسخة النهر للمعشفي.

(٥) التنبه والإشراف للمسمودي.

(٦) مجمع البلدان لياقوت.

(٧) مروج الذهب للمسمودي.

(٨) أحسن التقاسيم للمعشفي.

(٩) أطلق المسلمون لفظ «الصقالية» لا على السلاف فحسب وإنما على الجرماني

وسائر سكان أوروبا أيضاً.

(١٠) الأعلام الفضية لابن رسته.

(١١) مروج الذهب للمسمودي.

خلق الله تعالى، ولهم لغة غريبة^(١) وقد رأيت الروسية فلم أر أتم إبداناً منهم، كأنهم التحل، شقر حمرة، يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه. ومع كل واحد منهم سيف ومكين وفأس لا ينفارها أبداً^(٢). وهم يحلقون لحاهم، وبعضهم يمتلها مثل أعراف النوايا ويضفرها^(٣). ولهم جنث ومنظر وإقدام وبسالة، فإذا نزلوا بساحة قوم لم يصرفوا عنهم دون أن يهلكوهم ويستبيحوا حرمهم ويسترقوهم. وإن استعرت طائفة خرجوا جميعهم ولم يترقوا، وكانوا يداً واحدة على عثرهم حتى يظفروا بهم^(٤). ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يؤلي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل^(٥). وإذا ولد لرجل منهم مولود قلّم إلى المولود سيماً مسلولاً فألقاه بين يديه وقال له: «لا أورثك مالاً، وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا»^(٦). وإذا حكم ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به، قال لهما: وتحاكما بسيفيكما، فأتى السيفين كان أحدهما كانت العلية له^(٧).

وهم مستهترون بالحمرة، يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده^(٨)، ولا يدخل إليهم غريب إلا قتلوه^(٩). ولهم مدينة تسمى «أرثاء» لا يدخلها أحد من الغزاة لأنهم يقتلون كلّ هريب يصل إليهم البتة، ولا يتجرأ أحد أن يدخل أرضهم^(١٠).

(١) ابن أبياس.

(٢) رسالة ابن فضلان.

(٣) برقة المشتاق للإدريسي.

(٤) ابن رسته.

(٥) تجارب الأمم لمسكويه.

(٦) ابن رسته.

(٧) المقنبي.

(٨) ابن فضلان.

(٩) ابن شبيب الحراني.

(١٠) الإدريسي.

وهم أقدر خلق الله ، لا يستنجون من عائط ولا يعتسلون من جباية ، كأنهم الحمير لصائلة^(١) ولا يبرز أحدهم لفضاء حاجته وحده ، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه يتحارسونه بينهم ، ومع كل واحد منهم ميسره ، لفلة أمانتهم والعدر الذي فيهم فإن الرجل إذا كان له قليل مال طمع فيه أحوه وصاحبه الذي معه فيقتله ويسلبه^(٢) .

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الحبز والماء ، ولا يقربوه ولا يكلمونه بل ولا يتعاهدونه ، لا سيما إن كان ضحياً أو مملوكاً فإن برىء وقام رجح إليهم ، وإن مات أحرقوه ، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . وإذا أصابوا لصاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة ، وشدوا في عنقه حبلًا وثيقاً ، وعلقوه فيها ، ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث في الرياح والأمطار^(٣) .

نسلوهم وحياتهم العائلية :

وهم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ، وتحرق مع مياميرهم الجوارح بطيبة من أنفسهم^(٤) . وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل . وإن مات عزب رُوج بعد وفاته . والساء يرغب في تحريق أمسهن لدخولهن في طهر الجنة . وهذا فعل من أفعال الهند^(٥)

وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة ، إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره ، في كل حقة حلقة فيها سكين مشدود على الثدي أيضاً . وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن

(١) ابن فضلان

(٢) ابن رسته .

(٣) ابن رسته

(٤) ابن فضلان .

(٥) المسالك والممالك للإصطخري

الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامراته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر. وربما كان في عرق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجلّ الحلي عندهم الحرر الأخضر من الحرف، يُباعون فيه، ويشترون الحررة منه بغيرهم، ويظلمونه عقوداً لنسائهم^(١).

ويؤتاهم كبار من الحشب. ويسكن في البيت الواحد العشرة ولعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواربه، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحداء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصاذه ينكحها، فلا يروى عنها حتى يقضي أربه^(٢).

ولا بدّ لهم في كلّ يوم بالغداة أن تأني الجارية ومعها فصعة كبيرة فيها ماء، تنقذها إلى مولاه فيغسل فيها وجهه ويدبه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في الفصعة، ثم يتسخط ويصق فيها، ولا يدع شيئاً من القلتر إلا فعله في ذلك الماء فإذا فرغ مما يحتاج إليه، حملت الجارية الفصعة إلى الذي يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه. ولا تزال ترفعهما من واحد إلى واحد حتى تنديرها على الجميع من في البيت، وكل واحد منهم يتسخط ويصق فيها ويمسح وجهه وشعره فيها^(٣).

الملك والديانة

ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه. ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطأها

(١) مروج الذهب للمسعودي

(٢) ابن خلدون.

(٣) المرجع السابق.

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سرير الملك وسريره عظيم مرصع بنعيس الجواهر ويجلس معه على السرير أربعون جلوية لقراشه^(١). بأيديهن مجامر من ذهب وفضة وهي مطلقة بالبخور^(٢)، وديما وطىء الملك الواحدة منهن بحضرة أصحابه. ولا ينزل عن سريره، وإذا أراد قضاء حاجة قصاها في طشت، وإذا أراد الركوب فقدموا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قُدم السرير أمام دابته حتى يكون نزوله عليه^(٣).

ولهم لغة ودين وشريعة لا يشاركون فيها أحد^(٤) وساعة موافاة سفنهم بالمرسى يخرج كل واحد منهم ومعه حيز ولحم ولبن ويصل وينبذ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صفار، وخلف تلك الصور حشب طوال قد نُصبت في الأرض. يوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: «يا رب، قد جئت من بعيد ومعي من الجوازي كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلدأ» - حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: «وقد جئت بهذه الهدية». ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة، ويقول: «أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم، فيشتري مني كل ما أريد، ولا يخالفني في جميع ما أقول» ثم ينصرف. فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه، عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة. فإن تعذر عليه ما يريد، حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال: «هؤلاء نساء ربنا وبناته». فلا يزال إلى صورة فصورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع، فيقول: «قد قصى ربي حاجتي، واحتاج أن أكافئه» فيعمد إلى حدة من البقر والعنم ويقتلها، ويتصلق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، ويملق رؤوس البقر والغنم على ذلك

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن أبيس.

(٣) ابن فضلان

(٤) بلقوت

الخشب المصوب في الأرض. فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك، فيقول: «قد رصي عتي ربي وأكل هديتي!»^(١).

وأما الآن، فالمشهور من دينهم دين النصرانية^(٢)

الموت وطقوس الدفن:

وكان يقال إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنّت أحب أن أقف على ذلك، حتى يلقي موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبر وسفّوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها. وذلك أن الرجل المقيم منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها أما الغني فيجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث، ثلث لأهله، وثلث يقطعون به له ثياباً، وثلث يشترون به ببغاء يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاه.

وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلماهن: «من مكم يموت معه؟» فيقول بعضهم: «أنا» فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوي له أن يرجع أبداً ولو أراد ذلك. فلما مات ذلك الرجل الذي ذكرته، قالوا لجواريه: «من يموت معه؟» فقالت إحداهن: «أنا» فوكلوا بها جارتين تحفظانها، والجارية في كل يوم تشرب وتعي فرحة مستشرة. فلما كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية، حُصرت إلى النهر الذي فيه سميته، فإذا هي قد أُخرجت وجعل لها أربعة أركان من الخشب، ثم مُدت حتى جعلت على ذلك الخشب. وأقبلوا يدهبون ويجيشون ويتكلمون بكلام لا أفهمه، وهو بعد في قبره لم يخرجوه. ثم جاؤوا بسویر فجعلوه على السمينة فلما وافوا قبره نحو التراب والخشب، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه. فرأيتُ قد اسودَّ لبد البلد، وكانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطبوراً، فأخرجوا جميع ذلك، وإذا هو

(١) ابن خلدون.

(٢) ياقوت

لم يتغير منه شيء غير لونه. فآلبسوه سراويلًا وحقًا وجعلوا على رأسه قلنسوة، وحطوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه وأسندوه بالمساند، وجاؤوا بالبيد والقواكه والريحان فجعلوه معه، وجاؤوا بحبز ولحم ويصل فطرحوه بين يديه. وجاؤوا بكلب فقطعوه نصعين وألقوه في السفينة. ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه. ثم أدخلوا دابتين وقطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة. ثم أحضروا بقرتين وديكاً ودجاجةً فقتلوا وطرحوها فيها

كل هذا والجارية التي تُقتل ذاعية وجائية تدخل قبة قبة من قباهم فيجامعها صاحبها ويقول لها: «وقولي لمولايك إنما فعلت هذا من محبتك». فلما كان وقت العصر جاؤوا بالجارية فوضعت رجلها على أكف الرجال وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها، ثم أصعدوها ثانيةً ففعلت كفعلها في المرة الأولى. ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثةً ففعلت فعلها في المرتين. فسألت الترجمان عن فعلها فقال: «وقالت في المرة الأولى: هودا أرى أبي وأمي. وقالت في المرة الثانية: هودا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً. وقالت في المرة الثالثة: هودا أرى مولاي قاهداً في الجنة، والجنة حسنة حضراء، وهو يدعوني، فاذهبوا بي إليه».

ثم مروا بها نحو السمينة، فترعت سوارين كانا معها ودفعتهما إلى امرأة عجور يقولون لها ملك الموت، وهي التي تقتلها. وترعت خلخالين ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدعانهما، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت. ثم أصعدوها السفينة، ودفعوا إليها قدحاً من بيد فغئت عليه وشربته. وأحدث المعجوز برأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها، وأخذ الرجال يصربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجوّاري فلا يطلب الموت مع موالئهم. ثم دخل القبة ستة رجال فحامعوا بأسرهم الجارية، ثم أضجعوها إلى جانب مولاهم الميت، وأمسك اثنان رجلها، واثنان يديها، وجعلت العجور في عنقها حبلاً، ودفعته إلى اثنين ليحبداه، وأقلت ومعها

خنجر عظيم عريض النصل، وأقبلت تُدحله بين أصلاعها وتُخرجه، والرجلان يخفّيهما بالحبل حتى ماتت

ووافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ حشبة فأشعلها بالنار، ثم مشى القهقري نحو فمها إلى السفينة، والحشبة في يده الواحدة وبه الأخرى على إسته وهو عريان، حتى أحرق الخشب المعنى تحت السفينة. ثم وافى الناس ومع كل واحد حشبة وقد ألهب رأسها، فبلقوها في ذلك الحشب، فتأخذ النار في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية

وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعتُه يكلم الترجمان الذي معي، فسألتُه عما قال له، فقال: «إبه يقول أنتم معشر العرب حمقى، لأنكم تعبدون إلى أحب الناس إليكم فتطرحونه في التراب، فتأكله الهوام والدود، ونحس نحرقه بالنار في لحظة، ويدخل الجنة من وقته وساعته» ثم صحك ضحكاً مفرطاً وما مصت على الحقيقة ساعة حتى صارت السمينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً، صبوا في وسطه خشة كبيرة وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس، وانصرفوا^(١)

الغزو الروسي لبلد إسلامي:

قال المؤرخ مسكويه في كتابه «تجارب الأمم» في حوادث سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣م^(٢):

وفي هذه السنة خرج عسكر الأمة المعروفة بالروس إلى أفريجيان،

(١) رسالة ابن فضلان. وكان ابن فضلان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المعتز عام

٣٠٩ هـ/٩٢١م، إلى ملك الطغار فمرّت البعثة في طريقها ببلاد الروس

(٢) تجارب الأمم: الجزء الثاني ٦٢-٦٧ مختصراً.

وقصدوا مدينة بردعة^(١). فتوجه إليهم المروبان بن محمد بن مسافر^(٢) ومعه من المطوعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء. وكانوا مغترين لا يعرفون شدة الروس، وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والروم. فلما صافوهم الحرب، لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة مكبرة فهزموا العسكر، وولت المطوعة بأسرهم وسائر العسكر إلا الدبلم، فإنهم ثبتوا ساعة فقتلوا كلهم. وهرب كل من كان له مركوب، وتركوا البلد، فتزلت الروسية وملكوه. وبادروا فادوا فيه وسكروا الناس وقالوا لهم. «لا منازعة بينا وبينكم في الدين، وإنما نطلب الملك، وعلينا أن نحسن السيرة، وعليكم حسن الطاعة».

ورافتهم العساكر من كل ناحية، فكانوا يخرجون إليهم ويهزمونهم. وكان أهل بردعة يخرجون معهم، فإذا حمل المسلمون على الروس كبروا ورجمهم بالحجارة، فكانت الروسية تنقذ إليهم بأن يضبطوا أنفسهم. فأما العامة فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويظهرون ما في نفوسهم ويتعرضون لهم إذا حمل عليهم أصحاب السلطان. فلما طال ذلك على الروس نادى مناديتهم بالأا يقيم في البلد أحد من أهل، وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم بدائهم.

فحرق كل من كان له ظهر يحمله ويحمل حرمه وولده، وهم مرسير. وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم فقتلوا خلقاً عظيماً لا يحصى عددهم، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وعلام مع

(١) بردعة، بلدة حوب جبال القوقاز كانت فيما مضى قصة لزان، وهي على بعد ١٤ ميلاً تقريباً من نهر الكُر. وكانت في عهد الساسانيين المرسي ثم في عهد العرب حصناً على الحدود لصدة غارات المرأة من الشمال والحرب فتحها العرب حوالي عام ٢٢٢هـ/٦٠٢م. وكانت وقت الغزو الروسي لها في أوج ازدهارها، تشمل مساحة تمتد عدة أميال طولاً وعرضاً، في منطقة خصبة تتوفر فيها مياه الري، وتضارع في الحجم الري وأصمهم.

(٢) هووالي أنخريجان

سائهم وبائهم. ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكلوا بأبوابه، وقالوا لهم «اشترُوا أنفسكم». وتوقَّف الرومية عن قتل الرجال طمعاً في المال، فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف يقتلوه من آخرهم، إلا عدداً يسيراً. وربما وافق الواحد من المسلمين الرومي على مال يفتدي به نفسه، فيحضر معه إلى منزله أو حائوته، فإذا استخرج حديره وكانت زائلة على المال المتفق عليه لا يمكن صاحبها منها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه. فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جواهر ولا فرش ولا كسوة، أفرج عنه وأعطاه ظب محتوماً يأمن به من غيره (من الروس) فاجتمع لهم من اللد شيء عظيم يجعل قنره وكانوا قد حازوا النساء والصبيان ففجروا بهن ربهن واستبدوهم.

فلما عظمت المصيبة وتسامع المسلمون في البلدان بخبرهم تسادوا بالنفير. وجمع المرزبان بن محمد عسكريه واستنفر الناس، وأتاه المطوعة من كل ناحية، فسار في ثلاثين ألف رجل. ومع ذلك لم يمكنه أن يؤثر في الرومية أثراً، وكان يضادهم القتال ويرواحه وينقلب عنهم معلولاً. واتصلت الحرب بينهم على هذه الصورة أياماً كثيرة، فكانت الدبرة أبداً على المسلمين.

واتفق أن الرومية لما ملكوا برذعة تسطوا في أكل الفاكهة، وهناك أنواع كثيرة منها، فمروضوا ووقع فيهم الوباء، لأن بلادهم شديدة البرد ولا يبت فيها شجر، وإنما يحمل إليهم الشيء اليسير من السلاط الشاسعة عنهم. فلما قلَّ عددهم فكر المرزبان في الحيلة، ووقع له أن يكمن لهم ليلاً، وواطأ عسكريه أن يبادروا الحرب، فإذا حمل عليهم الروس انهزموا فقطعوا بذلك الروس في المسلمين، فإذا تجاوروا موضع الكمين، عطف المرزبان ورجاله عليهم، فإذا حصر الرومية في الوسط تمكنوا منهم. فلما أصبحوا تقدّم المرزبان وأصحابه، ويرر الرومية وأميرهم راكب حملاً، واصطفوا للحرب قانهم المسلمون، وأتبهم الرومية حتى تجاوزوا موضع الكمين، واستمر الناس على هزيمتهم. فلما رأى المرزبان ذلك اجتهد بالمسلمين أن يراجعوا الحرب فلم

يفعلوا لما تمكّن في قلوبهم من هية الروس فرجع الموزيان وحده مع من تبعه، وحيثما امتحى أكثر الديلم فرجعوا وخرجوا من وراء الروس وصدفوه من الحرب وقتلوا منهم ستمائة نفس فيهم أميرهم. وعاد الباكون إلى الحصن في البلد، وكانوا يلقوا إليه غلات كثيرة.

ولم يزل أصحاب الموزيان في قتال الروسية وحصارهم إلى أن ضجر الروس وأتفق أن راد الوياء عليهم. فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه. فاستثار المسلمون بعد روال أمرهم مقابرهم فاستخرجوا منها سيوفاً يتنافس فيها إلى اليوم لمضاتها وجودتها. فلما قلّ عددهم خرجوا ليلاً من الحصن، وحملوا على طهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة، وأحرقوا الباقي، وساقوا من النساء والصبيان والصبايا ما شاؤوا، وقصنوا السفن التي خرجوا فيها من بلادهم، فجلسوا فيها ومضوا، وكفى الله المسلمين أمرهم^(١).

وسمعتُ ممن شاهد هؤلاء الروسية حكايات عجيبة عن شدّتهم وقلة مبالاتهم بمن يجتمع عليهم من المسلمين. فمن ذلك حبر شاع في الناحية، وسمعتُه من غير واحد، أن خمسة نمر من الروسية اجتمعوا في بستان ببرقة وفيهم غلام أمرد وضبيء الوجه من أولاد رؤسائهم، ومعهم سوة من السبي، وأن المسلمين لما عرفوا حيرهم أحاطوا بالبستان واجتمع عدد كثير على حرب أولئك نفر الخمسة، واجتهدوا في أن يحصل لهم أمير واحد، فلم يكن إليه سبيل لأنه كان لا يستسلم أحد منهم، ولم يمكن قتلهم حتى قتلوا من المسلمين أضعافاً كثيرة لعدّتهم. وكان ذلك الأمرد آخر من بقي، فلما علم أنه يؤخذ أميراً، صعد شجرة كانت بالقرب منه، ولم يزل يجرح نفسه بحجر معه إلى أن سقط ميتاً.

(١) استمر الاحتلال الروسي لبردة عدة شهور، وفي رواية يلقون (معجم البلدان) سنة.

غزو روسي آخر يصفه المسلمون:

وقد أورد المسعودي في «مروج الذهب» ذكراً لغزو روسي آخر تم في حوالي ذلك الوقت (أي النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، فيقول:

ورد للروس نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا حلبج بطرس المتصل ببحر الخزر، وراسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا بيلانه ويحسدروا في نهره فيدخلوا بحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما، على أن يعطوه النصف مما يقتنمون هالك من الأمم على ذلك البحر. فأباحهم ذلك، فدخلوا وانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت مراكبها إلى الجبل والديلم وبلاد طبرستان ونحو بلاد آذربيجان فسبكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وعبت الأموال، وشئت الغارات، وأحربت وأحرقت، فضج من حول هذا البحر من الأمم لأنهم لم يكونوا يهدون في قديم الزمان علواً يطرقهم فيه، وإنما يحتلف فيه مراكب التجار والصيد. وكانت الروس تأتي عند رجوعها من عاراتها إلى جرائر بقرب النفاطة. فاستعد الناس، وركبوا في القوارب ومراكب التجار وساروا نحو تلك الجزائر. فمالت عليهم الروس فقتل من المسلمين وغرق ألوف. وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفا، لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس متاهبون لهم، حلزون منهم

فلما غنم الروس وشتموا ما هم فيه، ساروا إلى قم نهر الخزر ومصبه، وراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والكنائس على ما اشترط عليهم. وعبت بشأنهم من في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر، «حلتنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذراري». فلم يمكنه منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حرهم.

وعسكر المسلمون وخرجوا يطلبون الروم منحللين مع الماء فلما وقعت العين على العين خرجت الروم عن مراكبها وصافوا المسلمين . وكان مع المسلمين خلق من التنصاري ، فكان المسلمون في نحو من خمسة عشر ألفاً بالخيال والعند . فأقامت الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، فأخذوهم بالسيف ، فمن قتل وغريق ، ونجا منهم نحو من خمسة آلاف ، تعلقوا بالبر ، فمهم من قتله أهل برطاس ، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغر المسلمين فقتلوه . وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر البحر نحواً من ثلاثين ألفاً .

ولم يكن للروم من تلك السنة عودة .

فيستاريون بيلينسكي ورسائله الشهيرة إلى جوجول

يأتي على الدول المتحلّفة في مصمار الحريات السياسية والشخصية، وفي المصمار الاقتصادي، حين من الدهر تتطلع فيه أنظار المثقفين بها إلى مدى ما وصلت إليه أوروبا في هادئ المصمارين بإعجاب وحسد شديدتين. فالرخاء المادي، والديموقراطية السياسية، واحترام الشخصية الإنسانية، يصبح لها لدى هؤلاء المثقفين أهمية لا تعادلها أهمية، حتى نرى الحديث عن «شخصية مستقلة للأمة»، و«ضرورة الاحتفاظ بالطابع المميز لها»، وأن «لكل أمة طريقها الخاص للوصول إلى الحقيقة»، مجوجاً حليفاً بالسخرية، وتري أصحابه إما من المضللّين من عمد، أتباع الحكومة الرجعية، الساهين إلى تحويل أنظار الجماهير عن مشاكلها الحقيقية (المادية)، وإما من السُدج المضللّين، الروحانيين اللاواقعيين، قد شبت بطونهم، وتضال اتصالحهم بالشعب وهمومه، فشرعوا يتحدثون عن ظايغ خاص وشخصية مميزة. فالإرتقاء باقتصاديات اللاد هو عندهم الواجب الأول والذي يليه. والنهوض بالصناعة وتطوير العلم وإشاع الحاجات المادية للفرد، هي الغرض الاسمي، وهي الوسائل الوحيدة للوصول إلى السعادة والحق. وإذ تقوم الحضارة الأوروبية أساساً على هذه المبادئ، فالحصارة الأوروبية إذ هي الأولى بالتقليد والاحتذاء. علينا أولاً أن نطم الفرد ونكسّو وبرة عليه أنمسه قبل أن نتوقع منه أن يستسلم هذه الأنفاس في التعبير عن شخصيته وذاته. أما أن نتركه يسير عاري القدمين، خالي الوفاص، ثم نشفق بعد ذلك بروحانيته

وهصائله، وندادى ببناء كيان متميز للأمة على هذا الأساس، فجهد أشبه بجهد
الراسم على الماء، أو باتي القصور في الهواء

إيشان وأليوشا كلوا ملزوف

وقد كان من الطبيعي أن يظهر هذا التيار الفكري في روسيا في بداية
العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لا لأن الامتداد القيصري كان قد زاد
وقتها زيادة ملموسة، ولا لأن الفقر استفحل واتسع نطاقه، وإنما لازدياد الشعور
بالامتداد القائم، وشروع الناس في التساؤل عن الأسباب الحقيقية للمفر واد
كان الاتصال بين روسيا والغرب قد بدأ يعظم خاصة بعد الحروب النابوليونية
واشتراك روسيا الفعال في معترك السياسة الأوروبية، فقد امتدت أنظار المثقفين
الروس للتطلع والمقارنة، والإعجاب والتحسّر، والتحمس والسخط. ألم يزعم
بطرس الأكبر أنه قد جعل من روسيا دولة أوروبية؟ فما بال نظمها السياسية إذن
أقرب إلى نظم الشرق؟ وما بال غالبية الشعب فيها لا تزال ترسف في أغلال
الرق، وتوزج تحت أعباء الفقر والحاجة؟ إن خلق اللحي ليس بالمظهر الوحيد
من مظاهر إدخال المدنية الغربية في البلاد. فلتدخل المسألة الاشتراكية،
ولتتمد خطوط السكك الحديدية، ولتفرض على سلطان الكنيسة في ميادين
المعلوم، ولتبلغ نظام الرق، ثم لتطلقوا اللحي بعد ذلك إن شئت إطلاقاً

وقد كان الصراع بين رعماء هذا التيار (بيلينسكي، هرتزن، تورجنيف،
تشرشفسكي، دوبروليوبوف)، وبين المؤمنين بالروسيا رسالة خاصة، ونمطاً
ثقافياً متميزاً مناقضين للمدنية الغربية المادية الآخذة في الأفول والانحلال
(جوجل، دوستويفسكي، أكساكوف، وإلى حد ما تولستوي)، أشبه بالصراع
بين عقيلتي إيشان كارمازوف وأخيه أليوشا في رواية «الإحوة كارامازوف»
لدوستويفسكي. فأما في ميدان الأدب الروسي في عصره الذهبي، فقد انتصر
أليوشا الروحاني المتدين، وكان على إيشان المنطقي المادي أن ينتظر حتى
الثورة البلشفية عام ١٩١٧، حتى تكون الغلبة له. والواقع أنه مهما اختلفت

وجهات نظرنا حول مراعم الملحين، فلا شك هي أن جانباً كبيراً من الفصل في عظمة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر راجع إلى هزيمة مدرسة بيليسكي، وأن انتصار أشباع الرومية في ذلك الأدب، هو الذي مكّن روسيا من أن تقدم مساهمتها الفريدة في الفكر الإنساني، حيث أن المساهمة القومية، متى اقتربت بطابع إنساني، هي وحدها القادرة على أن تجعل من أدب ما أدباً عالمياً.

السلافيون ودعاة التفريب:

كانت الصحافة قد بدأت تتعشّ في روسيا خلال العقدين الرابع والخامس من القرن الماضي، رغم الرقابة الصارمة التي فرضتها حكومة القيصر نيقولا الأول، ورغم الاصطهاد المكثري الشائع في ذلك العصر. وسرعان ما أصبحت الصحف والمجلات الروسية، لأول مرة، رائدة للرأي العام في البلاد، وذات تأثير قوي فيه، واتخذت لنفسها شكلاً وطابعاً طلياً عالياً على الصحافة الروسية حتى عام ١٩١٧.

فأما عن لواء الثقافة والمكر فقد انطل بعد هزيمة الديسمبريين إلى الجامعات (خاصة جامعة موسكو)، والحلقات الأدبية التي كانت غالبية أفرادها من غير المنتمين في فكرهم إلى طبقة اجتماعية معينة. وبينما انتعشت الصحافة في العاصمة بطرسبورج تحت رعاية القيصر، وكسب رجالها المال الوفير مقابل احتلالهم الرأس للسلطات، كان تاريخ الصحافة في موسكو سلسلة طويلة من التضحيات والمآسي والمعاناة المرة من سطوة الرقابة والصانقة المالية

وقد شهدت جامعة موسكو في أوائل العقد الرابع جماعتين من الشباب المثقف الطموح، اختلفت مطالعتهما واتجاهاتهما الفكرية كانت الجماعة الأولى التي ترعّمها الكسندر هرتزن، قد وجهت اهتمامها إلى المشاكل السياسية والاجتماعية متأثرة في فكرها بالاشتراكية المثالية وتعاليم سان سيمون وفورييه وجورج صاند. أما الجماعة الثانية فقد حمل لواءها ستانكفيتسن

وبيلينسكي، وعيت بدراسة الفلسفة المثالية الألمانية، وتحمس أفرادها لمؤلفات شيلنج وفيخته وهيجل وفورباخ تحمساً فاق تحمس الألمان أنفسهم لها. غير أن ظهور جماعة ثالثة في الميدان، هي جماعة «السلافيين»، وتحد بين الجماعتين الأوليين، ودعمهما إلى التحالف من أجل مقاومة تأثير هذه الجماعة الجديدة.

كان كل من السلافيين ودعاة التغريب متفقين على ضرورة القضاء على نظام الرق والحد من أوتوقراطية القيصر. غير أنهم كانوا كالتطبيين لمریص واحد، قد اختلفوا في تشخيص الداء، ووصف الدواء. ذهب السلافيون إل أن لروسيا تاريخاً فريداً في تطورها لا تشاركها فيه غيرها من الدول. وهي قد تكون في حاجة إلى اقتباس العلوم وبعض الأساليب الفنية من أوروبا. غير أن عليها قبل كل شيء أن تجاهد من أجل الحفاظ على شخصيتها، حتى لا تفقد هذه الشخصية المتميزة بتقليدها الأعمى للغرب، وتهويها من شأن نفسها. وأما طريق الخلاص فيتمثل في تمسكها بعقيدتها الأورثوذكسية، وحماية تقاليددها الضمنية من الاندثار، والعمل على إقامة علاقات شخصية بين ممالك الأرض والفلاح يسودها شعور أبوي كفيل بضمك سعادة الكافة.

وقد سحر دهشة التعريب، وجلهم من الاشتراكيين، من هذه الآراء، وكرهوا طابعها الديني، وراوها سداً للأوتوقراطية القيصرية. وذهب هؤلاء إلى أن حدود الدولة أمر عارض لا قيمة له ولا أهمية، وأن الروس يتمتعون إلى الإنسانية أولاً وقبل كل شيء، وأن طريق الخلاص، على حد تعبير بيلينسكي، يكمن في تحسين الظروف المادية وأحوال المعيشة، ولا يتأتى ذلك إلا بفتح الباب على مصراعيه لريح الآراء الحرة التي تهب من الغرب، وتوثيق الصلات بين روسيا والبلدان الأوروبية.

حياة بيلينسكي:

ولد قيساريون بيلينسكي، أعظم النقاد الروس وزعيم طائفة المفكرين من

دعاة التنوير، عام ١٨١١ وهو ابن لطبيب فقير يقيم ببلدة صغيرة إقليمية كانت تدعى شيميلار ثم غيّرت الحكومة السوفيتية اسمها فيما بعد فصارت تحمل اسم «بيليسكي» وإذ بلغ الصبي الثامنة عشرة من العمر، التحق بجامعة موسكو حيث جمعه الصداقة بطفافة من الشبان المثاليين المتحمسين لهيجل، وعلى رأسهم ستانكفيتش. عبر أنه بعد سنوات ثلاث من الدراسة بالجامعة، كتب مسرحية طويلة بعنوان «معتري كالين» هاجم فيها نظام الرق، فهددته السلطات بالنهي إلى سيبيريا إن هو عاد إلى كتابة مثلها وسرعان ما فصل الشاب من الجامعة (عام ١٨٣٢)، وبرزت الإدارة فصله «سوء صحته»، وقرائه الدمية المحدودة! وبذا لم يتمكن بيلنسكي من بلل شهادة جامعية بيد أنه لم يهمل تعليمه بعد فصله، فقد انكب على الكتب يقرأ فيها الساعات الطوال، واتصل برملائه السابقين في الدراسة يناقشهم ويناقشونه فيما يقرأ ويقرأون، ويعلّي عقولهم ويعلمون عقله بما اطلع وأطلعوه عليه.

ومع ذلك فقد ظل بيليسكي ضعيفاً واضح الضعف في اللغات الأجنبية فلم يتمكن طيلة عمره من قراءة الكتب الألمانية أو الانجليزية التي تأثر بها إلا مترجمة كذلك اعتمد أساساً في تحصيله للمعارف الفلسفية على ما رزّده به منها زملاؤه الأكثر ثقافة.

ظل بيليسكي قرابة عامين بعد فصله من الجامعة يعاني فقراً مدقماً. ثم تمكن من العثور على وظيفة في مجلة «نيلسكوب»، وبدأ يشر فيها وهو في الثالثة والعشرين مقالات في النقد تحت عنوان «خواطر أدبية»، تعرض فيها للرواية الروسية ومؤلفات جوجول بالأخص وقد اعترت هذه المقالات بداية النقد الأدبي في روسيا، بل بداية صحافة روسية راقية واعية، وبداية عهد ظل بيليسكي طوالها وحتى وقت وفاته المحكم الفصل وصاحب الكلمة الأخيرة في تقييم الأعمال الأدبية الروسية. وقد تميزت هذه المقالات بعدم احترام لكل ما هو قديم في الأدب الروسي وكل ما ظل الناس أمدأ طويلاً يجلبونه ويوقروه. كما تميزت بالتممس الشديد للأفكار المثالية الجديدة ولمستقبل الجيل

الناسي من بني وطنه وقد جلب له تحمسه هذا لقب «فيساريون الخاص»، أطلقه عليه المعجبون به من الشباب الذين اعتبروه زعيمهم ورائدهم، كما جلب عليه نعمة الرقابة، وكراهية المحافظين، وارتباب السلطة، وحقن الكنيسة ورجال الدين.

وفي عام ١٨٣٦، صدر الأمر الحكومي بتعطيل مجلة «تيليسكوب»، فعاد بيلينسكي إلى فقره. وبعد بحث مص من عمل يقتات منه، اضطر إلى قبول وظيفة مدرس للأطفال، وتألّف كتاب مسط في قواعد اللغة. غير أن صداقته بالميلسوف الموصوي ناكوتين صاحب إحدى المجلات الروسية، مهّدت له طريق العمل كصحفي فيها. فلما أفلست المجلة وأغلقت أبوابها، انتقل بيلينسكي إلى مجلة أخرى أصبح الناقد الأول فيها مقابل مرتب ضئيل لم يكن ثمة مغر من قبوله.

وصيته الأخيرة:

وأصبح بيلينسكي بفضل مقالاته منذ ذلك الحين روح التقديمية في روسيا، والمبشر بنوع جديد من الأدب. كان يرى أن الوقت قد حان كي يهجر الأدب الروسي اتجاهي الكلاسيكية والرومانسية، وأن يصبح أدباً جديداً متصلاً بالواقع الحاضر، يعكس الحياة الواقعية في صلق وأمانة، ويستمد أسسه من الأفكار الحديثة في الفلسفة وعلم الاجتماع. وكان يرى في الواقعية الاجتماعية في مؤلفات جوجول تحقيقاً لذلك الحلم الذي شغل محيّلته، وتجسيداً لمشله العليا في الأدب.

وفي عام ١٨٤٧ تفاقم عنده داء السل، فاضطر إلى الرحيل عن روسيا يلتمس العلاج في كل من فرنسا وألمانيا: ومن ألمانيا، بعيداً عن سلطان الرقابة، كتب خطابه الشهير إلى جوجول عقب صدور كتاب الأخير «مراسلات مع الأصدقاء»، عبّر فيه عن غضبه على حيانة جوجول للشعب والأدب الروسيين بتحوّله المماجيء إلى مؤامرة حكم القيصر، والولاء للكنيسة الأورثوذكسية،

وإعلانه الدم على كتابة مؤلفاته السابقة. ويُروى عن هرتزل أنه عندما قرأ عليه بيلينسكي الخطاب بعد فراغه من كتابته، مال على صديق كان معه يهمس في أذنه

«إنه عمل لا يأتي إلا من عبقرى. وليخيل إليّ أنه أيضاً وصيته الأخيرة».

وقد كان. ففي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٤٨، بعد عودة بيلينسكي إلى روسيا بفترة قصيرة، توفي من دائه وهو في السابعة والثلاثين من العمر. وإذ بلغ بيا. موته كبير الرقاء على الصحافة، عبر عن حزنه الشديد وصاح فيمن حوله «يا للأسف! لقد كنا نأمل أن تدفنه حياً في السجن، فإذا الوغد يتمكن من الفرار!».

تأثير هيغل:

ظل بيلينسكي مدة طويلة (خاصة في الفترة ما بين عامي ١٨٣٤ و ١٨٣٧) شديد التأثر بمؤلفات هيغل، خاصاً في تفكيره وكتاباتاته للجانب المثالي من فلسفته. فهو يؤمن مع هيغل بالفكرة المطلقة تصطنع تطور الحياة المادية والروحية في سبيل تحقيق حريتها الكاملة. وهو يرى أن «هذا العالم الجميل الخالد ليس إلا نفحة من فكرة واحدة خالدة تكشف عن نفسها في أشكال غير محدودة، كأنها مشهد عظيم لوحنة مطلقة تظل تتوسع نوعاً لا يدركه حصرة» حتى إذا ما تحول إلى النقد الأدبي رأى في الفن «بعثاً لفكرة روح الطبيعة بواسطة الألفاظ والأنغام والألوان، وتمبيراً عن فكرة الوجود المنجنية في مختلف الظواهر. وإنما يسمو الشاعر بفته إلى القمة حين ينجح في تمكين قارئه من النظر إلى الوجود من زاوية تبدو له الطبيعة منها مصغرة كرسمة الخريطة، وحين ينجح كذلك في إنعاش روح قارئه منغمة الحيلة التي تحرك الوجود، وباللهب الذي يعطيه الدفع».

وكان في البداية يؤمن بمبدأ هيغل الشهير «كل ما هو حقيقة واقعة

معقول، وكل ما هو معقول حقيقة واقعة». ومعنى هذا أن بقاء أية حقيقة في عالم الواقع دليل على أن تعذب بقيصها عليها لم يحس أوانه، إذ لو أنها صارت غير ملائمة لرميها لاسكحها الجديد. وهي فلسفة رجعية استلذت إليها حكومات أوروبا الاستبدادية في تعزيز طغيانها. فهي وجودها دليل على ملائمتها لاحتياجات الزمن، وتبرير لبقائها، ولا معنى أو مبرر لمحاولة التخلص منها بالنزوة عليها.

وعلى هذا أقر بيليسكي في أول عهده بقاء حكومة القيصر على أساس أنها مرحلة انتقال لم يحس بعد أوان تحطيتها وتحاربها بالنظر إلى أن القوى التقدمية لم تلعب بعد من النصبح القدر الكافي الذي يمكنها من تحقيق رسالتها. وكان مع عدائه لنظام الرق لا يرى مناصاً من تقبله ريثما تنضج القوى التقدمية فتدمره وتطلع بالجديد الذي سيحل مكانه.

أثارت هذه الآراء الرجعية لبيليسكي سخط الشباب الروسي الناشئ وغيظه، وقاد هرتون حملة على اتجاهه المسالم للسلطة، داعياً إلى حوص ميدان الكفاح وحض العلاحين على الثورة على نظام الرق. وقد قاوم بيلينسكي هذه الحملة في بادئ الأمر، ثم لم يلبث أن تحول عن موقفه، وقابل هرتون في مارسبروح عام ١٨٤٠، وأقر له بحطه، وبتحوله إلى الاعتقاد بأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالثورة.

أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي

وكانت توبت وتحوله عن فلسفة هيجل عميقين صادقين. كتب يقول «أولى بالإنسان أن يموت من أن يوافق على النتائج التي توصل إليها هيجل». فهو الآن يؤمن بالاشتراكية «التي أصبحت عندي مسألة المسائل، وأم الآراء، وكيان الكائنات، والبدائية والنهاية لكافة المعارف والمعتقدات» وقد كتب دوستويفسكي في يومياته يقول: «كنا جالسين يوماً إلى بيلينسكي نستمع إليه يتحدث عن المسيحية. فلذا به يقطع حديثه فجأة ويصبح بي: كلما تطرق بي

الحديث إلى المسيح أجد لوك قد امتنع وبلوت وكانك على وشك البكاء صدقي أيها الشاب، لو أن المسيح ولد في زماننا هذا لاعتق المذهب الاشتراكي على الفور!».

وتغير معتقدات بيلينسكي الفلسفية بتغير مفاهيمه عن الأدب والفن فهو يعرف الفن الآن بأنه «التأمل المباشر في الحقيقة، وإعادة لحلق الكون دون تحوير». ولا يعني هذا أن الفن يعكس لنا الحياة والطبيعة كما تعكس المرأة الصورة، «غير أن عليه دائماً أن يبرر للناس حقيقة أحوالهم وحقيقة أنفسهم، وأن يتناول المشكلات التي نجثم على صدورهم فيستحثهم على التخلص منها، واجتثاثها من جذورها».

بانت لدى بيلينسكي نظرية نامية واضحة المعالم في الأدب ورسالة، بل إنه يمكن القول (وهو قول لا يطبق إلا على عدد صغير من النقاد) إن كل ما أصدره من أحكام على ما ظهر من مؤلفات روسية بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٨، يمكن التسليم به دون اعتراض أما أحكامه على أدب الأجيال السابقة على تلك الفترة، فقد انتقص من قيمتها تعصبه المذهبي، وإصراره انشبه بإصرار الشيوعيين في فرنسا هذا على تطبيق معايير صارمة محددة لا تلين، وحق أدبي واحد معين. فيلنسكي لا يُكن احتراماً إلا لنوع واحد من الأدب، عاجز عن استماعه غيره. فإن رفض أدب الدخول إلى حظيرة هاجمه وسُمِّه مهما بلغ أدبه من النضج، وإن دخلها أدب قرطه وأثنى عليه حتى لو لم يبلغ في فنه مبلغ الأول.

وقد كان بيلينسكي أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي نادى بصراحة غلبة الأفكار في الأدب على ما عداها وبدا بات مسؤولاً عما شاع بين الأدباء في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر من إهمال للحبكة المصبة والأسلوب الرصين واللغة القويمة فالمادة والموضوع هما الأهم. أما الشكل فمفترون عنده مضحالة المادة وفراغ جعبة الأديب.

أعمق الصحفيين تأثيراً:

ومع ذلك، فالكل مجمع على أنه كاتب هو أقرب إلى السبي منه إلى السائد، وأنه أعمس الصحفيين الروس تأثيراً في الرأي العام التقدمي، وأمه مهماً بالنسبة إلى إمكاناتنا المبالغة في تقدير أهميته التاريخية. لقد كان أنا للإنتليجنزيا في بلاده، وزعيماً من الزعماء المثاليين الاشتراكيين، لا هم له إلا صلاح أحوال بلاده دون أدنى احترام لما لا يوصي ضميره عن احترامه. وكان أميناً نزيهاً إلى أبعد الحدود، لم يكثر لثروته أصعب الرقابة له، ولم يخن مداه طمعاً في حياة أكثر راحة، أو تجباً لمفرج جلب عليه في النهاية المرض والموت. ومن أبرز أفضاله على الصحافة والنقد في زمنه إدراكه الدقيق لروح عصره، وعلله وأمرامه، ومحاوَلته تطوير المجتمع في الاتجاه الذي ارتآه سليماً ولارماً له. وقد ظلت رسالته إلى جوجول تُشكّل عقيدة المثقفين التقدميين مدة تزيد عن نصف قرن، ومنع الرقيب نشرها وتداولها حتى عام ١٩٠٥ بعد الثورة الروسية الأولى. وهي الرسالة التي حكمت السلطات على دوستويفسكي بالإعدام بنهمة الاستماع إليها في إحدى الحلقات وهرّ رأسه إعجاباً بها! وقد كتب عنها إيفان ألكسكوف يقول:

«إن اسم بيلينسكي معروف لدى كل شاب قادر على التفكير والتأمل، ولدى كل من يسعى إلى تنسم الحرية والحياة الحقة. وإنني شخصياً لا أعرف مدرساً واحداً في المدارس الثانوية بمواضع الأقاليم لا يحفظ رسالة بيلينسكي إلى جوجول عن ظهر قلب. فإن أردت العثور على رجل أمين تكلفه بالسهر على مصالح المضطهدين والمقراء، أو على طبيب نزيه أو قاض عادل تشاركهما في الكفاح من أجل الحرية، فلتبدأ بالتفتيش عنهم بين أتباع بيلينسكي وأنصاره».

رسالة بيلينسكي إلى جوجول:

وأختم مقالتي بترجمتي لبعض فقرات من تلك الرسالة:

ولم تُصَبَّ إلا جانباً من الحق إذ تبيّت في مقالتي رجلاً عاصياً فهي صفة من الصغف بحيث تعجز عن التعبير عن الحالة التي سبّتها لي قراءة كتابك وقد كان يوسعي احتمال هجومك عليّ، غير أنه ليس يوسعي احتمال إهانة وجهتها إلى الحق وكرامة الإنسان، أو السكوت إذ أراك تدعو إلى الفن ومساد الخلق تحت ستار من الدين، وتحت حماية سياط السلطة، ملساً هذا الفن والعساد ثياب الحقيقة والفضيلة.

فاذا كان الجميع (عدا حصة من الناس كان من الواجب أن تراهم قبل أن تسمح لنفسك بأن تسر لتأييدهم لك)، أقول، إنه إذا كان الجميع قد رأوا في كتابك حيلة لثيمة (وإن كانت مألوفة) كي تحصل على مأرب دنيوية عن طريق الانجار بالدين، فعليك أنت تقع الشعة والذب. وقد شاع في بطرسبورج أنك ألغت كتابك طمعاً في أن تُعين مدرساً خاصاً لوليّ العهد، وأنت كتبت خطاباً إلى وزير المعارف تشكو فيه من أن كتابك السابقة قد أسىء تفسيرها، وتذكر أنك عبر راصٍ عنها، وأنت لم ترصي عن كتاب لك إلا متى رضي القيصر عنه. فهل من المستعرب إذن أن يحطّ كتابك الجديد من قدرك لدى الجمهور؟ أن يحطّ من قدرك كأديب وكإنسان؟ إنه ليس بالأمر الغريب، وإمّا العريب حقاً أن تراه أنت هزلياً.

إن بلادنا يا سيدي ليست في حاجة إلى الوعظ، فقد سمعت منه أكثر مما ينبغي، وإنما هي في حاجة إلى من يوقظ لدى شعبها شعور الكرامة الإنسانية، ومن يتيح بمؤلفاته الفرصة له حتى يرى عسّه كما يراها في المرأة. ثم إذا بكتابت عظيم ساهم بفضل أعماله القوية الرائعة الصالحة في مساعدة روسيا على تحقيق ذاتها، يحرج بكتابت مشين باسم المسيح والكنيسة بتغني فيه بمدح رجال الدين الروس المحقرّاء، وينعت الفلاحين بالفروغاء الأوساخ، ويدعو المالك الزراعي إلى أن يبتز من أقبانه المريد من المال وإن يضاعف من قسوته وبطشه. وكان المفروض ألا أغضب من هذا! أقسم أنك لو كنت حاولت اغتيالِي لما كرهتُك كراهيتي لك بسبب كتابك. ثم براك تحاول بعد ذلك أن تقنع الناس بإحلاص

نوبياك! لا . فلو أنك حقاً كنت قد استوحيت المسيح وتشبعت بتعاليمه لا يتعاليم الشيطان لخرج من قلمك كتاب جذّ مختلف عن كتابك الأخير . فهل من المعقول أن يكون مثل هذا الكتاب ثمرة تفكير عميق ، وبحث دقيق ، ونور هبط على القلب؟ محال! إما أنك مريض يلزمك العلاج ، أو أنك . . . إنه لمن الصعب عليّ أن أكمل الجملة . يكفي أن أسالك يا مبشر العوغاء ويا رسول الجهل ودعاة الرجعية وفساد الخلق، عما أراك تصنعه . إنني بنظرة تحت قدميك إني لأراك مشرفاً على هاوية صحيفة

أهذا ممكن؟ أيمكن أن تكون أنت، مؤلف «المعشّ العام» و«معوس مينة»، قد أثبتت بإخلاص على رجال الدين الروس؟ أحقاً أنك لا تدرك مدى الاحتقار الذي يكنه الشعب الروسي لهؤلاء القوم؟ على من تنتنر الجماهير؟ عن من يروون أبشع القصص؟ عن رجل الدين وزوجته وابنته وخادمته . من يصمم الشعب الروسي بأنهم قطع من الله والمجائين؟ القساوسة . أليس رجل الذي في روسيا هو في نظر الشعب ممثلاً للمشهوة والبخل والعبودية وانعدام الحياة؟

ثم إنني لذاكر لك أيضاً أنك تؤكد في كتابك زعماً نراه حقيقة لا يمكن نقضها، وهو أن التعليم ليس عديم النفع للجماهير فحسب، وإنما هو أيضاً ضار بالغ الإصرار . فكيف يمكن للإنسان أن يجيبك على هذا؟ ألا فليخبرك إلهك البيزنطي هذه الفكرة البيزنطية، شريطة أن تكون وقت تسجيلك إياها على الورق غير مدرك لما تسجل . وفي اعتقادي أنك لا تفهم الجماهير في روسيا فهماً سليماً . إن شخصية شما تكفيها ظروف المجتمع الروسي حيث تكافح قوى جديدة من أجل الظهور في حين يحاول الاستبداد قمعها . وإد تعش في الانشقاق نصيبها الكلاله والملل واليأس في الأدب وحده (وعمم الرقابة الوحشية) ظهرت حركة تقدمية مشقة . وهذا هو السبب في توقير الناس لوصف «الأديب» عندما، وهو السبب في سهولة إحراز النجاح في الميدان الأدبي في روسيا حتى لو كان الكاتب صباحت سوغ ضئيل . إن صفة «الشاعر» ورؤساء الأدب قد سلنا

المجد من رجال الحرب والإدارة. وهذه هي علة الاهتمام واسع المطلق الذي توليه لاية ميول حرة حتى الضعيف منها، وعلة سرعة خضوع الإعجاب بأي باعة يكرس موهبته عن إخلاص أو غير إخلاص للخدمة الأورثوذكسية والأوتوقراطية. وإن بوشكين لم يحر مثالي على هذا، فما كتب قصيدتين أو ثلاثاً في مدح القيصر وأرتدى ثوب رجال البلاط حتى حرّمه الشعب من حبه.

والجمهور مصيب دائماً في حكمه فهو لا يرى قلة له غير أدبائه وأدباؤه هم المدافعون عنه ضد الأوتوقراطية والأورثوذكسية لهذا فهو على أتم استعداد لأن يغفر للأديب كتاباً سيئاً، غير أنه غير مستعد لأن يغفر له كتاباً مسموماً وهو دليل قاطع على صدق فراسة هذا الشعب، وعلى ما ينتظره من مستقبل عظيم. فإن كنت تعشق روسيا فلتشاركني فرحتي بفشل كتابك! لقد أزعجني احتمال أن تستغل الحكومة كتابك، أما عن تأثيره في الجماهير فلم أقلق بهلله وقد أصاب أصحابي الحزن علماً سمعوا أن الحكومة توي طبع الآلاف المؤلفة من النسخ من كتابك وبيعها بسعر زهيد غير أنني طمأنت هؤلاء الأصدقاء على أن كتابك فاشل رغم كل شيء، وأن السيلان سرعان ما سيطويه. وإذا بكتات فعلاً لا يذكره الناس إلا بسبب المقالات التي كتبت عنه

قد تكون عقيدتك محلصة صادقة. غير أنني زاعم لك أن عهد السذاجة في مجال الدين قد انقضى حتى في مجتمعنا. فالذين قد أشرقت أرواحهم بالتعاليم المسيحية الحقة هم أولئك الذين ينالون إذ يرون غيرهم يشعرون بالألم، ويجزعون لمشهد اصطهاد أو قسوة مثل هؤلاء ليسوا في حاجة إلى الحجج إلى بيت المقدمين سيراً على الأقدام. ولهذا فإني أراك عاجزاً عن إدراك شكل المسيحية في عصرنا وعن فهم روحها. وهي ليست تعاليم المسيح تلك التي ينصح بها كتابك. وإنما ينصح كتابك بالخوف من الشيطان، وبالجزع من الموت وفكرة الجحيم.

ثم أية لغة وأية تعبيرات تلك التي تستخدمها! أراك كنت تحسها في قوة

لغة الإنجيل وجماله؟! ألا ما أصلقها من قوله إن الرجل إذا ما استحوذ الباطل على لُبّه هجره ما كان يتمتع به من نبوغ وتعلّق. ولو أن كتابك لم يحمل اسم جوجول فمن كان عساه أن يصدق أن ذلك السبل من العقرات القلّة الغيبة قد أتى من نفس القلم الذي سطر «المعتش العام» و«نفوس ميتة»؟

ولو أنني أطلقت العنان لنفسي لأصحت هذه الرسالة كتاباً. غير أنني أكتفي بما بأن أكرر القول لك إنك محطّء إذ رأيت في مقالتي رجلاً عاضباً قد أحفقه ما كتبه عني. فلو كان ذلك وحده ما أغضبني لكان ذلك وحده ما رددت عليه، ولرددت على غير ذلك في هدوء ودون حقد أو حق. غير أن الأمر هنا لا يتعلق بشخصي أو شخصك، وإنما يتصل بموضوع أسمى منك ومي. إنه يتعلق بالحق، بالمجتمع الروسي،

وهناك كلمتي الأخيرة:

«إذا كان سوء الحظ وكبرياؤك قد دفعاك إلى التناكر لمؤلفاتك العظيمة، فمن واجبك الآن، وبكل إخلاص، أن تتناكر لكتابك الأخير، وأن تكفر عن خطيئتك الكبرى إذ أخرجته إلى النور، بأن تطلع علينا بمؤلفات جديدة تدكّرنا بمؤلفاتك الأولى».

الشخصية اليهودية في الأدب السوفييتي

من الخطأ أن نعتبر الأدب، في مجتمع معين، مرآة دقيقة صادقة لكافة مظاهر الحياة في ذلك المجتمع ومع ذلك فإن الأدب السوفييتي - بحكم طبيعته الخاصة، وتوجيه الحكومة والحرب الشيوعي له - يصلح إلى حد كبير أساساً عظيمًا للعائلة لدراسة التيارات السياسية والأوضاع الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي. وسنحاول هنا أن نرسم ملامح الشخصية اليهودية كما تظهر في صفحات هذا الأدب، ونحدد معالم العلاقة بين اليهود وغير اليهود في المجتمع، وموقف اليهود من الحكومة ومن النظرية الشيوعية، معتمدين في دراستنا على الأدب السوفييتي وحده.

في أدب ما قبل الثورة:

فأما من صورة اليهودي في الأدب الروسي السابق للثورة، فهي الصورة التقليدية التي لا تختلف كثيراً عن صورة شاييلوك في «تاجر الدقيق» فهو شخص هرلي عادة، يعيش على التجارة والربا، ولا يفوت فرصة لامتصاص دم ضحيته. بل إنه حتى في الصور الأدبية البادرة لليهودي «الطيب، كشخصية «جيد» في رواية جوجول «تاراس بولبا»، وشخصية بومشتاين في رواية «منزل الموتى» لدوستويفسكي، نجد اليهودي أقرب إلى البهلوان، غير حال من النقاخص الشائعة عن اليهود، كحب المال والميل إلى استغلال الآخرين. وقد كان العداء للسامية من المشاعر المألوفة في روسيا القيصرية التي كان يسكنها

في القرن التاسع عشر نحو نصف تعداد اليهود في العالم كله . وكان أبرز الأدباء الذين ظهرت في أدبهم هذه الكراهية لليهود الشاعر فيت Fet والروائي دوستويفسكي . وقد كتب الأخير في إحدى مقالاته العنيفة ضد اليهود أن الادعاء بأن اليهود شعب مصطهد هو جزء من مخطط يهودي يستهدف إزالة العقبات في سبيل السيطرة اليهودية الكاملة على الحياة المالية في العالم بأسره .

وقد سبق الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، محاولات في الأدب ، خاصة في أدب تولستوي وجوروكي وأندرييف ، للدفاع عن اليهود ، واستنكار العداء للسامية ، ورسم صور لشخصيات يهودية ممتازة . وقد فُسرَت هذه المحاولات بأنها صدق لثأيب الصمير لدى المثقفين الروس ، أو بأنها تعكس ازدياد تأثير الفكر الماركسي غير أن التطور والتغير الحقيقين جاءا عقب الثورة البلشفية ، نتيجة لما أحدثته من هزات عنيفة في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية . ذلك أن الذين لم تعد له مكانته السابقة ، كما قضت السياسة الحكومية بمنع الحق في تقرير المصير والتنمية الحرة لكافة الأقليات القومية داخل الاتحاد السوفيتي . أو كما نصّت المادة ١٢٣ من دستور سنة ١٩٣٦ :

«مواطنو الاتحاد السوفيتي متساوون في الحقوق ، بغض النظر عن قوميتهم أو جنسهم ، في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية . . ويعاقب القانون على أي انتقاص مباشر أو غير مباشر من هذه الحقوق ، وكذا على خلق أية امتيازات مباشرة أو غير مباشرة لبعض المواطنين على أساس جنسهم أو قوميتهم ، وعلى أية دعوة للتمييز العنصري أو القومي أو للنحس على الكراهية والاحتقار» .

اليهود والثورة البلشفية :

أثرت مثل هذه المبادئ تأثيراً عميقاً في الحياة اليهودية وشخصية اليهودي . فقد أقبل اليهود في حماس على الاستعادة من الفرص الجديدة المتاحة لهم ، وشغل المناصب والمراكز التي كانت من قبل موصلة دونهم .

فبالرغم من أن نسبتهم إلى مجموع السكان لم تكن تزيد على ١,٧٨ / عام ١٩٣٩ ، فإن إحصاءات ذلك العام تشير إلى أن نحو ١٠ / من المثقفين (الانتليجنترية) ، و ١٧ / من الأطباء ، و ١٠ / من طلبة معاهد التعليم العالي في الاتحاد السوفييتي ، كانوا من اليهود . هذا إلى كثرة اليهود بين القادة السياسيين والأدباء والموسيقيين والمخرجين مثل : تروتسكي وزيسوفيف وكامينيف وكاجانوفيتش وباسل وإهربيورج وإلف وكافرين وباسترناك وأويستراخ ومايرخول .

لقد انحازت الغالبية من اليهود إلى صفوف البلاشفة وقت الثورة وإبان الحرب الأهلية . ولم يكن يحيلهم هذا في أغلب الأحوال ماضياً عن عقيدة سياسية ، وإنما بسبب شيوع روح العداء للمسامية لدى القوي المناهضة للثورة ، وإقبال جيوش أعداء البلاشفة على إحراق المدن اليهودية ، وإعمال القتل في أفراد اليهود خلال مسين الحرب الأهلية . وهو ما طبع الشعر اليهودي في تلك الفترة بطابع الحزن العميق والغتامة ، مما دفع النقاد الأدبيين فيما بعد إلى تسمية تلك المرحلة من الشعر اليهودي بمرحلة النواح

ومع ذلك فقد كان هناك من اليهود من عارض الثورة البلشفية معارضة إيجابية نشطة ، نتيجة لعقيدة سياسية ، أو مصالح مالية ، وهم اليهود الذين كانوا من البورجوازيين الناجحين في ظل النظام القيصري السابق . فهي رواية «أسبوع» ليوري ليبيدسكي التي نشرت عام ١٩٢٢ ، مجد الصيدلي اليهودي رفائيل سيناتور الذي صودرت تجارته ، يبكي على مجده الزائل كلما مرَّ على صيدليته القديمة باسمها الجديد «الصيدلية الجماعية رقم ٤١» . وهو يحقده على الشيوعيين يجعل من مسكنه مقراً للاجتماعات السرية التي تعقدها جماعة من المهاضين للثورة ، وذلك بالرغم من احتقار أفراد هذه الجماعة له لكونه يهودياً ، ورغم تسميتهم إياه باليهودي القذر . وعندما يأمر أعداء الثورة ضابطاً شيعياً ، يواجهه رفائيل في فرح شديد وهو يصيح : «سقتلكم جميعاً أيها الكلاب

المسحورة، وأعود إلى صيدليني فأضع عليها اسمي من جديد. أسمع؟
صيدليني. صيدليني أنا فأنا عني، بورجوازي، أسمع؟ وماطل بورجوازي
إلى أيد الأبدن!

التسعة عشر

غير أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا من العاملين الشطين في الحركات
اليسارية وفي صفوف البلاشفة قبل نشوب الثورة، ولعبوا دوراً بارزاً فيها وكان
هؤلاء هم أساس شخصيات الأبطال الإيجابيين اليهود في الأدب السوفييتي
بعد عام ١٩١٧ ومن أشهر هذه الشخصيات شخصية ليفينسون بطل رواية
«التسعة عشر» التي نشرها فلاديمير سنة ١٩٢٦ ليفينسون هذا يهودي شيوعي
لا يعرف الخوف، ذو لحية حمراء، وبلد سقيم، وإرادة صلبة ورثها عن آبائه
وأجداده. وبالرغم من أن أباه كان تاجر أثاث لم يخبر من الرغبات غير الرغبة
في جمع ثروة طائلة، فإن الابن لا تربطه بنمط حياة أبيه رابطة. فهو ينحاز إلى
الجديد، ويعلم سبب انحيازه:

«لقد سحق في نفسه كل ما ورثه من أوهام وأكاذيب عن الأجيال السابقة.
لهو يريد أن يرى كل شيء كما هو في الواقع حتى يتمكن من تغيير كل شيء،
والتحكم في كل شيء. وكان هذا الذي أدركه ليفينسون أبسط وأصعب
ما يمكن للإنسان أن يدركه».

وصفت عالية النقاد رواية «التسعة عشر» بأنها حدث عظيم في تاريخ
الأدب الروسي، كما كان نجاحها هائلاً لدى جمهور القراء فقد طبع منها حتى
عام ١٩٤٧ نحو ١٠٠,٢٥٠,١٦٦ نسخة في خمس وسبعين طبعة، وهو رقم لم
تعتداه أية رواية سوفييتية أخرى غير «الدون الهادي» لشولوخوف. غير أنه من
الجليد بالذكر أن كافة النقاد الذين أثقوا على الرواية تجنّبوا الإشارة إلى دين
بطلها، واعتبروا ليفينسون بطلاً سوفييتياً لا ينتمي إلى دين معين، أو قومية
معينة.

كذلك تعرض شولوخوف لنفس الموضوع في روايته الكبرى **الدون الهادي**. فـشخصية أنا بوجدوكو فيها (وهي ليست شخصية رئيسية)، هي نثاة يهودية في التاسعة عشرة من العمر، انضمت أثناء الحرب الأهلية إلى فرقة بلشفية، وتعلمت استخدام المدفع الرشاش سلكها قائد الفرقة.

— أمن أوكرانيا أنت؟

ترددت لحظة ثم أجابت بحزم: لا.

— يهودية؟

— نعم. ولكن، كيف عرفت؟ هل أتكلم كيهودية؟

— بل عرفت من شكل أذنك، ومن عينيك... إنه ليسري أن تكوني معنا.

— ولماذا؟

— لأن الشائع بين الناس عن اليهود أنهم في المعارك يكتفون بإصدار الأوامر دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر. وهو أمر غير صحيح. وستبين بنصرفاتك أنه غير صحيح.

ثم تلقى أنا بوجدوكو حثها في هجوم ضد الجيش المناهض للثورة.

اليهودي بين الأدب والواقع:

مثل هذه الشخصيات توضح التفسير الجوهرى الذي طرأ في المجتمع السوفيتي تجاه اليهود. فقد فتح الأدب - شأن السياسة والحياة العامة - الباب على مصراعيه لهم. غير أن الشخصية اليهودية التي بدأ ظهورها يتردد في الأدب قد طرأ عليها هي الأخرى تغيير كبير فلم يعد اليهودي في الأدب مشغولاً بالمشكلة اليهودية، يستخدم لغته وحدها في الحديث، شديد الوفاء لمبادئ قومه ومطامحهم، وإنما هو الآن مشغول بالقضايا العامة، يتحدث بلغة المجتمع

حواله، ويسعى إلى خلعة الوطن السوفيتي والمبدأ الشيوعي. وهو أمر لا نجد مثيلاً له في التاريخ اليهودي.

غير أن هذه الصورة المثالية لليهودي في الأدب، لا يمكن اعتبارها ممثلة لكافة اليهود في الواقع. فقد كان ثمة عدد كبير من اليهود الأقل تمسكاً بالمبادئ والمثل العليا، ممن رحبوا ترحيباً حاراً بالسياسة الاقتصادية الجديدة NEP التي بدأ إنتهاجها منذ عام ١٩٢٢، والتي أرادت قدراً كبيراً من القيود على التجارة. وبذا تمكن الكثيرون منهم من العودة إلى المهنة المفضلة لديهم، فأنثروا من جراء التجارة ثروة عظيمة. وقد كان الأدب السوفيتي وقتئذٍ من الأمانة بحيث لم يغفل تصوير هذه الظاهرة، ورسم شخصيات المضاربين اليهود الجدد.

فهي رواية «الأسف» لماتفي رومزان (وهو من أصل يهودي) نجد صورة حية لأحد اليهود المستفيدين من السياسة الاقتصادية الجديدة، وهو هارون سليمانوفيتش فيشباين، رجل بالغ الدهاء واللؤم، شديد الحرص على المال، يسرق من أبيه في صباه ويدخل في مصاربات وتلاعب مالي حتى تحص السلطات به فتنفيه من موسكو. وهو عاجز عن فهم ما يجري في البلاد من تطورات هامة. ونسمة يهتف حين يقرأ نأ البلد في اتباع السياسة الاقتصادية الجديدة: «هذا يعني أنه سيصبح باستطاعتنا العودة إلى استغلال البروليتاريا».

وقد هاجم النقاد هذه الرواية لما قد تسبب فيه من إثارة لمشاعر العداء للسامية. غير أن هذا العداء كان قد بدأ بالفعل يصبح حقيقة واقعة في المجتمع السوفيتي بسبب تصرفات اليهود تلك. وإذا ظهرت بوضوح مظاهر الكراهية لهم، اتجه الأدب اليهودي السوفيتي إلى تصوير ما يتعرض له اليهود من اضطهاد، وتذكير الشعب بأقوال القادة الشيوعيين بصدد العداء للسامية، وتصوير اشتراك اليهود العمال في بناء المجتمع الجديد. ووصف الأدياء اليهود روح العداء للسامية بأنها مناهضة للثورة، ومخالفة للمبدأ الشيوعي. وقد

اشتركت الحكومة نفسها في الحملة المكافحة للعداء للسامية. وإلى جانب الروايات والمسرحيات المدافعة عن اليهود مثل رواية «الرجل الذي يقبل الأرض» لميخائيل كوزاكوف (١٩٢٨)، ومسرحية «المستوى الخامس» لماركيشي (١٩٣٣) التي تتعرض لرفض عمال أحد المناجم قبول عمال يهود جديد، نجد الحكومة السوفييتية تصدر عدداً غير قليل من الكتيبات الدعائية الخاصة بالمشكلة، مثل «من الذي يفترى على اليهود، ولماذا؟» و«كراهية اليهود» و«الحقيقة عن اليهود».

الوطن القومي:

وبالإضافة إلى نمو مشاعر العداء للسامية لدى الشعب، برزت عوامل أخرى دفعت الحكومة السوفييتية إلى التفكير واتخاذ الخطوات الإيجابية في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود داخل الاتحاد السوفييتي. من هذه العوامل ازدياد تحمس اليهود السوفيت للصهيونية، ثم رغبة الحكومة في حل مشكلة ذلك العدد الضخم من اليهود المتعطلين غير المنتجين الذين بلغت نسبتهم هام ١٩٢٦ نحو ٣٢,٣٪ من مجموع عدد اليهود السوفيت. وقد سعت السلطات في بادئ الأمر إلى حل هذه المشكلة الأخيرة عن طريق إنشاء هيئات إدارية وتنظيمية هدفها مساعدة اليهود المتعطلين على الالتحاق بالوظائف والصناعات، وفلاحة المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي خصصت لليهود في أوكرانيا والقرم. غير أن انتعاش الفكرة الصهيونية في ذلك الحين، حول الحكومة السوفييتية إلى فكرة تأسيس دولة يهودية في بروسيا وبلدان البالفة مساحتها ١٥ ألف ميل مربع، والواقعة في الشرق الأقصى عند الحدود السوفييتية الصينية.

وقد تم إعلان هذه الخطة في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨، ووجهت على إثره الدعوة إلى اليهود داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه للهجرة إلى هذه المنطقة وقد حرصت الحكومة على ألا تقلص على استخدام القوة في نقل اليهود

السوفييت إلى بيروبيدجان، واكتفت بمنح التسهيلات والمعونات السحبة لليهود الراغبين في الاستيطان فيها وفي ٧ مايو سنة ١٩٣٤، على أثر ما حققته بيروبيدجان من تقدم كبير في الزراعة والصناعة، أصبحت بيروبيدجان مقاطعة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية. كما صرح القادة السوفييت بأن تخصيص منطقة واسعة لليهود، يستخدمون فيها لغتهم، ويمارسون في نطاقها تقاليدهم، من شأنه أن يضمن استمرار القومية اليهودية.

وتدقق ميل من الكتاب اليهود السوفييت على بيروبيدجان لزيارتها والكتابة عن الحياة فيها. فكانت كتبهم تلقى الترحيب والتشجيع، وتشر على نطاق واسع، وترجم إلى لغات جمهوريات الاتحاد. ومع هذا كله، ظلت الغالبية من سكان بيروبيدجان من غير اليهود، وهو ما يفسر لنا التضاؤل التدريجي منذ نهاية الثلاثينات في الإشارة إليها على أنها «المركز القومي للحياة اليهودية السوفيتية». فقد تزايدت مساحة المقاطعة شيئاً فشيئاً، في حين تضاعفت الهجرة اليهودية إليها تضاعفاً سريعاً رغم محاولة أخرى من جانب الحكومة في السنوات ما بين ١٩٤٦ و ١٩٤٨ للحث على هجرة اليهود إلى المقاطعة.

بابي يار:

غير أن فشل المشروع لم يحل دون استغلال الحكومة السوفيتية له في الدعاية لحكمة السياسة السوفيتية الخاصة بالقوميات ومقارنتها بالسياسة النازية. وفي مسرحية للكاتب يهودي من المقاطعة بصوان «إنه من بيروبيدجان»، نرى ضابطاً روسياً في الجبهة يتحدث عن البطل اليهودي في المسرحية يقول: «كلما نظرت إلى هذا الملازم العتي القادم من بيروبيدجان جالت في خاطري صورة الوديان تفص بجثث القتلى من اليهود... هذا هو ما حققه هتلر! ثم أفكر في هذا الضابط اليهودي وفي المقاطعة التي جاء منها... هذا هو ما حققه السوفييت!».

جاء الغزو النازي للاتحاد السوفيتي في يونيو سنة ١٩٤١، فعانى اليهود من جرائه الأمرين . أو كما كتب الشاعر الروسي سوركوف :

«وشاهدنا الأرض مرة أخرى إلى الشرق والعرب .
قد لطخت بدماء القتلى من اليهود» .

ففي مدينة كييف ، عند بابي بار ، قتل أكثر من ٥٢ ألف يهودي رمياً بالرصاص . وفي دنيبرو ونيكسك قتل نحو ٢٦ ألف ، وفي بافلو جراد أربعين ألف ، وفي خاركوف ١٣ ألف . ويقول الكاتب فاسيلي جروسمان إنه في مدينة ميسك وحدها قتل أكثر من مائة ألف يهودي في مدى عامين . وبدا عاد الأدب اليهودي إلى طابع النواح ، وإن حاول الكتاب اليهود - بضغط من السلطات - أن يبقوا في أدبهم على عنصر الأمل والتطلع إلى مستقبل منير ففي مسرحية برجلدون «سأعيش» (١٩٤٢) ، نجد إخصائياً زراعياً عجوراً من اليهود يعذبته الناريون حتى يعفي إليهم بمعلوماته . وعندما يصير على الرفض ، يأتون إليه بابتته «فريدا» ويقول الضابط النازي له . «انظر إليها وامسحها بركتك فهي من اليوم فصاعداً ستستخدم في إشباع شهوة الأبطال من الشباب الألماني في الجبهة . . باركها أيها المعجوز وبارك دعاوتها المقدسة !» فيضع اليهودي يديه على رأس ابنته ويخاطبها بقوله : «فلتبق علي تفائك يا بيتي ، وادفعي حياتك ثمناً له لو اضطرتك الظروف إلى ذلك . وامي لأباركك على هذا بسمي الذي يتساقط من يدي على رأسك الآن» .

وفي قصة قصيرة لإسكندر بيزيمينسكي ، يتحدث الكاتب عن امرأة روسية متزوجة من يهودي . وإذا يسوقه النازيون إلى القتل تحتار لنفسها ولولدها نصف اليهودي مصير زوجها وقومه :

«وعادت إلى ذهنها ذكرى مساء قضته مع زوجها في قراءة مقال ليس (العزة القومية لدى الروس) . الآن قد وصح لها معرى المقال فهي امرأة روسية . والشعب الروسي هو المدافع عن كافة الشعوب المظلومة ، وهو الأخ

الأكبر للكادحين من كافة الأجناس هذه الكلمات التي كانت تبدو لها في الماضي مجردة مبهمه، أضحت الآن قريبة إلى قلبها: حبيبة إلى نفسها، مليئة بالمعاني، نعرها إعزازها للأرض التي تسير عليها، وللحواء الذي تنفّسه!

التحوّل بعد الحرب:

غير أنه ما انتهت الحرب، حتى شرعت الصحف السوفيتية تشن هجوماً عنيفاً على «أولئك الكتّاب اليهود الذين اقتصرُوا في أدبهم على تصوير جرائم النازيين ضد اليهود، وكأنما لم تكن تلك الجرائم في حق الشعب السوفيتي كله» كذلك هوجم الكتّاب اليهودي كينيس وطرِد من اتحاد الكتّاب الأوكرانيين عام ١٩٤٧ حين كتب في قصة قصيرة له: «لكنكم كنت أودُّ أن أرى اليهود أجمعين، يسرون في جرأة عبر شوارع برلين، وقد علّقوا على صدورهم بين الأوسمة والياشين، مجمة النبي داود الجميلة!» وقد اتهم أمثال هذا الكتّاب من اليهود بالتعصب الأحمق لقومهم، وبالوطنية البورجوارية الزائفة. «فهم لا يريدون أن يفقهوا أن الجنود اليهود السوفيت لم يحاربوا من أجل داود ومطامح داود، وإنما من أجل الحياة السوفيتية والدولة السوفيتية والوطن السوفيتي».

ومند ذلك الحين (منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد) تضاعفت في الأدب السوفيتي حتى كادت تخفي، تلك الإشارات إلى اليهود باعتبارهم قومية مستقلة، وأصبح من الصعب الاعتماد على الأدب في تكوين صورة عن أحوالهم ومشاكلهم فمظاهر البطولة التي قد يبدونها أفراد من اليهود في بناء المجتمع السوفيتي هي نفس المظاهر التي قد يبدونها أي سوفييتي آخر. وإن رسم لنا كاتب صورة لبطل يهودي في رواية أو مسرحية، أهمها ضمناً أنه ليس بطلاً «لأنه يهودي»، ولا «بالرغم من أنه يهودي». ومن ثم فقد أصبح ينطبق على تصوير اليهود في الأدب ذلك التصريح السوفيتي الذي صدر وقت اندلاع حرب فلسطين

وإن الاتحاد السوفيتي ليس في جانب اليهود، ولا هو في جانب العرب، وإنما هو في جانب المبادئ اللينينية الستالينية.

لقد عرّف ستالين الثقافة القومية في الاتحاد السوفيتي بأنها وثقافة اشتراكية المصموم، قومية الشكل، تهلع إلى تثقيف الجماهير في ظل الروح الدولية، وإلى تعزيز ديكتاتورية البروليتاريا. وقد انصاع الأدب اليهودي السوفيتي إلى حد كبير لهذا التوجيه. غير أنه بينما اتجه الأدب الروسي على الفور إلى مهمة إرشاد العمال والفلاحين إلى طريق الاشتراكية، كان على الأدب اليهودي أن يجعل من اليهود باديء ذي بدء عمالاً وفلاحين، ثم يرشدهم بعد ذلك إلى طريق الاشتراكية. وبينما سعى الأدب الروسي إلى استئصال شائفة العداء بين القوميات المختلفة بكافة مظاهره، سعى الأدب اليهودي السوفيتي - بتوجيه من الحزب الشيوعي - إلى التحذير من أي تأكيد للاختلاف بين اليهود وغير اليهود، وإلى دعوة اليهود السوفيت إلى أن يصبحوا جماعة مساهمة في بناء المجتمع، لا عنصراً غريباً أجنبياً مفسداً ومزعزلاً.

فهل يعني ذلك أن النظام السوفيتي قد نجح في إقناع اليهود بالاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، (وهو ما أصبح به باستمرار اليهود في جميع أنحاء العالم في روايته «دكتور جيفاجو»؟

إن المقارنة بين وضع اليهود في الاتحاد السوفيتي ووضعهم في الدول الغربية مثلاً، قد تدفع إلى الإجابة بالإيجاب. كما قد يدفع إليها ذلك التساؤل المستمر في توزيع الصحف اليهودية وفي عددها، وتساؤل كمية ما يصلح عن دور النشر اليهودية من الكتب، حتى في المناطق التي تغص بالسكان اليهود، وانصراف اليهود الشباب عن تعلم لغة آبائهم. غير أن بعض تصريحات القادة السوفيت تثير من حين لآخر الشك في مدى ما حققوا من اندماج في المجتمع. فحين أثير مثلاً عام ١٩٦٢ موضوع العداء للسامية بمناسبة اختيار شوستاكوفيتش لقصيدة يفتوشكو (ياي يار) موضوعاً للحركة الأولى من سيمفونيته الثالثة عشر، صرح خروتشوف بقوله:

وليس ثمة عداة للسامية في الاتحاد السوفييتي . ومع ذلك فإنه من الأفضل ألا يتولى اليهود الماصب الرفيعة في الدولة حتى لا يشير ذلك سطح الرأي العام . وفي رأي أن القلاقل والفتن التي حدثت في بولندا والمجر عام ١٩٥٦ سبها تولي عدد كبير من اليهود للمراكز الهامة في الحكم» .

وأصاب خروتشوف موجهاً حديثه إلى الكاتب اليهودي إيليا إهريويج . ويجب أن تفهم أنني كسياسي محترف أجد لزاماً علي أن آخذ الأمور كما أجدنها ، وأن أحذر السس من الأخطار المحدقة»

فماذا يمكن أن نعنيه عبارة «إثارة سطح الرأي العام» ما لم تكن هناك بقايا عداة لليهود في الاتحاد السوفييتي ؟ أو الحديث عن مسؤولية اليهود عن القلاقل والفتن ما لم تكن هناك بقايا لمشاعر اليهود بالترابط فيما بينهم والولاء لليهودية ومصالحها دون الدولة ومصالحها ؟ وهل هذه المشاعر «بقايا» ومخلفات من عهود طويلة سابقة سيتم استئصالها بازدياد تغلغل المبدأ الشيوعي في النفوس ؟ أم أنها صفات لصيقة باليهود أينما كانوا ، وإن النجمة السوفييتية الحمراء لا يمكن أن تحل في قلب اليهود مكان «نجمة النبي داود الجميلة» ؟

أسئلة تحتاج إلى المزيد من البحث .

رواسب الدين في تقديس لينين

إن استشهاد الشيخ المتسافرة، والطوائف المتناحرة، بأقوال مؤسسي الحركات الدينية ومثله الدينية، وإيمان كل فريق بأنه هو التابع الحق لصاحب المذهب، وأن أتباع غيره من الفرق هم المارقون المفسدون، أمران نلصقهما منذ أقدم العصور، وفي صفحات تاريخ كافة الأديان وعالية المذاهب التي أحيط أصحابها بقدمية شيعة بقدمية النبيين. كذلك فإن تمسك بعض الفرق التابعة لمذهب معين بحرفية أقوال مؤسسه، والقول بضلال المجتهدين بعده، وذهاب البعض الآخر إلى تطوير العكرة وتطبيقها تطبيقاً مرناً على ما يجتد من شؤون الحياة مما لم يعاصره صاحب العكرة، هي من الأمور التي وقعت مراراً، وما نراه اليوم يتكرر حدوثه بصدد المبادئ الماركسية اللينينية.

لقد أحاط الشيوعيون كلاً من ماركس وإنجلز ولينين بهالة من الإجلال والتقديس وجنّوا فيها بديلاً وهوضاً عن الذين الذي أداروا ظهورهم له. وهو تقديس يتنالي تماماً مع ما يركز عليه مذهبهم من الإلحاد والمادية، وحتمية التاريخ، والحرص على تجنب المبالغة في تقسيم أهمية الزعامة والبطولة. وقد شعر ماركس نفسه في أواخر حياته بهذا الاتجاه من أتباعه، وتمسكهم غير العرن بحرفية كتاباته، مما جملة يصرح بجملة الشهيرة «أنا لست ماركسياً!»، يعني بذلك أنه ليس من المتمسكين بعقيدة جامدة غير قابلة للتطوير. غير أن الواضح أن التقديس الديني عاطفة حتمية لصيقة بالإنسان. وهي لا بد لها من

أن نصبت على موضوع محدد حتى مع المجاهرة الحماسية بالإلحاد وهو ما يدكرها بقولة هرتزن ودوستويشكي عن الناقد الاشتراكي الملحد بيليسكي . «كان من شدة الإيمان بالإلحاد بحيث كان يعتقد أن كافة غير الملحدين مصيرهم جهنم»

إن التاريخ يعلمنا أن كافة الحركات الجديدة فيه لا مفر من أن تشوبها في التطبيق شوائب من أفكار الماضي ومعتقداته . فوثنية روما، وفحامة معابدها وطقوسها، تركتا تأثيراً عميقاً في الديانة المسيحية حين انتشرت إلى العالم الروماني . كما كان للفكر المسيحي أثره في عقائد الشيعة، وللفكر العارسي أثره في تكيف دعوة الصوفية في الإسلام . كذلك فإن مبدأ تقدس العرد في ظل النظام الشيوعي يمكن أن يفسر جانب كبير منه بتخلف واسب من المشاعر الدينية . وإلا فما الحكمة في تحنيط جسد لينين، وصر هذه الصفوف الطويلة من الخلق التي تحج يوماً إلى قبره، وتلك الأغاني الشعبية عند المسلمين الشر التي تزعم أن لينين لم يموت، وإنما اختفى في الجبال ليعود يوماً إلى الدنيا ليملاها نوراً وعدلاً؟

لقد احتجّت كرويكايا، أرملة لينين، أعنف احتجاج على فكرة تحنيط جسد زوجها، وأكدت أنه ما كان ليرضى عنها لو أنه استشير بصدد هذا . والحق أن لينين كان أكثر الناس استنكاراً لسرّب التعابير والعادات والأساليب الدينية إلى المذهب الشيوعي . سئل مرة : «ما قولك في امرئ يقول . الشيوعية ديني؟» فأجاب : «ولو قالها عامل أو علاج بسيط لكان معناها بدء انحرافه عن الدين إلى الشيوعية . ولو قالها مثقف لكان معناها بدء انحرافه عن الشيوعية إلى الدين» ، أو كما قال .

قدسية كتابات ماركس ولينين :

بيد أن هذا لم يبدل من الوضع شيئاً . فكتابات ماركس ولينين لها قدسية الكتب المنزلة التي لا بد لجميع المتنافرين المتخاصمين الإشارة إليها، إن

أرادوا الإقناع بأنهم من أهل السنة المحلصين، والاحتجاج بها إن شاءوا أن يرموا خصومهم بالجحود والخيانة. فكل من المنشقيك والبولشفيك والماركسيين القاسونيين يستندون إلى ماركس في تراعاتهم. يستند بوحارين بكتابات ليبس في خصومته مع زينوفييف وكامبيف، ثم ستالين في نزاعه مع بوخارين، ثم خروتشوف في هجومه على ستالين، ثم بريجييف في حملته على خروتشوف، والقادة السوفييت في خلافهم مع القادة الصينيين، دون أن يجرؤ أي منهم، أو يحظر بهاله، أن يسبب موقفه إلى دانه، أو يدعي الحق في انتهاج طريق جديد.

وتكاد تكون كرويسكايا وليون تروتسكي الوحيدين من بين الرهماء السوفييت اللذين حذرا الشعب والأحزاب الشيوعية من أخطار تقديس لينين والتشبث بحرفية كتاباته تشبثاً أعمى. فقد خطبت أرملة لينين في ١٨ ديسمبر عام ١٩٢٥ في المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي، فتحدثت عن العواقب الوخيمة لتأليه زوجها الراحل، وتوصلت إلى المبدوين أن يناقشوا الموضوعات المطروحة على بساط المحث أمامهم على ضوء الاعتبارات الموصوعية المحضة، بدلاً من ملء المناقشات باقتباس لا معنى له من كتابات لينين.

ومن جهة أخرى نقرأ في كتاب تروتسكي «الطريق الجديد» الذي نشره عام ١٩٢٣ أثناء مرض لينين الأخير:

«لقد بدأ الناس يمزعون من كل كلمة جديدة، من كل نقد، ومن كل مبادرة أصيلة أو دلالة على استغلال الرأي وأصبحت الأداة الحكومية تعيش على الأكاذيب التي تحسب أن من شأنها إشعال الحماس وغرس الإيمان في النعوس، وتُضغّي بالحقيقة من أجل سجع الأساطير. فإن قرأت مثلاً ما يكتبونه عن الجيش الأحمر وتاريخ الحروب الأهلية، حُبل إليك أنه ما من جدي في صومنا إلا شجاع بطل يتحرق شوقاً إلى القتال، وأن العدو كان دائماً متعوقاً عليها في العدد والعتة، وأن جميع أوامرها العسكرية كانت حكيمة مناسبة تماماً

للظروف، وأن تنفيذها كان دائماً راعياً هي دفته... وفي اعتقادي أن الادعاء بطيب أثر هذه الحرافات في الضوم هو نفسه من الحرافات. ويستمتع الجندي الأحمر إلى هذه الحرافات تماماً كما كان أبوه يستمتع إلى وسير القديسينه تتلى عليه. فهي رائعة ممتعة، غير أنه لا صلة لها بالواقع أو بعالمنا هذا... .

ويستطرد تروتسكي قائلاً:

«إن أقوال السلف من الماركسين ليست قانوناً ملزماً ينبغي حفظه من ظهر قلب، وتقبله تقبل الكتاب المقدس. وما كل ما يطبق به أعلام الفكر الماركسي ينبغي تصديقه لمجرد أنهم هم قائلوه. فلو حدث هذا كنا كمن يشيد بناءه على الرمال. إنني لا أستنكر احترام شباننا لأولئك الزعماء الذين أقوا خدمات جليلة لثورتنا. ولكنني أقبله بشرط واحد. هو ألا يؤدي احترام السلف إلى محو شخصية الشباب وإرهابهم. وأن أي إنسان تعود الموافقة على كل ما يقوله الزعماء إنسان تافه لا قيمة له...»

«فالأجلد شباننا أن يحتملوا على أنفسهم فحسب، على تفكيرهم هم، وألا ينظروا إلى سلطان القادة الفكري على أنه سلطان مطلق. بل إن القادة أنفسهم في حاجة إلى التماون الإيجابي المستمر مع الشباب، في إطار الديمقراطية، حتى تستمر ثورتهم قائمة، ويحولوا دون تحجرهم وتدهورهم إلى مستوى البيروقراطية.

«لنطرح إذن هذه الطاعة العمياء، وهذا القمع للشخصية، وهذه الذلّة والسلبية تجاه السلطات. فالبلشفي ليس رجل نظام فحسب، إنه رجل يصل بنفسه إلى رأي حازم يصلد كل موضوع، وكل مشكلة تجدد، ويدافع عنه في حماس واستقلال، لا ضد أعدائه فحسب، بل وداخل حزبه أيضاً...»

فزع الورد:

غير أن تروتسكي، كما نعلم، لم يملح في مسعاه. فالواقع أنه من

الأسباب التي ساهمت مساهمة كبيرة في بلورة هذا التقديس للبين، تلك الخصومة التي حدثت أثناء مرعبه الأخير وبعد وفاته بين ورثته من القادة السوفييت. فكما حدث من قبل في العديد من الأديان والمذاهب الفكرية، استعمل المتنازعون هنا السلطان الروحي للمذهب من أجل خدمة مصالحهم ومطامعهم الشخصية. ولجأ ستالين وزيوسوفييف وكاميبيف إلى سلاح كتابات لينين وأقواله للهجوم على تروتسكي، وكذلك قبل تروتسكي حريهم بنفس السلاح والأمر الذي سهّل على جميع الأطراف سعيهم، أن لينين في تصديده للمساائل والمشكلات التي واجهته أثناء كمارحه السياسي الطويل، قال بحلول مختلفة باللغة التعارض بالنظر إلى أنه تعرّض لها في مواقف مختلفة، وفي ظل ظروف متباينة متناقضة.

كذلك فقد كان من عادة لينين أن يكيل لاتباعه أوصافاً ونعوتاً خاصة، بطرحها يميناً ويساراً أثناء مناقشاته وجداله معهم. وكلما زاد القدر الذي يتمتع به التابع من حرية التفكير، زادت هذه الأوصاف والانتقادات اللينينية حدة وعدداً، فلم ينبج منها غير الشخصي الإئمة الذي لا رأي له. فتروتسكي هو عند لينين في وقت ما «يهوداً جديداً». وستالين «وقح منعرج». وزيوسوفييف «هلولع جزوع». وكاميبيف «خائن الثوار». وهلم جرا. وقد لجأ كل من ورثته إلى هذه الصفات في الاستشهاد ضد خصومه، (بما فيهم تروتسكي نفسه)، وكأنها لعنات بابوية، واعتبروا الأحكام التي كانت عند لينين مجرد عبارات سياسية لازمة للنضال، في مصاف المبادئ الدينية، متجاهلين أن اللينينية لا توفر دائماً الحلول الواضحة للمشكلات الجديدة، وأن هذه المشكلات التي جابهتهم لم تكن قد نشأت أصلاً خلال حكمه، أو كانت وقته هي طور التكوين



فإن انتقلنا إلى الاتحاد السوفيتي اليوم وجدنا أنه بالرغم من إخلاص القادة منذ خروتشوف في حريهم ضد تقديس الفرد، فإن هذه الحرب لا تمس

لينين من قريب أو بعيد .تتقدسه لا يزال قائماً . وهو تقديس لم يحل مع ذلك دون حرية الزعماء السوفييت مد وفاته في انتهاج أية سياسة يرون الأحد بها دون أدنى حشية منهم من أن يعجزوا عن إثبات ولائهم للمبادئ اللينينية . فالمثل يقول . «بوسع الشيطان أن يقتبس من الأنجيل ما يعزّز رأيه» . وفي كتابات لينين متسع للجميع كي يقتسوا منها ما يؤيد مذهبهم : ففيها مبدأ «الثورة الدائمة» الذي أخذ تروتسكي به ، وفيها مبدأ «الاشتراكية في بلد واحد» الذي تبناه ستالين ، وفيها سياسة مراعاة المزارعين الأقوياء (الكولاك) ، وسياسة العمل للقضاء عليهم ، وفيها سياسة التصنيع السريع ، وفيها سياسة التصنيع البطيء ، وفيها سياسة العمل المستمر من أجل إشعال الثورات في الخارج ، وفيها سياسة التعاضد السلمي مع النظم الرأسمالية . فلا خوف إذن من ألا يجد صاحب أية سياسة فترات تؤيده في مجلدات أعمال لينين الضخمة . غير أن احترام هذا الرجل معروف في نفوس الجميع ، ولا أحد يمكنه الاستغناء عن الاستدلال بما قال لإصعاع الوقار على ما يكتب ، وكلّما قد فقد الفكر الإنساني الحر كل قيمة فيه ما لم يكن مطابقاً لأراء لينين وبايعاً منها . بل إنه ليحيل إلينا أنه لو حدث في وقت من الأوقات أن اضطرت الظروف القادة السوفييت إلى مهاجمة آرائه ، لرأوا من الحكمة أن يقتبسوا من أقواله ما يعضد مهاجمتهم إياه !

بوادر التحرر :

ومع ذلك فقد ظهرت بالانحد السوفييتي خلال السنوات القليلة الماضية دلائل تشير إلى بوادر الخروج عن هذا الجمود . وهو ما نلحسه في العديد من المقالات الافتتاحية التي تنشرها صحف كالبرافدا وإيرفيسيتيا ، وفي بعض مجلات الحزب والكتب .

وتذهب هذه الكتابات إلى أن بعض المفكرين الشيوعيين قد ننكر لمبدأ من أهم مبادئ الماركسية - اللينينية ، ألا وهو النظرة الحلقية إلى المذهب . فهم يقيسون كافة ما يتمحض عنه الفكر الماركسي الخلاق في الاتحاد

السوفييتي على ضوء مدى اتفاقه أو اختلافه مع مؤلفات كتبت منذ أكثر من مائة عام (ماركس)، أو من ستين عاماً (لينين)، أو من ثلاثين (ستالين) وهم بذلك يتجاهلون الحقيقة الموضوعية، ويصرّون على الاستناد إلى فقرات كتبها ماركس وإنجلز وليس عن عصر غير عصرنا، وموقف تاريخي لم يعد يعيش فيه. وهم يتخيلون أن الماركسية - اللينينية إن هي إلا مجموعة من المبادئ والشعارات الجامدة، صالحة لكل زمان ومكان، وينبغي على الشيوعيين إلزام أنفسهم بها في صرامة شبيهة بصرامة تمسك رجال الكنيسة بأحكام الكتاب المقدس.

«غير أن هذا الموقف من النظرية غريب عن الماركسية - اللينينية، دخیل عليها فلم يشعر ماركس ولينين قط بأن مهمتهما النظرية هي الإخلاص لحرفية مؤلفات كتبت قبل عصرهما، وإنما هي الإخلاص لروح النظرة العالمية العلمية لدى الطبقة العاملة، وتحليل الواقع المتغير تحليلًا دقيقًا، وتعميم الخبرة المكتسبة أثناء الكفاح، وحل المشكلات التي تواجهها كل حقبة من الحقب حلًا خلاقًا».

«وقد حدث أثناء المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي السوفييتي الذي عقد في مارس عام ١٩٢٢، أن خطب لينين موجهاً الكلام إلى جماعة من معارضيه الذين استشهدوا بماركس في موضوع معين، فقال

— نعم، هكذا قال ماركس. غير أن ماركس لم يكن يكتب عن روسيا كان يكتب عن الرأسمالية بوجه عام، عن الرأسمالية كما تطورت منذ القرن الخامس عشر. وقد ظل هذا صحيحاً مدة ستمائة عام. غير أنه غير صحيح إن طبق على روسيا في الوقت الحاضر».

ويمضي هؤلاء الكتاب يقولون إن هذه النظرة السليمة هي التي ننسها الماركسيون الجدد في الاتحاد السوفييتي تجاه تعاليم ماركس وإنجلز ولينين. فهم يرون أن الماركسية - اللينينية ليست في الأعمال الكاملة لمؤلفين قدامى

فحسب، بل أيضاً في النتائج التي توصل إليها الفكر الماركسي الحديث بعد كل ما حاضره من معارك ثورية خلال السنوات الماضية. والقول بغير ذلك يفقر النظرية ويقعدها، ويجردّها من ذلك العنصر الذي يحمل طابع العصر، والذي هو بالغ الأهمية بالنسبة لكفاح الطبقة العاملة.

والحقيقة أن مثل هؤلاء المفكرين يتأصلون الواقع الراهن من الصورة، ويأبون الاقتناع بأن الأمر الجوهرى هو دراسة كل حقبة تاريخية على ضوء ظروفها، وكيفية تحقيق وحدة العمال في كافة الدول في وقتنا هذا، وكيفية شن كفاح فعال ضد الإمبرياليين في ظل أوضاع معينة، وأسلوب تحقيق النصر الكامل للثورة البروليتارية في الوقت الحاضر.

وإن في معظم أقطار العالم اليوم أحزاباً شيوعية. وقد أصبحت مهام هذه الأحزاب، والظروف التي يعمل في ظلها كل منها، متباينة أشد التباين، فما يحتم ظهور تنوع في الخطط وأساليب الكفاح، واختلاف معالجة كل حزب من هذه الأحزاب للمشكلة الواحدة التي تجابهها جميعاً.

لا أنبياء في الحركة الشيوعية:

ويرى أصحاب هذه الكتابات الماركسية الجديدة أن الحركة الشيوعية الدولية تواجه اليوم موقفاً تاريخياً يحتل عن ذلك الذي عاصره ماركس أوليين. فقيام النظام الاشتراكي في العديد من الدول، وتداخي الامبراطوريات الاستعمارية، ويزوغ الحركات الديمقراطية الشعبية، قد أبقت أفراد جماعات كبيرة من البرجوازية الصغيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من سباتهم وزجّت بهم في خصم الصراع السياسي. بعض هؤلاء قد استمالت التيارات الدينية، وبعضهم انضم إلى الحركة الثورية العالمية، بعد أن كانوا جميعاً سلبين ماضي الوعي، وهو ما أدّى إلى زيادة تأثير العناصر غير البروليتارية في النشاط الثوري.

وإن طبيعة الماركسية - اللينينية تحتم الأخذ بعين الاعتبار الخصائص

القومية والظروب المصيبة بكل مجتمع على حدة. ولا شك في أن حيرة كل من الأحزاب الشيوعية بالغة الأهمية في تطوير الأسلحة النظرية للطبقة العاملة وريادتها ثراءً فكل حزب، مهما صغر، يلعب دوراً إيجابياً في تنمية النظرية الثورية والماركسية اللينينية. وقد ساهم الحزب الشيوعي الصيني في ذلك بكمائه ضد الامبريالية والرجعية، وخلال المراحل الأولى من الساء الاشتراكي، وبالتائج الهامة التي وصل إليها بمصد حرب المصائب، وبمصد تكوين جبهة متحدة من القوى الوطنية ضد الاستعمار، ووسائل تغيير نظام الملكية الرأسمالية. كذلك ساهمت الأحزاب الشيوعية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها في تطوير النظرية، وكان للشيوعيين في أفطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فصل كبير في حل المشكلات الخاصة بربط الكفاح من أجل الاشتراكية بحركة التحرر الوطني، وتأسيس تحالف واسع النطاق مع البورجوازية، وانتداع وسائل من أجل التطوير غير الرأسمالي للبلاد التي تحررت من ربة الاستعمار. غير أن ادعاء هذا الحزب أو ذلك، أو ادعاء هذا الرهط من المفكرين أو ذلك، بأن الحكم الأعلى في المسائل المتعلقة بالنظرية أو التطبيق، وأنه التابع الحق لماركس ولينين، وعبره من الحقبة المشفقين، فادعاء خليف بكنيسة العصور الوسطى. أما الحركة الشيوعية السلمية الجادة فلا تؤمن بوجود أسياء فيها من حقهم وحدهم التفكير للأحرين، واتخاذ القرارات نيابة عنهم».

المصالح الخاصة:

ويذهب السوفييت إلى أن القادة الصينيين في زعمهم أنهم الأنساع الحقيقيون الوحيدون للينين، لاتهمهم إطلافاً مشاكل اللينينية - الماركسية، وإنما يلجأون إلى مثل هذا الزعم لتعطية أهداف سياسية معينة تلخص في حرص إزادتهم على الحركة الشيوعية وحركات التحرير بأسرها، وإحضائها لمصالحهم الشخصية دون أدنى اعتبار للمصالح الحقيقية لهذه الحركات

«هم يتباهون بأنهم خير حلف للسلف الماركسي، وبغيرتهم على نقاء النظرية اللينينية» غير أنه متى تعارضت مصالح ماركس ولينين مع مصالحهم الوطنية، يضربون بهذه التعاليم عرص الحائط. إن وطدوا علاقاتهم مع فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها فلصالح الماركسية اللينينية، أما إن رأى الاتحاد السوفيتي أن مقتضيات سياسة التعايش السلمي «التي نادى بها لينين» تدعو إلى تحسين العلاقات بينه وبين الدول الرأسمالية، فإنهم يسادرون بانهم السوفيت بالتآمر مع الامبرياليين، والانحراف عن الصراع الطبقي وعن الماركسية - اللينينية»

غير أن نهمة «مراعاة المصالح الخاصة والسياسة الوطنية، والانحراف من اللينينية متى تعارضت مع الصالح القومي»، هي نهمة لا تقل انطباقاً على الاتحاد السوفيتي منها على الصين. فالمميزات القومية والجغرافية الخاصة، والمصالح الوطنية، وآثار الماضي الحضاري والتاريخ السياسي، لها الغلبة عادةً على المبادئ والنظريات. وتطبق النظرية الشيوعية ذاته قد يكون في بعض الدول، كالاتحاد السوفيتي والصين، وسيلة لحماية المصالح الوطنية أساساً، لا مصالح الطبقة العاملة. وفي وسعنا أن نسوق هنا عشرات الأمثلة للحالات التي ضحى فيها الاتحاد السوفيتي بالمبادئ الماركسية - اللينينية في سبيل مصالحه الخاصة؛ من وقت تحليه عن الشيوعيين الصينيين في العقد الثالث من هذا القرن، إلى معاهدة الصداقة السوفيتية النارية، إلى الاستغلال الاقتصادي لأقطار أوروبا الشرقية عقب الحرب، بل وإلى الدعوة إلى مبدأ التعايش السلمي.

فالاتحاد السوفيتي اليوم يؤمن بأن استمرار الوضع الراهن في الميدان الدولي على ما هو عليه سيؤدي إلى تغير ميزان القوى في صالح السوفيت. فالاقتصاد المحط في وسيلة أضمن وأسرع لريادة قوته من التوسع والسعي لقلب نظم الحكم في الخارج. والتنمية الصناعية في الاتحاد السوفيتي كهيئة بأن تصيف إلى موارده في بحر عام أو عامين أكثر مما كان يضيفه إليها إخضاع

دولة أوروبية متوسطة الشأن للنفوذ السوفييتي . وهذا السعي من جانب السوفييت إلى الحفاظ على الوضع القائم هو الذي دفعهم إلى تغيير موقفهم من الحركات الثورية والأحزاب الشيوعية في آسيا وأفريقيا . فهم يشجعون هذه الحركات بقدر إضعافها للدول الغربية . غير أنه متى ما بدأ يلمس أنها قد تؤثر في استمرار الوضع القائم ، أحجم عن الاستمرار في مساندتها .

فإن أخذنا السيادة السوفييتية تجاه الشرق الأوسط مثلاً ، رأيناها تعتبر شوب صدام في هذه المنطقة في غير صالح الاتحاد السوفييتي . وقد كانت موسكو تنظر دائماً بعين الشك والحذر إلى محاولات زعزعة الرعامة البورجوازية للقومية العربية ، وإخضاع هذه الحركة للتوجيه الشيوعي . ففي العراق مثلاً كان الحزب الشيوعي القوة الدافعة الرئيسية في ثورة عام ١٩٥٨ ، وكان بإمكان الشيوعيين وقتئذٍ الاستيلاء بسهولة على مقاليد الحكم . غير أنهم لم يحاولوا . لماذا ؟ لأن سياسة خروتشوف تجاه الشرق الأوسط كانت بالضغط كسياسة ستالين تجاه الصين في السنوات ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٧ حين كان ستالين يعتبر شيانج كاي شيك حليفاً ، وبحث الحزب الشيوعي الصيني على قبول رهامة شيانج والخضوع لنظام الكوميتانج . فقد أقتنع خروتشوف شيوعيي العراق بأن يمتثلوا ، دون قيد أو شرط ، بعد الكرم قاسم رعيماً وطنياً لهم ، بل ولاهم خروتشوف على السماحهم للثوار الثوري المتدفق أن يجردهم من الحكمة والحيطة . فإن أصبنا إلى ذلك دعوة السوفييت للشيوعيين المصريين في الستينات لوقف حملتهم المعادية للرئيس جمال عبد الناصر ، وإحجام السوفييت عن التدخل في حرب ١٩٦٧ أو في أحداث لبنان مثلاً ، فقد قبل القول بأنهم إنما يهمهم أساساً تجنب المواجهة مع الكتلة الغربية لمدة عشر سنوات أو عشرين سنة نهية . الاتحاد السوفييتي تهيئة تامة للدخول في النزاع الحاص مع الغرب

وليس من اللازم أن يكون هذا النزاع مسلحاً . فالنظر في الصراع بين النظام الاجتماعية المختلفة سيكون حليف الدولة الممتوحة في مدى فعاليتها ، وفي قدرتها على استغلال قوى المجتمع الإنتاجية ، وطاقات الإنسان الحلاقة .

وقد ظل الاتحاد السوفييتي أمداً طويلاً غير قادر على تحدي العرب في هذه المجالات، مما دفعه إلى انتهاج سياسة العزلة والحماية الاقتصادية والستار الحليدي. غير أن هذه السياسة تكتمش تلويحاً متزايد قوته الصناعية. وقد يأتي الوقت الذي تضطر فيه الدول الرأسمالية إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحمايتها من الغزو الاقتصادي السوفييتي، والذي يدعو فيه الاتحاد السوفييتي إلى مبدأ حرية التجارة وفتح الأسواق. وهذا بالوسط هو المصممون الحقيقي لسياسة التنافس السلمي والتعايش السلمي. فالسوفييت يرون أنه عند تحقق هذه المرحلة ستجلب الشيوعية إليها العمال في الدول الرأسمالية، خاصة بعد التوسع في الحريات السياسية في الاتحاد السوفييتي، إذ يفقد العرب بذلك كافة مزاياه. وهذا هو مادفع حروتشوف، أثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، إلى الخروج على مبدأ من أهم المبادئ اللينينية، حين تحدث عن احتمالات والانتقال السلمي من الرأسمالية إلى الاشتراكية في مختلف الدول، دون ضرورة للحرب الأهلية التي كان لينين يظنها أمراً محتوماً.

حديث في الاقتصاد السوفييتي

دعني الشاعرة التتريّة الشهيرة بيلا لخمادولينا إلى العشاء في منزلها الريفي على بعد نحو عشرة أميال من موسكو مع نحو أربعين من الروائيين والشعراء والفنانين والاقتصاديين والصحافيين السوفييت. وقد كان جُلّ حديث القوم خلال الأمسية حول ما أعلنه المكتب السياسي في الصباح من خطط تستهدف توسيع نطاق الاستقلال الاقتصادي للمؤسسات، وتقوية نظام حساب التكاليف، وتعديل نظام استثمارات رأس المال، وللاخذ قبل نهاية الثمانينات بمبدأ التمويل الذاتي في كافة المشروعات مع وقف التمويل الحكومي لها

وقد انتهزت فرصة جلوس خلال العشاء إلى جوار أحد الاقتصاديين الروس، فبادرت بسؤاله عما سمعته يتردد أثناء إقامتي عن تقرير قلّعه مارشال جولدمان، (مدير مركز البحوث الروسية في جامعة هارفارد) إلى السلطات السوفييتية حول «نقل التكنولوجيا الأجنبية إلى الاتحاد السوفييتي»، وما إذا كان قد اطلع على هذا التقرير. وعندما أجاب بالإيجاب، سألته أن يعطيني فكرة عن لمعواه.

— جولدمان يرى أن معدل سرعة التغيرات الاقتصادية والتطور التكنولوجي في الغرب من شأنه أن يجعل الاتحاد السوفييتي في المرتبة الثانية سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية، وأن هذا أمر محتوم ما لم يبادر السوفييت من الآن إلى إصلاح الاقتصاد (الذي هو نقطة البداية الرئيسية في أي

إصلاح)، ومواجهة التحدي الذي يتمثل في كيفية التجاوب مع مقتضيات الثورة الصناعية الثالثة فالاقتصاد الذي يعتمد على درجة عظيمة من التكنولوجيا يتطلب سرعة القرار والأداء، ويتطلب روح المبادر والخلق والابتداع، ويتطلب القدرة على التكيف والتأقلم. وكلها - في رأي جولدمان - متطلبات سيظل الاتحاد السوفيتي عاجزاً عن توفيرها مع ما يشل اقتصاده حالياً من بيروقراطية، وأخذ بمبدأ التخطيط المركزي، وتركيز على الصناعة الثقيلة

وهو يرى أن ميخائيل جورباتشوف مخلص النية، صادق العزم، ووافر القدرة على محاولة تحرير اقتصاد بلاده من الأغلال التي تقيد، بل ويراها أقوى زعيم سياسي شهده الاتحاد السوفيتي منذ قيام الثورة البلشفية. وعنده أن جورباتشوف يواجه اختيارات ثلاثة: إما إصلاح اقتصادي شامل واسع النطاق ويؤكد اعتماداً كبيراً على السوق (على نحو ما فعله دينج شياو بينج في الصين)؛ أو الأحذ بصورة متقنة من نظام التخطيط والرقابة المركزيين (على نحو ما تحاوله ألمانيا الشرقية)؛ أو الأخذ بنظام هومزيغ من عناصر الخيارين الأولين. أما جولدمان نفسه فيفضل للاتحاد السوفيتي الخيار الأول: اللامركزية، والاعتماد على السوق وتقليص دور المخططين المركزيين، وزيادة سلطات مديري المشروعات، والسماح بالملكية الفردية للفلاحين وأصحاب المشاريع التجارية الصغيرة والمشروعات التعاونية، مع الأحذ بمبدأ التنافس بين المشروعات، ومكافأة العمال والمديرين على جهودهم خاصة فيما يتصل بروح الخلق والابتداع.

قلت لمحدثي :

- ولكن ألا ترى في كل هذه الاتجاهات الجديدة خروجاً عن النظرية الماركسية؟

قال :

- دعنا في البداية نتمق على حقيقة أولية ثابتة، وهي أن كارل ماركس لم

يُعن على الإطلاق لا بيان التفاصيل، ولا بالخطوط العريضة للأحوال الإنتاجية في المجتمع الاشتراكي. . لقد كان معظم ما خلقه من كتابات متصلاً بتحليل المجتمع السورجوارى القائم في عصره من أجل إثبات أن النظام الرأسمالي، الذي كان في البداية عاملاً أساسياً في إطلاق إمكانية هائلة لاستغلال مصادر الثروة الإنتاجية، قد وصل في تطوره التاريخي إلى المرحلة التي أصبح فيها عقبة في سبيل هذا الاستغلال، وفي سبيل المزيد من التقدم، مما يحتم قيام نظام اجتماعي جديد يحل محله، هو النظام الاشتراكي.

وقد شغل ماركس أساساً بيان المناقضات في المجتمع الرأسمالي دون بيان طبيعة النظام الاشتراكي الذي سيقيم على أنقاضه، قائلاً إن المجتمع الجديد سينظم نفسه بالطريقة التي يرى أنها أكثر الطرق فعالية لاستغلال الموارد الإنتاجية، وأن محاولة بيان هذه الطريق سلفاً أمر سابق لأوانه، ومن قبيل المشائية الحاملة. كتب في مقدمة كتابه «نقد الاقتصاد السياسي» يقول ما معناه:

«إن همه التوجيه إنما تنشأ عند تحقق الظروف المادية اللازم توجيهها، أو على الأقل، حين تكون هذه الظروف في طريقها إلى التحقق»

وفي كتابه عن الحرب الأهلية في فرنسا

«إنه ليست لدى العمال مدينة فاضطة (يونوبيا) جاهزة، ولا حتى مثل عليا يرمون إلى تحقيقها. . فهم يعرفون جيداً أن عليهم معاناة بضال طويل، وسلسلة من التطورات التاريخية التي تغير مدورها من الظروف والأشخاص» وفي كتابه «نقد البرنامج الجوهري»: «إن كل خطوة في سبيل الحركة الثورية أهم من عشرة برامج للمجتمع الجديد» كما ينقل عنه برمشين أنه قال: «إن الشخص الذي يرسم برنامجاً للمستقبل هو في حقيقة أمره رجعي!»

مثل هذه الأقوال الصادرة عن ماركس تدعيني إلى الاعتقاد بأنه كان مشجعاً ومباركاً للاتجاه التجريبي، وبالتالي فلا محل لاتهام التجارب الراهنة في

الاقتصاد السوفيتي بأنها تخرج عن الإطار الماركسي .

قلت :

اضيف إلى ما ذكرت أنه حتى ضرورة تولي الدولة لمهمة التخطيط ، في إطار النظرية الماركسية ، مسألة فيها نظر . فكتابات ماركس لم تحدد قط السلطة أو الهيئة التي ستولى التخطيط في ظل النظام الاشتراكي ، واكتفت بالقول إن هذه المهمة ستكون من شأن «المجتمع» لقد كانت فكرته هي أن التخطيط الاشتراكي ليس من مهام الدولة بقدر ما هو مهمة من شأنها أن تجعل نظام الدولة غير ذي موضوع . وأذكر أنه كتب لي «البيان الشيوعي» يقول : «حين يؤدي التطور إلى احتفاء الفوارق الطبقية ، ويتركز الإنتاج في يد تنظيم واسع يشمل الأمة كلها ، ستفقد سلطة الدولة معالمها الأساسية» . غير أن ماركس لم يحاول شرح مفهومه عن ذلك «التنظيم الواسع» الذي سيشمل الأمة كلها ، أو تحديد كيفية قيام هذا التنظيم بعمليات التخطيط . والغالب أنه كان يفترض ، شأنه شأن سيمون وغيره من الاشتراكيين ، أن هذه المهام لن تتولاها الدولة أو أي تنظيم سياسي آخر ، بل المنتجون أنفسهم الذين سينظمون عمليات تبادل المنتجات فيما بينهم .

قال محلثي :

... هذا حق . وحلاصة القول إذن أن ما حلّمه ماركس إنما هو تحليل اقتصادي للرأسمالية لا صورة للمجتمع الاشتراكي . فإن كان قد كتب يقول : «إن الاقتصاد السيلسي تقسيماته المألوفة للقيمة والثمن والربح إنما يتبعي أساساً إلى النظام الرأسمالي ، ولا يمكن أن يدوم» ، وأنه حتى نظريته هي القيمة التي تتخذ العمل معياراً لها ستفقد معناها في ظل الاشتراكية ، فهو لم يحاول ، ولم ير من حقه أن يحاول ، بيان المعايير التي ستحل مكانها في النظام الشيوعي . بل إنه حتى ليس الذي تولّى عنه هذه المهمة بصدد المجتمع السوفيتي ، يمكنه القول بقدر من الثقة إنه كان يقرّ جوهر الاتجاه التجريبي ،

معتبراً أي تحليل نظري لا يأخذ في الاعتبار ظروف الإنتاج الواجب العمل على هذيتها في مجتمع معين، تحليلًا مافياً للماركسية .
الطريق البراجماتيقي .

قلت: في اعتقادك إذن أن الاتجاهات الاقتصادية الجديدة هنا لم تنحرف عن النظرية الشيوعية، وأن اتهامها بالانحراف إنما يصدر عن صورة خاطئة عن الاشتراكية ساهم في رسم ملامحها النظام الستاليني؟

قال: بالتأكيد فوسائل الإنتاج ما زالت مملوكة للدولة، وهو المعيار الرئيسي في التفرقة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ولا يزال التخطيط المركزي قائماً وقوياً، والألمان تحلدها الهيئات المركزية لإدارات المشروعات، وتحقيق الربح سيتم أساساً لا عن طريق رفع الأثمان أو خفض أجور العمال كما في الرأسمالية، بل عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة حجمه وريادة المبيعات. وهذه الأرباح ستستخدم إما في صرف المنح والمكافآت للعمال، أو في توسيع المؤسسة وتدعيم إنتاجها، دون تحويلها إلى رأس مال مستغل. ثم إن الربح في النظام الرأسمالي، كما نعلم، هو هدف الإنتاج، هو هدف في حد ذاته، يسعى الرأسماليون إلى تحقيقه بأية طريقة، ومتعدين في سبيله كل حدود. أما في ظل الاشتراكية، وتنظيماتنا الجديدة، حيث الهدف هو مواجهة احتياجات المجتمع، فإن زيادة الربح هي إحدى الوسائل لتحقيق أفضل إشباع لهذه الاحتياجات والهدف هنا هو المعيار الذي يرسم حدود استغلال عامل الربح. أما تحقيق أقصى ربح ممكن بأية وسيلة بعض النظر عن تأثير ذلك في مصالح المجتمع والمستهلكين وظروف العمل والحياة، فهو ما لم تقل به التنظيمات الجديدة قط.

والخلاصة أن المعايير الاقتصادية مثل: الربح والثمن والقيمة والأثمان، إلى آخره، ستظل تؤدي مهام مختلفة تماماً في ظل النظامين، وأن الاتجاهات الجديدة في الاقتصاد السوفييتي لا تعني انحرافاً إلى الرأسمالية بقدر ما تعني

الأحد يعص الأساليب الإنتاجية الرأسمالية النافعة، وانهاج الطريق
الرجعياتي الذي تمليه الحياة نفسها والمصلحة المادية الملموسة.

قلت - إذن فأنتم تقرّون بكفاءة بعض الأساليب الرأسمالية وضرورة
أخذكم بها؟
أجاب بقوله

- سيدي، لينين نفسه أوصى بأن يكون الاتحاد السوفيتي قادراً وقت
الحاجة على الاستعانة من الرأسمالية، والتعلّم منها، ونسى كل ما قد يكون
لديها من أساليب معقولة ومعيلة. إنها في حقيقة الأمر محاولة للتوفيق بين
التخطيط المركزي ومقتضيات السوق الداخلية والخارجية، وإيجاد السبيل إلى
إدارة المشروعات التابعة للدولة بربح. وهي محاولة ليست قاصرة على النظم
الاشتراكية، وإنما نجد مثيلات لها في الدول الرأسمالية ذاتها التي بدأت تأخذ
بقدر من التخطيط

الحافز المادي:

قلت - إسمح لي أن أذكر اختلافاً واحداً لمسته بين الاتجاهات الاقتصادية
الجديدة عندكم والنظرية الماركسية فهناك عند ماركس إشارة أكيدة إلى حتمية
احتفاء الحوافز المادية في المجتمع الاشتراكي وتحويلها إلى حوافز معنوية
محضة بعد خلق الإنسان الشيوعي الجديد. فإن كنتم اليوم تقولون بأن الحوافز
المادية سابعة من صميم الاشتراكية، فإن كلاً من ماركس ولينين وعشرات
الأيديولوجيين الماركسيين كانوا يرون في مراعاة الدولة لهذه الحوافز أمراً مؤقتاً
كفياً بالتضارؤل حين يحل محلّها الماعث الاجتماعي الناجم عن إدراك الشعب
العامل أنه المالك الحقيقي لوسائل الإنتاج، وأن رجاءه يتوقف بصورة مباشرة
على تمتيعه لمصادر الثروة على أكمل وجه. وإنه لم يعبّر المفهوم عدي، على
هذا الأساس وحده، أن نجد الاهتمام بالحافز المادي يتصاعف في ظل النظام
السوفيتي حتى بدأ يطعم على غيره، ويتبوأ المقام الأول، كلما زاد نمو

لأساس المادي والمعنوي للإنتاج الاشتراكي، ويعد نحو سبعين عاماً من هذه محاولات خلق الإنسان الجديد.

صمت لبضع لحظات ثم قال :

- إما أن يكون ماركس قد أخطأ في توقّعه هذا، أو أن تكون عملية خلق الإنسان الشيوعي الجديد لم تمرّ بعد. وأقولها صراحة أن الملاحظة العامة في غالبية السليبات السائلة في الإنتاج السوفيتي، متصلة أساساً بضعف الوعي الاجتماعي والحلقي لدى المشتغلين به، وهو ما ظهرت آثاره في جلاء بعد التحول عن سياسة الإرهاب والإكراه التي تميّز بها عهد ستالين. فإن كان الاتجاه الآن هو لتقوية الحوافز المادية، فما هذه الحوافز في حقيقتها سوى الملل البديل الوحيد للوعي والضمير في سبيل تنمية الإنتاج وتحسينه.

لقد وجدنا المبالغ المخصصة في المؤسسات للحوافز المادية غير كافية على الإطلاق لتحسيس العامل أو المؤسسة على تحسين نتائج العمل. فالفرص المتوفرة لدى المشروعات لرفع مكافآت العمال فيها من موارد دخل المشروع محدودة للغاية. ولاحظنا أن خمسين في المائة من المؤسسات الصناعية لا تملك أية اعتمادات للمحاور المادية ناتجة عن أرباحها هي. والمؤسسات التي لديها مثل هذه الاعتمادات لا تملك منها غير مبالغ ضئيلة جداً بحيث لا يحصل العامل منها على أية مكافأة ذات قيمة. وتكاد تكون كافة المكافآت والمنح التي تدفع للعمال والموظفين مستمدة لا من الأرباح بل من اعتماد الأجور الذي تموّله الدولة.

كذلك فقد لاحظ الاقتصاديون عندنا أن الهمّ الأوحى لإدارات المؤسسات والمصانع كان تحقيق متطلبات الخطة بأسهل طريقة ممكنة، أحدها في الاعتبار المكافآت التي تصرف متى حقق المصنع الخطة أو تجاوزها، والعقوبات المفروضة إن لم يحققها. فإن كان حجم الإنتاج يقاس بالمدد، أنتجوا المدد

المطلوب من السلعة مع إعمال ملحوظ لنوعيتها. وإن كان يفسد بالورن، كان الاتجاه إلى زيادة ثقل المتبجات حتى لو قلل ذلك من منفعتها! ولعلك قد شاهدت في مجلتي الهولية «كروكوديل»، في عددها الصادر يوم أمس، رسماً كاريكاتورياً لعمال مصنع مسامير يسرون في موكب حاملين مسامراً واحداً بالعمى الضخامة، وهم يرددون: «حققتنا الخطئة!». وقد شجّع على ذلك أن المعيار المعمول به هو الإنجاز الكمي لا الكيفي. وقد بدا لنا الآن أن الأخذ بالمعيار الكمي المحض مقياساً للسجّاح أو لمسح المكافآت التشجيعية لا يمكن أن يرقى بنوعية السلع ويريد من تنوعاتها، في الوقت الذي يزداد فيه التقدم الفني، وترتفع مستويات الاستهلاك، وتشتد الحاجة إلى تنوع المتبجات.

أضف إلى ذلك أن إحداث التحسين على السلع وتنويعها يتطلبان وقتاً وجهداً إضافيين، للسماح مثلاً بتجربة السلعة الجديدة أو تعديل في الآلات المتبجة لها. إلى آخره. وحيث أن هذا يعطل تدفق الإنتاج، وقد يؤدي إلى إعادة تنظيم عملياته وتعديل أدواته، فإن مديري المؤسسات، متى كانوا تحت ضغط من الجهات العليا لتحقيق هدف كمي معين، لا يقبلون عادةً هذا التعطيل، معصلين الاستمرار في إنتاج السلعة بشكلها القديم، سواء كان المستهلك راضياً عنها أم غير راضٍ. ومن ثم فإنه لم يكن للمستهلك أي تأثير مباشر على المنتجين.

كذلك فإن النظام القديم كان يُغري المصانع والمؤسسات بإخفاء حقيقة إمكانياتها. فالمعروف أن سلطات التخطيط مضطرة إلى حد كبير إلى الاعتماد على المؤسسات نفسها في بيان هذه الإمكانيات وتكاليف الإنتاج فيها. صحيح أن المخططين قد يمكنهم التحقق من صحة تقديرات المؤسسة عن طريق ممثلهم المحليين، أو بمقارنة هذه التقديرات بتقديرات مؤسسات أخرى تعمل في ظروف مشابهة غير أن جهاز التخطيط، متى كان مثقلاً بالعمل، لا يمكنه التحقق من صحة كل بند في تقديرات ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف مصنع.

وقد شاع في الاتحاد السوفيتي مثل يقول: إن المدير العاقل قد يتجاوز الحطة في إنتاج مؤسسته بمقدار أربعة أو خمسة في المائة، ولكنه ليس من مصلحته أن يتجاوزها بمقدار عشرين في المائة. هلو أنه عمل ذلك لرفع جهاز التخطيط تقديرات الحطة له في العام التالي بشكل ملحوظ. وقد أتى هذا الوضع إلى نرد المديرين المخلصين أنفسهم في تقديم تقديرات واقعية عن إمكانيات مؤسساتهم خشية توقيع الجراءات عليهم إن لم يحققوها.

لهذا كله كان لا بد من وضع نظم جديدة، نظم تزيد بمقتضاها قدرة المؤسسة على مكافأة عملها بريادة إنتاجها وتحسين نوعيته وتضخم أرباحها. فقررنا تخصيص اعتماد في كل مؤسسة، من الأرباح التي تحققها، من أجل الحوافز المادية، بحيث يتوقف حجمه على مدى الريادة التي تطرأ على مبيعات سلعة. وستكون مبالغ المكافآت التي تصرف عند «تجاوز» تقديرات الحطة، أقل سبباً من المبالغ المخصصة عند «تحقيق» تقديرات الحطة وهو ما سيدفع المشروع إلى الموافقة على تقديرات أعلى لخطته. كما سيتوقف حجم اعتماد الحوافز المادية هذا على قدر الدخل الصافي الذي يتحقق للمؤسسة من رفع أسعار سلعتها نتيجة لتحسين نوعيتها، مما سيثجع المؤسسة على الإرتقاء بنوعية سلعتها وإنتاج أصناف جديدة منها في أسرع وقت ممكن.

المركزية المفرطة:

قلت:

— يتحدث الكثيرون في الغرب عن أن جُلَّ عيوب الاقتصاد السوفيتي ناجمة عن المركزية المفرطة في التخطيط، في حين يدافع بعض الشيوعيين عنها بقولهم إن من شأنها توفير الوقت، والإسراع بالنمو، وأنها هي التي مكّنت ستالين من جعل روسيا ثاني أكبر دولة صناعية في العالم، ومن تحقيقه نجاس نبت عنه الجملة المشهورة القائلة إنه تسلم مقاليد الحكم وليس في روسيا غير

المحركات الخشبي، وخلفها وهي تملك الأسلحة النارية. ما قولك أمت في هذا الأمر؟

قال محنتي.

— لقد كانت المهام الاقتصادية الرئيسية التي جابهت النظام السوفيتي خلال الأعوام الثلاثين التالية للثورة، أكثر بساطة وأقل تعقيداً من تلك التي تجابهه اليوم، حتى بالرغم من أن نجاح تحقيقها كان يتطلب جهوداً بالغة المشقة. وقد كان لابد من أجل إرساء أساس متين لصناعة متقدمة في بلد متخلف، والالتحاق بالغرب عسكرياً واقتصادياً، من إقامة مركزية صارمة في التخطيط، وإحصاء الغاية في تحقيق أكبر معدل ممكن من النمو، وتوجيه كافة الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة نحو التركيز على الأهداف الرئيسية، مع ترتيب أسبقيات بصدد الصناعات. وقد كان نطاق هذه الصناعات خلال المرحلة الأولى محدوداً، وترتيب الأولويات بينها بسيطاً، كما كان عدد القرارات نفسها أقل حين كان الاستثمار يتعلق أساساً بعدد من المشروعات الإنشائية الكبرى، كمصانع الصلب والمحارث والسيارات والصناعات الهندسية. وكانت المنتجات في قطاع كبير من الصناعة موحدة الصنف عن عمد بغية توفير النفقات، وتحديد حجم الإنتاج في هذه الصناعات بسيطاً نسبياً، وعدد المصانع ضئيلاً، مما سهّل على إدارة التخطيط المركزية مهمتها. لمّا حدثت ومرت إحدى الصناعات الهامة بأزمة ما في المعدات أو المؤن، أو تعذر تحقيق أهداف الحطة فيها لسبب أو آخر، عولج الموقف عن طريق تدخل إداري مباشر من المركز، وإصدار توجيهات مفصلة إضافية، مع الإسراع بنقل جزء من الموارد إلى هذه الصناعة من صناعة أخرى ليست في نفس الدرجة من الأهمية، لعدم توفر الاحتياطي الذي يعتبر أمراً كمالياً في الاقتصاد الذي يهدف إلى سرعة الحو بصفة أساسية. وكان نقل الموارد هذا يتم غالباً على حساب صناعات السلع الاستهلاكية الذي كان للاقتصاد السوفيتي وقت ستالين يعتبرها بمثابة الاحتياطي فيه

مثل هذه المركزية كانت أمراً مفهوماً في السنوات السابقة للحرب العالمية، وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعد الحرب. غير أن الأوضاع الآن قد تغيرت تغيراً يأت من المركزية المعرطة معه عبثاً ثقيلاً على الإنتاج وعلى الشعب على السواء:

● فمن ناحية، نجد أن عدد المنتجات وأصنافها قد زاد زيادة ضخمة، وكذا عدد المصانع المنتجة لنفس السلعة، والعدد الكلي للمصانع بوجه عام. وهو ما يعني أن التخطيط أصبح أكثر تفصيلاً وتعقيداً، وأن الهيئة المتولية له بات عليها اتخاذ قرارات لا حصر لها بصدد حشد من المشكلات، وهي بمينة عن مواقع الإنتاج الذي ستطبق عليها هذه القرارات وهو وضع لا شك في أنه يتناهى مع الواقعية والفعالية الواجب توفرهما في التخطيط.

● ومن ناحية أخرى، يرى أنه لكي تنمو الصناعة والطاقة الصناعية بدرجة أكبر، لا بد من أن تستحدث على نحو مستمر وسائل إنتاجية توفر العمل على أساس تحسين الأساليب الفنية واتباع أحدثها. غير أن التقدم الفني لا يمكن توفيره بتوجيهات من السلطات العليا، وإنما يتطلب مبادرة مستمرة من جانب المؤسسات، وحماساً لابتكار الجديد في مواقع الإنتاج ذاتها. ومن ثم فقد نجمت الحاجة الملحة في ظل الظروف الجديدة إلى توسيع حرية المؤسسات من أجل التوسع في إدخال هذه الأساليب الفنية، وزيادة إنتاجية العمل فيها.

● ومن ناحية ثالثة، نجد أن الأمر لم يحد يقتضي مجرد التركيز على أهداف رئيسية معينة مع اعتبار الباقي أهدافاً ثانوية، بل كان لا بد من أن تثمر الجهود والتضحيات التي بذلها الشعب السوفيتي قبل الحرب وأثناءها وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعدها، وأن تسفر عن ارتفاع في مستوى معيشته، وإشباع أكمل لاحتياجات المستهلكين.

الاحتياجات الجديدة:

فإن كان إغفال عامل السوق، ومبدأ الربح، وتلك الأوامر التحكمية من

جانب السلطات المتولية للتخطيط المركزي الدقيق، قد ناسبت الأوضاع الاقتصادية غير المعقدة التي تميزت بها الفترة الأولى من النظام السوفيتي، فقد ثبت أنها لم تعد تتفق مع تعقد هذه الأوضاع، ومع النصح الاقتصادي الذي أحررته البلاد، واحتياجات الشعب التي بدأت تفرص نفسها مرصاً، وتطلع الاقتصاد السوفيتي إلى التوسع في التصدير وغزو الأسواق العالمية، ومع ازدياد أهمية وبهوذ طبقة الميسين في الحياة الاقتصادية السوفيتية. وقد أدى استمرار التمسك بهذه المبادئ العتيقة إلى ظهور مأخذ خطيرة تهدد اقتصاديات البلاد: كقتل روح المبادرة والحماس الشخصي على العمل، وضياح المال في إنتاج كميات ضخمة من السلع التي لا يريد شراؤها أحد بسبب رداءة نوعيتها، والتي بلغت قيمتها في بعض الأحيان عدة بلايين من الروبلات، ثم فوق كل شيء، الانخفاض الملحوظ في معدل زيادة الإنتاج، وهو الذي وإن أمكن تفسيره على ضوء زيادة الاهتمام بتحسين السلع وتنويعها لإرضاء احتياجات المستهلكين وأذواقهم، وتمهيداً للدخول في منافسة مع سلع الدول الأخرى، فإنه لا ينفي وجود ما يشبه الأزمة أو العقدة المستحكمة في الإنتاج الصناعي السوفيتي.

ثم أمضي فأقول، إنه بالرغم من تقدم الاتحاد السوفيتي الملحوظ في مضمار التسليح والعلوم وغزو الفضاء، وبالرغم من أنه قد أصبح دولة صناعية كبرى وإحدى أقوى دولتين في العالم، فإن الغالبية العظمى من الشعب فيه ظلت تعيش معيشة مقاربة لمعيشة شعوب بعض الدول المتخلفة اقتصادياً، وهو ما قد يمكن اعتباره أكبر تناقض داخلي في الاتحاد السوفيتي، وما لم يكن بالإمكان استمراره مدة أطول. قالوا صبح الآن أن هناك ضغطاً داخلياً متزايداً، وعدم استعداد من جانب الغالبية من أفراد الشعب لقبول فكرة بذل المزيد من التضحيات بعد سنين طويلة من الثورة والحرب الأهلية والتصنيع الثقيل والعهد الستاليني والحرب العالمية وإعادة البناء بعد الحرب، مع شعورهم المتصاعف بحقوقهم بعد هذا الحرمان الطويل في المطالبة بشمار ثورة وعدتهم منذ نحو سبعين عاماً بالرخاء.

وقد راد من حجة هذا الشعور متخلف الأحوال المعيشية وبقص إنتاج السلع الإستهلاكية وريادة نوعيتها، تزايد اتصال الاتحاد السوفيتي بالعرب، وإطلاع المواطنين السوفيت، بقدر أو آخر، على الأحوال المعيشية في الدول الرأسمالية المتقدمة، وتزايد وطأة الأعباء الحرجية والقروض والمساعدات السوفيتية للدول النامية على القرد السوفيتي . وقد أصبح الآن من المحتم توجيه الإدارة الصناعية وجهة تفضي إشباع هذه الرغبات، خاصة على ضوء الإدراك أن تمام إنجاز المرحلة الأولى من بناء صناعة قوية، وتهيئة الوسائل الكافية المناسبة للدفع، يفرض الدخول الآن في المرحلة التالية . وهي رفع مستوى معيشة الشعب، وإشباع احتياجات المستهلكين، وإدراك أن مستوى الإنتاج في الدولة الصناعية الحديثة يتوقف إلى حد كبير على مدى ما تستمتع به الطبقة العاملة فيها من مستوى مرتفع نسبياً في الأحوال المعيشية، وأن الأيدي العاملة والاقتصاد الحديث أكثر تعقيداً من أنه يمكن إخضاعها لتخطيط مركزي دقيق.

تحديات المستقبل :

واستطرد محدثي يقول :

.. إن النظرية الشيوعية تقوم أساساً على افتراض تمؤفها على النظرية الرأسمالية في مضمار الإنتاج، وتفوق إمكانيتها تهيئة مجتمع الوفرة والرخاء، وحتمية أن تؤدي المتناقضات الداخلية في المجتمعات الرأسمالية إلى عرقلة نمو الإنتاج والتعرض لأزمات اقتصادية دورية حادة تضر بمصالح المستهلكين والمستغلين على السواء . ومع ذلك فالملاحظ حتى الآن أن النظام الرأسمالي في الدول المتقدمة قد نجح، بوسيلة أو بأخرى، في تجنب تحقق السوءات الماركسية بصده، وأن مستوى رفاهية أفراد الشعب في ظل لا يزال أرقى من ذلك الذي يتمتع به الشعب في ظل النظام الشيوعي .

مثل هذا المعجز عن تحدي الدول الرأسمالية المتقدمة بصدد رفع مستوى

المعيشة، وإشباع احتياجات الشعب من السلع الاستهلاكية الوفيرة جيدة النوع، (وهو أهم اعتبار في ميدان التنافس العقلي بين النظامين)، كفيلاً بتشجيع الشعب العامل، سواء في الداخل أو الخارج، في مدى فعالية النظام الشيوعي، ويروِّد الرأسمالية سلاح قوي في الدعاية. لذلك فقد بات من الواضح للفائدة السوفيتية، أن الملحق بالدول الرأسمالية الكبيرة في هذا المجال، بل والتعوق عليها فيه إن أمكن، سيؤدي حتماً لا إلى تهدة الخواطر في الداخل فحسب، بل أيضاً إلى اجتذاب جانب كبير من العمال في الدول الرأسمالية، خاصة بعد أن يتم التوسع في الحريات السياسية والعكرية في الاتحاد السوفيتي.

فإن صدقت توقعاتنا لسجاح الإنتاجات الجديدة في الصناعة، فلا شك هي أن هذا النجاح سيسفر عن زيادة التقارب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، وعن تحسن العلاقات السوفيتية الغربية، والتوسع في التجارة بين الجانبين، بعد تزايد قدرة السوفيت على التصدير، وإحلال المنافسة الاقتصادية محل الحرب الباردة. وهو في رأينا المفهوم الحقيقي الوحيد لمبدأ التعايش السلمي، إذ تعطي هذه المنافسة الاقتصادية مضموناً واقعياً وعملياً لهذا المبدأ.

وقد بدأ للاتحاد السوفيتي موضوع ضرورة وحيوية التوسع في المبادلات التجارية مع الدول الرأسمالية العربية على ضوء اعتبارات هامة منها:

● حاجته الماسة إلى مضاعفة دخله من العملات الصعبة عن طريق زيادة صادراته إلى الغرب، لزيادة قدرته على استيراد السلع التي يحتاج إليها من الدول الرأسمالية، (كالمواد الكيميائية الصناعية والمعدات والآلات الحديثة المتقدمة فنياً التي لم يستطع الملحق بالغرب في إنتاجها بصورة مرضية)، أو السلع التي يصعب عليه مجاراة الغرب في إنتاجها، إما لاقتنائه إلى المواد الخام اللازمة، أو لبهاطة تكاليف إنتاجها في الاتحاد السوفيتي، والميزة الاقتصادية للتخصص في إنتاج غيرها.

● أن ريادة قدرته على تقديم المساعدات للدول النامية تحتم عليه العمل على زيادة موارده ، وهي زيادة بضمعتها التوسع في صادراته إلى الغرب ؛

● إدراكه لمدى سيطرة العرب على كثير من صادرات الدول النامية ، وشدة ارتباط اقتصاديات الكثير من الدول حديثة الاستقلال بالتكتلات الاقتصادية الغربية ، مما يجعل من صالح السوفييت ، في سبيل وصول تجارتهم إلى هذه المناطق ، التوسع في التبادل التجاري مع الدول الغربية الأعضاء في تلك التكتلات .

هذه الاعتبارات وغيرها تتطلب ما ، من أجل تنمية علاقاتنا التجارية مع الدول الرأسمالية ، جهداً ضخماً من أجل النهوض بالاقتصاد والصناعة ، والعمل على زيادة الإنتاج ، وتحسين نوعية السلع لضمان تسويقها .

الوسائل :

ويكفي الآن أن أشير إلى بعض وسائل تحقيق هذا الغرض

فالمؤسسات والمصانع عندما كانت تهمل نظام حساب التكاليف إهمالاً يكاد يكون تاماً ، معتبرة إياه من الشكليات المحضة . . . كان تمويل استثمارات رؤوس الأموال يتم من ميزانية الدولة مجاناً ، وهو ما من شأنه أن يجعل مديري المؤسسات قلبي الاحتفال بتكاليف تعمير المشروع واستغلال رأس المال الإضافي المستثمر ، نظراً إلى أن المؤسسات كانت غير ملزمة برد المبالغ المقدمة لها ، ولا تتحمل أية مسؤولية اقتصادية عن استعمالها ما دام كل عطل في رأس المال المستغل في المشروع تموضه ميزانية الدولة مجاناً .

كذلك فإن مدفوعات المؤسسة من أرباحها إلى ميزانية الدولة لم يكن يتوقف قدرها على قيمة الأصول الثابتة للمؤسسة . وهو أحد الأسباب التي كانت تجعل المؤسسة تحاول الحصول على المزيد من المبالغ من الدولة كاستثمارات لرأس المال ، وكاعتمادات إضافية لرأس المال العامل ، دون أن تتخذ من جانبها

الإجراءات اللازمة لاستغلال هذه المبالغ استغلالاً مثمرًا. بل وكان يحدث أحياناً أن تشتري المؤسسة معدات لا حاجة بها إليها لمجرد أن تنفق المبالغ التي خصصت لها فلا تنهم بأنها بالغت في الطلب

أما الآن فالمشروع مطالب بتغطية تكاليفه من دخله هو مع تحقيق الربح، ومع الأخذ بمبدأ المسؤولية الكاملة للمشروع ومديره عن النتائج الاقتصادية لأعمالهم وقد رأينا من أجل تقوية نظام حساب التكاليف ضرورة خلق الظروف التي يتمكن المشروع في ظلها من تحسين إنتاجه، ومضاعفة اهتمامه باستغلال الأصول الثابتة المخصصة له إلى أقصى حد من أجل زيادة الإنتاج والأرباح. ولهذا فقد ترك للمشروع قدر أكبر من الأرباح التي يحققها حتى يتمكن من تنمية إنتاجه، وتحسين الأساليب الفنية فيه، وتشجيع عماله مادياً. وتحدد نسبة الأرباح التي تترك للمشروع على صوء مدى فعاليته في استغلال موارده، والزيادة في كمية مبيعاته، والتحسينات التي يدخلها على نوعية منتجاته.

كذلك تم تغيير النظام الذي تدفع المؤسسة بمقتضاه جزءاً من أرباحها إلى ميزانية الدولة، بحيث يكون الحسم من الأرباح، (لصالح ميزانية الدولة)، على أساس قيمة الأصول الثابتة المخصصة للمؤسسة، مع اعتبار هذه الحصومات مدفوعات من أصل قيمة الأصول. وهو أمر من شأنه أن يزيد من حناية المشروع باستغلال مخصصاته، وإحجائه عن المطالبة بالمزيد منها إلا في حالة الضرورة.

غير أن مدفوعات المؤسسة هذه تتم على مدى طويل حتى تتمكن من استقفاء أرباحها، وتغطية مصروفاتها كما تحتفظ المشروعات التي تحسن استخدام أصولها الثابتة بقدرة أكبر من الأرباح لضمها إلى اعتماد المكافآت والمنح. وبالمثل إلى أن الآلات والمعدات الجديدة لا يمكن أن تحقق أقصى

إمكاناتها فور بله العمل بها، فلا تستقطع الخصومات إلا بعد مدة تسمح بالاستغلال الكامل لهذه الإمكانيات.

وقد رأينا أن الثمن يلعب دوراً رئيسياً في علاج المشكلات المتصلة بتحسين نوعية السلع، وأنه من الواجب تعديل نظام تحديد أثمان السلع بحيث تشمل المصروفات فتغطيها وتضمن للمؤسسة الربح، وأن تراعي الدولة عند تحديدها لأثمان المبالغ الجديدة المحسنة أن يعكس الثمن المصروفات الإضافية للمشروع، والمنافع الاقتصادية الجديدة التي حققها التحسين للمستهلك. وهذا كميل بزيادة رغبة المؤسسة في النهوض بنوعية إنتاجها، كما سيكون من مصلحة المستهلك، اقتصادياً، شراء مثل هذه السلع.

المعارضة :

وسألت محدثي في النهاية عما إذا كانت هذه الاتجاهات الجديدة في الاقتصاد السوفيتي تلقى معارضة ذات شأن من جانب المحافظين الكارهين للتغيير. أجاب :

— بكل تأكيد. ثمة معارضة قوية لا بين بعض الاقتصاديين فحسب، بل ودخل الزعامة السوفيتية وفي صفوف الحزب والجيش أيضاً. هذا الفريق المحافظ يضم أربع قوى مختلفة :

● الماركسيين المتشردين الذين يرون في هذه الاتجاهات انحرافات رأسمالية خطيرة وتحولاً عن أسس الاقتصاد الاشتراكي، وأنه كان من الواجب استمرار الاعتماد على أجهزة التخطيط المركزية بعد علاج نقائصها المعروفة للإنتاج بدلاً من توسيع استقلال المؤسسات

● الليبروقراطيين العديدين الذين يخشون كل جديد، ويحسون بالخطر على مراكزهم في ظل الأنظمة المستحدثة.

● رجالاً من الحزب يخشون من أن يؤدي التوسع في استقلال

المؤسسات وفي اللامركزية إلى الحد من نفوذهم، أو دخولهم في صراعات جديدة مع الصين، ويتوقعون - ويحق - ألا تقتصر نتائج الاتجاهات الجديدة على الميدان الاقتصادي، بل تمتدّ إلى الميادين الفكرية والثقافية

● ورجالاً من الجيش يخشون من أن يتم التوسع في إنتاج السلع الاستهلاكية والنهوض بالصناعة على حساب التسليح.

غير أن العالية في بلادنا تعتقد أن النكوص عن الدوجماتية، وإدخال التعديلات على النظام الاقتصادي الاشتراكي، أمران قد بات لا عسى عنهما في عالم اليوم. أصف إلى ذلك أنهما يكملان زيادة إمكانية النظرية الاشتراكية اجتذاب شعوب الدول النامية والطبقة العاملة في الدول الرأسمالية على السواء، واجتذاب المثقفين اللذين كان يفرّهم أساساً من الماركسية دوجماتية معتقياً، ويرفضونها بكلّيتها كردّ فعل لإصرار الماركسيين على قبولها بكلّيتها. ولا شك أن استهصال النقائص البارزة في النظام السوفييتي التي كانت تشبه وتسمي إلى سمعته في الخارج، كاستهصال البيروقراطية، والإفراط في المركزية، وانخفاض مستوى المعيشة، ونقص إشباع الاحتياجات الاستهلاكية للشعب، هو خطوة هامة في هذا السبيل.

انطباعات متفرقة عن المسرح السوفيتي

شعرت بقدر كبير من الدهشة، مع بعض الاستياء، إذ اسمعهم يتحدثون عن مسرح الفن عندهم على ذلك النحو من التهكم والازدراء. الدهشة: إذ كنت أحسب الشعب الروسي أميل بطبيعته إلى التوفير منه إلى التشكك، خاصة فيما يتعلق بتراثه الفني. والاستياء: إذ كان مسرح الفن (مخلت) في مقدمة ما كنت أنطلع إليه عند قدومي إلى موسكو، وما زال بعض الكتب يشير إلى هذا المسرح الذي أسسه ستانيسلافسكي، وساهم تشيخوف وجوركي بمسرحيتهما في علاه شأنه وذيوع حشيته، على أنه أعظم مسرح في العالم. فما بال هؤلاء الأصدقاء المسكوفيين يستخفون به؟

«قد أصبح متحفاً أو كاد يصبحه»، هكذا قيل لي، «غير أنه متحف في صيغته إلى الانقراض».

وهم بذلك يقصدون أكثر من معنى:

فقائمة المسرحيات التي يقدمها هذا المسرح ويميد تقديمها موسماً فموسماً، ثابتة محدودة المدد إلى درجة لا تملك إزاءها إلا أن تستنصر القنوط والغيط كلما قرأت برنامجهم في مستهل كل موسم. فهي أساساً: «فموس ميتة» عن رواية جوجول، و«أنا كاريتا» عن رواية تولستوي، و«الإخوة كارامازوف» عن رواية دوستويفسكي، و«العروس الفقيرة» لأوستروفسكي، و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» لتشيخوف، و«الأعماق السفلى»

لجوركي، و«ماري متيوارت» لشيلر، و«الطائر الأزرق» لميتزلنك، و«قصة الشتاء» لشكسبير. (لعلنا «قصة الشتاء» بالذات ودون غيرها من مسرحيات شكسبير، تقدم علماً بعد عام، ويتكرر الإعلان الكثيب عنها كل عشرة أيام؟ الله وحده يعلم!). فإن أضافت الإدارة إلى هذه القائمة بين الحين والحين مسرحية حديثة عن رغبة في استرداد اهتمام الجمهور، بدلت لك الإضافة مصطنعة فائرة، وبدلت المسرحية وقد حشرت حشراً بين «النصوص الميتة» و«قصة الشتاء»، فزعة هلمة كالسمكة خارج الماء.

والعداء بين هذا المسرح وأي درجة مهما هان شأنها من التجديد عداء عنيف. فالتمثيل لا يزال حاضراً كل الخضوع لوصايا ستانيسلافسكي العشر، والإخراج والنكحور والملابس، بل والمكياج، هي اليوم بالضيظ كما فرضها منذ قرن كامل هذا الطاعية حسن النية. تترك ذلك حينما تتجول خلال الاستراحة بردهات المسرح وطرقاته، تأمل صوراً فوتوغرافية لمنابر من المسرحيات في زمن ستانيسلافسكي يظهر ستانيسلافسكي في غاليته، ولا تكاد تختلف في تفصيل واحد عما تراه على خشبة المسرح اليوم. بل إنك لو وجدت اليوم الممثل القائم بدور دكتور أمستروف في «الختان فانيا» شديد الشبه بستانيسلافسكي في نفس الدور، وماشا الأخت الوسطى من «الشقبقات الثلاث» صورة مكررة من أولجا كبير زوجة تشيخوف وممثلة هذا الدور منذ أكثر من ثمانين عاماً.

والدار نفسها التي تؤوي العرقه ليست أقل من الفرقة كراهة للتجديد. فهي كما عرفها وكما تركها المخرج العظيم، شأن عرقه راحل تأتي أرملة أي تغيير فيها الكراسي قديمة متعبة، والستار عتيق ماهت اللون ما زال يحلق في دائرة وسطه طائر النورس، وهو الشعار الذي اتخذته الفرقة قديماً تبركاً بمسرحية تشيخوف حاملة هذا الاسم، وكانت من أوائل ما قلعه المسرح. بل لتكاد تجزم إذ ترى خدام المسرح المجائز ممن يحفظون كموب التذاكر، أو يفودون إلى المقاعد، أن عاليتهم تحمل ذكريات كثيرة عن ستانيسلافسكي وجوركي، وربما ريت تشيخوف على كنف بعضهم وهو يمر به!

وجمهور هذا المسرح لا يختلف كثيراً عن جمهور المتاحف فقومه تلاميذ المدارس وطلبتها، يمتلئ إليها إما فرادى، أو جماعات في طوابير منظمة يحملون شاراتهم الحمراء، ويقود كل جماعة منهم مدرس. هأما أفراد الجماعات وهم الذين اقتيدوا إلى المكان كما يقادون إلى فصل أو معمل، فسلوكهم هأما مشابه لسلوكهم في الفصل أو المعمل: هذا يتملئ في مقعده وعلى وجهه علام السأم، وهأما يهمس في أذن صديقه حديث، وهأما يركن جاره عن ملل في ساقه، حتى يلتفت إليهم المدرس محطراً. وإلى جانب الطلبة غير الأبهين بمسرحيات قراوها ودرسوها وحفظوا صفحات منها وامتحنوا فيها وشاهدوها على شاشة التليفزيون مرات ومرات، أفراد جماعات شبيقة من العمال أو المزارعين، وفدوا إلى موسكو في مأموريات من الأرياف أو مدن الأقاليم، قد منحوا نصاريح مجانية لفضاء أمسية ثقافية، فجاءوا في ملابسهم المتواضعة يتعشرون في مشيتهم رغبة، مشدوهين مبهورين بمسارح العاصمة، وهم مع ذلك ليسوا أقل توقيراً لتولستوي أو جوجول من سائر أفراد هذا الشعب أصيل الثقافة ترى هؤلاء وأولئك يملأون الصفوف الحلمية والوسطى من الصالة وصفوف الشرفات. أما الصفوف الأمامية فيجلس فيها الأجانب من الدبلوماسيين والسياح وأعضاء الوفود الزائرة للمدينة وفي الصف الأول، والمقصورتين إلى اليمين واليسار، يجلس عدد من الممثلين والممثلات القدامى من أبناء هذه العرق وغيرها ممن أحيوا إلى المعاش أو ليس لهم دور في المسرحية المقدمة ذلك اليوم، يراقبون تمثيل تلاميذهم وزملائهم.



هو إذن من كافة الوجوه متحف لا ريب غير أنه ما إن يفرج الستار عن المسرح الصغير الذي تهب عبره إلى الصفوف الأمامية ريح باردة ورائحة كريهة، ويبدأ التمثيل، حتى يتبدل كل شك في حق هذه الفرقة في الحياة والبقاء، ويحامر النفس الأسمى إزاء نبوءة المتحفين المهكوفين له بالانقراض.

لقد طغت مسارح لندن وباريس وبرلين الغربية ونيويورك، وشهدت صفوة فرقها وممثلاتها، فلم أر ما يمكن أن يوصف في مصاف هذه الفرقة في مجال التمثيل قد يمكنك الإشارة إلى أوليغيه أو بول سكوفيلد أو جان فيلار فلا أجد قريباً لأيهم هنا غير أن الفرقة كفرقة لا تبارى قد استغنى تماماً عن «النجوم»، أو قل، هي فرقة كافة أفرادها من الهجوم، لا يكاد أي منهم ينفوق الآخرين كثيراً، وطول الأدوار لا يصلح دليلاً على أهمية الدور. فإن صفت في نهاية العرض، فلشخص معسوي، للممثلين كافة، لمسرح الفن، لستانيسلافسكي.

دور لا يزيد أداؤه على خمس دقائق، كلور السواب «جرجوري» في «الإحوة كارامازوف»، قد يقوم به ممثل يحمل لقب فنان الشعب للاتحاد السوفيتي، بينما قد لا يحمل ممثل دور دم تري كارمازوف أو أليوشا لقباً ما. هي كالفرقة الموسيقية السيمفونية، للطليل فيها ما للكتمان من دور جاد. فإن مرّت بك فترة طويلة في مثل هذا الجو المسرحي، ثم زارتك في موسكو فرقة مبرزة كفرقة المسرح القومي البريطانية، فليس تملك إلا أن تصدم وتشعر بالامتصاص إزاء الضعف السبي في قدرات القائمين بالأدوار الثانوية فيها. وما بهم في الحقيقة من ضعف وإنما هو ما اعتدته هنا من كمال.

مسارح أخرى:

مشكلة مسرح الفن إذن مشكلة إدارة أو سياسة لا تنالي بالذوق الجمهور المتغيرة بقدر ما نهتم بالحفاظ على تراث وقد ردّ الجمهور على هذه اللامبالاة به بأن ترك المسرح للصية والأجانب وحاملي التصاريح المجانية. هجره في غير أسف، ويشعور أقرب إلى الكراهية والعتيان، بعد أن حفظ المسرحيات وطريقة الأداء عن ظهر قلب، ويأت لا يلمح إعلناً من إعلانات المسرح حتى يحول وجهه عنه في حلق ونفاد صبر.

فأما المرنديبات الأخرى التي تحول إليها المسكوفيون فهي أساساً مسارح

فاختانجوف، وتاجانك، وماياكوفسكي، وساتيري، ثم فوق كل شيء المسرح المعاصر. عبر أن تحول الأجنبي هذا المسرح الأخير أصعب من تحول الغني الجنة.

في المسرح المعاصر مسرحيات تتعرض أساساً بالنقد للنقائص والمظالم وأوجه الفساد في المجتمع السوفيتي، (أو ما يرى الكاتب أنه من أوجه الفساد)، كالاتهازية عند بعض رجال الحزب وشباب الكومسومول وما يتمتعون به من امتيازات تحلق منهم طبقة جديدة، وكالرشوة والبيروقراطية،... إلى آخره. والسوفيت، حكومة وشعباً، لا يحبون عرض غسيلهم القذر أمام أعين القراء، ويرون عرض القرباء غسيلهم القذر أمام أعينهم هم إما سداجة وسوء تقدير إن صدر عن إحدى الدول المتخلفة، أو اعتراً صريحاً لا مفر منه بظلم النظام الرأسمالي إن صدر عن إحدى الدول العربية المتقدمة. أما عندهم، ففضح النقائص يتم في جلسات مغلقة، حشية السماتة والشهير والإساءة إلى سمعة النظام واستغلال ذوي النوايا الخيثة من الأعداء المترصين به. وكم من مرة حاولت عن طريق العنلق الذي أقيم به تدبير الحجز لي في ذلك المسرح فرض طلبي بحجة نفاذ التذاكر.

فاما المسارح الأخرى لمهدان التجارب الجديدة في التأليف والإخراج والتمثيل قد تعرض عنداً صخماً من المسرحيات المترجمة (خاصة مسرحيات سريخت وآثر ميلر وبرانارد شو وناظم حكمت وغيرهم من كتاب المسرح الأجانب الشيوعيين أو المتعاطفين مع الاشتراكية)؛ أو من المسرحيات الروسية الكلاسيكية، (الجرغوبينوف وجوجول وأوستروفسكي ونورجيف... إلخ). غير أن الرعة إلى التجديد، والرعة الملحة فيه، واصحتان حتى في هذه المسرحيات المترجمة أو الكلاسيكية الروسية، والاهتمام باجتذاب الجمهور وإرضائه يغلب كل اعتبار آخر. وإدارات هذه المسارح واضحة الاعتزاز بإقبال الجمهور، عطفية الثقة في إمكانها اللحق بالمسارح في العرب في تجاربها وتجديدها.

أفلم يكن مايرحولد وماياكوفسكي الروسيان من أهم رواد المدرسة الحديثة في الإخراج والتأليف المسرحيين في أوروبا بأسرها في السنوات الأولى التالية لثورة أكتوبر؟ هما بال البعض هنا وهناك يتحدث في قنوط عن تخلفهما وجمودهما، تخلف وجمود مرحليان مرتبطان بمهد ستالين؟ هل نسوا أن شاجال روسي وكذا سترافينسكي وأيستشثين وديليجيليف وبيجينسكي وبلوك وباسترنك وعشرات غيرهم ممن فتحوا أبواباً في كافة الفنون بهت الغربيون أمام ما وراءها. فلعنوص إذن ما فاتنا من وقت، ولنصل بالمدرسة الروسية إلى قمم جديدة.

غير أن العجلة البيئة هنا، وسداجة الإتجاه، والاهتمام الصياني بالشكل والتفنيد الراسي أو المجبر بالأيديولوجية الماركسية اللينينية حتى في ظل الأشكال الجديدة جعل المحاولة تبدو للنظر الأجنبي مضحكة متعثرة، كمحاولة مقيد بالأغلال الطيران في لهمة. قد استبدلوا إناء بإناء، والتبذ واحد. والحزب في اجتماعاته واتحادات الكتاب في مؤتمراتها، والصحف الحكومية والحزبية في مقالاتها، لا تكاد تدعو إلى المزيد من الإبداع والتجديد حتى تعود إلى الإصرار على البطل الإيجابي، والقيم الشيوعية، وقاد الأيديولوجيا والجمهور مقدر للصعوبات الإدارية، مغض الطرف عما يدرك بذكائه أنه مفروض من الجهات العليا، مكمل في نفسه ما يشعر بأنه قد حذف من نص المؤلف، مبتهج بالجملة الجريئة قد أهلت، مخمن مبارك للجملة الجريئة قد وقعت في شبك الرقيب وشعور الأجنبي هنا وهو يرقب الجمهور في شوته إزاء ما يراه جريئاً متحدياً، كشعور رير الساء وهو يرقب مراهقاً قد أسكره النصر والرهو إذ أفلح في أن يمسك أطراف أصابع يد محبوبته! جمهور ساذج غير أنه حبيب إلى النفس، نقي بيد أنه مفهوم. ومع ذلك فالإدارة والكتاب والمخرج لا يجدون في هذه الطيبة عزاء، ولا في هذا الذكاء سنبلاً. فالصراع يولد طاقة كان يمكن أن توجه إلى عرض أجنبي. والناتج دائماً هزيل وإن أشبع الجوعى

إن معظم ما استحدثته برتولت بريخت قد أدخلوه في مسرحهم، ثم شكل

من هنا وشكل من هنالك، قد اجتمعوا في تشويش دون فهم أو فهم، ودون مناسبة لموضوع.

الستار مرفوع قبل بدء التمثيل. والمسرح عار أو شبه عار من الديكور. والممثلون يلهون إليه من الصالة وهم يتصايحون. والراوي يدخل يتهادى وهو يدعى غلبويه. والجوقة تقطع سياق الأحداث بالعناء أو التعليق. ثم توال في المناظر كما في السينما. ثم بعد ذلك وغيره نرى الموضوع فتاة لعوب غير مكتوفة بالأيديولوجيات، تتزوج من مهندس شيوعي بطل يعمل في سرّ عند مدينة إيركوتسك. وإذ يفرق هذا المهندس محاولاً إنقاذ طفلين أو ثلاثة من النهر، تنبى الأرملة قيمه ومثله، وتأخذ مكانه في العمل عند السدّ. أو: مهندس عجوز بورجوازي، قد أدركه الثورة البلشفية مريض التعاون مع رجالها، وساء به الحال. ثم ترتب له مقابلة مع لينين، فيحادثه أو يحذثه لينين، ليخرج من هذا الحوار السفراطي مقتنعاً مؤمناً بضرورة التعاون، فيصلح حاله، وتغمره السعادة!

قد تتساءل أنت عن جدوى التجديد في الشكل ها. غير أن الجمهور الروسي مبهور بهذا التجديد. ياله من إخراج! ياله من جرأة! ياله من ثورة على القديم البالي! على الليبروقراطية في الفن! على الستالينية!

وهو أمر معتاد وإن لم يكن له ما يبرره. فعالباً ما نرى الحاجة إلى التفسير، والرغبة فيه، تتجهان خطأ إلى الشكل، إما استسهالاً أو صلاً أو تفضيلاً. قد يشعر الشاب بغياف التقاليد السلوكية البورجوارية، أو بقل وطأة دولة العصر الحديث، أو بالنقمة على نظم معينة. ثم إذا بنتائج ثورته لا يكاد يتعلّى إرسائه شعرة، أو إضرابه في مله، أو إيمانه المخدرات والمسرح السوفييتي المعاصر شديد الشبه بهذا الشاب: لا هو استفاد من مضمون عربي، ولا هو قدم مضموناً روسياً جديداً. كل ما يمكن أن يكون جديداً هو ملهى جرأة المؤلف على انتقاد أوضاع محلية صرفة، كسوء الخدمة في المطاعم، ونعت

سائقي سيارات الأجرة في مدينة سوتشي، وهو أمر لا يهم القى في شيء.

الجمهور:

غير أن ما استمتعت بمراقبته حقاً هو جمهور المسرح السوفيتي لا المسرح نفسه. هناك كان المسرح هنا لا إله له، فجمهوره جاد ديب الحساس، ما عرفت جمهوراً مثله يكفي أن تشاهده عند ريادة فرقة أجنبية له. الشيوخ والشباب ممن كان لهم حظ الحصول على تذاكر بعد وقفة في طوابير لا نهاية لها، يدخلون المسرح متأبطين نسخة من الأعمال الكاملة لمؤلف المسرحية باللغة الروسية، يستكملوا قراءة المناظر الأخيرة إن كانوا لم يتموها في الأمسية السابقة، أو يراجعون مع الممثلين بصوت خافت جملة أو مشهداً. وهم أثناء الاستراحة يجلسون على صلالم الردهات، الطعام في يد، والكتب في يد، يقصصون القطيرة في نهم، ويستذكرون في نهم. والتصفیق دائماً حار، دائماً ودون استثناء، فكأنما لا يمكن إلا أن يعجبهم العرض. فإن انتهى التمثيل فتهلل وعدو إلى حشبة المسرح، يقدفون الممثلين الأجانب بالرهور، ويظل الستار يسدل ويرفع ويسدل ويرفع، حتى ما شاء الله.

غير أنني غالباً ما أجدني أتسهم إذ أقرأ في صحيفة لندنية مثلاً، عن الاستقبال الحار الذي استقبلت به فرقة بريطانية معينة، أو أن الستار رفع بعد النهاية سبع مرات أو عشر، ليلقي الممثلون تحية الجمهور. فالعدد هنا لا يعني شيئاً. والحرارة لا تكاد تختلف سواء كانت المسرحية «عظيمة» لشكسبير، أو «المصيدة» لأجاتا كريستي، وسواء كانت الفرقة بريطانية أو برتغالية. هي دائماً متوفرة، وبالتالي لا دلالة فيها على نجاح أو إعجاب ومن عاش في هذا البلد الغريب مدة طويلة مثلي لا شك أنه أدرك مدى إعجاب السوفييت بكل ما هو غربي تقريباً. فإن ترجمت تصفيق الروس لفرقة عربية في كلمات، جاءت الترجمة كالآتي:

«انظروا أيها الممثلون الأجانب. ألا ترونوا شراً ومثقفين مثلكم، نعجب

بمنكم وبكم إعجاب مواطنيكم إن لم يكن أكثر؟ هل يستقلكم مواطنوكم بمثل هذه الحرارة؟ بمثل هذه الزهور في فصل الشتاء؟ هل يطلون رؤيتكم وتحيتكم عند النهاية سبع مرات أو عشرين؟ رجائنا الحار أن تعيدوا النظر في أمرا، أن تحترمونا، أن تعتبرونا أندادا لمواطنيكم. . . x

هو شعور بالنقص من ناحية. وكرم ضيافة. وطيبة قلب. وعلاوة على ذلك فإن المدينة والمنازل التي تنتظرهم خارج المسرح لا تستدعي عجلة بالمدينة على اتساعها كثية. والمساكن ضيقة وكثية معا فليطيلوا مقامهم بالمسرح قدر الإمكان، واستمتاعهم بالنظر إلى لورانس أوليميه العظيم ينحني، أو أنا مانياني ترسل قبلاهما لهم في الهواء، لوجون جيلجود تدمع عياه لهذا التهليل. لا شيء غير الظلمة ينتظرهم في الخارج. لا مساء ولا نواذ ليلية ولا ما ألف الغربيون التردد عليه بعد المسرح. والروس يكرهون قضاء الأسابيع في مساكنهم، وهو ما يفسر إقبالهم حتى على الاجتماعات الحزبية والسياسية التي لن يسمعوها غير المخطب فيها.

غير أنه من ناحية أخرى حب للثقافة عميق أصيل. وكيف أنسى مروزي بوابة مسكني كل صباح ومساء فاجدها نقرأ لنشيوخوف وتورجيف وبوشكين، أو حديث طباحتا الروسية إليّ وزوجتي عن مسرحية «المفتش العام» لحوجول، وعن زيارتها مع «بنتها الطفلة لياستايا بوليانا مقر تولستوي الريفي، أو جماعات الروس من مختلف الأعمار في أركان ردهات الكونسرفتوار، يستمعون قبل بدء الكونسير إلى محاضرات في الموسيقى، في جو يشبه جو حلقات الأثر منذ عهد غير بعيد؟ والمستوى الثقافي للمروض يدعو دائما إلى العجب والاحترام. فلا إسفاف ولا استغلال للجس ولا فكاهة سطحية. غير أن هذا أيضا لا يكشف شيئا غير إرادة السلطات، ولا يعني أن هذا هو وجهه، أو هو حتى من بين، ما يريده الجمهور. إذ من يلزي ما عسى أن يكون الإقبال عليه لو قلعت هنا مسرحيات تافهة لسمرست موم مثلا أو أنلريه رومان؟ صحيح أن

البوابة نقرأ للدوستوييفسكي وإيرمونتوف، غير أنه ها في الاتحاد السوفييتي إما أن تقرأ لهؤلاء الأفاضل أو أن تختار لنفسك هواية غير القراءة!

وهو أيضاً، كما ذكرت، طيبة قلب. طيبة قلب روسية محضّة. والقولة الشهيرة للملكة فيكتوريا: «لم نجد في هذا تسليّة»، لا يمكن أن تتصور ما هو أبعد منها عن طبيعة هذا الجمهور. فكل ما يقدم جدير بالشكر، والتحية، والامتنان لما بذل من مجهود للتروفيه. لا صغير. لا عبارات امتعاض. بل ولا تصفيق فاتر. إن كان الممثل جديداً أو صغير السن، قبول تصفيق يدخل الثقة إلى قلبه. وإن زلت قدم الراقصة ووقعت كالحجر أثناء العرض، صفق الجمهور طويلاً لها حتى لا تحزن أو تبتس، و صفق لها مرة أخرى عند دخولها لأداء رقصة جديدة حتى يرفع من روحها المعنوية. وإن انفجر كشاف كهربائي ودخلت شظاياها ففا قميص الممثل صانطض مدعوراً في ألم، صفق الجمهور حتى يعيد إلى المسرحية النظام!

ويتهي العرض والتصفيق، ويشج الجمهور أمواجاً إلى حيث المعاطف والقبعات، فيتراحم أفرادهم ويدفع بعضهم بعضاً في جنبه أو صدره في غير رفق، وينهر كل جاره في هير لين، ثم يخرجون إلى الطريق والبرد القارس، يبحثون عن سيارات الأجرة، تجيء الواحدة منها بعد ربع ساعة أو نصف ساعة من انصراف السابقة، فيحاول كل منهم، وقد تقذ صبره، أن يخرج من الطابور المنتظر، ويدعي الأولوية، فيحتج الباقيون عليه، ويطمنون في حقه السبق ويشتمونه... وتتساءل إذ ترقب كل هذا: أين ذهبت رفاهة إحساسهم، وما جدوى أثر العمل الفني الذي كانت جموعهم منذ لحظات تنهمر له أنهاراً، ويشهقون بالبكاء للمحزن من مناظره...!

أمسيات في مسرح البولشوي

رفض صديقي عوصين في نادى الأمر، (وكنّا قد وصلنا إلى موسكو قبل أيام) قبول دعوتي له بقضاء أمسية في مسرح البولشوي. غير أنه عاد فقبل بعد إلحاح، على أساس أنه لا بأس في أن «يتأخذ فكرة» عن هذا المسرح الذي سمع اسمه يتردد من قبل.

وانحنى على أذنّي يقول:

— لا أكتحك أني لا أفهم هذا الفن ولا أستسيغه رأيت مرة على شاشة التيليزيون فناناني وقد كنت يقطاً غير أن بعض السيقان جميلة لا شك، وإن كان الصدر عند الغالية كالبلابل أقصى ما انتهت إليه في باب الرقص رقص نجوى فؤاد، مع إلمام بتطوراته على يد سحر حملي، أو قل، على ساقها أي ساقين! أي صدر! فلا تجرص إن سمعت شخيراً أثناء العرض يكفي ركلة خفيفة في ساقى إن لاحظت امتعاضاً ممن حولنا. وقد أخذ من أنظر قلت له مطمئناً:

— ما عليك من بأس. فتولستوي نفسه كان شديد الكراهية للباليه، عظيم الإجراء له، لا يراه فناً وإنما مجرد تمرينات رياضية لا تستأهل ما يتفق عليها من مال وجهد.

— حقاً؟ لقد كان رجلاً ممتازاً رحمة الله عليه. هل شاهدت له هيلم «الإخوة كارمازوف»؟

وانتظرت أثناء المرض أن أسمع الشخير فلم يثنه إليّ . والتفت إلى صديقي فإذا هو وقد اتسعت عيناه دهشة وانبهاراً ، يدبر رأسه شمالاً ويمياً يردد المرض ازدراءً ، وهو يتمم بين الحين والحين أن لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

وسألت في طريق عودتنا رآيه .

— ما كنت أتوقع أنني سأستطيع بهذه السهولة ، وأفهمه بهذه السرعة وأصبح أن الفرقة التي شاهدتها على شاشة التليفزيون لم تكن على مستوى عالٍ أرايت الذيكور؟ والماصورات على خشبة المسرح تغلف بماء حقيقي؟ والجمع في البحيرة؟ والغابة ، وأوراق الشجر تهتر للسيم؟ والأسماك الملونة تتطاير في البركة؟

— وبيزميرتوفا؟

— أية بيزماروفا؟

— بيزميرتوفا، الراقصة الأولى .

— سافاها لا بأس بهما . غير أن وجهها ، إن أردت الحق ، كوجه الخروب .

ثم أضاف مكرراً :

— غير أي ، حقيقة ، ما كنت أتوقع أنني سأستطيع فن الباليه بهذه السهولة .



هذا القول منه ، على سذاجته ، يحمل دلالة عميقة على السالبيه السوفيتي ، ويكاد ينطبق بحريته بالنسبة لي فيما يتعلق بالأوبرا التي لم أكن في أي وقت من الأوقات مستمياً لها ، حتى شاهدتها على المسرح الروسي فيهرتني . . . فخامتها .

فالحمامة هي مفتاح المتدي إلى الفنون، كالكتاب المصور المجميل عند الطفل. وهي دليل الرجل الغبي إلى المسرحية والأوبرا والباليه، أو قل، هي خالقة الزهم لدى من لا يفهم أنه يفهم.

«أرأيت إلى النافورات على حشبة المسرح تقذف بماء حقيقي؟»

كل ما على الحشبة يهرك. فلوانك صرقت السطر كلية عن رقص بيزميرتوفا، وعن الغناء كله في الأوبرا، لوجلت الساليه محتماً دون رقص، والأوبرا سائغة دون غناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل إنك حتى لو كنت من عشاق الباليه، أو عشاق الغناء، لتحول انتباهك مراراً عنهما رغباً عنك إلى الديكور والإخراج، حشبة أن يفوتك أمر هنا أو أمر هناك. وكيف يمكنك أن تلتفت إلى غناء هي أوبرا «الأمير ليغور» إذ ترى على المسرح حرصاً خلاهاً لكسوف الشمس، والمنظر يغيب تدريجاً في ظلمة رهية، أو إلى غناء في «بوريس جودونوف» إذ ترى قلعة البويار يذلسون إلى مظرة تتويج بوريس في قنطينهم المعخمة المرصعة بالجواهر، يلغون بالقطع الذهبية كالقطر إلى جمهور الشعب؟

وفي الباليه؟ الراقصة ترفص على المسرح في حفل بأحد الميادين. فلإن التمت يميناً إلى المقهى، وأيت رجلين بلعبان الشطريج باهتمام بالغ غير عابئين بالرقص، هذا ييدي سعادته ويفرك كفيه إذ أوقع الآخر في ورطة، وزميله يحرك شفتيه سائطاً ويحك أنه مفكراً ويشير إلى صاحب الفندق أن يحضر المزيد من الجعة. وفي الحلف، صبيان متشردان في أسمال بالية جميلة، حفيف الظل والحركة، يحاولان سرقة كيس بقود متفرج بلدين مشغول بالرقص أمامه. وإلى اليسار، في حانون الحلاق، ترى الحلاق مشغولاً بلق أحد الزبائن، يعلوها بالصابون، ثم يمسك بالموسى وينهمك في عمله حتى يصبح به الزبون (دون صوت) أن قد أصابه بجرح عند خده. وصبي الحلاق أثناء هذا يطرد ذنباً وهمياً بمنشته، وقد ينتهر الفرصة ليشير إلى فتاة بالجمع أنه سيلحق بها بعد الفراغ من

عمله... كل هذا وغيره، والراقصة الأولى المسكينة تؤدي رقصتها في دقة وإبهامك وأمانة لا تختلف عن دقة صبي الحلاق وإتقانها وأمانته .



الكل إذن واجد متعته هنا . غير أنك قد تقرّ اعتراضي على مثل هذا الأسلوب، وهو ما بسطته لصديق لي يحمل مالمارة المصرية في موسكو فاحتج عليّ بقوله :

— وما الضرر في أن يعجب بالعرض عاشق الرقص وغير عاشقه؟ هل الفن احتكار لمتة؟ ألا ترى أنه بهذه الطريقة يمكن استدراج غير المتلوقين للفن والناشئين حتى يصبحوا في يوم ما ذواقين حقيقيين له؟ إن شرد انتباههم اليوم إلى صبي الحلاق، فقد يتركز غداً في الراقصة ثم ما الذي تعترض عليه بالضبط أبهظك أن يستمتع غير اللوافة معك؟ أتخشى أن ترى نفسك أيها الأرستوقراطي في رمرة واحدة معه؟ إن شئت ألا تشعل نفسك بلاهبي الشطرنج، لماذا يمنعك من أن تلتصق كلية إلى الرقص؟

وكان ردّي كما يلي :

إن استدراج الناشئين وغير المتلوقين يبغني أن يتم في أماكن خاصة أو في مسارح خاصة إن شئت غير أن الفن الكامل ليس بالمسؤول تجاه هؤلاء، وإنما تجاه عشاقه ومريديه . أترك تنصح إذن حين تقدم مسرحية وفي انتظار جودوه مثلاً، أن نعرض في خلفية المسرح ألعاب حواء، أو تنويعاً معنطيسياً، كي نرضي جميع الأذواق، مبرراً هذا بالأمل في أن يتحول انتباه الجمهور بين الحين والحين إلى حوار صلحويل بيكيت: فيرفي مستواهم تدريجياً؟

إن فرقة البولشوي، وهي أعظم فرقة باليه شهدها العالم، ما كان لها أن تشغل نفسها بالأعمال الخيرية العنية، إن كان الهدف من هذه الأريحية في

الإنفاق على الإخراج والديكور هو تضييق الباليه إلى المبتدئين كما يدعي البعض . غير أنني أرى لهذه الأريحية أساباً ثلاثة أخرى .

الأول : استمرار التزام الفن الروسي بالواقعية التي لا تترك مجالاً واسعاً لنشاط المخيلة ؛

والثاني : حب الجمهور الروسي لفخامة الديكور على المسرح من قبيل العوض النعسي عن فقر الواقع ، (وهو ما تلحظه من تصفيقهم الحاد كلما انزعج الستار عن منظر) ؛

والثالث . اعتزاز النظام بما بلغه الباليه السوفيتي من كمال ، واعتباره إياه إحدى الوجهات الرئيسية له أمام العالم الخارجي ، مما يبرر الإنفاق عليه في بذخ ، ويصر القولة التي كثيراً ما يرددونها من أن الباليه ومثرو الأنفاق مثلان حيّان لمستقبل كافة مظاهر الحياة في الاتحاد السوفيتي حين يتحقق بناء الشيوعية .

غير أنني لم أصل بعد إلى جوهر الأمر . ما أردت قوله هو أن الديكور وحيل الإخراج لا ينبغي الإفراط في الاستعانة بهما ما لم يكن القصد تغطية نقص ، أو إكمال قصور . . ففي لندن مثلاً ، أو في نيويورك ، لاحظت أن المسرح يعتمد عليها في اجتذاب الجمهور إلى المسرحيات الصغيرة أو غير القريبة من قلوب المشاهدين من مسرحيات شكسبير مما لا يمكن أن تجتذب جمهوراً كبيراً ، فيحضر لمسرحيته «ترويلوس وكريزيداء» مثلاً ديكوراً معرط الغرابة ، وملابس نهاية القرن التاسع عشر لأبطال هوميروس ، فإذا بيوليسيس يخطر على المسرح في بزة قائد الأسطول الأكياتي في رمن بسمارك ، بينما تجلس هيلين الجميلة إلى البيانو في فستان سهرة ولفافة تخ بين شعفتيها .

فهنا ينطبق المثل الإنجليزي المعروف ' ولولم يكن الدواء مرّاً لما احتاج إلى برشامة ' .

فإن انتقلت إلى فرقة البولشوي، تساءلت من مورك عن حاجة هذا الجمال كله إلى وسائل التجميل، وتبادر إلى دهتك فول بايرون في «دون جوان»: «إيه لمن السحافة حقاً تغطية الذهب بقشرة ذهبية، أو طلاء الزنقة بالألوان». فإن كان صدقاً أن التعلق يحب الملابس، والحق يحب أن يمشي عريان، لمجبت إذ تجذ الحق هنا في المسرح السوفييتي، (كأفراد الشعب الروسي في شهر يناير)، لا تكاد ترى منه غير طرف أنفه من كثرة الثياب

أما لا أنكر على الفن السوفييتي حقه في التميز والانفراد (ومنى كان من شعب دة قيمة إن كان حلواً من التميز والانفراد؟) غير أنني أنكر عليه إعفاله إلى حد كبير الاستمادة مما يجري خارج حدود أرضه. والاتجاه في الفنون خارج الحدود السوفيتية الآن، حتى في بولندا وتشيكوسلوفاكيا، هو إلى البساطة وللتجريد، وإلى المزيد من البساطة والتجريد، حتى يزيد تركيز الانتباه في العناصر الأساسية من العرض، وإلى اعتبار الديكور والملابس وحيل الإخراج عوامل مساعدة تحدم العناصر الأساسية وتبررها، ولا يجوز لها أن تجذب الاهتمام إليها في حد ذاتها على حساب تلك العناصر التي تدخل وحدها في تعريفات الفنون المختلفة.

يكفي أن نقارن بين قبلي «هاملت» السوفييتي والبريطاني، و«لير» بول سكوفيلد على المسرح البريطاني و«لير» السوفييتي، وبين فرقة البولشوي وفرقة مارثا جرام للرقص، لتترك ما أمني.



غير أنني أعود فأورد هنا تحفظتين:

الأول: أن الأمر، كما قلت، له جذور نمسية، وأن حاجة الجمهور الروسي إلى الفخامة على المسرح واضحة ملموسة، لا صلة لها بالنظريات العسية، وإنما بالتوق وبظروف المجتمع. ومن السهل أن يردّ على حديثي كله بالمثل القائل «إن الأدواق ليست محل مناقشة».

والثاني أن الأعوام الأخيرة قد بدأت تشهد بالفعل تطوراً ماركياً واتجاهاً إلى البساطة، هما قوياك وأصحاح في المسرحية، مترددان شاحان في الناليه، ولا أثر لهما في الأوبرا. فأما فيما يتعلق بالباليه، فيكاد يكون في مقدورنا أن نقول إن عام ١٩٦٣ كان عاماً تاريخياً شهد إلقاء بدور عهد جديد للباليه السوفييتي. فقد وصلت فيه إلى موسكو، طبقاً لاتفاقية ثقافية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، فرقة روبرت جيفري الشهيرة للباليه الأمريكي، وقدمت في مسرح أوبارتي أربعة برامج مختلفة كانت بمثابة قنبلة صمق لها القوم.

كنت وقتها أعمل بالسفارة المصرية في موسكو، وحضرت العروض الأربعة. بدت حيرة الجمهور جلية بعد دقائق قليلة من بدء الرقص. والتفت إلى جيرابي من حولي فإذا هم يتلفتون إلى بعضهم البعض في تساؤل وصمت وقد ارتفعت حواجيبهم دهشة، وهم يهزون أكتافهم علامة العجز عن فهم ما يجري هنا. كانوا كمن جاء لسماع سيمفونية لموتسارت فإذا به يواجه فرقة البيتلز! . . . أيسمي الأمريكيون هذا الشيء بالباليه؟ لا مناظر؟ ماذا؟ لا مناظر ولا ديكور على الإطلاق؟ بل أحياناً مجرد رقص دون موسيقى؟ ثم ما هذه الملابس، وهذه الخطوات العربية التي ما عرفها أحد منا وما أنزل الله بها من سلطان؟ أهذا ما ألفناه من الكوريوجرافيا؟ وأين القصة؟ وما كل هذا الإغراب في المعاني والرموز؟ وهذا الجو الشاذ؟ أين مضحك الملك وأين السحرة والجنيات والغابات المسحورة والحسنات النائمات؟ أيسخر بنا هؤلاء الراسماليون؟ يقدمون مثل هذا الشيء في عاصمة الباليه؟

وأبارت الأضواء في الاستراحة الوجوه، فإذا القوم على رؤوسهم الطير، ثم يتحركوا ولم يلاحروا مسرعين كعادتهم إلى البوفيه ونظرت إلى الصفوف الأولى حيث جلس عدد من نجوم الباليه السوفييتي: بليستسكايا، كوندراتينقا، مكسيموفا، سترونشكوفا، ليبيا، قاسيلييف، فرأيتهم يدخلون مع جيرانهم في نقاش عنيف حاد، هذا يلوح بيديه في حرقه وقد احمر وجهه، وهذه تدير سابقتها

عند رأسها إشارة إلى الخلل، وهذه تمذ شفتها السفلى وترفع كتفها في قنوط والكل واجم قد أدرك ما يواجهه هنا من تحدّ واستقراز، وهو أحد هذه التحديّات التي لا مفرّ لإزائها من إعادة النظر في الماضي كله، وفي القيم بأسرها، وإذ لمحت كويلرنايشا بعد حين تترك مقعدها إلى المصنف، فقد تبعها إليه، وتعلّلت بطلب إمضاءها لأخطابها، ثم سألتها عن رأيها في عبارات:

— لعلك توافقني على أن الأمر ليس من السهولة بحيث أدلي برأيي في الحال. كل ما يمكنني أن أقوله لك الآن هو أنني في حالة من الذهول التام.



غير أن ذهول القوم لم يطل. فما مصت سبعة أشهر أو أقل حتى بدأت أميز نعمة جديدة في الباليه السوفيتي. بيد أن هذه النعمة، كما توقعت، وكما هو عارف هنا، اتخذت سمّاً روسياً خالصاً.

هم قد أقرّوا الحاجة إلى التجديد، وأقرّوا رغبة عشاق الفن في المربد. غير أن الجديد لا يقدّم في الاتحاد السوفيتي باعتباره جديداً، خاصة إن كانت ثمة شبهة في أنه مقتبس من الغرب. وصلهم أن كل ما قد يبدو للساذج جديداً، له أصول روسية قديمة، فكأنما التراث الروسي قرآن قد حوى كل شيء. فإن اشترت إلى افتقار المسرح السوفيتي إلى اتجاه معين، أجابوا بأن ذلك إنما يرجع إلى إهمال أو خطأ، أو أنه متصل بظروف عهد ستالين التي قمعت هذا الاتجاه الروسي الصميم بعد ازدهار... هو الأثر الحي للعقيدة الروسية القديمة أن «موسكو هي روما الثالثة، ولن تكون هناك رابعة»، وأن بلادهم حاملة لواء الدين الصحيح في العالم كله. فإن شاؤوا إذن تدشين أساليب جديدة في الباليه مثلاً، لجأوا إلى إحياء تراث سترافينسكي ودياجيليف الروسين، بعد أكثر من نصف قرن على عرض باليهاتهما في الغرب. وقد بدأوا في أوائل الستينات يعرضون للمرة الأولى عدداً من الباليهات التي كتب سترافينسكي موسيقاها، مثل «الطائر الناري» (لحنه سنة ١٩١٠)، و«بروشكا»

(١٩١١)، ثم فوق كل شيء، وللحرابة الشديدة، باليه «طقوس الربيع» الذي أثار جرأته عند عرضه سنة ١٩١٣ ضجة وهزيمة في باريس نفسها، وانقسم الجمهور الفرنسي إزاءه ليلة الافتتاح إلى فريقين متعاركين بالأيدي واللكمات.

فتدشين الاتجاهات الحديثة هنا ينبغي أن يبدأ بإبراز الأصل الروسي لها، كبذلك باسم الله الرحمن الرحيم قبل تلاوة السورة. ثم أفضل بعد ذلك ما أحببت. . . في حدود القانون وقد تلت الاهتمام بسترافينسكي خطوات ذات شأن، وبالبيات (معظمها من فصل واحد) فيها جرأة وتجديد، خاصة تلك التي لا تقوم على قصة، وإنما على جو مستوحى من موسيقى كبار موسيقيي القرن الماضي. فإن كانت المحاولة لا تزال باهتة وعلى هامش الباليات الكلاسيكية الجلييلة، فقد تركت أثرها العميق في المذوق الفني الروسي، وخلفت بكرة لا شك عدي في أنه من المقدر لها أن تست

أمسية في موسكو

همست قائلاً لزوجتي:

— أنا رهن إشارتك متى شئت الانصراف.

ثم أغمضت عيني.

وأنا صوت الممثل من فوق خشبة المسرح يخاطب الجمهور.

— غير أنني، للأسف الشديد، أيتها الرفاق السوفييت — أعيش في

دولة تهيمن على شؤونها عصابة من الماشيست. فكزت طويلاً: هل من

الخير، هل من العدل أن أسلم اختراعي لحكومة عاشية؟ أسلمه إليها عالمياً أنها

لن تستخدمه إلا لصرب الطبقة الكادحة؟ هه؟ ما رأيكم؟

صاح الجمهور:

— لا لا!

— وهذا هو رأيي أنا أيضاً. ولكن، ما العمل إذن؟ قلت لنفسي: ربما

كان الأنسب أن أرمي اختراعي إليكم، إلى الاتحاد السوفيتي، فمن الاتحاد

السوفيتي وحده يمكن استخدام اختراعي لصالح عمال العالم كله. اليس

كذلك يا رفاق؟

— هو ذاك! هو ذاك! هكذا صاح الجمهور رداً عليه.

قالت زوجتي:

— هلم بنا!

أيرفبتي. عن إذلك. بروستيتي لا مؤاحلة! بينما شعرت بأنظار
الجالسين في الصف ترمقا في دهشة أثناء انسحابنا في الظلام.

وسالتنا العاملة في مكان حفظ المعاطف مبتسمة:

— لم تعجبكما المسرحية؟

— لا.

قالت كالمستهزئة:

— عندكما في بلدكما ما هو غير منها؟

عند الباب الرئيسي للمسرح وقفت امرأة رومية في الخمسين تسند رأسها
الملح بشال قديم رث إلى عمود، منمضة العينين: تردد بصوت لا تزال نبرات
إلى اليوم ترن في أذني:

— كلك يا أوستالا! كلك يا خاتيش سبات! «كم أنا منعلة! كم أريد أن
أنام!»، ثم فتمحت عينها الحمراء كالدم ترمقنا في توسل
الكينا الحديدية:

كان لا يزال لدينا دحو ساعة قبل أن يحين موعد لقائنا بصديقنا الناقد
المسرحي شيبورين فيما يسمى هنا في موسكو بمقهى الفنانين اتجهنا سائرين
الهرسي في شارع أرباط صوب قمته حيث بدا لنا التمثال البرونزي المهييب
لجوحول، منتصب القامة، يتطلع إلى المستقبل في أمل، ويشع منه التفاؤل
والاطمئنان. هذا التمثال لم يكن دائماً منتصب القامة، ولا كان دائماً يشع
التفاؤل والاطمئنان. كان فيما مضى جالساً على كرسي ضخم، غارقاً في أفكار
سرداوية وقد خارت ذهنه في صلوه، وبدا صاحبه الذي انتابه في أحسن حياته
من الكآبة ما أشرف به على الجون، مقهوراً محزوناً. وقد قال تمثال هذا
الكاتب الفذ المريض جالساً حتى أنهضته السلطات السوفيتية، واستبدلت
بالكرسي عصا رشيقة، وجاء التمثال الجديد يفيض صحة وقوة وتفاؤلاً، فكأنما
هو إعلان ناطق عن الكينا الحديدية!

ومضينا في سيرنا حتى شارع جوركي، حتى إذا بلغنا ميدان ماياكوفسكي، طالعا اعلان آخر عن اللبس المستر في صورة تمثال بالع الضخامة للشاعر فلاديمير ماياكوفسكي الذي انتحر عام ١٩٣٠ نتيجة حال من القسوط إزاء الاتجاهات الستالينية التي بدأت وقتذاك تكشف القناع عن وجهها الحقيقي. وقد أعلل بعي الإداعة والصحف السوفييتية لشاعر الثورة أنه قد انتحر، واكتفى بالقول أنه مات عن سبعة وثلاثين عاماً. ومن يشاهد تمثاله في قلب العاصمة لا يمكن أن تخطر بباله أن مثل هذا الشاب القوي المتحمس قد تمر برأسه البرونزي فكرة سوداء.

التفاؤل هنا ليس قانون اليوم فحسب، وإنما هو قانون ذو أثر رجعي . . .
تفاؤل إجباري ذو أثر رجعي .

البطل الايجابي:

القت الخادمة بالزجاجات والأكواب على مائدتنا بالمقهى وعلى وجهها علامات الضيق والتأفف شأن سائر النذل هنا. وعندما سألتها الناقد شيورين عن سبب تأخرها في إحضار الطلب، أجابت في قحة وهي تنصرف:

— يمكنك التقدم بشكوى إلى إدارة المقهى إن شئت:

قالت له زوجتي ضاحكة:

— مسكين من يعتمد على مسرحياتكم ورواياتكم وأفلامكم في تقييمه للحياة السوفييتية. لماذا لا يظهرون مثل هذه الخادمة على حشبة المسرح؟ أراهنك أن جمهوركم سيكون ممناً للغاية إن فعلوا

قال شيورين:

— بدأنا نفعل ذلك يا سيدي. . . قد بدأنا بالفعل. . . بل أن هناك فيلماً يجري تصويره الآن عن مشكلة الخدمة في المطاعم بالذات. هل شاهدت «قصة من إيركوتسك» الأريوزوف؟

أجابت زوجتي :

— نعم . مسيئة .

— سبب بطلها الإيجابي ؟

— سبب بطلها الإيجابي .

سألته في حرقه :

— خبرني . ما هو الصبط هذا البطل الإيجابي الذي نصر مؤتمرات

الحزب واتحادات الكتاب والمثقفين على التوضيح بإبرازه في الفنون السوفيتية ؟

قال وكأنما يسمع درهماً :

— هو من وجهة نظر الحزب والدولة : ذلك المواطن الصالح الذي يكرس

حياته في حماس وإخلاص لواء الشيوعية ، يقبل قرارات الحزب والحكومة

ويتبعها ، يمتنع عن القيام بأي نشاط معاد للمجتمع ، لا يمارس شعائر الدين

ولا يقبل مضمونه ، ينظر إلى لجنة أمن الدولة باعتبارها منظمة عطلوف ترضى

مصالح الأمة ، يحضر المناقشات والمحاكمات بصمت منتظمة كي يوسع معلوماته

عن الشؤون السوفيتية والمشكلات الدولية ، ويصوت في حماس في جانب

المرشح الواحد في دائرته الانتخابية ، مع إيمانه بأن هذا الأسلوب هو حير

الأساليب الديمقراطية .

— باختصار ، شخصية وهمية .

— قل بادرة .

— ولكن ، ألا ترى ما يمكن أن يؤدي إليه التركيز على هذه الصورة من

إرهاق النفوس المواطنين الذين سيجدون أنفسهم يومياً يخرقون هذا القنون غير

المكتوب ؟ ألا ترون الخطر من جراء ذلك الارتواج في حياة المواطن

السوفيتي ، وعواقب الاستخفاف والاستهتار اللذين سينجمان حتماً عن شعوره

بالذنب وإدراكه التناقض بين حياته الداخلية العميقة الحقيقية وبين الواجهة

الخارجية التي يتمثلها في علاقاته الاجتماعية ؟

صاح شيورين

— والذين؟ ما رأيك؟ والمثل العليا أياً كانت؟ ألا تؤدي إلى نفس النتائج؟

— قل ما شئت، غير أنني قد طعت بأكثر من نصف بلاد العالم، فلم أجد من أهدأ أقرب إلى شخصية دكتور جيكل - مستر هايد من المواطن السوفييتي العادي.

صمت شيورين مدة طويلة يفكر. أشعل سيجارة وشرب كأس الفودكا دفعة واحدة، ثم بدأ يقول:

— أريد أن أنبهك إلى أمر لا اعتقد أنك قد تنهت إليه من قبل.

— فاشرح إذن.

— مع مقفلة سياسية لا بد منها؟

— كلي آذان.

الدفاع.

قال شيورين:

في ظل نظام كالظام السوفييتي، نشأ الحاجة إلى تعبئة طاقات المجتمع وتوجيهها وجهة الأهداف التي رسمها الحرب. هذه الحاجة تتطلب خلق جماعة من الصموة تسمى تنمية الأيديولوجيا وتطبيقها وفق الظروف والاحتياجات المتغيرة، واتخاذ القرارات المتعلقة بالمجتمع والاقتصاد.

— جميل.

— وهنا يجب افتراض أن هذه الصموة، أو قل الحزب، يمكنها الوصول إلى القرارات المطلوبة على ضوء الشهادات والبيانات والمعلومات المتوفرة، وتأتي هذه القرارات محققة للصالح العام والوفاء الاجتماعي. وحيث أنك لن تجد في النظام السوفييتي تمييزاً بين الصالح العام وبين صالح الفرد أو الجماعات، قد اختصت منه تماماً كافة مظاهر الصراع الطبقي، فليست لديها

تلك الحاجة الملحومة في الدول الغربية إلى تعدد الأحزاب في سبيل ضمان القدرة على المساومة وتحقيق التوازن بين المصالح.

إن تصارب المصالح من السمات اللصيقة بالمجتمع الرأسمالي ولهذا سنجد فيه دوماً تلك الأحزاب التي تمثل أصحاب العمل والعمال والبرارعين وغيرهم. سنجد المحامي ووكيل النيابة أما هنا فقاض عادل فرد، يحصل شهادة أناس هادئين غير متحيزين لا يهمهم غير تحقيق العدالة، ثم يصدر الحكم بما هو خير للمجتمع.

والمسرح عندنا في الاتحاد السوفيتي تطبيق لهذا المدأ، كما أن المسرح في الدول الرأسمالية تطبيق لمبدأ تعدد الأحزاب. هي مسرحهم - أعني في خير حالاته بطبيعة الحال - يتخذ الوضع السليم أو الوضع الأمثل نتيجة لتصارع قوى متطرفة، جلها على خطأ، وقلما تثر في طيات العمل المهي عندهم على أية إشارة إلى ما يراه صاحبه حقاً، إلى ذلك الوسط العدل، قل مثلاً بين دون كيشوته وسانتشو بانشا. فإن تضمن العمل مثل هذه الإشارة، وصفه نقادهم بالسذاجة والفجاجة.

أما عندنا، فإن الوضع الأمثل معروف، والأهداف القريبة والبعيدة واضحة وصوح الشمس فلم التسكع؟ ولم التظاهر بالحيرة، والانحياز بالضياع؟. لهذا فإنه عندما كتب مؤرخاً شاعراً ووبرت روجد يستغنيكي قصيدة يتساءل فيها لماذا يعيش ويقول أن هذا هو السؤال الصحيح الوحيد، ردّ عليه أحد العمال في صحيفة الايزفستيا موبخاً بأن الجميع في بلادنا يعملون جيداً لماذا يعيشون: من أجل بناء الشيوعية.

جبرني إذن: كيف يمكن لأي كاتب مسرحي يدرك إدراك اليقين حقيقة كل شيء، أن يتجنب تصوير البطل الإيجابي في مسرحياته؟
ثم أنظر بعد ذلك إلى الآثار الوخيمة لتمثيل الشر على خشبة المسرح

أتعلم أنه في مسارح كوريا الشمالية لا يسمح بأن تظهر على خشبتها شخصيات شريرة (كالأمريكيين واليابانيين مثلاً)، ويكتفى بالإشارة إليهم في الحديث، ويعرض ما يمثل جشهم بعد انتصار الكوريين عليهم؟ لم أعلم أنه في الصين - على ما سمعت - لا يصنف الجمهور للممثل القائم بدور شخصية شريرة مهم كانت إجابة الممثل وإتقانه لدوره؟ فإن شئت ألا نأخذ برأي شيوعي، فاسمع ما يقوله أفلاطون في جمهوريته.

يقول أفلاطون:

إنه من الواجب أن يقتصر الشعراء على تصوير الطبيب الجميل وحده في أعمالهم. فإن صوروا غيره طردناهم من دولتنا كذلك غيرهم من الفنانين. علينا أن نحظر عليهم عرض صور للرذيلة والدناء والمجور، فإن فعلوا معاهم من ممارسة فهم. فهم يفسدون أنوار المواطنين وأخلاقهم يسردهم حجاج الأشرار وميرراتهم لأعمالهم، خاصة متى التزم العان الحياد والانصاف، كما فعل هوميروس في إلياذته، أو أبرز بعض النواحي الجذابة من شخصية الشرير. ذاك راعي، فهات ما عنك ولكن لشرب أولاً كأساً أخرى. . قل، في صحة أفلاطون.

قلت: في العالم السفلي يلدن واحد أحدا وشرباً يخب أفلاطون.

— أبداً في الرد إذن؟

— تفضل

— مع مقدمة سياسية لا بد منها؟

— كلني آذان.

الهجوم:

قلت:

ليس صحيحاً ما ذهبت إليه من أن النظام عندكم في الاتحاد السوفيتي قد

امتصاص كافة أوجه التصارب في المصالح . فالمعروف أنه منذ بداية النظام الشيوعي كانت ثمة صدامات عيفة -خطيرة بين مصالح طوائف معينة، خاصة بين المدينة والريف - ولا يمكن أن نصف الصراع السياسي بأنه أهون شأنًا، أو أقل حدة وخطراً، لمجرد أنه يدور وراء أبواب مغلقة . صحيح أنه ليست لدينا في الأونة الراهنة معلومة دقيقة وافية عن الخلافات القائمة، ولكن الواضح أن تعقد الاقتصاد السوفييتي واحتياجات المجتمع يريد بالضرورة من أوجه الخلاف والتوتر، كالاخلاف بين جانتب من الانتيليجتريا والحزب، والمخلاف حول مشكلة الأولوية في الاستثمارات في مختلف قطاعات الصناعة، خاصة بصد السلع الاستهلاكية والسلع الإنتاجية . فإن كانت قرارات الحرب تحدد في اجتماعات خاصة، فهل هناك ما يضمن أنه ليست لدى أعضاء الحرب من المصالح الخاصة ما يمكن تحيل سمعهم من أجل تحقيقها على حساب مصالح أخرى؟ ومن ثم يصبح التطهير هو وسيلة العلاج الوحيد في النظام السوفييتي إزاء عدم توفر المناقشات العامة والوسائل المتشعبة للاختيار الشعبي؟

الصراع إذن قائم، والمتناقضات - وإن اختلفت عن متناقضات الماضي - متوفرة . ولن يستطيع كاتب ككاتيكم المرحي نيكولاي فيرنا «المائر بجائزة الأدب» أن يقنني بما يسمى بنظرية انعدام الصراع وقوله إنه حيث أن الشخصيات السلبية في المجتمع السوفييتي قد بذلت تسلاش، فإن الصراع الوحيد الممكن تمثيله على المسرح الآن هو الصراع بين الحسن والأحسن . . ما هذا؟! دعاية يقصد بها الخارج؟ وماذا عما يملأ جرائدكم ومجلاتكم اليوم من الشكوى من الرشوة، والاختلاس، والبيروقراطية، والسوق السوداء، ومشاعر الاستهتار والاستخفاف لدى الشباب، وعدم احترام الجيل الجديد للجيل القديم؟

ماذا يسمى غيرنا هذا : الحسن أم الأحسن؟!

صدقني : الدعاية إنما تهزم نفسها في النهاية . فالجمهور يغضب ويشود

حالما يكتشف الحقيقة . وبقي أن الوقت سيحين حين يتلف جمهوركم الأساطل الإيجابيين على مسرحكم بالطماطم والبيض، هؤلاء الأساطل الذين لا يصادفهم في الحياة اليومية السوفيتية قط، الذين هم ساذج للعصيلة زاهية الألوان، يحرون الحب كما لا يحجره أحد، وينظمون عواطفهم على صورة توجيهات الحرب والكومسومول، ولا يشربون الحمر إلا قبيل إسدال الستار، في الأعراس أو في الاحتمالات بلاء مد أو إنشاء مصنع للمحسسات الكيميائية، كما في مسرحيات سوفرونوف.

المجال الوحيد للأبطال الإيجابيين في رأيي هو الحياة لا المسرح ولا غيره من الفنون . والنتيجة الحتمية لمثل هذه المسرحيات التي تصورهم، إما أن يرى الجمهور كذبها وزيفها فيحرق احتقاره لمؤلفيها ومباركيها، أو أن يصدقها فيزداد شعور الفرد منه بمسألة شأنه، وملئ حروجه على القاسون وبعدة عن الطريق السوي . فهو يعلم أنه يشرب الحمر في مناسبات غير إتمام بناء مصنع المحسسات الكيميائية، وأنه أحياناً يشتهي سائناً اشتهاً لا يقره مؤتمر الحزب . . وتكون النتيجة أنه يعض في الشراب، وربما يفتصب سائناً اغتصاباً . . بسبب البطل الإيجابي . .

الغنتام

لم تلبث أصواء المقهى في الداخل إن أطفئت ثم أحييت إضاءتها إيذاناً بحلول وقت إغلاقه . وطاف البدل بالموالد لقبض الحساب وإدلس الرواد معاطفهم وخرجوا إلى الطريق ووقفت وروجني بصاح شيبورين أمام المقهى، إذا بصوت يصح من الجانب الآخر للطريق

— أيها السادة الصحفيون! أيها السادة المانسون! استمعوا إلي . . أرجوكم! استمعوا إلي . . أيها السادة دقيقتان فحسب!

كان رجلاً مخموراً في نحو الأربعين، بديناً قصيراً أصلع الرأس .
— أنا مهتم في مصنع «س» للمنسوجات الصوفية . توصلت إلى

اختراع من شأنه خفض نفقات الإنتاج في المصنع . عرضه على المدير فقال إنه سيقتضي تعديلاً في الآلات، وإن هذا التعديل سيستغرق زمناً يتباطأ خلاله الإنتاج، ويعجزه عن تحقيق متطلبات الخطة، ويعرضه للمسؤولية والمؤاخذة . تخطينه وبعث باختراعي ويشكواي إلى الجهات العليا والنتيجة أيها السادة؟ والنتيجة؟ النتيجة أن مدير المصنع . . .

والنتيجة، فإذا برجلين يقتربان منه وهما يتعثران تعثر السكارى في سيرهما، وإن كانت بحطواتهما مرعة غير مألوفة من السكارى وإذا بلغا مكان المهندس وصع كل منهما خرواً حول كتفه وجرحه معهما وهما يهتبان أعبية . عبر أنه بعد أن سار معهما عدة خطوات، أحس جسمه فجأة إلى الأمام وعاد يجري لاهثاً باتجاه ميدان قريب مزدحم بالمارة . هنا تخطى الرجلان عن تظاهريهما بالسكر، وأقفا يعلوان وراءه حتى اختفى قلائتهم وسط الزحام .
ومكثنا برهة صامتين . . ثم عدت إلى مصافحة شيبورين مودعاً .

عن حرية الفكر

بقلم : حسين أحمد أمين

حين نتحدث عن حرية الفكر، فإنما يعي حرية التعبير عن الفكر. فالفكر حرٌّ في ظل الأنظمة الديمقراطية والامتدادية على سواء ؛ بمعنى أنه ليس بوسع أحد أن يمنع أحداً من أن يفكر كما يهوى . . غير أنه مضطر - في ظل الاستبداد - إلى إخفاء أفكاره متى كانت هذه الأفكار غير مرضي عنها .

غير أنه حتى حرية التفكير هذه ليست بدون حدود :

فهي محدودة أولاً بحدود تجارب الفرد وثقافته، وطبيعة تكوينه وشخصيته، وحدود قوة محيّلته وقريحته، وما أحده عن أسلافه وبيئته

وهي محدودة أيضاً متى اضطر لسبب ما، كالضعف أو الكسل العقلي، أو قوة التقاليد، أو النشأة الأولى والتعليم الذي تلقاه، إلى تبني آراء الآخرين، حتى لو خال أنها آراؤه، وأنه اقتنع بها أو توصّل إليها بحُرِّ إرادته .

بل إن معظم المعارف والمعتقدات لدى معظم الناس هي من هذا النوع الثاني : معارف ومعتقدات قد أتخذوها دون تمحيص عن آبائهم ومدرّسيهم، ومعارفهم وأصدقائهم وأرواحهم، وعن الكتب والصحف التي يقرأونها . ولو أنك سألت امرأً عن سبب اعتقاده شيئاً ما، لربما أجابك بقوله : «قد ذكره فلانٌ وهو حجة»، أو «هو وارد في كتاب كذا»، أو «إنه أمر معروف لدى الكافة»، أو «ذاك ما تعلّمته في المدرسة» . . وكلها إجابات تعي أن صاحبها قبل الرأي

أو المعلومة من آخرين، عن ثقة منه في حكمتهم أو في صدق معلوماتهم، دون أن يفكر في الأمر بنفسه ولنفسه، ودون أن يقلب فكره فيما سمع أو قرأ.

غير أنه من الواجب أيضاً أن يعترف بأن معارف المرء كانت ستصحي محدودة للغاية، لولا ضرورة ثقيله للكثير منها. كالمعارف الجغرافية والفلكية والتاريخية واللمعية وغيرها. من المصادر الموثوق فيها، دون التصدي لاختبار صحتها بنفسه. إذ من ذا الذي يوسعه أن يحقق بنفسه من صحة واقعة عبور هانيبال لجبال الألب، أو من أن قطر الشمس يبلغ ٨٦٥٤٠٠ ميل، أو يكتشف نفسه غناء السحر إلى تسمانيا للتأكد من وقوعها جنوب شرق القارة الأسترالية؟

الرأي والمعرفة :

بيد أن هذا القبول متاً لما يقوله الآخرون، يستوجب شرطاً أساسياً: هو ألا نقبل من المصادر أمراً هو غير قابل للإثبات وللتحقق منه فالطالب على ثقة من أنه لو طلب إلى أستاذه أن يرهن له عملياً على أن الحديد يتحد بالحرارة، أو أن الماء مكوّن من عنصرين هما الأكسجين والهيدروجين، لأجرى الأستاذ أمام بصره من التجارب ما هو كميل بإقناعه. ولو أنني شككت في أن فرنسا تقع في الشمال الغربي من مصر، لكان يوسعي أن أقنع إليها في طائرة أو سميعة توضّح لي بوضاحتها اتجاهي وأنا في طريقي إليها. هذا علاوة على أن مثل هذه المعلومات هي عادة مما لا تخفي رواها مصالِح وأعراض تدفع القائلين بها إلى الكذب.

وهنا نرى الأهمية القصوى للتمييز بين المعرفة والرأي. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية المرأة للانقطاع)، أو قاصرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السرطان أو الإيدز)، أو حتى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هي التي تدور حول الأرض). غير أنها دائماً في سبيل التطور والتقدم والتصحيح حتى تتحول ثابتة مُتّنة لا يختلف حولها اثنان. أما الرأي فغالباً ما يتأرجح بين الصحة والفساد، والتصديق والتكذيب،

وكثيراً ما يكون غير قابل لأن يجتمع عليه الناس، وعرضة لأن تتحكم فيه الأهواء والمصالح، وأن يكون موضع الجدل والنزاع، والخصومة والقمع، والإرهاب والقتال.

صحيح أن الجدل والبراع والإرهاب قد ثار أحياناً، في الماضي، حول بعض المعارف العلمية (كما في حالة نظرية جاليليو). غير أنه ليس أمراً نادراً الحدوث في التاريخ فحسب، بل والأرجح أن يكون قد انقضى اليوم إلى غير رجعة، بحيث بات الخلاف والخصومة الآن قاصرين على الآراء دون المعارف.

والعلوم والمعارف القطعية ليست في حاجة إلى شئ حملات صليبية لإدانة غير المصنفين للنتائج التي توصلت إليها. بل هي على استعداد كامل لتعديل هذه النتائج متى نجم عن تطور سبل البحث والترجمة ما يقضي بتصحيحها، ولا تعرف التزاماً غير الإلتزام تجاه كل ما في الكون بحسب استطلاع معايد. والعلماء واجدون في شاطهم لذة لا يُفسدُها إباء البعض أن يشترك في شاطهم، وليلتمهم لا بعكر من صفوها رفض جيرانهم الانضمام إليهم للاستمتاع بها. وهذا هو السبب في أنه في حين نجد من الساذج أن يصبر امرؤ على الاستماع إلى رأي سياسي أو اقتصادي أو ديني من شخص يحالفه، أو أن يعرض قصته عرضاً موضوعياً نقدياً هادئاً مجرداً عن الهوى، نرى العالم يطر إلى كافة الحقائق - عدا طرائق الإثبات والتحقيق المنطقية - على أنها قابلة للتمحيص والتصحيح، ويرى الشك مطلوباً ومرحباً به ومشجعاً عليه، بل ويزيد من لذة البحث.

ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير ههـ:

فتنحس إند حين نتحدث عن حرية الفكر إنما نعني عادةً حرية التعبير عن الرأي، لا حرية البحث عن المعارف العلمية والتصريح بها. ذلك أن حرية المرء في التمكنير في أي أمر شاء تغدو بعد حين غير كافية، بل وأحياناً مؤلمة

للمفكر نفسه، متى لم يُسمح له بالتعبير عن أفكاره للغير، ناهيك عن عدم جدواها بالنسبة لغيره إن لم تمتد الأفكار رأسه أو كما يقول نيتشه وقد عدا رادشت في سن الأربعين كالنحلة التي جمعت من العسل أكثر مما يسعها حملها، فبانت بحاجة إلى أيدي تمتد لتأخذ منه.

أصعب إلى ذلك أنه من الصعب للغاية على المرء أن يحفي أفكاره متى كانت مسيطرة عليه. فالشخص الذي يشك في صحة الآراء والتقاليد التي تحكم سلوك مواطنيه، من الصعب عليه - متى كان شديد الانفعال بصحة آرائه - أن يحفي مخالفتهم، ولا يفصح موقفه بسكوته حيناً، وبالكلمة المارصة حيناً، وبسلوكه ومواقفه بصفة عامة، بل وحتى بالابتسامة الهازئة الحقيقية، أو بالتأويب أو عبوس الوجه وازوراره. وقد ثبت علمياً أن الاضطراب إلى إخفاء الرأي يضرب بصحة مخفيه صرراً ليس بالهين. وقد فضل البعض - كسقراط وبرونو والسهوردي - مواجهة الموت على إخفاء الرأي. وهو ما يوضح مدى ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه.

ولكن، ما طبيعة هذه الآراء التي قد تطالب بحرية التعبير عنها؟

ذلك أن ثمة من الآراء ما تقضي المصلحة أو الضرورة أو الأدب أو السياسة أو غيرها بأن نخفيه، دون أن نرى في الأمر غضاضة أو بأساً، كالرأي يحبه الزوج عن زوجته طالباً لرصاها، أو الصديق عن صديقه خشية الغضب والجفاء، أو المضيف عن ضيفه من قبيل حسن الضيافة، أو الولد عن أبيه من قبيل الأدب، أو الطبيب عن المريض مراعاة لروحه المعنوية، أو الدبلوماسي عن المسؤولين الأجانب من قبيل الكياسة، أو الشخص عن عدوه من قبيل الحذر. كل هذا وغيره لا يدخل في اعتبار المطالب بحرية التعبير عن الرأي وإنما يدخل في اعتباره عادة تلك المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية التي يرى أن حرية التعبير بصلدها، وحرية مناقشتها، هما في صالح مجتمعه، بل وأحياناً في صالح البشرية جمعاء.

دواحي مناهضة حرية الفكر :

قد غدت حرية التعبير عن الرأي اليوم مقبولة ومسلماً بها في معظم البلدان المتحضرة غير أنها حرية لم تكتسب إلا في العصر الحديث، وبعد إراقة بحور من الدماء وكان لابد من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المدنية بأنها في صالح الإنسان لا العكس بل كان لابد من انقضاء أمد طويل قبل أن تحط فكرة حرية الرأي نفسها في أذهان الناس... شمة من المجتمعات ما عرفت حرية التعبير عن الرأي قبل أن يطرأ سألها أنه يتمتع بها، (كالإغريق والرومان في بداية دولتيهما، والعرب في الشطر الأعظم من جاهليتهم)، وقبل أن يعي أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمنعه. وحسب سماع يزدانبحث يرد على الخليفة المأمون الذي طلب منه أن يعتنق الإسلام بقوله «نصيبحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، ولكنك لست ممن يجبر الناس على ترك مذهبهم»، لا نستطيع أن نقطع من رده بأن يؤمن بحق كل امرئ في التعبير عن رأيه، أو يحق في اختيار ما يحلوه من المذاهب.

فمرور الزمن الطويل كان لازماً إذن حتى تثبت في الأذهان فكرة هذا الحق. وهي فكرة تستلزم توفر أمور ثلاثة، الأول إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية؛ والثاني: شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من عاليته العظمى بالقبول؛ والثالث: نشوء مصالح لدى طبقات معينة في المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة

وبالتالي يصحح في مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التي كانت - أو لا تزال - تعارض حرية الفكر، وتناهض الآراء الجديدة، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية:

أولها أن عقل الإنسان العادي هو طبيعته كسول، وأفكاره يقبلها عادة من البيئة المحيطة به دون مناقشة. فهو يعارض غريزياً كل ما من شأنه أن

يحلحل النظام الثابت في عالمه المألوف . والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره، وهو أمر شاق. ومن ثم فإن الفكرة الجديدة تندل شربة حبيبة لمجرد أنها مرهقة، ويعصل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المسندة إلى سلطان كيسة أو كتاب مقلد أو رأي عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق سلطة أو بعد

وثانيها: ذلك الخوف من أن تؤدي الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع واسمه، بالظر إلى ما تعنيه من ضرورة إدخال التعبير والتعديل على النظم السائدة فيه . وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صالح الدولة في الاستقرار الثابت الجامد وفي المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها . ولذا صاروا يرون الشخص خطراً متى شرع في التساؤل عن حكمة المبادئ الشائعة، أو التشكيك في التقاليد

وثالثها: أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية من المجتمع ، كتهديد مبادئ الثورة العرسية للطبقة الأرستوقراطية، والماركسية للطبقة البرجوازية، والعلمانية لرجال الدين، وهي طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم، وبالأفكار التي يستند إليها هذا النظام . ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح . والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لا يقوم على أساس علمي، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية، وبالتالي فقد كانت القوة تحمي دائماً من هجمات وانتقادات أفراد يصرون في عناد على الاحتكام إلى العقل والملاحظ بوجه عام - وكما سبق أن ألمحنا - أنه ما من شخص يفصب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة للتحصيل والإثبات، غير أنه يثور ويعصب متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علمياً . فإن أصغر الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخرتنا أو شعفتنا . أما إن شك في وجود الملائكة أو في خلود

الروح، فإنه يشير غصب الناس وكراهيتهم وبغمتهم، وقد يُحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكّه هذا.

المقلّاتيون وأعداؤهم:

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميداناً شاسعاً من المعتقدات التي فرصت السلطات على الناس واجب قبولها، وحذرتهم من الحوص في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها. غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكيمية أو القيود المعروضة على حريته. وتأكيد العقل لحقه المطلق في النظر في كافة الأمور هو ما يعرف بالعقلانية. وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع الحريز بين العقل والقوى المعادية له، لا سيّما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة.

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقاً تأكيد سلطان العقل، كانوا دوماً - وقد يطلون لأمد طويل - أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعي به الجدل. أما السلطات فقد لجأت في حربها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي. وقد لجأت أحياناً إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل، غير أنها كانت دائماً في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريئة مهزومة، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين. والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هو أن حمايتها - وهم بشر - لم يستطيعوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والمحض العقلي، مما أدى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم هم، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات

الشريعة، والتي لا يمكن إثباتها أو التأكيد من صحتها، كما لا يمكن إثبات خطئها. وفي الرد على ذلك نقول: إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتراضات التي لا يمكن إثبات حطئها، والتي يمكن لأي شخص أبه، أو متدفع، أو سهل الاختراع، أن يقبلها ويعتقها غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جدية بالتصديق ما لم يثبت كذبها. فإن كان بعضها فقط أهلاً لأن يصدق، فأي سلطان سوى سلطان العقل له أن يميز بين ما هو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق، أحسن بأن الكثير من المعتقدات التي آرتها السلطة في الماضي ثبت على مر الأيام بطلانها ومُحررت. . . والحلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق المكلِّب بل على عاتق المصدق. فلو أنه قيل لك إن الفصاء الحارجي كوكباً يسكنه جنس من الحمير، يتحدث بلسان عربي ميسر، ويقضي يومه في ساقشة آراء ابن سينا وابن رشد، لما كان بوسعك أن تثبت كذب ما يقال لك. غير أنك لست مطالباً بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الرعم. ومع ذلك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية، وأدعتها الإذاعة والتلفزيون صراحاً ومساءً، وبأدى بها قوم من أسطح المنازل، وعرسها الآباء والمعلمون في دهنه منذ طفولته، وأكدها له فتوة أناس يؤقروهم ويحترمهم. ونحن نعلم من يقين قوة تأثير التكرار في ثقة (كما في الإعلانات)، وفنرة هذا التكرار على تثبيت الآراء والمقائد في النفوس.

من صاحب الحق؟

ولاشك في أن قمع الآراء الجديدة كثيراً ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه في المجتمعات الشرية. وقد كان هذا القمع يشدد دائماً إلى حجة أن الآراء العاصلة ليست أحسن صبراً من الأعمال الإجرامية، وأنه من مسؤولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسؤوليتهم مقاومة تلك الرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصلد تقييم الآراء،

ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامي والطولي، وبين ما هو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية وكثيراً ما حدث في التاريخ أن أدان حكام رأياً ثم اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة الفيصري بقولها الثاني للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة ليس بعدها للأراء المناهضة للشيوعية، كل مدعوى أن آراء حصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لأرائه بمرور الوقت. فالرأي الذي أؤمسه اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات، قد أغتره بعد عام أو عامين وأرى حطله وفساده، ثم قد أنتقل من هذا الرأي الثاني في مستقبل أيامي إلى ثالث فرائع. ففي أية مرحلة إحد من تلك المراحل من العمر يمكنني أن أقول في ثقة نائي على حق؟ وقد سبق ليجموند فرويد أن عرف الآراء بأنها «اعتقاد المرء بصحة شيء ما للمجرد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحاً»، وعرف الشاعر روبرت جريفر الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الذي بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة، وغيرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد وُلد في بلد غير بلده، وبين قوم غير قومه، لوصف العقيدة التي يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأعلية العظمى في مجتمع معين هي الحكم في مضمارة صحة الرأي، هو الآخر لاحتجاج مردود عليه. فقد تخطى الأعلية في اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حق للبشرية أن تحمد صوته، تماماً كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يحمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حد ذاته، وعلى حدة تعبير جون ستوارت ميل، «يضرب بالجنس البشري» بحاصره ومستقله، كما يضرب بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد سليماً، لحرم الناس بقمه من فرصة تصحيح حطتهم، ولو كان رأيه باطلاً، لحرموا من فضل يعوق فضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى

لو كانت عقيدة الأعلى هي الحق المطلق، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجزئها من أسسها العقلانية، ويحجب الأساليب التي أحالتها من رأي إلى معرفة قطعية.



وختاماً فإن تأكيد حق كل إنسان في حرية التعبير عن رأيه، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية، ولا إبقاء الآراء دوماً محلاً للشك والجدل. بالمعنى، لقد كان من أفعال حرية التعبير عن الرأي على البشرية أن رادت (ولا تزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التي لم تعد موضعاً للشك والخلاف، أو هي على الأقل ضيقت من حدود الشك واحتمال الخلاف. إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الصمير الشرقي، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه في الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التي لم تعد تثار الشكوك حولها. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتحت للناس فرصة الطعن في المعتقدات السائدة، والحق في التعبير عن آرائهم المحاللة لفكر الغالبية في مجتمعاتهم، ولولا انتصار دعوى أنه حير امتحان الحقيقة هو قدرة الفكر على أن تلقى القبول في ظل التنافس في السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغاً يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأي أو ذاك بالصحة أو الطلان

حسين أحمد أمين.

كتب أخرى للمؤلف

الكتاب الحائز على جائزة أحسن كتاب
في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤
دليل المسلم الحزين
(الطبعة الثالثة - مكتبة مديبولي)

قالوا عنه :

● من أعجب ما قرأت من كتب إسلامية ، كتاب يشهد الذهن ، في صياغة
بالغة اللمعة والسلاسة .

أحمد بهاء الدين (صحيفة الأهرام)

○ يتجه مباشرة إلى قلب المشكلة بوضوح وقوة .

أنيس منصور (مجلة أكتوبر)

● هو أهم كتاب ديني قرأته خلال عام ١٩٨٣ .

فتحي رضوان (مجلة الهلال)

● كتاب حطير ومهم ، يتكلم بدرجة عالية من الصلف والمعرفة
علاء الدين (مجلة صباح الخير)

● صوت جاء لي مرحلة التدهور والتراجع والشتات ليقف على أرض ثابتة من
التراث والمعرفة ، يتكلم بأكثر قدر ممكن من الموضوعية والعلم عن
الإسلام المطلوب لزماننا هذا ، وليكمل المشوار الذي بدأه الشيخ محمد
عليه .

يوسف القعيد (مجلة الهلال)

- عرص رائع يستحلم أدق أساليب النقد التاريخي .
ب. فاتيكيوتيس (كتاب «الإسلام والدولة»)
- كتاب جدير بالقراءة والاهتمام . خرج عن نطاق الكتابة الدينية التقليدية إلى افلاق تحمل سمات الحداثة والاستنارة . وهو دراسة كبيرة مجتهدة ، شائقة ذكية مشكورة ، تستحق جائزة أحسن كتاب صدر في عام ١٩٨٣ التي حصل عليها من معرض القاهرة الدولي للكتاب .
مصطفى بهجت بدوي (مجلة عالم الكتاب)
- يكتب بلغة نهز السكون القاتل ، وي طرح أتياء جديدة لم نتعودها ، ويمتج باب الاجتهاد مرة أخرى .
يسرى حسين (صحيفة العرب اللندنية)
- يطرق عقولنا بمطرقة صلبة .
محمد نور فرحات (مجلة الأهرام الاقتصادي)
- أسلوب غير تقليدي ، وجهد كبير ، ويحث عميق وذيق في قضايا حيوية وأساسية من مفكر إسلامي كبير .
السيد حجازي (صحيفة الأنباء الكويتية)
- جرأة انتقدها الإسلام منذ عصر الملهاة الأوائل . والتجريد الذي يضيفه حسين أمين على الأصول الدينية حالاً عنها كل الشوائب التي ألتمت بها منذ غابر الأزمان يجعله من تلاميذ مدرسة المصلحين الذين مروا في فترات تاريخية متعاقبة بدءاً بأحمد بن حنبل وابن تيمية ومروراً بمحمد بن عبد الوهاب وانتهاءً بالشيف محمد حبله .
أحمد الدعيح (كتاب «أين الطريق؟»)
- يتمحور حول موضوع شائك مصيري ، ويعالج مختلف القضايا الفكرية الدينية المطروحة حالياً بموضوعية وبروح علمية ينذر أن نجدها في أغلب

الكتب المؤلفة حديثاً حول هذا الموضوع الخصب الثري.. وقد حاز الكتاب على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٨٤. وربما كان هذا دليلاً قاطعاً على أهميته البالغة في وقتنا الحاضر بسبب القيمة الصخمة لموضوعاته وثيقة الصلة بواقعنا وأوضاعنا الراهنة»

عمر أورتيلان

(صحيفة والمساءة الجزائرية)

حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية (الطبعة الثانية - مكتبة مذبولي)

قالوا عنه:

● كتاب فذ للكاتب الناصر والمثير الأستاذ حسين أحمد أمين الذي أفرغت كتاباته قوماً وأسعدت قوماً وأهمت آخرين . . إنه يصوب بمعول كبير يحمله ساعد شديد في موروثات عزيزة على المسلمين والعرب، غير ملق بالآل لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجريء.

فتحى رضوان.

● وصلت إلى افتتاح بأن حسين أمين هو خير ما في مصر اليوم، وصوب فكر، وروعة قلم، وشجاعة اتجه.

ب. فاتيكيونيس

● التحليل الرائع والشجاعة الفائقة هما السمتان الغالبتان على كتابات حسين أمين، وهما سمتان طالما أثارتا إعجابي.

نورمان دانييل

● حسين أمين ظاهرة فكرية بكل المقاييس، يملك قدرة نادرة على أن يخط نفسه مساراً منعزلاً، ويعيد منحى مدرسة التجديد الإسلامي للصعود مرة أخرى.

صلاح عيسى

● رؤية عصرية متطورة لبعض القضايا الإسلامية . ومهما كانت درجة الاختلاف مع اجتهادات المؤلف فإن شجاعته في طرحها تجعل من صدور هذا الكتاب حدثاً لا جدال حول أهميته . إنه يواصل سيره في الطريق الصعب الذي بدأ بكتابه المثير للجدل «دليل المسلم الحزين»

مجلة «المري» الكويتية

● فرصت شخصية حسين أمين نفسها بسرعة عظيمة باعتباره أحد القادة المعاصرين للفكر الإسلامي المستير.

لبليب كاردينال .

● قرأته بشغف بالغ ، فزادني قراءته إعجاباً بشجاعة مؤلفه وقوة قريحته
إيمانويل سيفان .

● يناقش ويشرح وي طرح عدة نقاط هي من صميم معضلات الإنسان المسلم
الووم .

صحيفة «المساء الجزائرية»

● كتابا «دليل المسلم الحزين» و «حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية»
للمسمر المصري حسين أحمد أمين هما أفضل ما ألفه المفكرون المسلمون
خلال العامين الماضيين . إنهما كتابان ممتازان يسمان بالشجاعة والوصوح
ودقة التحليل والثقافة الواسعة .

ب . فابكيونيس (كتاب «الإسلام والدولة»)

الإسلام في عالم متغير (الطبعة الأولى - مكتبة مدبولي)

قالوا عنه :

● «مما يهتأ المؤلف عليه تلك المقارنة التي عقدتها بين المواجهتين التاريخيتين بين العالم الإسلامي والمغرب، في زمن الحروب الصليبية ثم إبان الحملة الفرنسية على مصر. فهو إطار مفيد جداً للتحليل، ويدخل فيه كل مفهوم المدارك والاختلافات الحضارية، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على ما يحدث اليوم».

ب. ثاتيكوتيس

● في بيت أحمد أمين (دار الهلال)
«هو أهم كتاب صدر في عام ١٩٨٥».

د. سيد هويس

ويرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته باللغة الصراخية والعنف. وهو هنا يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت في كتبه الأخرى صفته كباحث ومفكر، وهي صفات اجتمعت عليه كما اجتمعت عند والده الكريم. . وهو يقدم لنا في كتابه هذا نموذجاً طيباً لأدب الاعتراف، وعملاً تربوياً هاماً يستطيع به أن ينفذ في صفوف المعلمين وغارمي القيم».

علاء الدين

«قطعة أدبية صغيرة ممتازة».

ب. ثاتيكوتيس

«هذا الكتاب الخلق بالإعجاب لا يحيي الماضي فحسب، بل وينقل إلى القاري كل نكهته ومذاقه».

إيمانويل سيفان

«إن نجاح وجودة هذا الكتاب يدفعنا دفعا إلى وضعه في مصاف كتاب «الأيام» لعله حسين».

فيليب كاردينال

● الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها (مكتبة النهضة المصرية).

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الأول (دار الشروق)

«جمعة ثقافية وممتعة ذهنية للقاري.. إنها زهور من حديقة التراث العربي القديمة. والحقيقة أن الكاتب أحسن اختيار أجمل القطوف والثمرات من أمهات الكتب».

محمود فوزي

● «كتاب قد يكون نسخة معاصرة (مع الاحتفاظ بكل نكهة التراث) من كتاب «الأهاني» لأبي الفرج. يعكس كل الدلائل العربي عبر قرون عديدة. ولو سلمت هذه الحكايات إلى شخص آخر لما خرجت بالانتقاء والتنظيم والبراعة التي خرجت بها. فحسب أمين لا يريح الغار بل إنه يجدو اللآلئ وينظمها بصورة فلة».

صحيفة «الوطن» الكويتية

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الثاني (دار الشروق).

● فضل الإسلام على الحضارة الغربية - مترجم عن مونتيجومري وات (دار الشروق).

● هو أفضل كتاب صدر بالعربية في بيروت خلال عام ١٩٨٣ ع.
مجلة «الحوادث» اللبنانية
● كتاب هام وجدير بالقراءة.

مجلة أكتوبر.

● معضلة الرجل الأبيض - مترجم عن لورد هويد أور (سلسلة الألف كتاب):
كتب بالاشتراك مع غيره:

● التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (اتحاد المحامين العرب).

● التراث وتحديات العصر (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت).

● L'Islam en Questions (دار برنار جراسيه - باريس).

● تكنولوجيا تنمية المجتمع العربي (المركز الإقليمي العربي للبحوث الاجتماعية - القاهرة).

نعت الطبع:

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الثالث (دار الشروق).

كتب معدة للنشر:

● مسرحية «الإمام»

● متنوعة

● مصابيح أقوال العرب.

● حوليات العالم الإسلامي.

● محمد.

المحتويات

| | |
|-----|--|
| ٥ | - في بيت أحمد أمين |
| ١٥٥ | - عن آفات الشهرة وحلاوة التجاع |
| ١٦٨ | - العمان، هل هو بالضرورة إنسان مريض؟ |
| ١٧٧ | - عريب، حارية المأمون |
| ٢١٢ | - التطرف الديني في الجزائر |
| ٢٢٩ | - التطرف الديني عند اليهود |
| ٢٤١ | - برونكولات حكماء المسلمين |
| ٢٥٩ | - خاطرات على ضفاف الراين |
| ٢٧٥ | - تاريخ الإسلام في روايات جرجي زيدان |
| ٢٨٥ | - لقاء مع الأستاذ محمود شاكر |
| ٢٩٧ | - البرابيل، مارد القرن الحادي والعشرين |
| ٣١٠ | - نزهة الأفتدة والنفوس، في معرفة أحوال الروس |
| ٣٢٥ | - بيلنسكي ورسائلته الشهيرة إلى جوجول |
| ٣٣٩ | - الشخصية اليهودية في الأدب السوفيتي |
| ٣٥١ | - رواسب الدين في تقديس لينين |
| ٣٦٣ | - حديث في الاقتصاد السوفيتي |
| ٣٨١ | - انطباعات متفرقة عن المسرح السوفيتي |
| ٣٩١ | - أسميات في مسرح البولشوي |
| ٤٠٥ | - أمسية في موسكو |
| ٤١٥ | - عن حرية الفكر |
| ٤٢١ | - كتب أخرى للمؤلف |



- ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢ - وهو نجل المؤرخ الإسلامي الكبير الدكتور أحمد أمين
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة عام ١٩٥٣، ثم درس الأدب الإنجليزي بجامعة لندن.
- عمل صحافياً، فمديراً بالإذاعة المصرية، فمديراً بالقسم العربي ببنية الإذاعة البريطانية.
- التحق بالسلوك الدبلوماسي المصري وعمل معلقاً عسكرياً ثانياً بالسفارة في أوتوا (كندا)، فسكرتيراً ثانياً بالسفارة في موسكو (الاتحاد السوفيتي)، فمستشاراً بالسفارة في لاجوس (نيجيريا)، فوزيراً مفوضاً بالسفارة في بون (ألمانيا الاتحادية)، فمفتشاً عاماً في ريو دي جانيرو (البرازيل)، ورفي إلى درجة سفير عام ١٩٨٧.
- يعمل حالياً سفيراً لمصر في الجزائر.
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشاراً عاماً لوزير الثقافة، وأمر للعمل نائباً لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- يجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية.
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين» على جائزة «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب» عام ١٩٨٤، وترجم إلى الفرنسية.
- كما أعدت له حكومة ألمانيا الاتحادية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت في مجلات «الثقافة» و«الرسالة» و«الأسبوع» و«المسرح» و«روز اليوسف» و«صباح الخير» و«الأهرام الاقتصادي» و«أكتوبر» و«المصور» و«العربي» و«الكويتية» و«الموصل» السعودية و«الموجة» القطرية، و«الغد» المصري، و«الأخبار» و«الجمهورية» و«الوطن» الكويتية. كما أقيمت له تمثيليات في إذاعة الشرق الأدنى والإذاعتين المصرية (البرنامج الثاني) والبريطانية (القسم العربي).
- متزوج وله ثلاث بنات.

تليجرام مكتبة غوامر، في بحر الكتب

MADBOULI BOOKS

مكتبة مذبول

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١